زكي مبارك

الموازنة بين الشعراء

الموازنة بين الشعراء

تأليف
دكتور زكي مبارك

هنــداوي

الموازنة بين الشعراء

زكي مبارك

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٣٦٢ ١

صدر هذا الكتاب عام ١٩٢٥.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

مقدمة الطبعة الثانية	٧
١- أهواء النقاد	٩
٢- عود إلى أهواء النقاد	١٧
٣- أنفس الشعراء	٢٣
٤- شعراء الأحزاب	٣١
٥- نفسية الناقد	٣٩
٦- الحاسة الفنية	٤٩
٧- خطر الإبهام والغموض	٥٩
٨- الصور الشعرية	٦٥
٩- أهمية الصور الشعرية	٧١
١٠- اختلاف الصور الشعرية	٨١
١١- الصور الشعرية في القرآن	٨٧
١٢- المعاني والأغراض	٩٧
١٣- الحصري وشوقي	١٠٧
١٤- البُحتري وشوقي	١١٩
١٥- بكاء الممالك عند البحتري وشوقي	١٢٩
١٦- حنين شوقي إلى مصر	١٣٧
١٧- بين البحتري وشوقي	١٤٧
١٨- الفصل بين البحتري وشوقي	١٥٥
١٩- البوصيري وشوقي	١٦٥

٢٠- بين البوصيري وشوقي والبارودي ١٧٣
٢١- أسلوب البارودي ١٨٥
٢٢- التخلص والاقتضاب ١٩٣
٢٣- المعجزات ٢٠١
٢٤- وصف القرآن ٢٠٩
٢٥- أبو نواس وابن دراج ٢١٩
٢٦- نفحة من الأدب الأندلسي ٢٢٩
٢٧- حياة ابن دراج ٢٤٣
٢٨- بين صبري ومطران ٢٥٥
٢٩- الموازنة بين النونيتين ٢٦٥
٣٠- بين البارودي وأبي نواس ٢٧٧
٣١- بين البارودي وأبي فراس ٢٨٣
٣٢- الموازنة بين الرائيتين ٢٩١
٣٣- بين أبي نواس وعبد الباقي إبراهيم ٣٠٥
٣٤- بين شوقي وابن زيدون ٣١٥
٣٥- الموازنة بين القصيدتين ٣٢٣
٣٦- معارضات أبي نواس ٣٤١
٣٧- بين أبي نواس وابن المعتز والخليع ٣٤٩
٣٨- أقطاب الموازين ٣٥٩

مقدمة الطبعة الثانية

بقلم محمد زكي عبد السلام مبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين.

أما بعد: فهذا كتاب «الموازنة بين الشعراء» أقدمه مرة ثانية إلى المنصفين من أهل الأدب والبيان، ولولا الشواغل لقدمت إليهم هذه الطبعة منذ سنين، فقد طوقني القراء بالجميل حين أنفدوا نسخ الطبعة الأولى في أقل من سنتين وحين دأبوا على استعجال الطبعة الثانية عددًا من السنين.

أقدم إلى القراء هذا الكتاب، وما أنكر أني به مفتون، فقد أنشأت فصوله، وأنا في غاية من عافية الذوق، وشباب القلب، وعنفوان الروح. فجاء مجدول الحقائق، مصقول الأضاليل، وفي الأدب الحق هدى وضلال وربما كان من الخير أن أنبه القارئ إلى أن فصول الطبعة الأولى أنشئت في ربيع سنة ١٩٢٥، وأن ما أضيف إلى هذه الطبعة — وهو نحو مئتي صفحة — أنشئ في ربيع سنة ١٩٣٦، فبين التليد والطريف من فصول هذا الكتاب عشر سنين، ولست أدري أي العنصرين أقوى وأجزل، وإن كنت أعلم علم اليقين أني كنت في العهدين من أحرص الناس على الحق والصدق، ومن أزهدهم في اللغو والفضول.

هذا كتابي أقدمه بيميني وأنت يا رباه — تباركت وتعاليت — تعلم أني خدمت به لغة القرآن. ولم يبق غيرك — يا رباه — من أنتظر منه حسن الجزاء.

﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللهِ نَصِيرًا﴾

الفصل الأول

أهواء النقاد

١

فطر الناس على حب المفاضلة بين الوسائل التي ترمي إلى غرض واحد، والموازنة بين الأنواع التي ترجع إلى أصل واحد، وقد ظهرت هذه الفطرة واضحة جلية حين طهر الشعر، وتبارى في قرضه الشعراء.

وليست الموازنة إلا ضربًا من ضروب النقد، يتميز بها الرديء من الجيد، وتظهر بها وجوه القوة والضعف في أساليب البيان: فهي تتطلب قوة في الأدب، وبصرًا بمناحي العرب في التعبير، ومن هنا كان القدماء يتحاكمون إلى النابغة تحت قبته الحمراء، في سوق عكاظ، إذ كان في نظرهم أقدر الشعراء على وزن الكلام.

وقد كلف الأدباء في مختلف العصور بالموازنة بين من ينبغون من الشعراء في عصر واحد: فوازنوا بين امرئ القيس، والنابغة، وزهير، والأعشى في الجاهلية، وبين جرير، والفرزدق، والأخطل في الدولة الأموية، وبين أبي نواس، ومسلم بن الوليد، وأبي العتاهية، وبين ابن المعتز وابن الرومي، وبين أبي تمام والبحتري في الدولة العباسية، وكذلك عقدت الموازنات بين من نبغوا بعد أولئك الفحول إلى العصر الذي نعيش فيه، والعهد قريب بما كتب في الموازنة بين شوقي وحافظ ومطران في الجرائد المصرية والسورية، ولا يزال الأدباء مختلفين في حكمهم على من تقدّمهم، أو عاصرهم من الشعراء.

ونريد أن نبين في هذه الفصول أغلاط النقاد الذين تصدوا قديمًا أو حديثًا للموازنة بين شاعرين: جمع بينهما عصر واحد، أو اشتركا في الإبانة عن غرض واحد، وأن نضع ميزانًا يعتمد عليه في وزن ما للشعراء من الحسنات والسيئات؛ ليستطيع المتأدب الفصل بين شاعرين اختلف من أجلهما الناس.

وسبيلنا إلى ذلك أن نحدد شخصية الناقد الذي يرشح نفسه للموازنة، وأن نميز الوحدة الأدبية التي يرجع إليها الناقد فيما يعني به الشعراء من تحرير المعاني، واختيار الألفاظ.

٢

يجب أن يصل من يتصدر للموازنة بين الشعراء إلى درجة عليا في فهم الأدب، وأن يصبح وله في النقد حاسة فنية تنأى به عما يفسد حكمه من الأهواء والأغراض التي تحمل القاصرين من طلاب الأدب على البعد عن جادة الصواب، حين يوازنون بين الشعراء والكتاب والخطباء. فقد نجد من الناس من يطرب للشعر؛ لا لأنه شعر؛ بل لأنه طرق موضوعًا يحبه، وكشف عن معنى تميل نفسه إليه، وقد لا يكون ما سمعه أو قرأه جميلًا من الوجهة الفنية، أفيعتبر هذا الإعجاب دليلًا على حسن ما استحسنه هذا الذي تشبعت نفسه بغرض خاص؟

٣

ومن هنا نستطيع غض النظر عن أحكام المتأدبين الذين يفضلون القديم مطلقًا على الجديد، بحيث يرون الجديد نوعًا من الهراء، أو يفضلون الجديد مطلقًا على القديم بحيث يرون القديم صورة من صور الجمود، وإنما نغض النظر عن أحكام هؤلاء؛ لأن التشيع للقديم أو الجديد صرفهم عن الاستعداد للحاسة الفنية التي تطرب للجيد الممتع من ثروة القدماء والمحدثين.

وقد تنبه لهذا عبد العزيز الجرجاني حين قال: وما أكثر ما نرى ونسمع عن حفاظ اللغة وجلة الرواة ممن يلهج بعيب المتأخرين، أن أحدهم ينشد البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختار، فإذا نسب لبعض أهل عصره وشعراء زمانه، كذب نفسه، ونقض قوله، ورأى تلك الغضاضة أهون محملًا، وأقل مرزأ من التسليم بفضيلة لمحدث، والإقرار بالإحسان لمولد، وحكي عن إسحاق الموصلي أنه قال: أنشدتُ الأصمعي:

هَلْ إِلَى نَظْرَةٍ إِلَيْك سَبيلُ فَيُبَلَّ الصَّدَى وَيُشْفَى الْغَلِيل

إِنَّ مَا قَلَّ مِنْك يَكْثُرُ عِنْدِي وَكَثِيرٌ مِمَّنْ تُحِبُّ الْقَلِيل

فقال: هذا والله الديباج الخسرواني! ولمن تنشدني؟ فقلت: إنهما لليلتهما. فقال: لا جرم، والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر!!

ومن أجل هذا جاز ما ابتدعه خلف الأحمر من الشعر باسم شعراء الجاهلية؛ لأن غرام الناس إذ ذاك بالقديم جعلهم يسبغون أكثر ما أضيف إلى القدماء من ألوان الكلام!!

٤

ونستطيع كذلك غض النظر عن الأحكام التي تتسم بسمة الغيرة على الجنس والدفاع عن النوع: كالموازنة التي كانت تعقدها السيدة سكينة بين الشعراء، وليس بصحيح ما ذكره أستاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدي في محاضراته بالجامعة المصرية: من أن السيدة سكينة كانت ترى فضل الشعر في الصدق، والرفق، وجميل الأحدوثة، استنادًا إلى الحديث الذي نقله صاحب الأغاني، فسيرى القارئ أن نقد السيدة سكينة متأثر بالعطف على المرأة، بلا نظر إلى قيمة الشعر من الوجهة الفنية.

وقد يخرج الشعر على التقاليد الاجتماعية والدينية، ولكنه يظل قيمًا في نظر الأديب الفنان.

وأنا أشرك القارئ في الحكم على ذلك الحديث. ذكر صاحب الأغاني أنه اجتمع في ضيافة السيدة سكينة جرير والفرزدق وجميل وكثِّير ونصيب، فمكثوا أيامًا، ثم أذنت لهم فدخلوا عليها، فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم، ثم أخرجت وصيفة لها وضيئة قد روت الأشعار والأحاديث، فقالت: أيكم الفرزدق؟ فقال، هأنذا. فقالت: أنت القائل:

هُمـا دلَّتَـانِـي مِنْ ثَمَـانِـينَ قَـامَـةً كَمَا انْحَطَّ بَازٌ أَقْتَمُ الرِّيشِ كَاسِرُهْ[١]
فلما اسْتَوَتْ رِجْلَايَ بالأَرض قالتا أَحَـيٌّ يُـرَجَّـى أَم قَـتِـيـلٌ نُـحَـاذِرُه

[١] البازي: ضرب من الصفور.

فقلتُ ارفَعوا الأَمْرَاسَ لا يَشْعُروا بنا   وأَقبلتُ في أَعجازِ لَيلٍ أَبَادِرُهْ[٢]
أُبادِرُ بَوابَيْنِ قَدْ وُكِّلا بِنَا   وأحمرَ مِنْ ساجٍ تَبُصُّ مَسَامِرُهُ[٣]

قال: نعم! قالت: فما دعاك إلى إفشاء سرها وسرك؟ هلا سترت عليك وعليها؟ خذ هذه الألف والحق بأهلك!

ثم دخلت على مولاتها وخرجت، فقالت: أيكم جرير؟ قال: هأنذا. قالت: أنت القائل:

طرَقَتْكَ صائدةُ القلوب وَلَيْسَ دَا   وَقْتَ الزيارةِ فَارْجِعِي بِسَلاَمِ
نُجْرِي السِّواكَ عَلَى أغرَّ كأنَّهُ   بَرَدٌ تَحَدَّرَ مِن مُتُونِ غَمَامِ

قال: نعم! قالت: أولًا أخذت بيدها، وقلت لها ما يقال لمثلها؟ أنت عفيف وفيك ضعف!! خذ هذه الألف والحق بأهلك.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت، فقالت: أيكم كثيِّر؟ فقال: هأنذا؛ فقالت: أنت القائل:

وأَعْجَبَني يا عَزُّ منْكِ خَلائقٌ   كِرامٌ إذَا عُدَّ الْخَلائقُ أَرْبَعُ
دُنُوُّكِ حَتى يَدْفَعَ الْجَاهِلَ الصِّبَا   ودَفْعُكِ أَسْبَابَ المُنى حِينَ يَطْمَعُ
فَوَالله مَا يَدْرِي كَرِيمٌ مُمَاطِلٌ   أَيَنْسَاكِ إِذْ بَاعَدْتِ أَوْ يَتَصَدَّعُ

قال: نعم! قالت: ملحت وشكلت! خذ هذه الألف والحق بأهلك.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت: أيكم نصيب؟ قال: هأنذا. قالت: أنت القائل:

ولَوْلاَ أَن يُقال صَبَا نُصَيْبٌ   لَقُلْتُ بِنَفْسِيَ النشَأَ الصِّغَّارُ
بِنَفْسِي كلَ مَهْضُومٍ حَشَاها   إِذَا ظُلِمَتْ فَلَيْسَ لَهَا انْتِصَارُ

قال: نعم، فقالت: ربيتنا صغارًا، ومدحتنا كبارًا! خذ هذا الألف والحق بأهلك.

---

[٢] الأمراس: الجبال.

[٣] تبص: تلمع.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت: يا جميل مولاتي تقرئك السلام وتقول لك: والله ما زلت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك:

أَلا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَ لَيْلَةً   بِوَادِي الْقُرَى إِنِّي إِذًا لَسَعِيدُ[٤]
يَقولُون جَاهِدْ يا جَمِيلُ بِغَزْوَةٍ   وأَيَّ جَـهـادٍ غَـيْـرَهـنَّ أُرِيـدُ
لِكُلِّ حَديثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ   وَكُلُّ قَتِيلٍ عِنْدَهنَّ شَـهِـيدُ

جعلت حديثنا بشاشة وقتلانا شهداء! خذ هذه الألف والحق بأهلك.

وليس في هذا الحديث ما يدل على أن السيدة سكينة لم تهتم ولم تحرص إلا على أخلاق الأدباء، وأنها ألقت عليهم درسًا ما كان أحوجهم إليه — كما ذكر أستاذنا المهدي — وإنما هو حديث صريح في الإبانة عن حرص السيدة سكينة على نعيم المرأة بوجه خاص.

ألا نرى كيف عقبت على قول جرير:

طرَقَتْكَ صائدةُ القلوب وَلَيْسَ دَا   وَقْتَ الزيارةِ فَارْجِعِي بِسَلاَمِ

إنها قالت له: أولًا أخذت بيدها، وقلت لها ما يقال لمثلها؟ أنت عفيف، وفيك ضعف!

فالسيدة ترى أنه كان يجمل بالشاعر أن يأخذ بيدها، وأن يقول لها ما يقال لمثلها فكان يقول بالطبع: «ادخلي بسلام»، ونحن نعلم إلى أين يؤخذ بيد المرأة حين تطرق عاشقها بليل!

ثم ما معنى هذه الجملة «أنت عفيف، وفيك ضعف» أما والله إني لأحب أن يعفيني القارئ من شرح ما في هذه الجملة من ألوان الفتون!

وقد رضيت السيدة سكينة عن تلك الفتاة اللعوب، التي تدنو حتى يركب الجاهل رأسه، ويسخر لصباه، وتنفر حتى تتقطع بالغويِّ أسباب المنى والمطامع والتي لا تزال تلعب حتى يغلب المحب على أمره، فما يدري أيصدف وينسى، أم يُسمي وهو متيم مجروح الفؤاد.

[٤] وادي القرى: هو وادي بين المدينة والشام أكثر من ذكره الشعراء.

وفي هذا الحكم خضعت السيدة لحاستها الفنية، فلم تذكر إلا أنه ملح وشكل[٥]، وأنه بلغ بذلك غاية البيان.

وما الذي أعجبها في شعر نصيب؟ أعجبها أنه رباهن صغارًا، ومدحهن كبارًا! وهذا ما أردته من الغيرة على الجنس، والدفاع عن النوع؛ ولهذا أعجبها من جميل أنه جعل حديثهن بشاشة وقتلاهن شهداء!

ويؤيد هذا الرأي ما ذكر من أنها قالت مرة لراوية جميل: أليس صاحبك الذي يقول:

أَلا لَيْتَنِي أَعْمَى أَصَمُّ تَقُودُني بُثَيْنَةُ لاَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلاَمُهَا

قال: نعم! قالت: رحم الله صاحبك إن كان صادقًا في شعره.

ألا تراها رضيت بما رضي الشاعر لنفسه من العمى والصمم مع سلامة محبوبته، وهي التي أنكرت على الفرزدق أن يفزع ويروع حين فزعت وروعت من أجله صاحبتاه؟

٥

ونستطيع أيضًا أن لا نبالي بأحكام المتأدبين الذين يخضعون لغير الفكرة الأدبية: كالفقهاء والمتصوفة، ومن إليهم ممن يقيسون بمقياس العرف، والمألوف، والمستحسن من خصال الناس، فقد قيل لعمرو بن عبيد: ما البلاغة؟ فقال: ما بلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار، وما بصّرك مواقع رشدك، وعواقب غيِّك.

فهو يقيس جودة الكلام بمقياس الدعوة إلى الرشد، والنهي عن الغي، والتنفير من طاعة الهوى. مع أن من الكلام ما يهوي بصاحبه إلى أعماق الجحيم، وهو في الوقت نفسه يسمو به إلى أعلى مراتب البيان.

ولقد أذكر أن بعض العلماء قرأ كتاب (حب ابن أبي ربيعة وشعره)، ثم قال بلهجة جدية: لا عيب في هذا الكتاب إلا أنه لم يختم بفصل في النهي عن العبث بالنساء.

---

[٥] شكل على وزن فرح: من الشكل بالكسر، وهو رقة الغزل.

٦

وليس معنى هذا أن الشعر يفسد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن معناه أن للشعر نزعة أخرى غير النزعة الدينية، وأريد النزعة الدينية الصرفة التي تخلو من النفحة الشعرية، ومن ذلك ما حدثوا أن بعض الشعراء أنشد المأمون في مدحه:

أَضْحَى إِمَامُ الْهُدَى المأَمونُ　　بالّدينِ وَالنَّاسُ بِالدُّنْيَا مَشَاغِيلُ

فغضب لذلك ولوى وجهه مع أن هذا البيت يصور مطامع كثير من النفوس، التي يحسب أصحابها أن الإنسان لا يقرب من ربه إلا إذا شغله دينه عن دنياه، ولكن نفس المأمون الوثابة الطماحة لم ترض عن هذه المنزلة، ولم تشأ الزهد في طيبات الحياة.

قلت لك: إن الشعر قد يساير الأغراض الدينية، وتبقى له حين تغلب فيه تلك النزعة قيمته الفنية، وعندي لهذا شاهد بديع، وهو قول بعض في دم جماعة من عبيد الراح:

لَوْ كُنْتُ أَحْمِلُ خَمْرًا يَوْمَ زُرْتُكُمُو　　لَمْ يُنْكِرِ الْكَلْبُ أَنِّي صاحب الدار
لكِنْ أَتَيْتُ وَرُوحُ الْمِسْكِ يَفْغَمُني　　وَعَنْبَرُ الهِنْدِ أُذْكِيهِ على النار
فَأَنْكَرَ الْكَلْبُ ريحي حِينَ أَبْصَرَنِي　　وَكَانَ يَعْرِفُ رِيحَ الزِّق والقار

فهذا نهي عن الخمر، ولكنك لا تستطيع أن تضع في صفه قول ابن الوردي:

وَدَعِ الْخَمْرَةَ إِنْ كُنْتَ فَتى　　كَيْفَ يَسْعى فِي جُنُونٍ

لأن هذا ينقصه ما يبني عليه الشعر من رائع الخيال.

وأحب أن لا ينسى القارئ أننا نتكلم في الأدب لا في الأخلاق، فنقول: على أني قد أعود إليه لأحدد معه أغراض الشعر الجيد والنثر البليغ معه نظرية «الفن للفن»؛ لنعرف أكانت غاية الأدب تهذيب الأخلاق أم تربية الأذواق[٦].

[٦] عرض المؤلف لهذه النظرية في كتاب «النثر الفني».

الفصل الثاني

عود إلى أهواء النقاد

بينت للقارئ في الكلمة الماضية أنه يجب أن لا يخضع الناقد عند الموازنة لغير الحاسة الفنية، وذكرت له بعض الآفات التي تذهب بقيمة النقد: كالتعصب للقديم أو الجديد والتشيع بالأفكار الدينية، أو الصوفية، والدفاع عن الجنس في حكم بعض النساء بين الشعراء.

والآن أسير مع القارئ في هذه السبيل؛ لنعرف بقية الموانع التي تحول بين الناقد وبين الصواب حين يوازن بين الشعراء.

١

لا ينكر أحد أن ابن الرومي كان من الشعراء الفحول، والشاعر أبصر بالشعر من سواه، فلحكمه قيمة خاصة تفوق أحكام المتأدبين من رجال اللغة والرواية، ومع هذا فأنا أستطيع أن أحكم بأن ابن الرومي حكم مرة بالجمال لقطعة من الشعر، وكان في حكمه من الخاطئين، وإليك البيان:

كان ابن الرومي مسرفًا في التطير، وكاد إسرافه فيه يصل به إلى الجنون، فقد كان يلبس أثوابه كل يوم ويتعوذ، ثم يصير إلى الباب والمفتاح معه فيضع عينه على ثقب في خشب الباب فتقع على جار له كان نازلًا بإزائه، وكان أحدب، يقعد كل يوم على بابه، فإذا نظر إليه رجع، وخلع ثيابه، وقال: لا يفتح الباب! فكان بيته يظل مغلق الأبواب إلى أن يشرف من فيه على الهلاك! وعلم معاصروه بإفراطه في التطير، فأقبل عليه أحدهم وأنشده:

وَلَمَّا رَأَيْتُ الدَّهرَ يُؤذِن صَرْفُهُ   بِتَفْرِيقِ مَا بَيْنِي وبَيْنَ الْحَبَائِبِ
رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي فَوَطَّنْتُهَا علَى   رُكُوبِ جَمِيلِ الصَّبْرِ عِنْدَ النَّوَائِبِ
وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا عَلَى جَوْرِ حُكْمِهَا   فَأَيَّامُهُ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَصَائِبِ
فَخذْ خِلْسَةً مَنْ كُلِّ يَوْمٍ تَعِيشُهُ   وَكُنْ حَذِرًا مَنْ كَامَنَاتِ الْعَوَاقِبِ
وَدَعْ عَنْكَ ذِكرَ الْفَأْلِ والزَّجْرِ وَاطَّرِحْ   تَطَيُّرَ جَارٍ أَوْ تَفَاؤُلَ صَاحِبِ

فبقي ابن الرومي باهتًا ينظر إليه، ثم تبين الحاضرون أنه شغل قلبه بحفظ هذه الأبيات.

أفيحسب القارئ أن مثل هذه القطعة — وهي وسط في ألفاظها ومعانيها — كانت تشغل مثل ابن الرومي، وتظفر باحتلال قلبه، لولا بغضه للتطير، ومله من تلك الوسوسة التي كدرت عليه موارد الحياة؟

إن الناقد مفروض فيه البرء من جميع الأغراض؛ لأن النقد نوع من القضاء، فإذا سيطرت عليه فكرة خاصة صيرت حكمه طعمة للظنون، وسواء في ذلك الأفكار الدينية، والنزعات الجنسية، والاتجاهات العقلية التي تصبغ التفكير بلون خاص.

٢

إن الشعر الوسط قد يؤثر تأثير الشعر البديع حين تستعد له النفس، ولكن هذا التأثير لا يسمو بالشعر الوسط إلى منزلة الشعر الجيد، ومن أمثلة ذلك ما روي من أن بعض الأعراب تزوج جارية من رهطه وطمع في أن تلد له غلامًا، فولدت له جارية، فهجرها وهجر منزلها، وصار يأوي إلى غير بيتها، فمر بخبائها بعد حول، وإذا هي ترقص ابنتها، وهي تقول:

مَا لأَبِي حَمْزَةَ لاَ يَأْتِينَا   يَظَلُّ فِي الْبيْتِ الَّذِي يَلِينَا
غَضْبَانَ أَنْ لا نَلِدَ الْبَنِينَا   تَالله مَا ذَلِكَ في أَيْدِينَا
وإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا   ونَحْنُ كَالزَّرْعِ لِزَارِعِينَا
نُنْبِتُ مَا قَدْ زَرعُوهُ فِينَا

فلما سمع الأبيات أقبل يعدو نحوها حتى ولج عليها الخباء، فقبلها وقبل ابنتها، وقال: ظلمتكما ورب الكعبة.

فأنت ترى أن هذه أبيات عادية في ألفاظها ومعانيها، ولكن لا تنس أن الرجل الذي نالت من نفسه، وراضته بعد جموحه: رجل ينزع قلبه بالرغم منه إلى زوجه وابنته، والشرارة الضئيلة كافية لإحراق الهشيم! فليست تدل هذه الحادثة على قيمة أدبية لهذه الأبيات، وإنما هي شاهد «على ضرب من المعاملات، وعلى أحوال الاجتماع، وعلى ما للمرأة من لين الجانب ورقة الأخلاق»[١].

وكذلك يجب درس حالة الناقد النفسية قبل الاعتداد بما أصدر من الأحكام؛ لأن الحكم يتبع ما للنقاد من ألوان النفوس، وصور العقول.

٣

ونستطيع كذلك غض النظر عن الأحكام التي يخضع أصحابها لفكرة قومية، أو حزبية، فقد أسرف النقاد في الظلم حين تصدروا للفصل بين شعراء الأحزاب، وإنك لتجد أمثلة ذلك منثورة هنا وهناك: حين ترجع للعصور التي اصطدمت فيها الدولة العباسية بالدولة الأموية، وحين تراجع التنافس الذي كان بين أدباء قرطبة وأدباء بغداد.

وهذا عبد الملك بن مروان كان من أبصر أهل عصره بنقد الشعر، فلما دخل عليه الأخطل وأنشده:

نَفْسِي فِداءُ أَمِيرِ الْمُؤمِنِينَ إِذَا ... أَبْدَى النَّواجِذَ يَوْمٌ عَارِمٌ ذكَرُ[٢]
الْخَائِضُ الْغَمْرَةَ المَيْمُونُ طَائِرُهُ ... خَلِيفَةُ الله يُسْتَسْقَى بِهِ الْمَطَرُ
في نَبْعَةٍ مِنْ قُرَيْش يَعْصِمُونَ بَهَا ... مَا إِنْ يُوَازَي بِأَعْلَى نَبْتِهَا الشَّجَرُ
حُشدٌ على الْحَقِّ عَيَّافُو الْخَنَا أُنُفٌ ... إِذَا أَلَمَّتْ بهِمْ مكروهةٌ صَبَرُوا
لاَ يَسْتَقِلُّ ذَوُو الْأَضْغَانِ حَرْبَهُمُو ... وَلاَ يُبَيِّنُ في عِيدَانِهِمْ خَوَرُ
شُمْسُ الْعدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ ... وَأَوْسعُ النَّاسِ أَحْلاَمًا إِذَا قَدرُوا[٣]
هُمُ الَّذِينَ يُبَارُونَ الرِّيَاحَ إِذَا ... قَلَّ الطَّعَامُ عَلَى الْعافِينَ أَوْ قَنَرُوا

[١] كذلك قال الأستاذ الدكتور ضيف في مقدمته ص ٦٦.

[٢] العارم: الشديد، والنواجز: الأنياب.

[٣] شمس: جمع شموس وهو الصعب المراس.

بَنِي أُمَيَّةَ نُعْمَاكُمْ مُجَلَّلَةٌ   تَمَّتْ فَلاَ مِنَّةٌ فِيهَا وَلَا كَدَرُ

أقول: لما أنشد الأخطل هذه القصيدة طرب عبد الملك وقال: أأنادي في الناس أنك أشعر العرب؟ فقال الأخطل: حسبي شهادتك يا أمير المؤمنين!

ولم يكن الأخطل أشعر العرب إذ ذاك، فقد كان جرير والفرزدق في الميدان، ولكن عبد الملك خضع في حكمه للمصلحة الذاتية لا الحاسة الفنية، فقد كان الأخطل سليط اللسان، خبيث الهجاء، وكان عبد الملك قد استعان به على لذع من يناوئه من رجال السياسة وشعراء الأحزاب، ومن هنا كانت دالة الأخطل عليه، وكان ما رووا من أنه كان يجيئه وعليه جبة خز، وفي عنقه صليب ذهب، وفي ملامحه نشوة الصهباء، مع أن عبد الملك خليفة المسلمين، والدين في عنفوانه، والناس على نصره حراص، ولكن السياسة، وحاجة الملك إلى الدعاة من كُتَّاب وخطباء وشعراء، والحرص على تحقير المعارضين، كل أولئك أغرى عبد الملك بحب الأخطل، والحكم بأنه أشعر الناس!.

ولو أن ابن رشيق تنبه لهذا الغرض لما ظن أن المسلمين سكنوا عن الأخطل لجمال شعره، ولما عجب من جهره بتحقير الفرائض الإسلامية حين قال:

وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمَضَانَ طَوْعًا   وَلَسْتُ بآكِلٍ لَحْمَ الْأَضَاحِي
وَلسْتُ بِزاجِرٍ عَنْسًا بُكُورًا   إِلَى بَطْحَاءِ مَكَّةَ للنَّجَاحِ[٤]
وَلَسْتُ مُنَادِيًا أَبدًا بِلَيْلٍ   كَمِثْلِ الْعَيْرِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ
وَلَكِنِّي سَأَشْرَبُهَا شَمُولًا   وَأَسْجُدُ قَبْلَ مُنْبَلَجِ الصبَاحِ[٥]

ولكن ابن رشيق حسب عبد الملك سكت عن هذا الشاعر لحسن شعره، وتقدمه على معاصريه؛ ولذلك قال: «ومن الفحول المتأخرين الأخطل، واسمه غياث بن غوث، وكان نصرانيًّا من تغلب، بلغت به الحال في الشعر إلى أن نادم عبد الملك بن مروان وأركبه ظهر جرير بن عطية الخطفي، وهو تقي مسلم». ثم قال: «وهجا الأنصار ليزيد بن معاوية لما شبب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بعمته فاطمة بنت أبي سفيان، وقيل:

[٤] العنس: الناقة الصلبة.

[٥] الشمول: هي الحمر التي تعصف بالعمل كما تعصف بالنبات ريح الشمال.

بل بأخته هند بنت معاوية، ولولا شعره لقتل دون أقل من ذلك، وقد رد على جرير أقبح رد، وتناول من أعراض المسلمين وأشرافهم، ما لا ينجو مع مثله علوي فضلًا عن نصراني».

وقد بينت لك أن الشعر وحده لم يكن كافيًا لنجاة الأخطل من أن يؤخذ بجرائره، ولكن دفاعه عن بني أمية، وهجاءه لخصومهم، كانا سببًا في تعصب الأمويين له حتى حكم عبد الملك بتقدمه على الشعراء.

٤

وكما كان عبد الملك يؤثر شعر الأخطل كان الرشيد يؤثر شعر منصور النميري، ولكن لا تنس أن رجال السياسة لا يحبون الشعر للشعر، ولا العلم للعلم، وإنما يتخذون الشعراء والعلماء مطايا لأغراضهم السياسية، فمن البله أن نظن أن جودة الشعر هي التي أدنت النميري من الرشيد، أو أن اتصال النسب كان سبب تلك الحظوة كما توهم بعض مؤرخي الآداب العربية، وإنما أدنى الرشيد هذا الشاعر لميله إلى إمامة العباس وأهله ومنافرته لآل علي بن أبي طالب، فقد ذكروا أنه قال في تسفيههم هذه الأبيات:

بني حَسَن وَقُلْ لبِني حُسَينٍ عليكم بِالسَّوَاء مِنَ الْأُمُورِ
أَمِيطُوا عَنكُمُو كَذِبَ الْأَمَاني وأحلامًا يَعِدْنَ عِدَاتِ زُورِ
تُسَمُّونَ النَّبيَّ أَبًا وَيأبى منَ الْأَحْزَابِ سَطْرٌ في سُطُورِ

يريد قوله تعالى في سورة الأحزاب ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّ﴾. ويذكرون أن الرشيد قال له: ما عدوت ما في نفسي ثم أمره أن يدخل بيت المال فيأخذ ما أحب، كما قال صاحب زهر الآداب، مع أن الآية وجهًا غير هذا الوجه، وتأويلًا غير هذا التأويل.

ويؤيد ما أسلفناه أن الرشيد لما بلغه قوله:

آلُ النَّبِيِّ وَمَنْ يُحِبُّهمُو يتَطَامَنُونَ مَخَافَةَ الْقَتْلِ[٦]

[٦] يتطامنون: يسكنون.

أَمِنَ النَّصارَى وَالْيَهودُ وَمَنْ   منْ أُمَّةِ التَّوْحَيدِ فِي أَزْلِ[7]
إِلاَّ مصالِيتَ يَنْصُرونَهُمُو   بِظُبا الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا الذُّبلِ[8]

لما بلغ الرشيد هذا القول أمر بقتله. فمضى الرسول فوجده قد مات. فقال الرشيد: لقد هممت أن أنبش عظامه فأحرقها[9]!

وأنا أكتفي بهذين المثالين في تعرض من يوازن بين الشعراء للظنة حين تسيطر عليه حزبية، أو قومية، ولولا أني أعرف في شعراء العصر ضيق الصدر لذكرت لك نماذج من شعرهم في مسايرة الأحزاب، خوفًا من النقد والموازنة تحت وحي الأغراض، ولهم العذر في هذا الدهاء، فإن الأمة التي تكاد تصدق أكثر ما يقال، إنما تحمل الشعراء على أن يحسبوا حسابًا لما يكتب عنهم في الصحف التي لا تعرف الفرق بين الشخصية الأدبية، والشخصية السياسية؛ فقد أكون عدوك لأنك تناصر حزبًا غير الحزب الذي أناصره، وأكون في الوقت نفسه نصيرك كعالم أو أديب، أو فنان.

[7] الأزل: الشدة.

[8] المصاليت: جمع مصلت، وهو المقدام، والقنا الذبل: هي الظماء إلى الدم، والمفرد ذابل، ويجمع أيضًا على ذوابل.

[9] في كتاب: «المدائح النبوية في الأدب العربي». فصل مطول عن إخلاص بعض الشعراء في حب أهل البيت.

الفصل الثالث

أنفس الشعراء

١

قد رأيت أن الموازنة نوع من النقد، وهي كذلك نوع من الوصف، فالذي يوازن بين شاعرين إنما يصف ما لكل منهما وما عليه بأدق ما يمكن من التحديد، فمن واجب الناقد إذًا أن يتعمق في دراسة حياة الشاعر الذي يضع شعره في الميزان، وأن يجتهد في أن يرى الأشياء بعينه، ويدركها بشعوره؛ ليستطيع وزن ما يقول، فإن الشاعر إنما يؤدي «رسالته» إلى جيل خاص في قطر خاص، ومن التحكم أن تطالبه بأن يرى الأشياء بعينك، ويدركها ببصيرتك، ويتذوقها بوجدانك، مع أن بينك وبينه مئات الفروق، وهو لم يعك معك ولا لك، وإنما خضع في شعوره لغير ما تخضع له من ظروف الزومان والمكان.

وقد رأيت من الأدباء من يستنكر قول زهير في دار محبوبته، وقد نال منها العفاء:

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عشْرِينَ حِجَّةً فَلأيا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ[١]

وهو يرى أن هذا وصف ضئيل للدروس والعفاء، وذلك غفلة ظاهرة فإن منازل الأعراب تعفو وتدرس في أقل من عشرين سنة، فكيف يطلب لدروسها عشرات العقود؟

[١] لأيا عرفتها، وعرفتها بعد لأي: أي بعد مشقة، وهو تعبير جاهلي لم يحيه في العصر الحديث إلا المنفلوطي رحمه الله. والحجة: السنة.

ورأيت من يستهجن ابتداء كعب بن زهير بقوله:

بانَت سُعادُ فَقَلبي اليَومَ مَتبولُ   مُتَيَّمٌ إِثرَها لَم يُفدَ مَكبولُ
وَما سُعادُ غَداةَ البَينِ إِذ رَحَلوا   إِلّا أَغَنُّ غَضيضُ الطَرفِ مَكحولُ

وذلك أن هذه القصيدة أنشدت في حضرة النبي ﷺ فمن الأدب أن لا تبدأ بالنسيب؛ وهذا أيضًا خطأ لأن بدء الشعر بالغزل كان من التقاليد العربية المستملحة، ولم يكن أحد ينكرها إذ ذاك حتى ينسب كعب إلى ما هو منه براء.

٢

وكان الجاحظ يقول: لا أعرف شعرًا يفضل قول أبي نواس:

ودَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَدْلَجُوا   بِهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ ودَرَاسُ
مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزِّقاقِ عَلَى الثَّرى   وَأَضْغَاثُ رَيْحانٍ جنَيٍّ وَيَابِسُ
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَّدْتُ عَهْدَهُمْ   وَإِنِّي عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ لَحَابِسُ
تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ في عَسْجَدِيَّةٍ   حَبَتْها بِأَنْوَاعِ التَّصَاويرِ فَارِسُ
قَراراتُهَا كِسْرَى وَفِي جَنَبَاتِهَا   مَهًا تَدَّرِيهَا بالْقِسِيِّ الْفَوارِسُ
فَلِلْخَمْرِ ما زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا   وَلِلْمَاءِ ما دارَتْ عَلَيْهِ الْقَلاَنِسُ

ثم جاء صاحب المثل السائر، فقال: «فصاحة هذا الشعر عندي هي الموصوفة لا هذا المعنى، فإنه لا كبير كلفة فيه؛ لأن أبا نواس رأى كأسًا من الذهب ذات تصاوير فحكاها في شعره، والذي عندي في هذا أنه من المعاني المشاهدة، فإن هذه الخمر لم تحمل إلا ماءً يسيرًا، وكانت تستغرق صور هذه الكأس إلى مكان جيوبها، وكان الماء فيها قليلًا بقدر القلانس التي على رءوسها، وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر».

فانظر كيف صغرت قيمة الشعر في عين هذا الناقد حين كان: «حكاية حال مشاهدة البصر». مع أنه إنما عظم لذلك في عين الجاحظ.

ورأيت من ينكر قول ابن الدمينة:

وَلَو أَنَّنِي أَستَغْفِرُ الله كُلَّما   ذَكَرْتُكِ لَمْ تُكْتَبْ عَليَّ ذُنُوبُ[٢]

واستند في إنكاره إلى أن هذه (عبارة فقهية)، وكان عليه أن يذكر أن روح الشاعر مصبوغ بصبغة دينية، وأنه قال هذه الكلمة العذبة، قبل أن يوجد التكلف في الفقه، وقبل أن تثقل أرواح الفقهاء!

ومن النقاد من فضل قول مسلم بن الوليد:

تظلَّمَ الْمَالُ وَالْأَعْداءُ مِنْ يَدِهِ   لاَ زَالَ لِلْمَالِ وَالأَعْدَاءِ ظَلاّمَا

واستقبح قول أبي نواس:

بُحَّ صَوْتُ الْمال مِمَّا   مِنْكَ يَشْكُو ويصِيحُ

استنادًا إلى أن المال لا صوت له. وهذا أيضًا خطا: لأن أبا نواس قريب العهد بمال الأعراب، ومال الأعراب ناطق، وطالما اضطربت الإبل لسكين الجزار عند قدوم الضيفان.

٣

فعلى الناقد أن يتبين العهد الذي عاش فيه الشاعر، وأن يعنى فوق ذلك بمعرفة ما درسه من الأدب القديم لما لذلك من الأثر في أذواق الشعراء.

[٢] ابن الدمينة: شاعر رقيق النسيب، وهو صاحب هذا البيت النفيس:

وإني لأستحييك حتى كأنما   علي بظهر الغيب منك رقيب

فقد أنكروا على شوقي قوله:

ارْفعي السِّتْرَ وحيي بِالْجَبينْ   وَأَرِينَا فَلَقَ الصُّبْحِ الْمُبِينْ
وَقِفِي الهَوْدَجَ فينا سَاعَةً   نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِ أُمِّ الْمُحْسِنِينْ
وَاتْرِكِي فَضْلَ زِمَامِيْهِ لَنَا   نَتَنَاوَبْ نَحْنُ وَالرُّوحُ الْأَمِينْ

مع أن أم المحسنين إنما ركبت يومئذ سيارة تنهب الأرض، ولكن هكذا بقي الهودج في ذهن شوقي، لإمعانه في دراسة الشعر القديم ...

وأنكروا عليه قوله في سيارة الدكتور محجوب:

لَكُمْ فِي الْخُطِّ سَيَّارَهْ   حَدِيثُ الْجَارِ وَالْجَارَهْ

واستخفوا كلمة: «حديث الجار والجارة». وفاتهم أن الدكتور محجوب يسكن في حي قد لا يعرف أهله غير الخيل، والبغال، والحمير!

واستنكروا قول حافظ على لسان اليتيم:

أَمْشِي يُرَنِّحُني الْأَسَى   وَالبُؤسُ تَرْنِيحَ الشَّرَابْ

لأن اليتيم البائس قد لا يعرف كيف يترنح السكران، ولكن حافظًا يرى هذه المناظر في الصباح والمساء[٣].

واستضعفوا قول مطران في رثاء إسماعيل صبري:

شُهُبٌ تَبِينُ فَمَا تئُوبُ   فَكَأَنَّهَا حَبَبٌ يَذوبُ
أَرَأَيْتَ فِي كَأْسِ الطِّلا   دُرَرًا وَقَدْ صَعِدَتْ تَصُوبُ
هُو ذَاكَ في لُجِّ الدُّجَى   طَفْوُ الدَّرَارِي وَالرُّسُوبُ

[٣] عاتبنا حافظ رحمه الله على هذا التأويل.

لاَ فَـرْقَ بَـيْـنَ كَـبِـيـرِهَـا   وَصَـغِـيـرِهَـا فِـيمـا يَـنُـوبُ

لأن مقام الرثاء يجل عن ذكر الحبب والكأس، وليس لك أن تشبه الشهاب حين يغيب، بالحبب حين يذوب، ولكن يجب أن نعرف كيف يعيش مطران؛ لنعرف قيمة هذا التشبيه في نفسه المراح.

وكذلك نقول في توجيه كلمة شوقي في رثاء محمد تيمور:

ضَرَبُوا الْقِبَابَ عَلَى الشَّبَابْ   وَثَوَوْا إِلَى يَوْم الْحسَابْ
هَـمَـدُوا وَكُـلُّ مُـحَـرَّك   يوْمًا سَيَسْكُنُ في التُّرَابْ
نَـزَلُـوا عَـلَـى ذِئْـب الْـبِـلَـى   فَـتَـضـيَّـفُـوا شَـرَّ الـذِّئَـابْ
وَكَـأَنَّـهُـمْ صَـرْعَـى كَـرىً   بِالْـقَـاعِ أَوْ صَـرْعَـى شَـرَابْ
فَـإِذَا صَـحَـوْا وتَـنَـبَّـهُـوا   فَـالـلـه أَعْـلَـمُ بِـالْـمَـآبْ

فإن تشبيه الموتى بصرعى الشراب لا يدل على غفلة الشاعر عن رعاية مقتضى الحال، وإنما يشير بطرف خفي إلى ما لحياته من شتى الألوان، كما أفصح شعره عن ألوان حياته في قوله من كلمة ثانية:

مَا أَنْتِ يَا دُنْيَا أَرُؤْيَا نَـائم؟   أَم لَيْلُ عُرْس؟ أَمْ بِسَاطُ سُلافِ
نَـعْـمَـاؤُكِ الـرَّيْـحَـانُ إِلَّا أَنَّـهُ   مَسَّتْ حَوَاشِيهِ نَقِيعَ زُعَافِ

وقال أحد أنصار ابن الرومي يلومه: لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز؟ فقال: أنشدني من قوله الذي استعجزتني عن مثله. فأنشده قوله في الهلال:

أُنظُرْ إليهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضةٍ   قَد أَثْقَلَتْهُ حَمُولَةٌ مَنْ عَنبَرِ

فقال له زدني، فأنشده:

كَـأن آذَرْيُـونَـهَـا   غِبَّ سَماءٍ هَامِيهْ
مَداهنٌ مِنْ ذَهَبٍ   فِيهَا بقَايا غَاليهْ

فصاح: وا غوثاه! لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها. ذلك إنما يصف ماعون بيته؛ لأنه ابن خليفة، وأنا أي شيء أصف؟ ولكن انظر إذا وصفت أين يقع قولي من الناس، فهل لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام:

وَقدْ نَشَرتْ أَيْدِي الْجَنُوب مَطَارِفًا مِنَ الْجَوِّ دُكْنًا والْحَوَاشِي عَلَى الْأرضِ
يُطرِّزُها قَوْسُ السَّحَابِ بأَخْضَر عَلى أَحْمَر في أَصفَر إِثْرَ مُبْيَضِّ
كَأَذْيَالِ خَوْدٍ أَقْبَلَتْ فِي غَلائِل مُصَبَّغَةٍ والْبَعْضُ أَقْصرُ مِنْ بَعْضِ

وقولي في صانع الرقاق:

ما أَنْسَ لا أنْسَ خَبَّازًا مَرَرْتُ بِهِ يدحو الرَّقَاقَةَ مِثْلَ اللَّمحِ لِلبَصر
مَا بيْنَ رُؤْيَتَها فِي كَفِّهِ كُرةً وَبَيْنَ رُؤْيَتِها قَوْرَاءَ كَالْقَمَر
إِلَّا بَمَقْدَار مَا تَنْدَاحُ دائِرَةٌ فِي لُجَّةِ الْماءِ يُلْقَى فِيهِ بِالْحَجَرِ

فليس لك أن تقدم ابن المعتز على ابن الرومس؛ لأنه استطاع تشبيه الآذريون بعد المطر بمداهن الذهب فيها بقايا الغالية، وليس لك أن تقدم ابن الرومي على ابن المعتز؛ لأنه أجاد وصف الخباز، وهو يدحو الرقاق، فإن السبق هنا وهناك يرجع إلى الظروف التي أتيحت لكل من الشاعرين، ومهدت السبيل إلى الوصف الدقيق، وإنما يجب عليك أن نعمد إلى الشاعر وتسير أغوار نفسه لترى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء، فقد يكون ابن الرومي في وصف الرقاق أشعر من ابن المعتز في وصف الهلال.

٤

وكذلك ليس لك أن تقدم الأوصاف الحضرية على الأوصاف البدوية؛ لأن الحضارة في ذوقك أنضر من البداوة، فقد يكون البدوي في بداوته أشعر من الحضري في حضارته، كما قال أستاذنا المهدي، ومعنى ذلك أن البدوي قد يكون شعوره بالريح السموم في مجاهل البيداء أقوى من شعور الحضري بالنسيم العليل في الروضة الغناء.

فليس قول خزيمة بن نهد في ريق محبوبته:

فتاةٌ كَأَنَّ رُضَابَ الْعَبيرِ   بِفِيها يُعَلُّ بِهِ الزَّنْجُّبيلُ

بأقل من قول الشريف الرضي:

يَبسِمْنَ عن بَرَد الفَحَامِ وبرْدِهِ   رَيَّانَ يُغْبَقُ بِالْمُدَامِ ويُصبَحُ

ولا يفضلهما من قال: «كأني ألتقط من فيها حب الرمان»؛ لأن الأمر في ذلك يرجع إلى قوة إدراك الشاعر، بغض النظر عن تفاوت الأوصاف، فقد يكون الزنجبيل أجمل ما تعطر به الأفواه في البادية كما تكون الخمر، أو حب الرمان، أحلى ما تعطر به الثنايا في الحاضرة، ولكل شعب وجهة في تناول الأشياء.

ألم تر إلى المتوكل وقد أنشده ابن الجهم في مدحه:

أَنتَ كَالْكَلْبِ في حِفَاظِكَ للودِّ   وكالتَّيْسِ في قرَاعِ الخُطُوبِ

لقد طرب المتوكل لهذا الشعر، وإن كان جاسي اللفظ بادي الخيال؛ لأنه أعجب بما له من قوة الشاعرية، وهي روح البيان، ثم أسكنه قصرًا من قصور بغداد، واستدعاه بعد ذلك، وقد صقلته الحضارة، فأنشده تلك الرائية البديعة التي يقول في أولها:

عُيُونُ الْمهَا بَيْنَ الرُّصافَةِ وَالْجِسْرِ   جَلَبْنَ الْهَوَى مَنْ حيْثُ أَدْري وَلاَ أَدْري
أَعَدْنَ لِيَ الشَّوْق الْقَدِيمَ وَلَمْ أَكُنْ   سَلَوْتُ وَلَكِنْ زِدْنَ جمرًا عَلَى جمْرِ
سَلِمْنَ وأَسْلَمْنَ الْقُلُوبَ كَأُنَّمَا   تُشَكُّ بِأَطْرَافِ الْمُثَقَّفَةِ السُّمْرِ[٤]
خَلِيلَيّ مَا أَحْلَى الْهَوَى وَأَمَرَّهُ   وَأَعْرَفَني بِالْحُلْوِ مِنْهُ وبِالْمُرِّ
بِمَا بَيْنَنَا مِنْ حُرْمَةٍ هَلْ عَلِمْتُمَا   أَرَقَّ مِنَ الشَّكْوَى وَأَقْسَى مِنَ الْهَجْرِ

والخلاصة: أن الناقد إنما يوازن بين عبقرية وعبقرية، ويفاضل بين بصيرة وبصيرة، ويقارن بين إدراك وإدراك، بغض النظر عن الفروق الموضعية التي يقضي

[٤] المثقفة السمر: هي الرماح.

بها اختلاف الأقاليم، والفوارق الزمنية التي يوجبها اختلاف العصور. وهذا يتطلب من الناقد تضحية خطيرة، ولكنها ضرورية: يتطلب هذا أن ينسى الناقد شخصيته، وأن يفنى في شخصية الشاعر الذي يدرسه: بحيث يبصر بعينه، ويسمع بأذنه، ويفقه بقلبه، ليسُبر كما قلت، أغوار نفسه؛ وليرى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء.

الفصل الرابع

شعراء الأحزاب

١

ويجب على الناقد حين يوازن بين شاعرين أن يعرف حياتهما بالتفصيل، وأن يتثبت مما أحاط بهما من مختلف الظروف، وعلى الأخص إذا مرت حياتهما في غمرة من الغمرات الدينية، أو فتنة من الفتن السياسية، فقد يكون أحد الشاعرين من الحزب الغالب، وثانيهما من الحزب المغلوب، ثم تعصف الفتن بما ترك شاعر الأقلية من الشعر الرائع، وتبقي العصبية الحزينة على ما ترك شاعر الأكثرية من الغث والسمين، والويل كل الويل للمغلوب!

ولقد حان الوقت لمحو تلك الخرافة التي كاد يجمع عليها مؤرخو الآداب العربية: وهي أن الشعر كان في خمود في زمن البعثة والخلافة الراشدة، استنادًا إلى ندرة ما روي من شعر ذلك العهد، وقلة من عرف فيه من الشعراء.

ولو تنبه الباحثون إلى تلك الحملة الشديدة التي وجهتها الشريعة إلى الشعر والشعراء لتريثوا في الحكم أو احترسوا بعض الاحتراس، فقد كان الشعر في زمن البعثة قويًّا وعزيزًا، وكان الشعراء في كثرة وعزة، ولكن النبي ﷺ رأى أكثرهم من معارضيه، فعمد إلى إخفات صوتهم، وكان ما أراد.

فإن كنت في ريب من ذلك فحدثني عن سبب نزول هذه الآية:

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾

ثم أذكر أن عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت قالوا: يا رسول الله لقد أنزل الله هذه الآية، وهو يعلم أننا شعراء، هلكنا! فأنزل الله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾.

فدعاهم رسول الله فتلاها عليهم[1].

ومعنى ذلك أن الشعر لا يذم إلا إن أعدت به حملة على النبوة، وإلا فقد روي أن النبي ﷺ قال ليلة وهو في بعض أسفاره: أين حسان بن ثابت؟ فقال حسان: لبيك يا رسول الله وسعديك! قال: احد! فجعل ينشد ويصغي إليه، فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى فرغ من إنشاده، فقال ﷺ: لهذا أشد عليهم من وقع النبل، وروي أيضًا أنه قال له: اهجهم! فوالله لهجاؤك أشد عليهم من وقع السهام، في غلس الظلام! وكذلك كان حسان يقول لأهل مكة:

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُها كداءُ[2]
يُنَازِعْنَ الْأَعِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ ... عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسَلُ الظِّمَاءُ[3]
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ ... تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ[4]
فَإِمّا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا ... وَكَانَ الْفَتْحُ وانْكَشَفَ الْغِطَاءُ
وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لِجِلادِ يَوْم ... يُعِزُّ الله فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَقَال الله قَدْ يسَّرْتُ جُنْدًا ... هُمُ الْأَنْصَارُ عُرْضَتُها اللِّقَاءُ[5]
لَنَا في كُلِّ يوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ ... سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ
فَنُحْكِمُ بِالْقَوَافِي مَنْ هَجَانَا ... وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ
وَجِبْرِيلٌ أَمِينُ الله فِينَا ... وَرُوحُ الْقُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
أَلَا أَبْلِغْ أَبَا سُفيَانَ عنِّي ... مُغَلْغَلَةً فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ[6]

[1] راجع أسباب النزول.
[2] كداء بفتح الكاف بأعلى مكة عند المخصب.
[3] الأسل: الرماح، ومفردها أسلة، والأعنة جمع عنان، وهو اللجام.
[4] متمطرات: مسرعات، وتلطمهن النساء. تمسح ما عليهن من الغبار.
[5] العرضة بالضم: الهمة.
[6] المغلغلة: الرسالة تحمل من بلد إلى بلد.

بِأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَتْكَ عَبْدًا ... وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الْإِمَاءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ الله فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لَخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

وإنما نقلت لك هذه القطعة من شعر حسان؛ لأنها تمثل خصومة ذلك العهد أصدق تمثيل، فليس عندي شك في أنه كان لقريش شعراء فحول يقارعون شعراء الرسول، وليس عندي شك في أنه كان لليهود شعراء يجمعون بين حسن القول وظلمة الارتياب، وحسبك أن تعرف أنه كان فيهم من يقول:

فَلَوْ كَانَ مُوسَى صَادِقًا مَا ظَهَرْتُمُو ... عَلَيْنَا وَلكِنْ دَوْلَةٌ ثُمَّ تَذْهَبُ

ولكن رأى النبي أن يقضي قضاءً مبرمًا على من عارضه من شعراء قريش، وشعراء اليهود: لأن الدين في نفسه أعز من أن يهادن أعداءه أو يفتر عن حرب خصومه من الشعراء، وكذلك باد وانقرض ما ترك حزب المعارضة لذلك العهد منهم الآثار الأدبية والفنية، وما خلف من الآراء الفلسفية والاجتماعية، وأصبحنا لا نعرف من الحركة العقلية في ذلك العصر غير ما رواه المسلمون، وهم لا يروون بالطبع إلا ما فيه للإسلام نصر وتأييد، وصار من المتعذر على الباحث أن يضع لذلك العصر صورة صحيحة مضبوطة، لم تلونها الأغراض والأهواء، وأقول: الأغراض والأهواء؛ لأن القضاء على آثار الحزب المعارض لعهد النبوة إنما كان طاعة للأهواء الجامحة التي لم يعرف أصحابها خطر هذه الجناية على تقدير قوة الإسلام من الوجهة الروحية، والعقلية والاجتماعية.

أفتحسب أن من مجد الإسلام أن تثبت أن العالم كان محطم الأركان، مهدم الجوانب، وأن العقول كانت خلت من روعة الإيمان، ثم جاء الإسلام، فلم يجد غير أنقاض من الهمم، وأطلال من العزائم، وخرائب من العقول والقلوب؟

هيهات هيهات!

إن مجد الإسلام في أن تثبت خطر العهد الذي نشأ فيه من الوجهة العقلية؛ لترى كيف تقارعت الحجج، وتصاولت البراهين؛ ولترى كيف انتصر النبي على خصومه الأقوياء، الذين وصفهم القرآن بقوة النطق حين قال: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾. وبعنف الخصومة حين قال: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾. وبسحر البيان حين قال: ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ وبشدة

المكر حين قال: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾. وبرجاحة العقل حين قال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

٢

ونعود فنذكر أن الحملة التي وجهت إلى الشعر على أثر ما كان من لدد شعراء اليهود، وتوثب شعراء المشركين، أثرت تأثيرًا عميقًا في حياة المسلمين من الوجهة الأدبية، فرأيناهم يسرفون في بغض الشعر، والنيل من الشعراء، وكان من ذلك أن قيل لسعيد بن المسيب: إن قومًا بالعراق يكرهون الشعر فقال: نسكوا نسكًا أعجميًّا! وسئل ابن سيرين في المسجد عن رواية الشعر في رمضان — وقد قال قوم: إنها تنقض الوضوء — فقال:

نُبِّئْتُ أَنَّ فَتَاةً كُنْتُ أَخْطُبُهَا ... عُرقُوبُهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ فِي الطُّولِ

ثم قام فأمّ الناس!

وسئل ابن عباس: هل الشعر من رفث القول؟ فأنشد:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بنَا هَمِيسًا ... إِنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ ننك لَمِيسَا

وقال: إنما الرفث عند النساء، ثم أحرم للصلاة!

ثم جرى على ألسنة الجماهير أن الشعر لا يليق بالفقهاء والمحدثين، فرأيناهم يسألون عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أتقول الشعر في فقهك وورعك؟ فأجاب: لا بد للمصدور أن ينفث!

وهذا الفقيه هو صاحب هذه الأبيات الرائعة:

شَقَقْتِ الْقَلْبَ ثُمَّ ذَرَرْتِ فيهِ ... هَوَاكِ فَلِيمَ فَالْتَأَمَ الفُطُورُ
تَغَلْغَلَ حُبُّ عَثْمة فِي فُؤَادِي ... فَبَادِيهِ مَعَ الْخَافِي بَسَيرُ
تَغَلْغَلَ حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْ شَرَابٌ ... ولا حُزْنٌ وَلَمْ يَبْلُغْ سُرُورُ

ورأيناهم يزعمون أن الإمام الشافعي قال:

وَلَوْلاَ الشِّعْرُ بالْعُلَمَاءِ يُزْرِي لَكُنتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَبيدِ

ولا يزال شيوخ الأزهر مختلفين في بدء الشعر بالبسملة؛ لأنه فيما يرون ليس من الأمور ذوات البال!

ولا أدل على هوان الشعر في نظر الفقهاء من قول الغزالي: «وأما الشعر فكلام حسنه حسنٌ وقبيحه قبيح». وهذا كله من أثر الحملة التي وجهت إلى الشعر والشعراء.

ولكن الشعر من الفنون الفطرية التي كلف بها الإنسان منذ عهد بعيد، والمسلمون ككل الأمم لم يكن لهم بد من حياة الفنون، وكذلك نهضوا داعين إلى رواية الشعر وإجارة الشعراء، ولكنهم لم يدعوا إلى الشعر باعتبار أنه فن جميل، وإنما دعوا إليه باسم الدين، فقالوا: إن النبي كان يرتجز بقول ابن رواحة، وقد أصيبت إصبعه في إحدى المواقع:

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصبَعٌ دَميتِ وَفِي سَبِيلِ الله مَا لَقِيتِ

وحبروا الفصول الضافية في أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء: فنسبوا لأبي بكر الصديق قصيدة طويلة مطلعها:

أَمِنْ طَيْفِ سَلْمَى بالرِّمَاحِ الدَّمَائِثِ أَرِقْتَ أَوَامْرٍ فِي الْعَشِيرَةِ حَادِثِ

ونسبوا إلى عمر وعثمان طائفة من المقطوعات، ونسبوا إلى عليّ طائفة من القصائد، ونقل الفيروزآبادي عن المازني وصوبه الزمخشري أنه لم يصح أن علي بن أبي طالب تكلم بشيء من الشعر غير هذين البيتين:

تِلْكُم قُرَيْشٌ تَمَنَّاني لِتَقْتُلني فَلا وَرَبِّك ما بَرُّوا ولا ظَفِروا
فَإِنْ هَلَكْتُ فَرَهْنٌ ذِمَّتي لَهُمو بِذاتِ وَدْقَين لا يَعْفو لَها أَثَرُ

وقال ابن رشيق بعد أن ذكر طائفة من شعر الأئمة والقضاة:

وقد كان جماعة من أصحاب مالك بن أنس يرون الغناء بغير آلة جائزًا، وهو مذهب جماعة من أهل مكة والمدينة والغناء حلة الشعر إن لم يلبسها طويت، ومحال أن يحرم الشعر من يحل الغناء به.

وحسب الشعر هوانًا أن تقول: إنه مباح!

أفترى بعد هذا البيان أن مقدور الناقد أن يوازن بين حسان بن ثابت مثلًا وبين واحد ممن عاصروه من شعراء المشركين واليهود؟ كيف، وقد عصفت الحوادث بما ترك شعراء الحزب المغلوب، وبقي شعر حسان بفضل ما صاغ له رسول الله من عقود الثناء؟ على أن هذا لا يمنع أن يكون حسان سيد الشعراء في عصره، ولكن هات ما ترك أقرانه لنستطيع الموازنة؛ ولنصل بها إلى علم اليقين، فقلما تنفع الظنون.

وإنك لتجد ما يدعوك إلى الحذر إذا تخطيت عهد النبوة، وانحدرت إلى عهد بني أمية، أو عصر بني العباس: هناك ترحم نفسك من التوغل في بيداء الضلال، وهناك تجد شعراء العلويين في عهد بني أمية، وشعراء الأمويين في عصر بني العباس، تجد هؤلاء وأولئك يقاسون ألوان العنت وصنوف الجهد في كتم ما ينم عن مشاربهم الاجتماعية، ومنازعهم السياسية، وأكتفي الآن بمثال واحد، ولو شئت لضربت لك عشرات الأمثال:

ذكروا أن المتوكل على الله كان في اجتيازه إلى دمشق قد وجد في حائط من حيطان دير الرصافة رقعة ملصقة فيها هذه الأبيات:

أيا منزلًا بالدَّيْرِ أصْبَح خَالِيًا ... تَـلاعَـبُ فِـيـهِ شَـمْـأَلٌ وَدَبُـورُ
كَأَنَّكَ لَمْ يَسْكُنْكَ بِيضٌ أَوانِسٌ ... وَلَـمْ تَتَبَخْتَرْ في فِنَائِكَ حُورُ
وَأَبْـنَـاءُ أَمْـلاكٍ عَـبَـاشِـمُ سَـادَةٌ ... صَـغِـيرُهُـمُـو عِنْدَ الأَنَامِ كَبِيرُ
إذَا لَـبِسُـوا أَدْرَاعَـهُـمْ فَـعَـوَابِس ... وَإِنْ لَـبِسُـوا تِيجَـانَـهُـمْ فَبُدُورُ[٧]
على أَنَّهُمْ يَوْمَ اللِّقَاءِ ضَرَاغِمٌ ... وَأَنَّـهُـمُـو يَـوْمَ الـنَّـوَالِ بُـحُـورُ
لَيَالِي هِشَامٌ بالرُّصَافَةِ قَاطِنٌ ... وَفِـيكَ ابـنـه يَا دَيْرُ وَهْوَ أَمِـيرُ
إِذِ الْعَيْشُ غَضٌّ وَالخِلاَفَةُ لَدْنَةٌ ... وَأَنْـتَ طَـرِيـبٌ وَالـزَّمَـانُ غَـرِيـرُ

[٧] العنابس: الأسود.

وَرَوْضُكَ مُرْتَاضٌ وَنَوْرُكَ نَيِّرٌ وَعَيْشُ بَنِي مَرْوَانَ فِيكَ نَضِيرُ
بَلى فَسَقَاكَ الْغَيْثُ صَوْبَ سَحَائِب عَلَيْكَ بَهَا بَعْدَ الرَّوَاحِ بُكُورُ
تَذَكَّرْتُ قَوْمِي خاليًا فَبَكَيْتُهُمْ بِشَجْوٍ وَمِثْلِي بِالْبُكَاءِ جَدِيرُ
لَعَلَّ زَمَانًا جَارَ يَوْمًا عَلَيْهِمُو لَهُمْ بِالَّتِي تَهْوَى النُّفُوسُ يَدُورُ
فَيَفْرَحَ مَحْزُونٌ وَيَنْعَمَ بَائِسٌ وَيُطْلَقَ مِنْ ضِيقِ الوَثَاقِ أَسِيرُ
رُوَيْدَكَ إنَّ الدَّهْرَ يَتْبَعُهُ غَدٌ وَإنَّ صُرُوفَ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

قال ياقوت: فارتاع المتوكل عند قراءتها واستدعى الديراني وسأله عنها، فأنكر أن يكون علم من كتبها، فهم بقتله، فسأله الندماء فيه، وقالوا: ليس ممن يتهم بميل إلى دولة دون دولة. فتركه ثم بان أن الأبيات من شعر رجل من ولد روح بن زنباع الجذامي من أخوال ولد هاشم بن عبد الملك.

وكذلك عصفت السياسة بما ترك شعراء الأحزاب، وتهدمت صروح من الآداب بما ضاع من الشعر السياسي فيما خلا من العصور، وكلنا يذكر ما لقي شعراء البرامكة من عنف الرشيد.

ومن هنا وجب على الناقد حين يوازن بين شاعرين أن يعرف ما أحاط بهما من مختلف الظروف ليكون في حكمه قريبًا من الصواب، فقد رأينا كيف تطمس القوة معالم الشعر البليغ.

الفصل الخامس

نفسية الناقد

١

قلت فيما سلف: إن الموازنة نوع من القضاء، والآن نريد أن نبين أن الناقد كالقاضي، فكما يجب على الحكم أن ينزه نفسه عن جميع الأغراض حين يتقدم للحكم بين الناس، كذلك يجب على الناقد أن يبرئ نفسه من جميع الأغراض حين يتقدم للموازنة بين الشعراء.

فإذا أردت أن توازن بين شاعرين فامتحن نفسك قبل ذلك، فإن رأيت في نفسك الميل لتفضيل أحدهما على الآخر لسبب لا تسيطر عليه الحاسة الفنية، فاعلم أنك في ترجيحك متهم ظنين، وإن رأيت نصرة الأدب والحق تغلب على جميع ما لك من النوازع، وآنست في نفسك القدرة على مقاومة ما يعترضك من التقاليد — ولعالم الأدب أيضًا رسوم وتقاليد — فتقدم إلى الموازنة وثق أن الرغبة في نصرة الحق حليفة الفوز المبين.

وأنا ذاكر لك من الشواهد على ما يفعل الغرض بالموازنة ما نقله صاحب زهر الآداب عن الخاتمي إذ قال:

جمعني ورجلين من مشايخ البصرة، ومن يؤبه إليه في علم الشعر، مجلس بعض الرؤساء، وكان خبره قد سبق إليّ في عصبيته للبحتري، وتفضيله إياه على أبي تمام، ووجدت صاحب المجلس مؤثرًا لاستماع كلامنا في هذا المعنى، فأنشأت قولًا أنحيت فيه على البحتري إنحاءً أسرفت فيه، واقتدحت زناد الرجال: فتكلم وتكلمت، وخضنا في أفانين من التفضيل والمماثلة، غلوت في جميعها غلوًّا شهده جميع من حضر، وخضنا في أفانين في المجلس، وكانوا جلة الوقت وأعيان الفضل، فاضطر إلى أن قال: ما يحسن أبو تمام أن يبتدئ، ولا أن يخرج، ولا أن يختم، ولو لم يكن للبحتري عليه من الفضل

إلا حسن ابتدائه، ولطف خروجه، وسرعة انتهائه، لوجب أن يقع التسليم له، فكيف بأوابده التي تزداد على التكرار غضاضة وجدة؟

ثم أقبل عليَّ فقال: أين يُذْهب بك عن ابتدائه:

عَارَضْنَنا أصُلاَ فَقُلْنا الرَّبْرَبُ   حَتَّى أضَاءَ الأُقْحُوانُ الأشْنَبُ[1]
واخضَرّ مَوْشِيُّ البُرُودِ وقَدْ بَدا   مِنْهُنّ ديبَاجُ الخُدودِ المُذْهَبُ

وأين لأبي تمام مثل خروجه حيث يقول:

أَدارَهُمُ الْأولَى بدارَةِ جُلْجُلٍ   سَقَاكِ الْحَيَا رَيْحانُهُ وَبَوَاكِرُهُ
وَجَاءَكِ يَحكِي يُوسفَ بْنَ مُحَمَّد   فَروَّتْكِ رَيَّاهُ وجَادَكِ مَاطِرُهْ

وأنَّى لأبي تمام مثل حسن انتهائه حيث يقول:

إِلَيْكَ الْقَوافي نَازعَاتٍ شَوارِدًا   يُسَيَّرُ ضافي وَشْيِهَا وَيُنَمْنَمُ
وَمُشْرِقَة في النَّظْمِ غُرًّا يَزِيدُها   بَهاءً وَحُسْنًا أنَّها لَك تُنْظَمُ

وقوله في هذا المعنى:

ألسْتُ الْمُوالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِد   هي الأنجم اقتادتْ مع الليل أنجُمَا
ثناءً تَخَالُ الرَّوْضَ فيهِ مُنَوِّرًا   ضُحًىً وتَخالُ الوَشْيَ فيه مُنَمْنَما

ولقد تقدم البحتري الناس كلهم في قوله:

لَوْ أن مُشْتاقًا تَكَلَّفَ فَوْقَ ما   في وُسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ المِنْبَرُ

هذه خلاصة الجزء الأول من هذه المحاورة التي وضعت في الموازنة بين أبي تمام والبحتري، وقبل عرض الجزء الثاني نلفت نظر القارئ إلى اختبار «نفسية» الحاتمي

[1] الأشنب: من الشنب بفتحتين، وهو برد ورقة وعذوبة في الأسنان.

صاحب هذا الحديث، فإنا نجده يذكر أنه كان يعلم عصبية مناظرته للبحتري، وتفضيله إياه أبي تمام، ويذكر أنه تعمد الإنحاء على البحتري ليقتدح زناد خصمه وأنه غلا في المماثلة غلوًّا شهده جميع من حضر، وأنه اضطر خصمه إلى أن يزعم أن أبا تمام لا يحسن الابتداء، ولا الخروج، ولا الانتهاء، إلى آخر ما قال.

فكيف إذن تقبل هذه الموازنة، وهي مصحوبة بهذا العمد، ومسبوقة بذلك الإصرار؟ ثم قال: «وكنت ساكتًا إلى أن استتم كلامه، وكأن الجماعة أعجبهم ذلك عصبية عليَّ لا على أبي تمام؛ لأني كنت كالشحا معترضًا في لهواتهم، وأسر كل واحد منهم إلى صاحبه سرًّا يومئ به إلى استيلاء الوجل عليّ، فلما استتم كلامه، وبرقت له بارقة طمع في تسليمي له ابتدأت فقلت: لست ممن يُقَعقع له بالحصى، أو تقرع له العصا، لا إله إلا الله! استتنت الفصال حتى القرعى! هل هذه إلا عوان مقترعة، قد تقدم أبو تمام إلى سبك نضارها، وافتضاض أبكارها: وجرى البحتري على وتيرته في انتزاع أمثالها وأتباعها».

وهذه القطعة تدل كذلك على أن هذه ليست موازنة بين شاعرين، وإنما هي مقارعة بين خصمين يريد كل منهما أن يقهر صاحبه، وأن يفوز بإعجاب الحاضرين، ألا ترى كيف فطن الحاتمي إلى رضا الجماعة عن فوز البحتري، وأن ذلك كان عصبية عليه لا على أبي تمام، وكيف أسر كل واحد منهم إلى صاحبه مشيرًا إلى استيلاء الوجل عليه، ثم انظر كيف غضب وكيف ثار: لترى أنه لم يغضب للحق، وإنما غضب لنفسه ولم ينتصر للأدب، وإنما انتصر لهواه.

ثم اندفع يذكر أن قول البحتري في صفة الغيث مخاطبًا الدار:

وَجَاءَكِ يَحكِي يُوسفَ بْنَ مُحَمَّد فَروَّتْكِ رَيَّاهُ وجَادَكِ مَاطِرُهْ

مأخوذ من قول أبي تمام:

وبُيُوتُهَا في الْقَلْبِ نُؤْيٌ شَفَّهُ وَلَهٌ بِظاعِنِها وَبِالْمُتَخَلِّفِ
وَكأنَّما اسْتَسْقَى لَهُنَّ مُحَمَّدٌ مِنْ سَوْمِهِنّ مِنَ الْحَيا في زُخْرُفِ

وأن البحتري أخذ قوله:

لَوْ أن مُشْتاقًا تَكَلَّفَ فَوْقَ ما   في وُسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ المِنْبَرُ

من قول أبي تمام الذي تقدم فيه كل أحد لفظًا رشيقًا ومعنى دقيقًا:

دِيمةٌ سَمْحَةُ الْقِيَادِ سَكُوبُ   مُسْتَغيثٌ بِها الثَّرَى المَكْروبُ
لَوْ سَعَتْ بُقْعَةٌ لإِعْظامِ نُعْمى   لَسَعَى نَحْوَها الْمَكانُ الْجَديبُ

وأن قوله في صفة القوافي:

يُسيَّرُ ضَافي وَشْيَها وَيُنْمَنَمُ

وقوله في صفتها:

ثناءً تَخَالُ الرَّوْضَ فيهِ مُنَوِّرًا   ضُحًىً وتَخالُ الوَشْيَ فيه مُنَمْنَما

إنما أخذه من قول أبي تمام:

حَلُّوا بَها عُقَدَ النَّسيمِ وَنَمْنَموا   مِنْ وَشْيها نَثْرًا لَها وَقَصيدا

ومن قوله الذي أبدع فيه:

وَوالله لا أَنْفَكُّ أَهْدي شَوارِدًا   إِليْكَ تَحَمَلْن الثَّنَاءَ الْمُبَجَّلا
تَخالُ بِهِ بُرْدًا عَلَيْكَ مُحَبَّرًا   وَتَحْسَبُهُ عِقْدًا عَلَيْكَ مُفُصَّلا
أَلَذَّ مِنَ السَّلْوَى وَأطيَبَ نَفْحَةً   مِنَ المِسْكِ مَفْتونًا وأَيْسَرَ مَحْمَلا
أَخَفَّ عَلَى قَلْبي وَأَثْقَلَ قيمةً   وَأَقْصَرَ في قَلْبِ الْجَليسِ وأَطْوَلا

وأن قول البحتري:

هي الأنجم اقتادتْ مع الليل أنجُمَا

مأخوذ من قول أبي تمام مقصرًا عن استيفاء إحسانه حيث يقول:

أَصِخْ تَسْتَمِع حُرَّ الْقوافي فإنَّها   كَـواكِـبُ إلَّا أنَّـهـنَّ سُـعُـودُ
ولا يُمْكِنُ الإخْلاقُ مِنْها فإنَّما   يَلذُّ لِباسُ البُرْدِ وهْوَ جِديدُ

وبعد بيان هذه المآخذ يذكر الحاتمي أنه قال لمناظره:

فهذه خصال صاحبك فيما عددته من محاسنه التي هتكت بها ستر عواره، ونشرت مطوي أسراره. حتى استوضحت الجماعة أن إحسانه فيها عارية مرتجعة، ووديعة منتزعة.

والعناد ظاهر في هذا الكلام.

ثم أخذ يسرد طائفة من ابتداءات أبي تمام وانتهاءاته، ونماذج من حسن تخلصه، ولطف اقتضابه، وبراعة وصفه للقوافي، فاستحسن ابتداءه إذ قال:

لا أنْتِ أنْتِ ولا الدِّيارُ دِيارُ   حَفَّ الْهَوى وَتَقَضَّتِ الأوْطارُ

وزعم أن لن يستطيع أحد أن يبتدئ بمثل ابتدائه حيث يقول:

طَلَلَ الْجَميعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حميدا   وَكَفَى عَلَى رُزْئي بَذاكَ شهيدا
دِمَنٌ كأنَّ الْبَيْنَ أصْبَحَ طَالِبًا   دَيـنـًا لَـدَى آرامِـهـا وَحـقـودا

وحيث يقول:

ما في وقوفِك ساعَةٌ مِنْ باسِ   نَقْضي حقوقَ الأرْبُعِ الأدْراسِ
فَلَعَلَّ عَيْنَكَ أنْ تَجودَ بِدَمْعَها   وَالدَّمْعُ مِنْهُ خاذِلٌ وَمواسي

واستملح اقتضابه حين قال:

الحَقُّ أبْلجُ والسُّيوفُ عَوارِ   فَحَذارِ مِنْ أسْد الْعَرينِ حَذارِ

واستجاد تخلصه إذ يقول:

إنَّ الَّذي خلق الْخلائِقَ قاتَها   أقْواتَها لِتَصَرُّفِ الأحْرَاسِ
فالْأرْضُ مَعْروفُ السَّماءِ قِرًى لَها   وَبَنُو الرَّجاءِ لَهُمْ بَنو العَبَّاسِ
القَوْمُ ظِلُّ اللَّهِ أسكَنَ دِينَه   فِيهِمْ وهُمْ جبَلُ المُلوكِ الرَّاسي

وزعم أن أبا تمام هو الذي وصف القوافي بما لم يستطع أحد وصفها به فقال:

جَاءَتْكَ مِنْ نظْمِ اللِّسَانِ قِلادَةٌ   سِمْطَانِ فيهَا الُّلؤلُؤ المكْنُونُ
إنْسِيَّةٌ وَحْشِيَّة كَثُرَتْ بَها   حَرَكاتُ أَهْلِ الأرضِ وَهْيَ سَكون
يَنْبوعُها خضِلٌ وَحَلْيُ قَريضِها   حَلْيُ الْهُدَى وَنسيجُها مَوْضونُ
قدْ حَاكَهَا صَنَعُ الضَّمِيرِ يَمُدُّهُ   حَسَبٌ إذَا نَضَبَ الكلامُ مَعِينُ
أمَّا المعانِي فهْيَ أَبْكارٌ إذَا   نُصَّتْ وَلَكنَّ الْقَوافِيَ عُونُ

هذا أهم ما ورد في حديث الحاتمي، وهو طويل ذكره برمته صاحب الآداب، والذي يعنيني منه هو ما فيه من العمد إلى النيل من البحتري والإصرار على كبت منافسه، وظهوره عليه، وظفر به، وانظر كيف يقول في ختام الحديث: «هل يستطيع أحد أن ينسب هذا، أو شيئًا منه إلى السرقة والاختلاس؟ وهل يستطيع مماثلته بشيء من شعر البحتري، أو أشعار المحدثين في عصره، من قبله؟ فعيي عن الجواب قصورًا، وأحجم المساجلة تقصيرًا، وحكمت الجماعة لي بالقهر، وعليه بالنصر، ولم ينصرف عن المجلس حتى اعترف بتقديم أبي تمام في صنعة البديع واختراع المعاني على جميع المحدثين، وكان يومًا مشهودًا»[٢].

---

[٢] ومع هذا التحامل كان الحاتمي من أئمة النقد الأدبي. انظر ما كتب عنه بالجزء الثاني كتاب «النثر الفني»؛ لترى قيمة هذا الناقد، وتعرف ما له وما عليه.

٢

وهذا النوع من النقد لا قيمة له، ولكنه مع الأسف ظاهر كل الظهور مناهج القدماء، فقد كان بشار يقول: أنا أشعر الناس، فإذا سئل في ذلك أجاب بأن له اثني عشر ألف قصيدة لا تخلو واحدة منها عن بيت نادر، ومن ندر له اثنا عشر ألف بيت فهو أشعر الناس. وكانوا يختلفون في الموازنة بين جرير والفرزدق؛ ثم يفضلون جريرًا لأنه قال:

إن الَّذينَ غدَوْا بِلُبِّكَ غادَروا   وَشَلًا بِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَعِينَا
غيَّضْنَ مِنْ عَبَرَاتِهِنَّ وقُلْنَ لي   مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَى ولَقِينَا

فإذا سألتهم كيف سما جرير بهذين البيتين حتى بذّ الفرزدق؟ أجابوك: الفرزدق في فسوقه وفجوره، لم يجد التشبيب كما أجاده جرير في تحرجه وعفافه.

وقد يقولون: جرير أشعر؛ لأن الفرزدق ماتت امرأته فلم يبكها إلا برائية جرير في امرأته، وهي القصيدة التي مطلعها:

لوْلا الحَياءُ لهاجَني اسْتِعْبارُ   وَلزُرْتُ قَبْرَكِ وَالْحَبيبُ يُزارُ

وكانوا إذا ذكر شعراء الجاهلية قدم فريق منهم امرأ القيس لقوله:

قِفا نبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبيبٍ وَمَنْزِلِ   بِسِقْطِ اللِّوى بَيْنَ الدَّخولِ فحَومْلِ

وقالوا: إنه بكى واستبكى وذكر الأحبة في بيت واحد!!
وقدم آخرون النابغة الذبياني لقوله:

نُبِّئْتُ أنَّ أبا قابوسَ أوْعَدَني   وَلا قرَارَ عَلى زأرٍ مِنَ الأسَدِ

أو لقوله:

فإنَّكَ كاللَّيْلِ الَّذي هوَ مُدْرِكي   وإنْ خِلْتُ أَنَّ المُنْتأى عَنْكَ واسِعُ

ومنهم من زعم أن أغزل بيت قاله العرب قول بشار:

أنا واللهِ أشْتَهي سِحْرَ عَيْنيـ ـكِ وَأخْشى مَصارعَ الْعُشَّاقِ

وأن أحكم بيت قاله العرب قول أبي ذؤيب الهذلي:

والنَّفْسُ راغِبةٌ إذا رَغَّبْتَها وَإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تقْنَع

٣

وكان يجدر بأدباء هذا العصر أن يضعوا خطة جديدة، لنقد الشعر والنثر غير ذلك المنهج الذي يرتكز على تأمل الشطرة في نقد الشعر، والفقرة في نقد النثر، ولكنهم نسجوا على منوال المتقدمين، فتراهم يعنون حين يظهر كتاب جديد بالبحث عن مسلكه في استعمال الألفاظ وربما رجعوا إلى معجم اللغة؛ ليتبينوا الفرق بين الوضع القديم والوضع الجديد، وقد أذكر أن الأستاذ صادق عنبر نقد كتاب البؤساء، فلم يجد وجهًا لتخطئة المترجم غير استعمال بعض الألفاظ، فرد عليه الأستاذ علام سلامة يصحح استعمال تلك الألفاظ، فحافظ إبراهيم مخطئ في نظر صادق عنبر لبعده عن معجم اللغة، وهو مصيب في نظر علام سلامة لقربه من المعجم!

والحق أن الاعتماد على نقد الشطرة، والفقرة، واللفظة، لا يقدم ولا يؤخر في الموازنة بين الكتاب والخطباء والشعراء، فلا يمكن أن تصبح الخطة، أو الرسالة، أو القصيدة جيدة: لأن ألفاظها جميعًا مختارة، ولا أن تمسي سقيمة؛ لأن فيها ألفاظًا نابية، وإن كان تخير اللفظ من أهم ما يعنى به الكاتب، والشاعر، والخطيب، وسأعود إلى هذا البحث حين أشرح نظرية: «الصور الشعرية». وحين أتكلم عن إعجاز القرآن.

وأرجو أن يكون القارئ اقتنع بما بينته من عقم تلك الطريقة التي ترتكز على استقراء الأبيات المختارة في الموازنة بين الشعراء، فإن كان في ريب مما أسلفناه فليجب على هذا السؤال: أيرضيه أن أقول: إن شوقي أشعر الناس لقوله:

وطَني لَوْ شُغِلْتُ بِالْخُلْد عنْهُ نَازعَتْني إليْه في الْخُلْد نفْسي

ومطران أشعر الناس لقوله:

بناتِ الدَّهْرِ عوجي لا تهابي خلا الْوادي مِنْ الأسْدِ الْغِضَابِ

وحافظ أشعر الناس لقوله:

عَمِلْتُمْ عَلى عِزِّ الْجَمادِ وَذُلِّنا فأغْليْتُمُو طِيناً وَأرْخصْتُمُو دَمَا

إنك أيها القارئ لا ترضى عن هذه الخطة المبهمة؛ لأنها تبيح لمثلي أن يزعم أنه أشعر الناس؛ لأنه يقول:

بَقيَّةٌ مِنْ صِباكَ الغضِّ باقِيَةٌ وَجَذْوَةٌ مِنْ غَرامي وَقْدُها باقي
تَعَالَ نُحْي شهِيدَ اللَّهْوِ ثانِيَةً وَنصْرَعِ الْهمَّ بَيْنَ الكاسِ والسَّاقي

الفصل السادس

الحاسة الفنية

١

هذا تعبير حديث يقابل: «سلامة الذوق». أو: «الذوق السليم» في عرف المتقدمين، والحاسة الفنية في نظري أدق من سلامة الذوق؛ لأن فيها من معنى الفاعلية والإحاطة ما لا نجده في التعبير القديم، وهي ترجمة لكلمة sens التي يراد بها في هذا المقام أن تؤدي معنى ملكة التمييز، أو قوة الإدراك، ومع أنها أدق فهي تشمل سائر الفنون بخلاف كلمة: «الذوق». فإنها قد تكون بمعنى الشعور بالحسن، وقد تكون عبارة عن الميل الخاص.

وقد بينا في البحث الأول: أنه يجب أن يصل من يتصدر للموازنة بين الشعراء إلى درجة عليا في فهم الأدب، وأن يصبح وله في النقد حاسة فنية تنأى به عن كل ما يفسد حكمه من الأهواء والأغراض، وذكرنا أن من الناس من يطرب للشعر لا لأنه شعر؛ بل لأنه طرق موضوعًا يحبه، وكشف عن معنى تميل نفسه إليه، وقد لا يكون ما سمعه، أو قرأه جميلًا من الوجهة الفنية، ثم ضربنا لذلك الأمثال.

والآن نعود إلى «الحاسة الفنية» بشيء من التفصيل: فنذكر كيف عَوّل عليها المتقدمون من رجال البيان، ونبين الوسيلة إلى الظفر بهذه الموهبة العزيزة المنال، ثم نميط اللثام عن حقيقة هذه الحاسة، التي لا تظهر ظهورًا جليًّا إلا حين نمعن في الخفاء.

٢

يرى صاحب المثل السائر «أن مدار علم البيان على حكم الذوق السليم، الذي هو أنفع من ذوق التعليم، وأن الدربة والإدمان أجدى على القارئ نفعًا، وأهدى بصرًا وسمعًا، وأنهما يريانه الخير عيانًا، ويجعلان عسره من القول إمكانًا، وكل جارحة منه قلبًا ولسانًا». ويقول لقارئ كتابه: «فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك، واستنبط بإدمانك ما أخطأك، وما مَثَلي فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طبع سيفًا، ووضعه في يمينك لتقاتل به، وليس عليه أن يخلق لك قلبًا، فإن حمل النصال غير مباشرة القتال»[١].

ومعنى هذا أن كتب القواعد لا تورث القارئ «الذوق» ولا تمنحه «الحاسة الفنية». وإنما يكسب ذلك بالدربة والإدمان على مطالعة الكلام البليغ، والقواعد لا تنفع من لا ذوق له: كما لا ينفع السيف من لا قلب له.

وَإِنَّمَا يَبْلُغُ الإنْسانُ طاقتهُ ما كُلُّ ماشِيةٍ بالرَّحْلِ شِمْلالُ[٢]

ولكن لا تحسب أن إدمان الاطلاع كاف لكسب الذوق، بل يجب أن تكون المطالعات مصحوبة بالفهم، والتذوق لجمال القول وسحر البيان. أما إذا كان الغرض من القراءة حفظ الشواهد والأمثال — كما يفعل رجال اللغة والرواية — فإنه يبعد أن يظفر القارئ بالحاسة الفنية، وهذا أبو العباس المبرد كان في عمله واطلاعه يذكر أنه كان يحتاج إلى اعتذار من فلتة، أو التماس حاجة، فيجعل المعنى الذي قصده نصب عينيه، ثم لا يجد سبيلًا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان … ولا سبب لذلك فيما يرى إلا أن المبرد لم يعن بدرس أسرار البلاغة، وإنما انصرفت همته إلى اللغة والرواية، والنحو، والتصريف. ومن هنا لم يحسن الاختيار.

قال الجاحظ: طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت، لا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات.

[١] ص ٣ من المثل السائر.

[٢] الشملال، الناقة الخفيفة.

ولم يبين الجاحظ سبب هذا ولا فسره ابن رشيق، وقد بينت لك أن تقدم الكتاب على الرواة في فهم البلاغة إنما يرجع إلى كلف الكتاب وشغفهم بالوقوف على سر البيان؛ لأنهم يزاولون البلاغة من طريق الأداء، لا من طريق النقل، والفرق بين الوجهتين بعيد، ومن ثم كان الكتاب: «أرق الناس في الشعر طبعًا، وأملحهم تصنيفًا، وأحلاهم ألفاظًا وألطفهم معاني، وأقدرهم على التصرف، وأبعدهم من التكلف»[٣]. وكانوا يرونهم دهاقين الكلام، ويستملحون ما يجودون به من حين إلى حين، كقول إبراهيم بن العباس الصولي:

ابْـتـداءٌ بِـالـتـجَـنِّـي　　وَاقْتِضاءٌ بِالتَّظْنِّي
وَاشْـتِـفـاءٌ بِـتـجَـنِّـيـ　　ـكَ لأَعْدائِكَ مِـنِّـي
بأبي قُلْ لي لِكيْ أعْـ　　ـلمَ لمْ أعْرَضْتَ عَنِّي
قدْ تَمَنَّى ذاكَ أعْدا　　ئِي فقدْ نالُوا التمَنِّي

وكقول محمد بن عبد الملك الزيات:

قـامَ بِـقـلْـبـي وَقـعَـدْ　　لَمَّا نَفَى عَنِّي الْجَلدْ
يا صاحِبَ الْقصْرِ الّذي　　أسْـهـرَ عَـيْـنِـي وَرَقـدْ
وَاعَـطَـشـي إلـىَ فـمٍ　　يَـمْـجُّ خـمْـرًا مِـنْ بَـرَدْ
إنْ قُسِمَ النَّاسُ فحَسْـ　　ـبي بِكَ مِنْ كُلِّ أحَدْ

وكقول ابن رشيق:

قدْ أحْكمتْ مِنِّي التَّجا　　ربُ كُلِّ شْيءٍ غيْر جودي
أبـدًا أَقـولُ لـئِـنْ كـسْـبـ　　ـتُ لأقْبِضنَّ يَدَيْ شديد
حَـتَّـى إذا أثْـرَيْـتُ عُـدْ　　ـتُ إلى السَّمَاحَةِ منْ جَديد
إنَّ الـمْـقـام بِـمِـثْـل حـا　　لـي لا يـتـمُّ مَـعَ الْـقـعُـود

[٣] عبارة صاحب «العمدة» في أشعار الكتاب.

لا بُدّ لي مِنْ رحْلةٍ تُدْنِي مِنَ الْأَمَل الْبَعِيد

وكان أستاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدي يقول: «كما أن اللسان لا يمرن على النطق بالصواب إلا بالمحاكاة كذلك الذهن لا يمرن على الفهم الصحيح، ولا يجول في ميدان فسيح من المعاني، ولا يقدر الأشياء قدرها، إلا بالمقارنات الكثيرة التي تمثل في النفس لكل شاعر صورة وتقرر له حكمًا غير مزعزع ولا مدافع».

وما نسميه (الحاسة الفنية) كان يسميه (ملكة الأدب)، وكانت السبيل عنده لتحصيل هذه الملكة هي المقابلة بين المعاني والألفاظ، والمقارنة بين المفردات والأساليب، وتعليل كل تحسين وتقبيح بما يقنع المتأدب، ويدنيه من الفهم الصحيح.

٣

وأعود فأذكر أن الحاسة الفنية عزيزة المنال، ومع هذا يدعيها جميع الناس، وإنما كانت عزيزة المنال؛ لأننا نزن بها البيان، والبيان كالجمال كثير التعقيد. ألا ترى أنك لا تعتد برأي من يحسب البياض نصف الحسن، ويرى تمام الصباحة في الجمع بين سواد الشعر وبياض الجبين؟ وكان ذلك لأن الجمال نوعان: معقد وبسيط، وأريد بالجمال البسيط ذلك النوع من الوسامة الذي يدركه أكثر الناس، والذي يعرف بتناسب الأعضاء، وهذا النوع في سهولته وبساطته يشبه الألوان الأخاذه التي يهش لها صغار الأحلام من النساء والأطفال. أما الجمال المعقد — وما أروع الجمال المعقد — فهو ذلك النوع الخطر الذي لا يفهمه إلا أصحاب الأذواق، وهذا النوع من الصباحة لا يرجع إلى فتنة الخدود، وسحر العيون، وإنما يرجع إلى ما هو أخطر من ذلك، يرجع إلى دقائق من الحس، وغرائب من الملاحة، لا يعرف تأويلها غير الراسخين في علم الجمال.

حدثني بربك كم في هذه «الأعداد» التي تراها في طريقك ممن يتذوق جمال اللفتة، والخطرة، والمشية؟، وكن فيهم ممن يتخطى سواد العين، ثم يحاول فهم ما في العين من رموز وألغاز، وفي العين ما شئت وشاء السحر من اللبس والتعقيد!!

وكم فيهم يعذر أبا الأسود إذ يقول:

أَبَى الْقلْبُ إلَّا أُمَّ عمرٍو وَحُبَّها عَجُوزًا وَمَنْ يُحْبِبْ عَجوزًا يُفنَّدِ
كبُرْدِ اليَمَاني قدْ تقادَمَ عَهْدُه وَرُقْعَتُهُ ما شِئْتَ في العَيْنِ والْيَدِ

وهذا الجمال المعقد هو الذي أسمعك صرخة الحكم الخضري حين قال:

فـوَالـلـه مـا أدري أزيـدَتْ مَـلاحَـةً   وحُسْنًا على النِّسْوانِ أمْ لَيْسَ لي عَقْلُ

وهو الذي صدق في وصفه أبي نواس إذ يقول:

يَزيدُك وَجْهُه حُسْنًا   إذا مَا زِدْتَهُ نظرًا

وكذلك البيان يا صاح فيه معقد وبسيط. أما البيان البسيط فهو ذلك النوع السهل الذي يفهمه سواد الناس كقول طرفه بن العبد:

سَتُبْدي لكَ الأيَّامُ ما كُنْتَ جاهِلًا   وَيأتِيكَ بِالأَخْبارِ مَنْ لمْ تُزوِّدِ

وكقول لبيد:

ألا كُلُّ شْيءٍ ما خلا الله باطِلُ   وَكُلُّ نـعـيـمٍ لا مَـحَـالـةَ زائِلُ

وكقول شوقي:

وَإنَّما الأُمَمُ الأَخْلاقُ ما بَقيَتْ   فإنْ هُمو ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذهبوا

ويكثر هذا النوع في القرآن حين تمس الحاجة إلى ترغيب الجماهير، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾، وكقوله عز شأنه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ وكقوله تبارك اسمه: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وهذا النوع من البيان هو المرجع في المعاملات، وقد تجب فيه البساطة المطلقة حين يستخدم في تحرير الاتفاقات والمعاهدات والعقود، وما إلى ذلك مما تحدد به العلاقات بين الأمم والأفراد، وهذا النوع لا يحتاج إلى الحاسة الفنية، وإنما يحتاج إليها البيان

المعقد الذي قيل فيه: «إن من البيان لسحرًا». والذي قيل فيه: «شيئان لا نهاية لهما: البيان والجمال». وفي الناس من يفتنه إشراق الديباجة، وتخلبه رشاقة الأسلوب كما يسحره الجبين المشرق، ويضله القد الرشيق.

والتعقيد الذي أعنيه غير التعقيد المعروف في علم المعاني، فلست أريد اللبس والغموض المعقد، وإنما أصف البيان والحسن بالتعقيد حين يكون للوجه الوسيم، والأسلوب الجميل، قوة في التأثير يحار في تعليلها اللبيب، ومن هنا كان الأقدمون يظنون أن الشعر من وحي الشياطين، ومن أقدر من الشيطان على العبث بالعقول؟

والقصة المشهورة التي جاء فيها أن أحد أقيال اليمن قدم إلى دار الندوة فبصر فيها بالنبي ﷺ وهو إذ ذاك غلام مراهق، فقال لمن حضر من القوم: إن هذا الغلام ينظر إليكم بعيني لبوءة، وتارة بعيني عذراء خفرة، فلو أن نظرته الأولى كانت سهمًا لانتظمت أفئدتكم فؤادًا فؤادًا، ولو أن نظرته الثانية كانت نسيمًا لأنشرت أمواتكم! هذه القصة فيها شيء من التعليل للجمال المعقد، ولكن يظهر أننا انتقلنا إلى عالم النفس ويظهر أيضًا أن الجمال لا يعقد إلا حين تعقد النفس، والنفس لا تعقد إلا حين تصبح كالبحر تصطخب فيه الأمواج، أو كالميدان تشتجر فيه الرماح أو كالقلب تقتتل فيه الأشجان، ومن يدرينا لعل جمال يوسف عليه السلام كان من هذا القبيل ... فما نظن أن صواحباته قطعن أيديهن، وعذرن فيه امرأة العزيز: لإسالة خده، وسواد شعره، وإشراق جبينه، وإنما نحسب أن تلك النفس النبوية التي تضمر ما تضمر من دقائق الغيوب، تلك النفس الجبارة السحارة، القهارة، تلك النفس المفردة في عالم النفوس، هي التي جعلت لجمال يوسف ذلك السحر الذي تقطعت به الأيدي بعد تمزيق القلوب. وسبحان من يعلم ما كان يجول بخاطر ذلك الغلام الجميل أينظر بعيني لبوءة، أم بعيني عذراء خفرة؟ وحسبنا أن نذكر أن الله كان بعده لحمل الرسالة، ويرشحه لتبليغ تلك الدعوة التي لا يزال صداها يرن في أجواز الوجود.

وللبيان المعقد مثل هذا النصيب من بعد الغور، ودقة المدلول، فهو ذلك النوع المعجز الذي تسكن إليه القلوب، وتحار في تعليله العقول، هو ذلك النوع الذي يقرؤه سواد الناس فيفهمونه، ثم يقرؤه الخاصة فيفتنون به، ويحارون في تعليل حسنه، ثم لا يحسن واصفهم إلا أن يقول: هذا هو السحر الحلال.

٤

على أنه يمكن الناقد أن يذكر بعض خواص هذا النوع من البيان: فهو تارة يرتكز على سمو الخيال، كقول بعض الحكماء: «من غمس يده في مال السلطان، فقد مشى بقدمه على دمه». ففي هذه الكلمة من روعة التخييل، وحسن التصوير، ما يدهش العقول، ويحير الألباب. وكقول أرطاة بن سهية المري:

فلوْ أنَّ ما نُعْطي مِنَ المالِ نبْتغِي بِهِ الْحَمْدَ يُعْطي مِثْلَهُ زاخِرُ الْبَحْرِ
لظلَّتْ قراقيرٌ صِيامًا بِظاهِرٍ مِنَ الضَّحْلِ كانتْ قبْلُ في لُجَجٍ خُضْر[٤]

فقد صور لك البحر الذي عجزت عن حربه الليالي بصورة بشعة مخيفة يهابها الوهم وتتحاماها الظنون، فهو يذكر أن البحر الزاخر، الذي يجن ما يجن، ويظهر ما يظهر، والذي يروعك منظره، ويهولك مخبره، يذكر أن ذلك البحر لو بذل مثل ما يبذل قوم هذا الجواد في سبيل الحمد لأصبحت السفن راكدة فوق صبابات من الماء، وقد كانت قبل في لجج رهيبة السواد، وهذه الصورة هي التي بررت مبالغة الشاعر في وصف قومه الأجواد، وإن عز البحر عن النظائر، وجل عن الأشباه.

ومن رائع الخيال قول أبي نواس:

ألا لا أرَى مِثْلي امْتَرى الْيوْمَ في رَسْمِ تَغَصُّ بِهِ عَيْني وَيَلْفِظُهُ وهْمِي
أَتَتْ صُوَرُ الأَشياءِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَظَنِّي كلا ظنٍّ وَعِلْمي كلا علْم

فأنت تراه، وقد وقف أمام ذلك الرسم الذي نال منه العفاء، وغيره الدروس حتى ارتاب فيه، وغصت به عينه، ولفظه وهمه، ثم أغرقك في بحر من التخيل حين قال:

أَتَتْ صُوَرُ الأَشياءِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَظَنِّي كلا ظنٍّ وَعِلْمي كلا علْم

وعليك أن تستوعب هذا المعنى، فقد فتحت لك الباب.

[٤] القراقير السفن: والمفرد قرقور على وزن عصفور، وصيام السفن: ركودها والضحل: الماء القليل لا عمق له، واللجج الأخضر: هي السود.

وكان الرشيد يعجب بقول صريع الغواني:

إذا ما علتْ مِنَّا ذُؤابةَ شاربٍ ... تَمَشَّتْ به مَشْي المُقيَّدِ في الْوَحْلِ

وكان يقول قاتله الله! ما كفاه أن جعله مقيدًا حتى جعله في وحل! وهذا كما ترى أبدع ما يصور به النشوان.

ولا تنس القرآن، فإنه غاية الغايات في روعة الخيال، وانظر قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾.

ولا يدرك هذا المعنى الفخم إلا من ذاق بأساء الحياة، ورأى كيف يكون هوج الريح، وجنون الموج، وعسف الظلام، وكم في الحياة من أهوال!

وقد يرتكز البيان المعقد على بساطة الأداء، وهذا أحسن تأويل لكلمة: «المطمع الممتنع» فقد تقرأ الكلام السهل البسيط فتحسب أنك على مثله قدير، حتى إذا حاولت أن تأتي بشيء من مثله عز عليك وامتنع، وإليك قول ابن الدُّمينة يوصي حبيبته بالقسوة على الوشاة، وبالصلابة حين يجور اللائمون:

وكوني عَلَى الْواشينَ لدَّاء شَغْبَةً ... كما أنا بِالْواشي أَلَدُّ شغوبُ
وَكُونِي إذا مالُوا عَليْكِ صَلِيبَةً ... كما أنا إِنْ مالوا عَليَّ صَليبُ

فهذا كلام سهل، يسكن إليه القلب، وتخلد إليه النفس، ولكنه يعز على من يرومه، ويطول على من يسمو إلى محاكاته. ومثله في بساطته ودقته قول بعض الأعراب:

إذا اجْتمَعَ الجوعُ المُبَرِّحُ وَالْهَوَى ... عَلَى الرَّجُلِ المِسْكينِ كادَ يَموتُ

وهي فكاهة رقيقة يبسم لها ثغر الحزين.

وأظرف منه قول الآخر، وقد تمردت عليه امرأته وضريت على إيذائه:

يا رَبِّ إنْ قَتلْتَهَا فعُدْ لَها ... فَلَنْ تَموتَ أو تُجيدَ قتلَهَا

فقد مثلها بالحية النضناض، التي يُقتلها المرء تقتيلًا، ثم لا تزال تبدو لعينيه، وكأنها تسعى.

٥

وقد يرجع تعقيد البيان ودقته وسحره إلى نفس المبين: من شاعر، أو كاتب أو خطيب، فإن هناك نفوسًا خطرة قد تضلك وقد تهديك حين يكتب أصحابها وحين يتكلمون. وانظر قول موسى بن جابر، وقد رأى تجمع الأعداء وتوثبهم:

وَقُلْتُ لِزَيْدٍ لا تُتَرْتِرْ فَإِنَّهُمِ ... يَرَوْنَ الْمَنايا دونَ قَتْلِكَ أَوْ قتْلي
فإِنْ وَضعوا حَرْبًا فَضَعْها وَإِنْ أَبَوْا ... فَعُرْضَةُ عَضِّ الحْربِ مِثْلُك أو مِثْلي
وَإِنْ رَفعوا الْحَرْبَ الْعَوَانَ الَّتي تَرَى ... فَشُبَّ وُقُودَ الْحَرْبِ بِالْحَطَبِ الْجَزْلِ

فهذه النفس المعقدة في أغراضها ومراميها هي التي وقفتك موقف الحيرة أمام هذه الأبيات، فأنت ترى فتى شجاعًا مقدامًا لم تنسه شجاعته، ولا إقدامه ما يحيط به من عظائم الأخطار، فهو ينصح لرفيقه ويوصيه بالحذر والرفق، ويدعوه إلى وضع الحرب إن وضعها الأعداء، وإلى شب وقودها بالحطب الجزل إن أبوا إلا القتال، وهذا هو الجمع بين الحزم والشجاعة، وقل من يجمع بينهما من أفذاذ الرجال.

وانظر قول الآخر يتوجع من الوحدة والغربة في بلاد الأعداء:

وَقُلْتُ لِغَلَّاقٍ بِعِرْنانَ ما تَرَى ... فما كادَ لي عَنْ ظَهْرِ واضِحَةٍ يُبْدي
تَبَسَّمَ كَرْهًا وَاسْتَبَنْتُ الَّذي بِهِ ... مِنَ الحَزَنِ الْبادي وَمِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ
إذا المَرْءَ أعْراهُ الصَّديقُ بَدَتْ لَهُ ... بِأَرْض الأعادي بَعْضُ أَلْوانِها الرَّبْدِ

٦

وتلك أيها القارئ خواص يراد بها التقريب لا التحديد، فإن المرجع إلى الحاسة الفنية، وهي قد تدق حتى يعجز صاحبها عن تعليل ما يستجيده من الكلام البليغ. والآمدي يضرب المثل بالفرسين السليمين من كل عيب، وفيهما جميع علامات العتق والجودة والنجابة، ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية، وبالجاريتين البارعتين في الجمال السليمتين من كل عيب يفرق بينهما العالم بالرقيق حتى يجعل في الثمن بينهما فضلًا كبيرًا، بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك

الفرق، وإنما يعرفه بطبعه وكثرة دربته وطول ملابسته، وكذلك الشعر كما يقول الآمدي، قد يتقارب البيتان الجيدان النادران، فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود: إن كان معناهما واحدًا، وأيهما أجود في معناه إن كان معناهما مختلفًا[٥].

وحكى إسحاق الموصلي قال: سألني محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال: اختر أحدهما. فاخترت فقال: من أين فضلت هذا على هذا، وهما متقاربان؟ فقلت: لو تفاوتا لأمكنني التبيين، ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان.

والطبيعة في كلام إسحاق هي ما نريده من الحاسة الفنية. وفي هذا القدر كفاية فقد طال بنا الحديث.

[٥] انظر تفصيل رأي الآمدي في الجزء الثاني من كتاب: «النثر الفني».

الفصل السابع

خطر الإبهام والغموض

١

ومن شروط الموازنة أن يكون النقد مؤسسًا على قواعد واضحة صريحة لا إبهام فيها ولا غموض؛ ليظفر الناقد باقتناع القارئ، وليكون نقده مادة جديدة في عالم البيان.

وأخطر ما يعرف للنقد والمماثلة أن يعمد الموازن إلى التعابير المصبوبة في قوالب المجاز، فإنها بئس الأداة في الفصل بين الشعراء، كأن يقول: «هذا شعر أبدت صدوره متونه، وزهت في وجوهه عيونه، وانقادت كواهله لهواديه، وأشبه الروض في وشي ألوانه وإشراق أنواره، وابتهاج أنجاده وأغواره، وأشبه الوشي في اتفاق رقومه واتساع رسومه، وتسطير كفوفه، وتحبير حروفه، وحكى العقد في التئام فصوله وانتظام وصوله، وازديان ياقوته بدره، وفريده بشذره، قد كشف الإيجاز موارده وصقلت مداوس الدربة مناصلة، وشحذت مدارس الأدب فواصله».

وهذه التعابير المجازية المبهمة مأخوذة من فصل لأبي العباس الناشيء في وصف الشعر الجميل، وهو صاحب هذه المنظومة:

الشِّعْرُ مَا قَوَّمْتَ زَيْغَ صُدُورِهِ وشَدَدْتَ بالتَّهذيبِ أَسْرَ مُتونِهِ
وَرأَيَتَ بالإطْنابِ شَعْبَ صُدوعِه وَفَتَحْتَ بِالإِيجاز عُوْرَ عُيونِهِ
وَجَمَعْتَ بَيْنَ قَريبِهِ وَبَعيدِهِ وَوَصَلْتَ بَيْنَ مَجَمِّهِ ومَعَينِهِ
وَعَهِدْتَ مَنْهُ لكلٌ أمْرٍ يَقْتَضي شَبَهًا بِهِ فَقَرَنْتَهُ بِقَرينِهِ

وهي منظومة طويلة عني بها المتقدمون، كما عنوا بمنظومته الأخرى التي يقول فيها:

إِنَّمَا الشِّعْرُ مَا تَنَاسَبَ في النَّظْـ ـم وإنْ كانَ في الصِّفَاتِ فُنُونا
فَأَتَى بَعْضُهُ يُشَاكِلُ بَعْضًا قَدْ أَقَامَتْ لَهُ الصُّدورُ المُتُونا
كُلُّ مَعْنىً أتاكَ مِنْهُ عَلَى ما تَتَمَنَّى لَوْ لَمْ يَكُنْ أَنْ يَكونا
فَتَنَاهَى مِنَ البَيَانِ إلَى أنْ كادَ حُسْنًا يَبِينُ للنَّاظِرينا
فَكَأَنَّ الأَلفَاظَ فِيهِ وُجوهٌ وَالمَعَاني رُكِّبْنَ فِيهَ عُيونا

وعيب هذا الضرب من الوصف أنه لا يغني في تحديد الموصوف: بل يلقي عليه أستارًا من اللبس والغموض، فإنه لا قيمة لمدح الشعر بتقويم زيغ صدوره، وشد أسر متونه، والجمع بين قريبه وبعيده، والوصل بين مجمه ومعينه، وما إلى ذلك من الصفات المبهمة التي يغرم بها المتكلفون.

٢

ومن أمثلة هذا النوع ما ذكره بديع الزمان في إحدى مقاماته إذ قال: «جلسنا يومًا نتذاكر الشعر والشعراء، وتلقاءنا شاب قد جلس غير بعيد ينصت وكأنه يفهم، ويسكت وكأنه لا يعلم، حتى إذ مال الكلام بنا ميله، وجر الجدل فينا ذيله، قال: أصبتم عذيقه، ووافيتم جذيله، ولو شئت للفظت، ولو أردت لسردت، ولجلوت الحق في معرض بيان يسمع الصم، ويردي العصم، فقلت: يا فاضل ادن فقد منيت، وهات فقد أثنيت، فدنا وقال: سلوني أجبكم، واستمعوا أعجبكم.

قلنا: فما تقول في امرئ القيس؟ قال: هو أول من وقف بالديار وعرصاتها، واغتدى والطير في وكناتها، ووصف الخيل بصفاتها، ولم يقل الشعر كاسيًا، ولم يجد القول راغبًا، ففضل من تفتق للحيلة لسانه، وانتجع للرغبة بنانه.

قلنا: وما تقول في النابغة؟ قال: ينسب إذا عشق، ويثلب إذا حنق، ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب، فلا يرمي إلا صائبًا.

قلنا: فما تقول في طرفة؟ قال: هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافي ومدينتها، مات ولم تظهر أسرار دفائنه، ولم تطلق عتاق خزائنه.

قلنا: فما تقول في جرير والفرزدق؟ قال: جرير أرق شعرًا، وأغزر غدرًا والفرزدق أمتن صخرًا، وأكثر فخرًا، وجرير أوجع هجوًا، وأشرف يومًا والفرزدق أكثر رومًا، وأكرم قومًا، وجرير إذا نسب أشجى، وإذا ثلب أردى وإذا مدح أسنى، والفرزدق إذا وصف أوفى، وإذا احتقر أزرى.

قلنا: فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم؟ قال: «المتقدمون أشرف لفظًا، وأكثر في المعاني حظًّا، والمتأخرون ألطف صنعًا، وأرق نسجًا».

ولو عدنا لهذه الموازنة لوجدناها جملة من الصفات الفضفاضة التي تصلح لبوسًا لكل موصوف، فكل شاعر فيما أظن: «ينسب إذا عشق، ويثلب إذا حنق، ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب». ومن اللبس أن نقول في وصف شاعر: «هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافي ومدينتها»، أو أن تقول: «إنه أمتن صخرًا أو أكثر رومًا». ومن المجازفة أن تقول: «المتقدمون أشرف لفظًا، وأكثر في المعاني حظًا». وقد ظرف من لاحظ أن الاغتداء والطير في وُكناتها من خواص اللصوص، وهذا بالطبع لا يقدح في سمو تلك العبارة إلا حين ترسل بلا تقييد، وقد قيدها امرؤ القيس حين قال:

وَقَدْ أغْتَدِي وَالطَّيْرُ في وكْنَاتِها ... بِمُنْجَرِدٍ قيْدِ الْأَوابد هيْكل

على أن هذا البيت لا يدل على أن: «صاحبة أول من اغتدى والطير في وكناتها»، كما قال بديع الزمان.

٣

وقال ابن دريد: سألت أبا حاتم عن أبي نواس فقال: إن جد أحسن، وإن هزل ظرف، وإن وصف بالغ، يلقى الكلام على عواهنه لا يبالي من أين أخذه.

قلت: فبشار بن برد؟ قال: نظار غواص مطيل مجيد يصف ما لم يره كأنه رآه، على أن في شعره خللًا كبيرًا.

قلت: فمروان بن أبي حفصة؟ قال: شاعر راض عن نفسه، يستحسن كل ما جاء منه، معجب لا يرى أن أحدًا يتقدمه، كثير الصواب، كثير الخطأ، ليس لشعره صنعة.

قلت: فمسلم بن الوليد؟ قال: خليج صاف ينزع من بحر كدر، كالزند، يورى تارة، ويصلد أخرى.

قلت: فأبو العتاهية؟ قال: غثاء جم، واقتدار سهل، وشعر كخرز الزجاج وربما أشبه الياقوت والزبرجد.

قلت: فعباس بن الأحنف؟ قال: يلقي دلوه في الدلاء، فيغترف الصفو أحيانًا والحمأة أحيانًا، على أن كدره أكثر من صفوه.

قلت: فسلم الخاسر؟ قال: مقل مداح، شعره ديباج وعهن، يموه الرديء حتى يشبه الجيد.

قلت: فأبو الشيص؟ قال: جده كله فيه حلاوة وبشاعة، كالسدرة التي نفضت فيها المستعذب والمستبشع.

قلت: فعلي بن جبلة؟ قال: بحاث عن الكلام الفخم، والمعنى الرائع، لا ينال مرتبة القدماء، ويجل عن منزلة النظراء.

قلت: فأبو تمام؟ قال: مسيل كثير الغثاء، غزير الغمار، جم النطاق، فإذا صفا فهو السلاف بالماء الزلال.

قلت: فعبد الصمد بن المعذل؟ قال: خراج ولاج: يعتسف تارة ويهتدي أخرى.

قلت: فعلي بن الجهم؟ قال: كلام رصين، ومسلك وعر، عقله أغلب على شعره من طبعه.

قلت: فبكر بن النطاح؟ قال: تشبه بالأعراب فأفرط، وتجاوز حد المولدين فأسهب، فهو الساقط بين القرينين.

ولا ننكر أن في هذا الضرب من القول بيانًا لبعض خصائص الشعراء، ولكنا نستنكر أن تحدد شاعرية شاعر بأنه: «خراج ولاج، يعتسف تارة ويهتدي أخرى»، أو بأنه: «خليج صاف ينزع من بحر كدر»، أو بأنه: «لا ينال مرتبة القدماء ويجل عن منزلة النظراء».

ومما يؤسف له أن الميل إلى الإبهام كان يغلب على المتقدمين، ولم يسلم منه الجاحظ على بصره بالبيان والتبيين، فقد كان يصف شعر أبي العتاهية بأنه: «ملس المتون ليس له عيون»، وهي عبارة مجازية لا تؤدي إلى معنى محدود.

٤

ويضاف إلى هذا إغفالهم ضرب الأمثال، وإطلاقهم الحكم بلا بينة ولا دليل في حين إن الموازنة لا يراد بها غير التمييز والفصل بين ما قال الشعراء في مختلف الأغراض، وقد سرت هذه العدوى إلى شعراء العصر وكتابه، فنجد مصطفى الرافعي يقول في وصف الشعر: «لو كان طيرًا يغرد لكان الطبع لسانه، والرأس عشه، والقلب روضته، ولكان غناؤه ما نسمعه من أفواه المجيدين من الشعراء».

ونجد محمدًا السباعي يصف شكسبير بأنه: «منحة الطبيعة وجائزة الدهر». ونجد حافظ إبراهيم يصف شعر فيكتور هيجو فتكون غايته أن يقول:

ما ثُغورُ الزَّهْرِ في أكمامِها ضاحِكات مِنْ بُكاءِ السُّحُبِ
نَظَمَ الوسْمِيُّ فيها لُؤْلُؤًا كثنايا الغِيد أوْ كالْحَببِ
عِنْدَ مَنْ يَقْضي بأَبْهى مَنْظرًا مِنْ مَعَانِيهِ الَّتي تَلْعبُ بي
بَسَمَتْ لِلذِّهْنِ فَاسْتَهْوَتْ نُهَى مُغرم الفَضْل وصَبِّ الأَدبِ

ولا يزال الأدباء يذكرون قول المنفلوطي في الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش: «لولا مقامه في اللواء، ومذهبه في الهجاء، لكان هو وفريد وجدي سواء».

وقوله في المرحوم قاسم أمين: «ما رأيت باطلًا أشبه بالحق من باطله». وتلك كلها عبارات مبهمة لا تقنع طلاب البيان.

٥

إنما يجب على الناقد الذي استوفى ما أسلفناه من الصفات:

(١) أن يذكر حياة من يوازن بينهم من الشعراء، وأن يعين ما في حياة كل شاعر من ألوان الشدة، أو صنوف الرخاء.

(٢) وأن يبين الحالة الصحية لكل شاعر ليعرف ما قد يعرض لمزاجه من الاعتلال.

(٣) وأن يقدر السن التي قيل فيها ما يريد وزنه ونقده.

(٤) وأن يحدد الصفات التي اشترك فيها من يوازن بينهم، والصفات التي انفرد بها كل واحد منهم، ثم يتغلغل في تحليل المعاني، والألفاظ، والأساليب، ويوازن بين القصائد والمقطوعات، والأبيات اليتيمة.

(٥) وأن يدقق النظر في تمييز المعاني المبتدعة من المعاني المسبوقة، ويبين كيف تناول الشاعر المعنى الذي سبق إليه، وكيف هذبه، وكيف بسطه، حين يجود أخذه، وتلطف سرقته، وكم في الشعراء من سارق لطيف!

(٦) وأن يعد ما برز فيه الشاعر من المطالع والمقاطع، وما أجاد أخذه، وما ابتكره وما انفرد به، فقد يبتكر الشاعر المعنى، ثم يغلب عليه حين يقصر في تأديته، وقد يبتكر المعنى، ثم ينفرد به حين يبلغ الغاية في الأداء.

(٧) وأن يبين الفرق بين الشاعرين حين يشتركان في الإبانة عن غرض واحد وحين يختلفان في ذلك.

(٨) وأن يبين أسباب السبق، وأسباب التخلف، مع التعمق في استقراء ما لكل شاعر من خطرات النفس، ولفتات القلب، ونوازع الوجدان.

(٩) وأن يعد ما لكل شاعر من المعاني الموضعية، التي اقتضاها زمانه ومكانه والمعاني الإنسانية، التي تصلح لجميع الناس، على تباين الأمكنة واختلاف العصور.

(١٠) وأن يذكر بعد ذلك كله ما لكل واحد من: «الصور الشعرية». وسنعود إلى هذا المعنى الأخير بالبسط والبيان.

الفصل الثامن

الصور الشعرية

١

هذا فن جديد في نقد الشعر والموازنة بين الشعراء، ألقيت عنه محاضرة في الجامعة المصرية في سنة ١٩٢١، ثم اخترته للمناقشة العلنية في امتحان الدكتوراة، فساعدني ذلك على تحديد، وضبط المراد منه، وكشف ما يعتوره من الغموض، وإلى القارئ البيان:

الصورة الشعرية هي أثر الشاعر المفلق الذي يصف «المرئيات» وصفًا يجعل قارئ شعره ما يدري أيقرأ قصيدة مسطورة، أم يشاهد منظرًا من مناظر الوجود والذي يصف «الوجدانيات» وصفًا يخيل للقارئ أنه يناجي نفسه، ويحاور ضميره لا أنه يقرأ قطعة مختارة لشاعر مجيد.

والصورة الشعرية لا تكمل إلا حين يحيط الوصف بجميع أنحاء الموصوف، فليس منها قول أبي نواس في وصف الراح:

صَهْباءُ تَبْني حَبَابًا كُلَّما مُزِجتْ ... كـأنّـهُ لُـؤلُـؤٌ يَـتْـلُـوهُ عِـقْـيـانُ
كانتْ عَلَى عَهْدِ نُوحٍ في سَفينَتِهِ ... مِنْ حَرّ شَحنَتِها والأرْضُ طوفانُ
فَلَمْ تَزَلْ تَعجُمُ الدّنيا وتعجُمُها ... حَتى تَخَيَّرَها للخَبْءِ دْهْقانُ
فَصانَها في مَغارِ الأرْضِ فاخْتَلَفتْ ... عَلَى الدَّفينَةَ أزْمانٌ وأزْمَانُ
ببَلْدَةٍ لَمْ تَصِلْ كَلْبٌ بِها طُنُبًا ... وَلا خِباءُ وَلا عبْسٌ وذُبْيانُ
لَيْسَتْ لِذُهْلٍ ولا شيْبانِها وَطَنًا ... لكِنَّها لبَني الأَحْرارِ أوْطانُ
أرْضٌ تَبَنَّى بِها كِسْرى دَساكِرَهُ ... فَما بِها مِنْ بني الأعْرابِ إنْسانُ
وَما بِها مِنْ هَشيمِ العُرْبِ عَرْفَجةٌ ... وَلا بِها مِنْ غِذاءِ العُرْب خُطْبانُ

لـكِنْ بِـهـا جُـلُّـنَـارٌ قَـدْ تَـفَـرَّعَـهُ   آسٌ وكـلّــلــه وَرْدٌ وســوســانُ

ولو عرضت هذه القصيدة على رجل من أدباء العصر، أو لو أنها عرضت على رجل من الأدباء في الأعصر الخالية لوصفت على الأقل بأنها رشيقة الأسلوب متينة التركيب، ولكننا سنبين أنها قصيدة جوفاء، لا حظ لها من الروعة، ولا نصيب لها من الجمال.

أراد أبو نواس أن يصف الخمر، ولكن هل وضع صورة شعرية تنتظم مع ما للخمر من اللون والعبير، وما لها من العبث بالعقول، واللعب بالنفوس؟ كلا! لم يصنع شيئًا من ذلك، ولكنه ذكر فقط أنها كلما مزجت تبني حبابًا كأنه لؤلؤ يتلوه عقيان ثم اندفع يذكر أنها عتيقة، وأن عهدها بالوجود قديم، وقد جره ذلك إلى الإغراب في الكذب، فذكر أنها كانت خير ما شحن في سفينة نوح، وأنها ما زالت تغالب الدهر، وتصانع الحدثان، حتى ظفر بها دهقان ماكر دفنها في مغار الأرض، وأخفاها عن عيني الزمان، ولم يكفه ذلك بل ذكر أن الأرض التي دفنت فيها هذه الخمر أرض كسروية، لم ينصب فيها خباء لعبس ولا ذبيان، ولم ينبت بها عرفج ولا خطبان بل زينها الجلنار، والورد، والآس والسوسان.

إذًا أخطأ أبو نواس حين غلا في الإشادة بعتق الصهباء؛ لأن عشاقها لا يشعرون بالحاجة إلى إقامة البينة على أنها من عهد الطوفان، مهما أحبوا أن تكون قديمة العهد بالوجود، فقد يكفيهم أن توصف بالقدم، وأن تكون لقدمها كما قال ابن الرومي:

لَطُفتْ فَقدْ كادتْ تَصيرُ مُشاعةً   في الجوِّ مِثل شُعاعِها ونسِيمِها

أو كما قال ابن المعتز:

جَرْت حركاتُ الدَّهْر فَوق سُكونِها   فَدابتْ كذَوْبِ التبْرِ أَخْلصهُ السَّبْكُ
فَقدْ خَفِيتْ مِنْ صَفْوِها فَكأَنَّها   بَـقـايـا يَـقـيـنٍ كـاد يُـدْرِكُـهُ الـشَّـكُّ

ويكاد القارئ لقصيدة أبي نواس يتوهم أنه يقرأ شيئًا غير وصف الخمر، ويكاد يحسب أنه يقرأ موازنة بين ما تنبت البلاد العربية، وما تنبت البلاد الفارسية إذ يرى الشاعر يشيد بما بنى كسرى من دساكر، وما بأرض الفرس من ورد وآس ويسخر مما للعرب من طنب وخباء، وما بأرضهم من عرفج وخطبان.

ولو لم يضل في بيداء هذا الفضول لكان للغلو في وصف الخمر بالقدم شيء من الروعة، أو كان على الأقل مما تسيغه النفوس، فما تظن أحدًا يستنكر قول البحتري في وصف الشمول:

بِكْرٌ تَقدَّمتِ الزَّمانَ بغَرْسِها   إِنْ كان قَبْل الدَّهْرِ شيءٌ يُغْرسُ

ولنفرض أن أبا نواس أجاد في وصف الخمر بالقدم، وأنه في ذلك غير مسبوق أفيكفي أن يوصف الشيء من ناحية واحدة مهما كان وصفها سابغًا؛ ليصبح الموصوف وهو ممثل من جميع الجوانب؟ إن هذا لبعيد!

ولا ننكر أن الصفة الغالية لشيء من الأشياء قد تصرف الشاعر عما عداها من الصفات، وليس قدم الخمر من ذلك في كثير ولا قليل، فقد تكون الراح جبارة قهارة، وهي في مبعة الصبا وعنفوان الشباب، وغيري عنده الخبر اليقين.

٢

وللنظر قول أبي نواس من كلمة ثانية:

دَعْ عَنْكَ لَوْمي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْراءُ   ودَاوِني بالَّتي كانَتْ هيَ الدَّاءُ
صَفْراءُ لا تَنْزِلُ الأَحْزانُ سَاحَتَها   لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ
قامتْ بإِبْرِيقِها واللَّيْلُ مُعْتكرٌ   فَلاحَ مِنْ وجْهها في الْبيت لَألَاءُ
فأرْسلَتْ مِنْ فَمِ الإِبْريق صافيَة   كَأَنَّما أَخْذُها بِالعَيْنِ إِغْفَاءُ
جَفَّتْ عَنِ الماءِ حَتَّى ما يُلائِمُها   لَطافَةً وَجَفا عَنْ شَكْلِها الماءُ
فلَوْ مَزَجْتَ بها نُورًا لَمَازَجَها   حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوارٌ وأَضْواءُ

وهذه صورة شعرية للراح، ألم فيها الشاعر بصفاتها المختلفة، أو بأشهر ما لها من الصفات، وقد ابتدأ ذلك بنبذ ملامة اللائمين، بل جعل اللوم نوعًا من الإغراء، واستصرخ الساقي ليسعفه بالتي كانت الدواء، لما أورثت من داء، ثم اندفع يذكر أنها صفراء اللون، وأن الحزن لا يحل لها ساحة، وأن الحجر لو مسها مسته السراء، وأنها حين قامت بإبريقها هتكت الظلماء، بما لوجهها من لألاء، وأنها حين أرسلت صافية من فم الإبريق أخذت تلعب بالعيون كأنها الإغفاء، وأنها لطفت حتى ما تلائم الماء، ولا

يشاكلها الماء، فلا سبيل إلى أن تشعشع بالعذاب الفرات، فإن عجز المصطبح أو المغتبق عن شربها صرفة فليمزجها بالنور فإنه لها مزاج، وهي له لباس، ومنهما تتولد الأنوار والأضواء.

٣

وقد يلاحظ أن هذا الوصف بعيد عن متناول العقول، ونجيب بأنه لا جمال للشعر إلا إذا أضيف إلى الحقيقة شيء من الخيال، وقد يكون هذا الخيال حقيقة ثاني لا فرق بينها وبين الأولى إلا أن احداهما في الواصف وأخراهما في الموصوف؛ لأن الشاعر لا يصف شيئًا إلا متأثرًا بحسنه أو قبحه، فهو حين يذكر الشيء الدميم يذكر بجانبه نفرته من الدمامة، وحين يصف الشيء الجميل يصف بجانبه غرامه بالجمال، وربما خضع الشاعر لعاطفته، فانتقل من وصف إلى وصف، كأن يترك الحديث عن الراح وينحدر إلى وصف الساقي مثلًا، وهنا لا مندوحة من أن ينتقل الناقد مع الشاعر ليعرف أقصّرَ في وصف ما انتقل إليه أم أجاد، وتكون الصورة الشعرية للموصوف الثاني، مثال ذلك قول ابن عُنين:

وِمْدامةٍ لَمْ يُبْقِ طولُ ثَوائِها ... في خِدْرِها إلّا وميضَ شُعاعِ
مِنْ كفّ مَصْقول الْعوارِضِ آنِسٍ ... يَرْنو بِمُقْلةِ جُؤْذَر مُرْتاعِ
وقفتْ عَوارِضُ صُدْغِهِ في خَدِّهِ ... حَيْرَى وبانتْ في القُلوبِ سَواعِ
راضتْ خلائِقَهُ العُقارُ وبدَّلتْ ... نَزق الصبِّا بِموَفَّر مِطْواعِ

وعلماء الأدب يذكرون هذه القطعة في وصف الخمر، وليست من ذلك في شيء إنما هي تشبيب، ومثلها قول البحتري، وقد صرعت نديمه الصهباء:

ونديمٍ حُلْوِ الشمائِل كالدِّبـ ... ـنارِ مَحْضِ النِّجارِ عَذْبِ المصفَّى
بتُّ أَسْقيهِ صَفْوةَ الرَّاحِ حَتى ... وَضَعَ الكأسَ مائِلًا يَتَكَفَّا
قُلْتُ عَبْدَ العزيزِ نَفْديكَ نَفْسي! ... قال لَبَّيْكَ! قُلْتُ لَبَّيْكَ أَلفا!

هاكها! قال هاتِها! قُلْتُ خُذْها   قال لا أسْتَطيعُها، ثُمَّ أغْفَى

وهذا النوع من الحوار يسمى عند علماء البديع بالمراجعة، وليس جمال هذه الأبيات في ترديد القول كما يظنون، ولكن جمالها في هذه الصورة الشعرية البديعة التي تمثل لك رفق النديم، وجناية الكأس عليه، واستسلامه للإغفاء بعد هذا الحوار الرقيق.

٤

وفضل الصورة الشعرية هو تمكين المعنى في نفس القارئ والسامع، ألا ترى أن قول بعض الأندلسيين:

أخافُ عَليْكَ مِنْ عَيْنيْ رقيبِي   وَمِنْ عَيْني وعيْنِك والزَّمانِ
ولوْ أنِّي وضعْتُك في عُيوني   إلَى يوْمِ القْيامةِ ما كفاني

أقل تأثيرًا في النفس من قول ابن الرومي:

أعانِقُهُ والنَّفْسُ بَعْدُ مَشُوقَةً   إلِيْهِ وهلْ بَعْد العِناقِ تَدانٍ
وألْثمُ فاهُ كيْ تَزول حَرارَتي   فَيشْتَدُّ ما ألقَى مِن الْهَيَمانِ
وَلَم يكُ مِقْدارُ الَّدي بي مَن الجوى   لِيرْويَهُ ما تلْثمُ الشَّفتانِ
كأنَّ فُؤْادي ليس يَرْوي غَليلَهُ   سِوى أنْ يَرى الروحْينِ يَمْتَزِجانِ

لأن ابن الرومي وضع لكلفه صورة شعرية تامة الأجزاء، وتنقل بالقارئ السامع من حال إلى حال، وذكر أمورًا فطرية يشعر بمثلها كل متيم مشغوف، ثم علل شرهه في صبوته بخطر لوعته وفرط حواه، وتحليل المعنى وتعليله من أقرب الوسائل إلى تمكينه في النفوس، وفي تحليل المعاني وتعليلها يتفاوت أقدار الكتاب والخطباء والشعراء.

الفصل التاسع

أهمية الصور الشعرية

عرف القارئ شيئًا عما أريده من الصور الشعرية، ولكنه شيء يسير لا يغني في إماطة اللثام عن هذا الفن الجديد، وسأعود بعد قليل إلى تحقيق الفرق بين الصورة الشعرية، والتمثيل المعروف في علم البيان، فقد ظن بعضهم أن الصورة الشعرية هي الاستعارة التمثيلية، وهو خطأ مبين.

والآن أرجع إلى توضيح ما ذكرته في الكلمة الماضية من أن فضل الصورة الشعرية إنما هو تمكين المعنى في النفس؛ لأن غاية الكلام البليغ من نثر أو شعر إنما هي التأثير، والصورة الشعرية لما فيها من تحليل المعنى وتعليله كافية في تحقيق غاية البيان، ولنضرب لذلك الأمثال.

١

من الحكم المأثورة قول أبي الدرداء: «من لك بأخيك كله». يريد أن الصديق لن يكون من كل نواحيه ملكًا لأخيه. هذا هو أصل المعنى، وتلك هي صورته الأصلية، فلننظر كيف بسطه بشار بن برد حين قال:

إذا كُنْتَ فـي كُلِّ الأُمور مُعـاتِبًا ... صَديقَكَ لمْ تَلْقَ الْذي لا تُعاتِبُهُ
فَعِشْ واحِدًا أو صِلْ أخاك فإِنَّهُ ... مُـقـارفُ ذَنْـبٍ مَـرْةً ومُـجـانِـبُـهُ
إذا أَنْتَ لَمْ تَشْربْ مِرارًا عَلَى الْقَذَى ... ظَمِئْتَ وَأيُّ النَّاسِ تَصْفو مَشارِبُهْ

فإذا وازنت بين هذه الأبيات وبين كلمة أبي الدرداء رأيت أن كلمة: «من لك بأخيك كله». كلمة مبهمة لا تقر في النفس إلا بعد التأمل والترديد: ورأيت صاحب هذه الأبيات

الثلاثة يخاطب عقلك ووجدانك، إذ يذكر أنك إن عاتبت صديقك في كل الأمور فلن تلقى الصديق الذي لا تعاتبه؛ لأنه يندر أن يخلو صديق من العيوب، وأنك مضطر إلى إحدى اثنتين: إما أن ترضى الوحدة، وإما أن تصل أخاك، فقد يقارف الذنب مرة ويجانبه مرة أخرى، وإذا لم تشرب «مرارًا» على القذى ظمئت، وأي الناس تصفو مشاربه في هذا الوجود؟!

فأنت ترى أن كلمة بشار أوقع في النفس، وأملأ للقلب، من كلمة أبي الدرداء، وإليك كلمة الشريف الرضي في نفس المعنى:

وكمْ صَاحِبٍ كالرُّمْحِ زَاغَتْ كُعُوبُه ... أَبى بَعْدَ طول الغَمْزِ أن يَتَقَوَّما
تَقَبَّلْتُ مِنْهُ ظاهِرًا مُتَبَلِّجًا ... وَأَدْمَجَ دوني باطِنًا مُتَجَهِّما
فَأَبْدَى كَرَوْضِ الحَزْنِ رَقَّت فُروعُهُ ... وَأَضْمَرَ كَاللَّيْلِ الخِدارِيِّ مُظْلِما
وَلَو أَنَّني كَشَّفتُهُ عَنْ ضَميرِهِ ... أَقَمْتُ عَلَى ما بَيْنَنا اليَوْمَ مَأْتَما
فَلا باسِطًا بِالسُّوءِ إِن ساءَني يَدًا ... وَلا فاغِرًا بِالذَّمِّ إِنْ رابَني فَما
كَعُضْوٍ رَمَتْ فيهِ اللَّيالي بِقادِحٍ ... وَمَنْ حَمَلَ العُضْوَ الأَليمَ تَأَلَّما
إذا أَمَرَ الطِّبُّ اللّبيبُ بِقَطْعِهِ ... أَقولُ عَسَى ضَنًّا بِهِ وَلَعَلَّما
صَبَرْتُ عَلى إِيلامِهِ خَوْفَ نَقْصِهِ ... وَمَنْ لامَ مَنْ لا يرْعَوي كان أَلوَمَا
هِيَ الْكَفُّ مَضٌّ تَرْكُها بَعْدَ دائِها ... وَإِن قُطِعَت شانَتْ ذِراعًا وَمِعْصَما
أَراكَ عَلَى قَلْبي وَإِنْ كُنْتَ عاصِيًا ... أَعَزَّ مِنَ القَلْبِ المُطيعِ وَأَكْرَما
حَمَلْتُكَ حَمْلَ الْعَينِ لَجَّ بِها القَذَى ... فَلا تَنْجَلي يَوْمًا وَلا تَبْلُغُ العَمَى
دَعِ المَرْءَ مَطْوِيًّا عَلَى ما ذَمَمْتَهُ ... وَلا تَنْشُرِ الدَّاءَ العُضَالَ فَتَنْدَما
إِذا العُضوُ لَمْ يُؤلِمْكَ إِلّا قَطَعْتَهُ ... عَلى مَضَضٍ لَمْ تُبْقِ لَحْمًا وَلا دَمَا
وَمَنْ لَمْ يُوَطِّنْ لِلصَّغِيرِ مِنَ الأَذَى ... تَعَرَّضَ أَنْ يَلْقَى أَجَلَّ وَأَعْظَما

فهذه صورة شعرية يندر أن تجد مثلها في هذا المعنى لغير الشريف الرضي، وانظر كيف حدثك عن صديقه الذي صبر عليه، وكيف شبهه بالرمح الذي زاغت كعوبه، وأبى بعد طول الغمز أن يتقوم، وكيف تقبل من ذلك الصديق ظاهره المتبلج، وتغافل عن باطنه المتجهم، وكيف مثل ما أبداه بروض الحزن رقت فروعه، وما أضمره بظلمة الليل، وانظر كيف راعك حين ذكر أنه لو كشف صديقه عن ضميره لأقام على ما بينهما مأتمًا أي مأتم، ومع ذلك لا يبسط يده بالسوء إن ساءه، ولا يفتح فاه بالذم إن رابه،

ثم انظر كيف صور هذا الصديق الذي كثر دغله وساءت طويته بصورة العضو الذي رمته الليالي بقادح، والذي يؤلم حمله، ولكنه مع هذا مرجو البرء مأمول الشفاء، ومن ذا الذي يجهل أن داء الكف مضٌّ بغيض، ولكن من ذا الذي يرضى أن يشين بقطعها المعصم والذراع؟

ولم يقف الشريف الرضي، عند ذلك، بل مثل صديقه بالعين لج بها القذى، وهو أفضل من العمى على كل حال، ثم أرسل هذه الحكمة الرائعة:

دَعِ المَرْءَ مَطْوِيًّا عَلَى ما ذَمَمْتَهُ　　وَلا تَنْشُرِ الدَّاءَ العُضَالَ فَتَنْدَما
إِذا العُضوُ لَمْ يُؤلِمْكَ إِلّا قَطَعْتَهُ　　عَلى مَضَضٍ لَمْ تُبْقِ لَحْمًا وَلا دَمَا

وهل ينكر أحد بعد هذا التفصيل أن كلمة يشار أولًا، وكلمة الشريف الرضي ثانيًا، أدعى لتمكين المعنى في النفس من كلمة أبي الدرداء، لما فيهما من تحليل المعنى وتعليله، وذلك داعية التأثير، وهو ثمرة الكلام البليغ؟

٢

رثى مويلك المزموم امرأته أم العلاء فقال:

أُمْرُرْ عَلَى الجدثِ الّذِي حلّتْ بِهِ　　أمُّ الْعَلاءِ فنادِها لوْ تَسْمَعُ
أنّى حللْتِ وكُنْتِ جدَّ فروقةٍ　　بلدًا يمُرُّ بِهِ الشُجاعُ فيفْزَعُ
صلّى عليْكِ اللهُ مِنْ مَفْقودَةٍ　　إِذْ لا يُلائِمُكِ المَكانُ الْبَلْقَعُ
فَلقدْ تَركْتِ صغيرةً مرْحومةً　　لَمْ تدْرِ ما جزَعٌ عَليْكِ فتَجْزَعُ
فَقَدَتْ شمائِلَ مِنْ لِزامِكِ حُلْوَةً　　فَتبِيتُ تُسْهِرُ أَهْلَهَا وَتُفَجِّعُ
وَإذا سَمِعْتُ أنينَها في لَيْلِها　　طُفِقَتْ عَليْكِ شئونُ عَيْني تدْمَعُ

وهذه قطعة مختارة في بكاء المرأة تخلي طفلها وتروح إلى عالم الفناء، وهي بعد التحليل ترجع إلى فكرتين:

الأولى: التعجب من قرار هذه المرأة الهيوب في ذلك المكان البلقع.

والثانية: الأسف على ما لقيت طفلتها من فقد شمائلها الحلوة.

وقد سرد الشاعر هاتين الفكرتين بشيء من الجفاف، وكان في مقدوره أن يزيد الفكرة الأولى شيئًا من الوضوح، وأن يعمد في الفكرة الثانية إلى أن يشرك معه القارئ في حزنه وبثه؛ لأن الغرض من الشعر إنما هو التأثير.

وإلى القارئ ما يقوله في هذا المعنى محمد بن عبد الملك الزيات:

أَلَا مَنْ رَأَى الطِّفْلَ المُفارِقَ أُمَّهُ ... بُعَيْدَ الكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدرانِ
رَأَى كلَّ أُمٍّ وَابْنَها غَيْرَ أُمِّهِ ... يَبيتانِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَنْتَجِيانِ
وَباتَ وَحيدًا في الْفِراشِ تحُثُّهُ ... بَلابِلُ قلْبٍ دائِمِ الْخَفَقانِ
أَلا إنَّ سَجْلًا واحدًا قدْ أَرَقْتُهُ ... مِنْ الدَّمْعِ أَوْ سَجْلَيْنِ قدْ شَفَيَاني
فَلا تَلْحَياني إِنْ بكيْتُ فإنَّما ... أُداوي بِهذا الدَّمْعِ ما تَرَيانِ
وإِنَّ مَكانًا في الثَّرَى خُطَّ لحْدُهُ ... لِمَنْ كانَ في قلْبي بكُلِّ مَكَانِ
أَحقُّ مَكانٍ بِالزِّيارَةِ والْهَوَى ... فَهلْ أَنْتُما إِنْ عُجْتُ مُنْتَظِرانِ
فَهَبْني عَزَمْتُ الصَّبْرَ عَنْها لأنَّني ... جَليدٌ فَمَنْ بِالصَّبْرِ لابْنِ ثَمَانِ
ضعيفِ الْقُوَى لا يَعْرِفُ الْأَجْرَ حِسْبَةً ... ولا يأْتَسي بِالنَّاس في الْحَدَثانِ
أَلا مَنْ أُمنِّيهِ المُنَى فَأُعِدُّهُ ... لِعَثْرةِ أيامي وَصَرْفِ زَماني
أَلا مِنْ إذا ما جِئْتُ أَكْرَمَ مَجْلِسي ... وَإِنْ غِبْتُ عنْهُ حاطَني وَرَعاني
فَلَمْ أرَ كالْأَقْدارِ كَيْفَ يصبنَني ... ولا مِثلَ هَذا الدَّهْرِ كَيْفَ رَماني

فإذا وازنا بين هذه القطعة وبين تلك وجدنا في الأخيرة صورة شعرية بديعة، تمثل الطفل المفجع في أمه، والرجل المفجع في زوجه. وانظر كيف صور الطفل اليتيم بقوله:

رَأى كلَّ أُمٍّ وَابْنَها غَيْرَ أُمِّهِ ... يَبيتانِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَنْتَجِيانِ
وَباتَ وَحيدًا في الْفِراشِ تحُثُّهُ ... بَلابِلُ قلْبٍ دَائِمِ الْخَفَقَانِ

وانظر كيف علل جزع الطفل بضعف قواه، وجهله بالأجر والتأسي، وتأمل كيف فهم قدر الحليلة، وكيف تغلغل في وصف ما للحلائل من الوفق، وما للرجل من الأنس بزوجه حين يطارحها الأحاديث بالليل، وكيف اعتمد فأعدها لعثرة أيامه وصرف زمانه، وكم في الأيام من عثرات، وكم في الدهر من صروف!

وأي كلام أبلغ في وصف الحليلة الرفيقة الأمينة من قوله في تلك الفقيدة الغالية:

أَلا مِنْ إذا ما جئْتُ أَكْرَمَ مَجْلِسي وَإِنْ غِبْتُ عنْهُ حاطَني وَرَعاني

وأحب لو أعاد القارئ النظر في هذين البيتين:

وإِنَّ مَكانًا في الثَّرَى خُطَّ لحْدُهُ لِمَنْ كانَ في قلْبي بكُلِّ مَكَانِ
أحقُّ مَكانٍ بِالزِّيارَةِ والْهَوَى فَهلْ أنْتُما إِنْ عُجْتُ مُنْتَظِرانِ

فإنهما غاية في تمثيل الحنو على القبر المأهول برفات الحبيب، وسقى الله كل بقعة من هذا القبيل!

٣

أراد الطغرائي أن يستعطف أحبابه، وأن يذكرهم بأن في صروف الدهر ما يغني عن القطيعة، وذلك قوله:

وَيَا رُفْقَةً مَرَتْ بِجرْعَاء مالِكٍ تَؤُمُّ الحِمَى أنضاؤُها والْمطَاليا
نَشدْتكُمُو باللهِ إلّا نشدتُمُو بهِ شُعْبةً أَضْللْتُها مِنْ فُؤادِيا
وقُلْتُمْ لِحيٍّ نازلِين بِقُرْبِهِ أَقامُوا بهِ واسْتَبْدلوا بجواريا
رُويْدَكُمُو لا تَسْبِقوا بِقطِيعتي صُروفَ اللّيالي إنَ في الدّهْرِ كافيا

وأصل هذا المعنى لإياس بن القائف إذ يقول:

فأَكْرمْ أخاكَ الدَّهْرَ ما عِشْتُما مَعًا كَفَى بِالْمَمَاتِ فُرْقةً وَتنَائيا
إذا زُرْتُ أرْضًا بَعْد طُول اجْتِنابها فَقدْتُ صَديقي والْبِلادُ كما هيا

وللنظر كيف تناول سعيد بن حميد هذا المعنى حين قال:

أقْلِلْ عِتَابَكَ فالْبَقَاءُ قَلِيلُ والدَّهْرُ يَعْدِلُ تارَةً ويَمِيلُ

لمْ أبْكِ مِنْ زَمَنٍ ذَمَمْتُ صُروفَهُ … إلَّا بَكيْتُ عَلَيْهِ حين يَزولُ
ولِكُلِّ نائِبةٍ ألمَّتْ مُدَّةٌ … ولِكُلِّ حالٍ أقْبلْت تحْويلُ
والْمُنْتَمون إلّى الإخاءِ جَماعَةٌ … إنْ حُصِّلوا أفْناهُمُ التَّحْصيلُ
وَلَعَلَّ أحْداثَ الْمَنِيَّة والرَّدى … يَوْمًا سَتصْدعُ بَيْنَنا وَتحولُ
فَلَئِنْ سَبَقْتُ لَتَبْكينَّ بِحَسْرةٍ … وَليَكْثُرَنَّ عَلَيَّ مِنْكَ عَويلُ
وَلَتَفْجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لَكَ وامِقٍ … حَبْلُ الْوَفاءِ بِحَبْلِه موْصولُ
وَلَئِنْ سَبَقْتَ ولا سَبَقْت لَيَمْضيَنْ … منْ لا يُشاكِلُهُ لَدَيَّ خليلُ
وَلَيَذْهَبَنَّ بهاءُ كُلِّ مُروءَةٍ … وَلَيُفْقَدَنَّ جَمالُها المأْهولُ
وأرَاكَ تَكْلَفُ بِالْعِتَابِ وَودُّنَا … صافٍ عَليْهِ مِن الْوفاءِ دَليلُ
وُدٌّ بَدا لِذوي الْإِخَاءِ جَمالُهُ … وَبَدَتْ عَليْهِ بَهْجَةٌ وَقَبولُ
وَلَعَلَّ أيَّامَ الْحَياةِ قَصيرَةٌ … فَعَلامَ يَكْثُرُ عَتْبُنا وَيَطولُ

وهذه غاية في تحليل المعنى وتعليله: فإنا نراه ابتدأ بشكوى الزمان، ونصح صديقه بانتهاب الفرص السوانح، ثم أخذ يقنع صديقه بأن الحر في الدنيا قليل، وبأن من الحزم ألا ينجنى المرء على صديق لا ذنب له، فقد تصدع بينهما أحداث المنية، أو عاديات الليالي.

وقد بلغ غاية الرفق حين شرع يذكر لصديقه أنه إن سبقه إلى الموت فسيكثر عويله عليه، وستعظم فجيعته فيه، وهذا اعتراف منه لصديقه بالوفاء، وهذا الاعتراف نفسه نوع من التألف والاستعطاف. وانظر كيف دق ولطف في قوله:

وَلَئِنْ سَبَقْتَ — ولا سَبَقْتَ — لَيَمْضيَنْ … مـنْ لا يُشاكِلُهُ لَدَيَّ خليلُ

ولعل الجملة الاعتراضية لم تقع موقعًا أدق من هذا ولا أظرف. وهذه القصيدة من الصور الشعرية البديعة، وهي بلا شك أوفى من أبيات ابن القائف، وأبرع من أبيات الطغرائي، وهي فوق ذلك نص فيما قصد الشاعر إليه: من رد صديقه إلى شرعة الإلفة، وصرفه عن موارد الصدود.

٤

أراد العباس بن مرداس السلمي أن ينصف أعداءه، وهو يفخر بقومه ويذكر صبرهم على الجلاد، وصدقهم في اللقاء، فقال:

وَلَمْ أرَ مِثْلَ الحَيِّ حَيًّا مُصَبَّحًا ... ولا مِثْلَنا يوْم الْتَقَيْنَا فَوَارِسَا
أكرَّ وأحْمَى للحَقيقَةِ مِنهُمُو ... وَأضرَبَ مِنَّا بِالسُّيوفِ الْقوانِسَا[1]
إذَا مَا شَدَدْنَا شَدَّةً نَصَبُوا لنَا ... صُدُورَ المَذَاكِي والرِّماحَ المَدَاعِسَا[2]
إذَا الخَيْلُ جالَتْ عَنْ صَرِيعٍ نُكُرُّهَا ... عَلَيْهِمْ فَمَا يَرْجِعْنَ إلا عَوابِسَا

ولهذه الأبيات قيمة أي قيمة: ولكن أتراها تبلغ في تقرير المعنى، وتمكينه، في النفس، ما يبلغه قول عبد الشارق بن عبد العزى الجهني:

أَلَا حُيِّيتِ عَنَّا يَا رُدَيْنَا ... نُحَيِّيها وإنْ كَرُمَتْ عَلَيْنَا
رُدَيْنَةُ لَوْ رَأيْتِ غَدَاةَ جِئْنا ... عَلَى أضَمَاتِنَا وَقَدِ احْتَوَيْنَا[3]
فأرْسَلْنَا أبا عَمْروٍ رَبِيئا ... فَقالَ ألا انْعَمُوا بالقَوْمِ عَيْنَا
وَدَسُّوا فَارِسًا مِنْهُمْ عِشَاءً ... فَلَمْ نَغْدِرْ بفَارِسِهِمْ لَدَيْنَا
فَجَاءُو عَارِضًا بَرِدًا وجِئْنَا ... كَمِثْلِ السَّيلِ نَرْكَبُ وَازعِينَا
تنَادَوا يا لَبُهْثَةَ إذْ رَأَوْنَا ... فقُلْنا أحْسِني ضربًا جُهَيْنَا
سَمْعْنَا دَعْوَةً عَنْ ظَهْرَ غَيْبٍ ... فَجُلْنَا جَوْلَةً ثُمَ ارْعَوَيْنَا
فلمَّا أنْ تَواقَفْنَا قَليلًا ... أنَخْنَا للكَلاكِلِ فارْتَمَيْنَا[4]
فلمَّا لَمْ نَدَعْ قَوْسًا وَسَهْمًا ... مَشَيْنَا نَحْوَهُمْ وَمَشَوْا إليْنَا
تَلَألُؤَ مُزْنَةٍ بَرَقَتْ لأَخْرَى ... إذَا حَجَلُوا بأسْيَافٍ رَدَيْنَا[5]

---

[1] جمع قونس: وهو أعلى الرأس.

[2] من الدعس: وهو الطعن.

[3] الأضمات: الأحقاد، والاحتواء: خلو الجوف من الطعام.

[4] الكلاكل: الصدور.

[5] حجل: تربث في مشيه على رجله، وردى: أسرع.

شَدَدْنا شَدَّةً أُخْرَى فَجَرُّوا بأَرْجُلِ مِثْلِهِمْ وَرَمَوْا جُويْنَا[٦]
وكانَ أخي جُوَيْنٌ ذا حِفَاظٍ وكانَ القَتْلُ للفِتْيَانِ زَيْنَا
فآبوا بالرِّماحِ مُكَسَّرَاتٍ وأُبْنَا بالسُّيوفِ قد انْحَنَيْنَا
وباتوا بالصَّعِيدِ لهُمْ أُحَاحٌ وَلَوْ خَفَّتْ لَنَا لكَلْمَى سَرَيْنَا

فهذه صورة شعرية مثل الشاعر بها الموقعة أحسن تمثيل. وإنك لتراه ينتقل من وصف إلى وصف في سهولة ورفق، ونراه في الوقت نفسه صادقًا فيما يقول، إذا لم يرد في قصيدته ما يحمل القارئ على تكذيبه، أو رميه بالغلو والإسراف، وانظر كيف اكتفى في رثاء أخيه حين صرع بهذا البيت السهل المقبول:

وكانَ أخي جُوَيْنٌ ذا حِفَاظٍ وكانَ القَتْلُ للفِتْيَانِ زَيْنَا

وأي فتى لا يتمنى أن يرمي بنفسه في سعير تلك الحرب التي يقول فيها هذا الفتى النبيل، وهو فيما يقول غير ظنين:

تنَادَوا يا لَبُهْثَةَ إذْ رَأَوْنَا فَقُلْنا: أحْسِني صَبْرًا جُهَيْنَا
سَمْعْنَا دَعْوَةً عَنْ ظَهْرَ غَيْبٍ فَجُلْنَا جَوْلَةً ثُم ارْعَوَيْنَا
فلـمَّا أنْ تَواقَفْنَا قَليلًا أنَخْنَا للكَلاكِلِ فارْتَمَيْنَا
تَلأَلُؤَ مُزْنَةٍ بَرَقَتْ لأَخْرَى إذَا جَحَلُوا بأَسْيَافٍ رَدَيْنَا

والشاعر الواحد قد يكلف بترديد معنى من المعاني، فلا يزال يبدأ ويعيد حتى يضع له صورة شعرية يصل بها إلى ما يريد، كالعباس بن الأحنف في ولوعه بكتمان الوجد، وجحود الحب، فقد افتتن في هذا المعنى ووضع له صورًا عديدة، فتارة يعتذر عن هجره فيقول:

الله يَعْلمُ ما أَرَدْتُ بِهجْرِكُمْ إلَّا مُصَانَعَةَ الْعَدُوِّ الكاشِحِ

[٦] جوين: هو أحو الشاعر وسيرثيه أشرف رثاء بالبيت التالي.

وَعَلِمْتُ أَنَّ تَباعُدي وَتسَتُّري ... أَدْنَى لِوَصْلِكِ مِنْ دُنُوٍّ فاضِحِ

وأحلى من هذا قوله في تعيين نوع الصدود:

سَأهْجُرُ إلْفي وَهِجْرانُها ... إذا ما الْتَقَيْنا صُدودُ الخُدودْ
كِلانا مُحِبٌّ وَلكِنَّنا ... نُدافِعُ عَنْ حُبِّنا بِالصُّدودْ

وتارة يعلل الكتمان فيقول:

سَأَسْتُرُ والسَّتْرُ مِنْ شِيمَتي ... هَوَى مَنْ أُحِبُّ بِمَنْ لا أُحِبْ
ولا بد مِنْ كَذِب في الهوى ... إذا كان دَفْعُ الأَذَى بالكَذِبْ

وحينًا يصف اضطراب الناس في الحديث عن وجده فيقول:

قدْ سحَبَ النَّاسُ أَذْيالَ الظُّنون بنا ... وفَرَّق النَّاسُ فينا قوْلَهُمْ فِرَقا
فجاهِلٌ قَدْ رَمَى بِالظَّن غَيْركُمو ... وَصادقٌ ليْسَ يدْري أَنَّهُ صَدَقا

وأظنه لم يبلغ من البيان ما أراد إلا حين قال:

كَذبْتُ عَلَى نَفْسي فحَدّثْتُ أَنْني ... سَلَوْتُ لِكيْما يَنْكِرُوا حينَ أَصْدُقُ
وَما مِنْ قِلىً مِنِّي وَلا عَنْ مَلالَةٍ ... وَلَكِنّني أُبْقي عَلَيْكِ وَأُشْفِقُ
عُطَفْتُ عَلَى أسْرَارِكُمْ فكَسَوْتُها ... قَمِيصًا مِنَ الكِتمَانِ لا يَتَخَرّقُ

وللقارئ أن يحلل هذا المعنى، فقد مهدت له السبيل[٧].

[٧] ارجع إلى هذه المعاني الوجدانية في الطبعة الثانية من كتاب: (مدامع العشاق).

الفصل العاشر

اختلاف الصور الشعرية

١

وقد نجد للموصوف الواحد صورتين مختلفتين لاختلاف العاطفة عند شاعرين، فمن ذلك قول ابن الزيات في برذون أشهب كان المعتصم أخذه منه، وكان أحمد بن خالد ذكره له، ووشى به إليه:

قالوا: جَزِعْتَ فقُلْتُ إِنَّ مُصِيبَةٌ[١] جَلَّتْ رَزِيَّتُها وَضاقَ المَذْهَبُ
كَيْفَ الْعَزاءُ وَقَدْ مَضَى لِسَبيلِهِ عَنَّا فَوَدَّعَنا الأَحَمُّ الأَشْهَبُ
دَبَّ الوُشاةُ فَأَبْعَدوهُ وَرُبَّما بَعُدَ الْفَتَى وَهوَ الحَبيبُ الأَقْرَبُ
لِلَّهِ يَوْمَ غَدَوْتَ عَنّي ظاعِنًا وَسُلِبْتُ قُرْبَكَ أَيَّ عِلْقٍ أَسْلُبُ
الآنَ إِذْ كَمَلَتْ أَداتُكَ كُلُّها وَدَعا العُيونَ إِلَيْكَ لَوْنٌ مُعْجِبُ
وَاخْتيرَ مِنْ سِرِّ الحَدائِدِ خَيْرُها لَكَ خالِصًا وَمِنَ الحُلِيِّ الأَغْرَبُ
وَغَدَوْتَ طَنَّان اللِّجامِ كَأَنَّما في كُلِّ عُضْوٍ مِنْكَ صَنْجٌ يُضْرَبُ
وَكَأَنَّ سَرْجَكَ إِذْ عَلاكَ غَمامَةٌ وَكَأَنَّما تَحْتَ الغَمامَةِ كَوْكَبُ
وَرَأى عَلَيَّ بِكَ الصَّديقُ مَهابَةً وَغَدا العَدُوُّ وَصَدْرُهُ يَتَلَهَّبُ
أَنْسَاكَ؟ لا بَرِحَتْ إِذنَ مَنسِيَّةً نَفْسي وَلا زالَتْ بِمِثْلِكَ تُنْكَبُ

[١] إن — هنا — حرف جواب بمعنى نعم، ولها شواهد كثيرة ذكرها النحويون.

وهذه صورة شعرية لجواد انتزع من صاحبه، فلنذكر صورة شعرية لحصان لم يفجع صاحبه فيه، كقول البحتري:

وَأغَرَّ فِي الزَّمَنِ الْبَهِيمِ مُحَجَّلٍ ... قَدْ رُحْتُ مِنْه على أغرَّ مُحَجَّلِ
كـالْـهـيْـكـلِ الـمَـبِّـنـي إلاَّ أنَّـهُ ... في الحُسنِ جاءَ كَصورةٍ في هَيْكَلِ
وَفي الضُّلوعِ يَشُدُّ عقْدَ حِزامِهِ ... يَوْمَ اللِّقاءِ عَلى مُعِمٍّ مُخْوِلِ
أَخْـوالُـهُ لِـلـرُّسْـتُـمـين بـفـارِسٍ ... وَجُـدودُهُ لِـلـتُّـبَّـعـيـن بِـمَـوكِـلِ[2]
يَهْوِى كَما تَهْوَى العُقابُ وَقدْ رَأَتْ ... صَيْدًا وَيَنْتَصِبُ انْتِصابَ الْأَجْدَلِ
ذَنَبٌ كما سُحِبَ الرِّشاءُ يذُبُّ عَنْ ... عُرْفٍ، وَعُرْفٌ كَالْقِناعِ المسْبَلِ
ذهِبٌ الأعالي حيْث تذْهبُ مُقْلَة ... فـيـه بـنـاظِـرهـا حَـديدُ الأسْـفَـل
صـافـي الْأدِيـمِ كـأنْـمـا عُـنيتْ بـهِ ... لِصَفاءِ نِقْبَتِهِ مَداوِسُ صَيْقلِ[3]
وَتراهُ يَسْطعُ في الْغُبارِ لهيبُهُ ... لوْنًا وشدًّا كالحَريقِ المُشْعَلِ
هَزِجُ الصَّهيل كَأنَّ في نَغماتِهِ ... نَبراتِ مَعْبَد في الثَّقيلِ الأوَّلِ
ملكَ العُيونِ فإِنْ بَدا أعْطَيْتَهُ ... نَظَرَ المَحِبِّ إلى الحَبيبِ المُقْبِلِ

والموازنة بين هاتين القصيدتين تتوقف على معرفة السبب الذي قيلت فيه القصيدة الأولى، والسبب الذي قيلت فيه القصيدة الثانية، ومتى عرفنا أن الشاعر الأول: وصف حصانه وهو جازع محزون، وأن الشاعر الثاني: وصف حصانه وهو فرح مختال، استطعنا أن نعرف السبب فيما بين القصيدتين من الفروق، فقد ابتدأ ابن الزيات فشرح حزنه على ذلك الحصان المسلوب بما يشبه أن يكون مرثية لغلام نكب به، وهذا الجزء من القصيدة اقتضته «ظروف» ابن الزيات، فهو في الوصف غير محسوب ثم انتقل إلى وصف الفرس فابتدأه بأبيات هي أنموذج في الرثاء ألا تراه يقول:

الْآنَ إذْ كَمُلَتْ أدَاتُكَ كُلُّهـا ... وَدَعا العُيونَ إليْك لوْنٌ مُعْجبُ

[2] موكل على وزن مقعد: حبل أو حصن، وفرس ربيعة بن غزالة السكوبي. «قاموس».

[3] الصيقل: شحاذ السيوف، والمداوس جمع مدوس، وهو المصفله

وَاخْتيرَ مِنْ سِرِّ الحَدائِدِ خَيْرُها   لَكَ خالِصًا وَمِنَ الحُلِيِّ الأَغْرَبُ
وَغَدَوْتَ طَنَّان اللِّجامِ كَأَنَّما   في كُلِّ عُضْوٍ مِنْكَ صَنْجٌ يُضْرَبُ

وهذا النمط في التعبير كان شائعًا في الرثاء لذلك العهد، ومنه قول بعض الشعراء:

الْآنَ لَمَّا صِرْتَ أَكْمَلَ مَنْ مَشَى   وَافْتَرَّ نابُكَ عَنْ شَباةِ القارِحِ
وَتَكامَلَتْ فِيكَ الشَّمائِلُ كُلُّها   وَغَدَوْتَ رَبَّ مَدائحٍ وَمَنائِحِ

ويدلك على أن ابن الزيات إنما يصف حزنه على ذلك الجواد أنك تراه يطنب في وصف المظاهر الأخاذة التي تبهر الناظرين؛ ليكشف عن سر التميمة التي رزأه بها ابن خالد عدوه اللدود، وإلا فما معنى قوله:

وَكَأَنَّ سَرْجَكَ إِذْ عَلاكَ غَمامَةٌ   وَكَأَنَّما تَحْتَ الغَمامَةِ كَوْكَبُ
وَرَأى عَلَيَّ بِكَ الصَّديقُ مَهابَةً   وَغَدا العَدُوُّ وَصَدْرُهُ يَتَلَهَّبُ

وكان ذلك؛ لأن ابن الزيات محنق مغيظ لا يفكر في عتق فرسه أكثر مما يفكر في نكبته بذلك العدو، الذي سد عليه طريق الخيلاء حين أغرى المعتصم بأخذ برذونه الجميل.

وجملة ما وصف به ابن الزيات برذونه أنه كامل الأداة، وأنه يروق العيون، وأنه اختار له من الحديد سره، ومن الحلي أغربه، وأنه طنان اللجام، وأن سرجه كالغمامة، وهو من تحته كالكوكب، وأنه يكبت العدو، ويسر الصديق.

وهذه أوصاف لا تماثل ولا توازن بأوصاف البحتري لجواده، فقد ذكر أنه أغر محجَّل، وأنه في تكوينه:

كـالْـهـيْـكـلِ الـمَـبْـنـي إلاَّ أَنَّـهُ   في الحُسنِ جاءَ كَصورةٍ في هَيْكَلِ

وأنه وافي الضلوع، وأنه أصيل: أخواله في بلاد الأكاسرة، وأجداده في بلاد التبايعة، وأنه يهوي هوي العقاب حين الصيد، ثم ينتصب انتصاب الأجدل، وأنه براق الجوانب: تتوهم في جبينه البدر، وفي أرساغه الجوزاء، وأن ذنبه لطوله كالرداء المسحوب، وأنه صافي الأديم كأنما سهرت على لونه الصياقل، وأنك تحسب بريق سنابكه في الغبار

نارًا يعلوها دخان، وأنه هزج الصهيل حتى لتحسب في نغماته نبرات معبد في صوته الرخيم، وأنه ملك العيون، حتى لتنظر إليه نظر المحب إلى الحبيب المقبل.

وليس عجبًا أن يجيد البحتري هذه الإجادة في وصف جواد كان يهتك بغرته ظلمة الليل، وينحدر به في الفضاء، كما تنحدر الصخرة الصماء عن القمة الشماء. أما ابن الزيات فهو حريب سليب، لم يذكر من جواده غير شياته الظاهرة، التي أججت في صدر حسوده نار العداوة والبغضاء.

٢

ذلك هو اختلاف الصورة الشعرية، وفي مقدور الناقد أن يتبين الصورة الموحدة عند شاعرين، ثم يوازن بين براعتهما في التصوير، ولنضرب المثل بوصف الحمامة الباكية، فقد أكثر منه الشعراء، فنجد قول أبي محلم الشيباني من قصيدة اقترحها عليه طاهر بن الحسين، وقد كبرت سنه، وطالت غربته:

وَأَرَّقني بِالرَّيِّ نَوْحُ حَمَامَة … فَنُحْتُ وذُو الشَّجْوِ الغَرِيب يَنُوحُ
عَلَى أَنَّها ناحَتْ ولَمْ تُذْرِ دَمْعَةً … ونُحْتُ وأَسْرابُ الدُّمُوعِ سُفُوحُ
وناحَتْ وفَرْخاها بِحَيْثُ تَراهُما … وَمِنْ دُونِ أَفْراخِي مَهامِهُ فِيحُ[٤]

وتجد قول ابن الدمينة:

أَلَا يَا حَمَامَاتِ اللِّوَى عُدْن عَوْدَةً … فإِنّى إِلَى أَصواتِكُنَّ حَزِينُ
فَعُدْنَ فَلَمَّا عُدْنَ كِدْنَ يُمِتْنَني … وَكِدْتُ بأَشْجانِى لَهُنَّ أُبِينُ
فَلَمْ تَرَ عَينى مِثْلَهُنَّ بَواكِيًا … بَكَيْنَ وَلَمْ تَذْرِفْ لَهُنَّ عُيونُ

[٤] فيح: جمع أفيح، وهو الواسع العريض.

ونجد قول ديك الجن:

حَمَائِمُ وُرْقٌ في حِمَى وَرَقٍ خُضْرِ ... لها مُقَلٌ تُجْرِي الدُّمُوعَ ولا تَجْرِي
تَكَلّفْنَ إِسْعادَ الغَرِيبَةِ إِنْ بَكَتْ ... وإِنْ كُنَّ لا يَدْرِينَ كيفَ جَوَى الصَّدرِ
لها حُرَقٌ لَوْ أَنَّ خَنْساءَ أَعْوَلَتْ ... بِهِنَّ لأَدَّتْ حَقَّ صَخْرٍ إلى صَخْرِ
فقلتُ لِنَفْسي ها هُنا طَلَبُ الأَسَى ... ومَعْدِنُهُ إِنْ فاتَني طَلَبُ الصَّبْرِ

ونحن إذا تأملنا أبيات أبي محلم، وأبيات ابن الدمينة، وأبيات ديك الجن لم نجد فيها صورة شعرية، ويظهر الفرق واضحًا إذا قابلناها بقول الطغرائي من قصيدة طويلة:

أَيْكِيَّةٌ صَدَحتْ شَجْوًا عَلَى فَنَنٍ ... فأَشْعَلَتْ ما خَبا مِنْ نارِ أَشْجاني
ناحتْ وما فَقَدتْ إِلْفًا ولا فُجِعَتْ ... فَذَكَّرَتْنيَ أَوْطاري وَأَوْطاني
طَليقَةٌ مِن إسارِ الْهمِّ ناعِمَةٌ ... أَضْحَتْ تُجَدِّدُ وَجْدَ الْموثَقِ الْعَاني
تشَبَّهَتْ بيَ في وَجدي وفي طَرَبي ... هَيْهاتَ ما نَحْنُ في الحالَيْنِ سِيَّانِ
ما في حَشاها ولا في جَفْنِهَا أثرٌ ... مِن نارِ قَلْبي ولا مِن ماءِ أَجْفاني
يا رَبَّةَ الْبانَةِ الْغَنَّاءِ تَحْضُنُها ... خَضْراءُ تَلْتفُّ أَغْصانًا بِأَغْصانِ
إِنْ كان نَوْحُكِ إِسْعادًا لِمُغْتَرِبٍ ... ناءٍ عَنِ الْأَهْلِ مَمْنُوٍّ بِهِجْرانِ
فَقارِضيني إِذا ما اعْتادَني طَرَبٌ ... وَجْدًا بِوَجْدٍ وسُلْوانًا بِسُلْوانِ
أَوْ لا فَقَصْرَكِ حَتَّى أَسْتَعينَ بِمَنْ ... يَعْنِيهِ شأَني وَيَأْسُو كَلْمَ أَحْزَاني
ما أنتِ مِنِّي ولا يَعْنيكِ ما أَخَذَتْ ... مِنِّي الهُمومُ وما تَدْرينَ ما شاني
كِلِي إِلَى الغَيْمِ إِسْعادِي فَإِنّ لَهُ ... دَمْعًا كَدَمْعي وَإِرْنانًا كَإِرْناني

وهذه صورة شعرية بديعة تمثل حال الموجع الحزين، وقد هاجته الحمامة الباكية، وإنك لترى الشاعر يوازن بين حاله وبين حال تلك الأيكية الساجعة موازنة دقيقة تروع القلب، وتهيج الوجدان، وانظر كيف يقول:

طَليقَةٌ مِن إِسارِ الْهمِّ ناعِمَةٌ   أَضْحَتْ تُجَدِّدُ وَجْدَ الْموثَقِ الْعَاني

وهذا غاية في وصف الحزن، واليأس من السلوان، فإن وصف الحمامة بالتصنع في بثها وشجاها أدل على لوعة الشاعر وأساه، ولا كذلك الاقتناع بحزن الحمائم الشاديات، فإن فيه شيئًا من الراحة لأنس الحزين بالحزين.

ولك أن تذكر أن هنا شيئًا من اختلاف الصورة، فإن أبا محلم يأسى لغربته، ويتفجع لبعد أطفاله، في حين إن الحمامة تبكي وقد جمع بينها وبين أفراخها غصن واحد، فماذا تبغي وقد وقاها الله تبديد الشمل وفرقة الأحباب!

وابن الدمينة يراجع حمامات اللوى، ويسألهن العودة، ثم يذكر أنه كاد يفصح عن أسراره حين بكين بجانبه، وإن لم تذرف لهن عيون، وديك الجن يردد معنى قريبًا من معنى ابن الدمينة، أما الطغرائي فقد أتى بفكرة طريفة، وسلك مسلكًا يدل على عنايته بتحديد ما يقول.

وأريد بهذا الفصل الوجيز أن ألفت نظر الناقد إلى ما يجب عليه من اختيار الصور الشعرية وإدراك ما بينها من دقائق الاختلاف والائتلاف: فإن الموازنة نوع من الوصف وبيان ما بين الصور من مختلف الفروق.

الفصل الحادي عشر

الصور الشعرية في القرآن

ولقد رأيت من رجال الأدب من يحسب الصورة الشعرية نوعًا من الاستعارة التمثيلية، وفي تصحيح ذلك الخطأ نسوق هذا الحديث.

١

الاستعارة التمثيلية هي ضرب من التشبيه يكون فيه المشبه والمشبه به هيئة منتزعة من عدة أمور متحققة أو متخيلة، ومن هذه الاستعارة يتكون أكثر الأمثال السائرة، فيكون لبعضها موارد حقيقية، ولأكثرها موارد خيالية.

وللأمثال — كما قال المرحوم أستاذنا المهدي — أربعة أضرب:

الأول: ما له مورد حقيقي كمواعيد عُرقوب في قول كعب بن زهير:

كانَتْ مَواعيدُ عُرْقُوبٍ لَها مَثَلًا وَما مَواعيدُها إِلّا الْأَباطيلُ

الثاني: الخيالي الممكن، وهو ما نسب الكلام والعمل فيه إلى عاقل كما جاء في أمثال لقمان أن صبيًّا كان يستحم في نهر، ولم يكن يحسن السباحة، فأشرف على الغرق، فاستغاث برجل عابر في الطريق، فأقبل عليه، وجعل يلومه على نزوله إلى النهر، فقال الصبي: «يا هذا! خلصني من الموت ثم لُمْني!».

الثالث: الخيالي المستحيل، وهو ما جاء على ألسنة الحيوان والجماد للاعتبار به، كما فعل نصر بن منيع، وكان خارجًا على المأمون، فسير إليه جيشًا ظفر به، فلما مثل بين يدي المأمون أمر بضرب عنقه، فقال: يا أمير المؤمنين! أتسمع مثلًا خطر على بالي؟ فقال: قل، فأنشأ يقول:

زَعَموا بأَنَّ الصَّقْرَ صادَفَ مَرَّةً عُصفورَ برٍّ ساقهُ التَقْديرُ
فَتَكَلَّمَ الْعُصْفورُ تَحْتَ جَناحِهِ والصَّقْرُ مُنْقضٌّ عليْه يطيرُ
إِنِّـي لِمِثْلِكَ لا أُتَمِّمُ لُقْمَةً وَلئِنْ شويتُ فإنني لحقيرُ
فتهاونَ الصَّقْرُ المُدِلُّ بِصَيدِهِ كَرَمًا وَأَفْلَتَ ذلِك العُصْفورُ

الرابع: الخيالي المختلط من الممكن والمستحيل، وهو ما جمع بين الناطق وغيره، كحديث الحية والأخوين: فقد زعموا أن أخوين هبطا بغنمهما واديًا فيه حية تحميه، وبينما كان أحدهما يرعى غنمه إذ نهشته الحية فقتلته. فقال أخوه: والله ما في الحياة خيرٌ بعده، ولأطلبن الحية. فلما لقيها وهم يقتلها قالت: ألا ترى أني قتلته وندمت على ما كان مني! فهل لك في الصلح، فأدعك في هذا الوادي آمنًا، وأعطيك دية أخيك كل يوم دينارًا؟ فصالحها على ذلك، وحلفت له وحلف لها، وما زالت تعطيه حتى كثر ماله. فلما أحس الغنى قال: كيف ينفعني هذا العيش، وأنا أرى قاتل أخي! فعمد إلى فأس فأحدَّها ثم انتظر، فلما مرت به ضربها فشجها وأخطأ مقتلها، فقطعت عنه الدينار وتوعدته فخاف شرها، وقال: هل لك أن نتعاهد على المودة كما كنا؟ فقالت: لا! لأنك كلما نظرت إلى قبر أخيك وجدت عليَّ، وكلما ذكرت الشجة التي في رأسي وجدت عليك! وفي ذلك يقول النابغة الذبياني من قصيدة يعاتب بها بني مرة:

وَإِنِّي لَأَلْقَى مِنْ ذَوي الضِّغْنِ مِنْهُمو وَما أَصْبَحَتْ تَشْكو مِن الْوَجْد ساهرهْ
كَما لَقيَتْ ذاتُ الصفا مِنْ حَليفِها وَما انْفَكَّتِ الأَمْثالُ في الناس سائرهْ
فَقالَتْ لَهُ أَدْعوكَ لِلْعَقْلِ وافيًا وَلا تَغْشَيَنِّي مِنْك بالظلُّمِ بادرهْ[1]

[1] العقل — هنا — هو الدية.

فَواثَقَها بالله حينَ تَراضَيا ... فَكانَتْ تَديهِ الْمالَ غِبًّا وَظاهِرَه
فَلَمَّا تَوَفَّى العَقْلَ إلاَّ أَقَلَّهُ ... وَجارَتْ بِهِ نَفْسٌ عَنِ الحَقّ جائِرَهْ
تذكرَ أنَّى يَجْعَلُ اللهُ فُرصَةً ... فَيُصْبِحَ ذا مالٍ وَيَقْتُلَ واتِرَهْ
فَلَمَّا رَأى أنْ ثَمِّرَ اللهُ مالَهُ ... وَأَثَّلَ مَوْجودًا وَسَدّ مَفاقِرَهْ
أَكَبَّ عَلَى فَأسٍ يُحُدّ غُرابُهَا ... مُذَكَّرَة مَتْنَ المَعاوِلِ باتِرَهْ
فَقامَ لَها مِنْ فَوْقِ جُحْرٍ مُشَيَّدٍ ... لِيَقتُلَها أو تُخْطِىءَ الكَفُّ بادِرَه
فَلَمَّا وَقاها اللهُ ضَرْبَةَ فَأسِهِ ... وَلِلْبِرِّ عَيْنٌ لا تُغَمِّضُ ناظِرَه
فَقالَ تَعالَيْ نَجْعَلِ اللهَ بَيْنَنا ... عَلَى ما لِنا أوْ تُنْجِزِي لِيَ آخِرَهْ
فَقالَتْ يَمينُ اللهِ أفْعَلُ إنَّني ... رَأَيْتُكَ غَدَّارًا يَمينُكَ فاجِرَهْ
أَبَى لِيَ قَبْرٌ لا يَزالُ مُقابِلي ... وَضَرْبَةُ فَأسٍ فَوْقَ رَأسي فاقِرَهْ

٢

وفي القرآن أمثال كثيرة لها موارد خيالية، من ذلك قوله تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۞ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۞ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾

فإن هذا تشبيه وتمثيل يراد به تصوير حال الأبرار والفجار، وما لهؤلاء من الخزي، وما لأولئك من النعيم.

وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

فإنه لم يحصل عرض ولا إباء ولا إشفاق، وإنما المراد تصوير التكاليف وما فيها من المشقة، وتصوير الإنسان وما يغلب عليه من الغرور والجهل بحقائق الأشياء.

وكذلك قوله — عز وشأنه —: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

فإن الغرض تصوير القدرة الإلهية، وما لها من السلطان المطلق في الأرض والسماء. وتظهر قيمة هذا التصوير إذا نظرنا في الآيات التي قصد بها الترغيب والترهيب كقوله تبارك اسمه:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

فإنك تراه يصور ما سيكون بصورة الواقع المخيف، ثم تراه يتبع ذلك بقوله:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

هذا في الترهيب، ثم قوله في التشويق إلى دار النعيم:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾

قال صاحب الطراز: ومن التمثيل الرائق قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

فهم لإعراضهم عن الدين، وإصرارهم على المخالفة لما جاء به الرسول، وبلوغ الغاية في الصد والنكوص، ممثلون بحال من جعل على قلبه كنان فهو لا يفقه ما يقال

له، ولا يرعوي لقبوله، وبحال من ضرب بينه وبين مراده بسد من بين يديه ومن خلفه فهو لا يهتدي إليه، ولا يمكنه الوصول إلى بغيته بحال.

والتمثيل تشبيه حالة بحالة كقوله تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾

فإن الشبه كما قال عبد القاهر الجرجاني منتزع من أحوال الحمار، وهو أنه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم، ومستودع ثمر العقول، ثم لا يحس بما فيها، ولا يشعر بمضمونها، ولا يفرق بينها وبين سائر الأعمال التي ليست من العلم في شيء، ولا من الدلالة عليه بسبيل، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه، ويكد جبينه، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة، ونتيجة لأشياء ألفت، وقرن بعضها إلى بعض[٢].

ولعلماء البيان كلام كثير في الفرق بين الاستعارة والكناية والتمثيل، وإنما يعنيني أن يعرف القارئ أن هذا النوع من التعبير ليس من الصور الشعرية التي أسلفت عنها الحديث، وإن كان في ذاته نوعًا من التصوير لما فيه من روعة الخيال.

٣

ويمكن أن يقال: إن الاستعارة التمثيلية صورة للمعنى، أما الصورة الشعرية فهي مثال للغرض، فقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ تمثيل يراد به تقرير معنى خاص: هو قدرة الله. أما تصوير الغرض بصورة شعرية فكقوله تعالى في آخر سورة المائدة:

﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

---

[٢] راجع أسرار البلاغة.

فإنه لا شك في أن هذا تصوير للغرض، لا للمعنى، والمعنى جزء من الغرض، فإن هذا الحوار البديع الذي جرى بين رب العزة وبين عبده ورسوله عيسى عليه السلام يمثل غرضًا كليًّا يشتمل على طائفة من المعاني الجزئية، فتصوير المعنى الجزئي هو الاستعارة أو التمثيل، وتصوير الغرض الكلي هو الصورة الشعرية التي يراد بها الوصول إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من التأثير الذي هو غاية البيان.

٤

ومن الصور الشعرية قوله تعالى في تحديد موقف المسلمين أمام أعدائهم من المشركين: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۞ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۞ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۞ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۞ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۞ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۞ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۞ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ

اللهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

وأحب أن يذكر القارئ أني أتكلم عن القرآن من الوجهة الأدبية بغض النظر عما في مثل هذه الآيات من أحكام القتال، وما قد ينظر فيه الفقيه من وجوه النسخ وضروب التأويل، وأقرر أن هذه الصورة تكاد تكون خطبة في الدعوة إلى الجهاد.

وتمتاز الصور الشعرية في القرآن بتثبيت المعنى وتأكيده حين يقتضي المقام ذلك، والقرآن لا يرى غضاضة في التكرار حين يحتاج إليه، بل يراه واجبًا محتوم الأداء وإنك لتجده في هذه الآيات يبدئ ويعيد في لعن المشركين وتحقيرهم، والدعوة إلى تعذيبهم، وإذلالهم. وتقتيلهم، إذ كان ذلك من أغراضه الأساسية. ألا تراه يوصي بالرفق حين يقول:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾. ثم يصرخ صرخة الغضب تتفجر من جوانبه الدماء، فيقول: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۞ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾. ثم لا يكفيه هذا بل يقول: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ثم لا يكفيه هذا بل يقول: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾. ثم يعود فيقول: أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. ثم يثور فيقول: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۞ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وأود أن يذكر القارئ أن العهد الذي نزل فيه القرآن كان عهد فتنة وعماية وضلال، وكانت هذه الغضبة التي تقبض بها جوانب القرآن غضبة طبيعية، لا إثم فيها ولا عدوان. أقول ذلك ليعرف القارئ السر في أني أجعل من القرآن صورًا شعرية، وإن لم يكن النبي ﷺ من الشعراء، فليس القرآن من الكتب التي يراد بها التشريع

المحض، وإنما هو يذكر القوانين في بساطة وسهولة، ثم يدعو إلى تأييدها وتنفيذه بالقوة والجبروت.

٥

ومن الصور الشعرية البديعة التي وردت في القرآن قوله عز شأنه:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

اتل هذا أيها القارئ مرة وثانية وثالثة، وحدثني أتجد أعذب من هذا الحديث الممتع؟ وهل تجد أخف منه على السمع، وأحب منه إلى القلب، وأرفق منه بالنفس؟ ألا ترى الحسن يجري في هذا الحديث كما يجري السحر في الطرف الكحيل، ويتغلغل الإيمان في قلب قارئه كما يتغلغل في صدر الوالد يرفق به ابنه الوحيد؟؟

٦

ومن الصور الشعرية الرائعة قوله تبارك اسمه:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا سَوَاءٌ

عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَـٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

وأنا أستطيع إيراد المئات من الصور الشعرية في القرآن، لو سمح الوقت، ولكن هيهات! فليكتف القارئ بذلك، وليعلم أن في هذا المنهج غناء أي غناء، لمن يريد الموازنة بين الكتاب والخطباء، فإن التأثير يرتكز على ما في الخطب والرسائل من الصور الشعرية التي تفعل ما تفعل بالعقول والقلوب. وكم في خطب علي بن أبي طالب ورسائل الجاحظ من الصور الفتانة، التي تسكن إليها شوارد النفوس!

الفصل الثاني عشر

المعاني والأغراض

قد رأيت حين حدثناك عن الصور الشعرية في القرآن أننا فرقنا بين المعنى والغرض، والآن نعود إلى إيضاح هذا الرأي، الذي نرجو أن يكون له شيء من النفع في عالم البيان.

١

كان النقد يرتكز على وحدة البيت عند نقد الشعر، وعلى وحدة الفقرة عند نقد النثر، بغض النظر عن وحدة الغرض الذي سيق من أجله الكلام، وكانوا يقولون فيمن يندر له بيت: لو قال هذا وسكت لكان أشعر الناس!

ونحن في تعويلنا على «الصور الشعرية» التي تمثل الأغراض، لا ننكر أهمية الألفاظ المختارة، والأخيلة الرائعة، التي تأتي في تضاعيف المنظوم والمنثور فتمثل المعاني أصدق تمثيل.

أما اللفظ المختار فكقول كثيِّر:

بِأَبي وأُمِّي أَنْتِ مِنْ مَظْلومَةٍ — طَبنَ الْعدُوُّ لَها فَغَيَّر حالَها[١]
لوْ أَنْ عَزَّةَ خَاصَمَتْ شَمْسَالضُّحى — في الْحُسْنِ عِنْد موفَّقٍ لَقَضَى لَها
وَسَعَى إِلَيَّ بصَرْمِ عَزَّةَ نِسْوةٌ — جَعلَ المليكُ خُدودَهُنَّ نِعالَها

[١] طبن بمعنى فطن، وهو طبن، وطبنت النار: دفنتها لئلا تطفأ في الطابون، وهو مدفنها. وأهل مصر يسمون المخبز: «الطابونة» ولذلك أصل فصيح.

وهذه أبيات عادية ولكن كلمة «موفق» في قوله:

لـــوْ أَنْ عَــزَّةَ خَـــاصَـــمَـــتْ   في الْحُسْنِ عِنْد موفَّقٍ لَقَضَى لَها

كلمة دقيقة بارعة تمثل مراد الشاعر أصدق تمثيل؛ لأنه يري أن يخيل إليك أن عزة كالشمس في الحسن والإشراق، وأنها لو خاصمت الشمس في الحسن لاشتبه الأمر على من يفصل في هذه الخصومة، وأنه لا بد من التوفيق ليحكم بتفوق هذه المحبوبة على الشمس، ولا يحتاج الحكم إلى التوفيق إلا حين يلتبس الحق، ويتعذر الفصل وحسب هذه الحسناء أن تفتن الناظر، وأن تكون في نفس المنصف أولى من الشمس بالجمال.

وأما الخيال الرائع فكقول النابغة الذبياني في وصف الليل:

تَطاول حتَّى قُلْتُ ليْسَ بمُنْقضٍ   وَليْسَ الّذي يرْعَى النُّجوم بآئب

فقد صور النجوم بصورة الإبل تسرح وتمرح في أديم السماء، وصور الصبح بالراعي الغائب الذي يخشى أن لا يئوب، وفي أوبته صرف هذه النجوم.

اذكر هذا ثم تعالى ننظر: أهذا هو الغرض الذي سيق من أجله الحديث؟ كلا! فإن الغرض أوسع من ذلك، وغرض النابغة أن يشكو إلى محبوبته هجوم الهم على صدره في ظلمة الليل، وقد أفصح عن هذا الغرض في هذه الأبيات:

كِليني لِهمٍّ يا أُميْمَة ناصِبٍ   وَليْلٍ أُقاسيه بَطيءِ الْكَواكِبِ
تَطاول حَتَّى قُلْتُ ليْسَ بِمُنْقضٍ   وَليْس الّذي يرْعى النُّجومِ بآئب
وَصدْرِ أراح اللَّيْلُ عَازب همْه   تَضاعف فيهِ الحُزْنُ مِنْ كُلَّ جانِبِ

وهذه صورة شعرية لتمثيل الغرض الذي قصد إليه الشاعر في مطلع قصيدته، فقد تحدث عن همه الممض الموجع، وليله الذي طال بطوله بثه وشجاه، وصدره الذي أراح الليل ما عزب من همه، وهذا أيضًا خيال رائع: فقد صور الهموم بصورة الإبل تسرح نهارًا، ثم تراح ليلًا إلى الحظيرة، وكذلك يشغل المرء عن همومه بالنهار، فإذا انقطعت شواغله بالليل دبت الهموم إلى صدره فاحتلته من جديد.

وهذا المعنى أروع من قول امرئ القيس:

أَلا أَيُها اللَّيْلُ الطَّويلُ أَلا انْجلِ بصُبْحٍ وما الإِصْباحُ مِنْك بِأَمْثَلِ

وإن قال العتبي بغير ذلك في الحديث الذي ذكره صاحب زهر الآداب[٢].
وفي مثل الغرض الذي أفصح عنه النابغة يقول حندج بن حندج المري:

في لَيْلِ صْولٍ تَنَاهَى الْعرضُ والطُّولُ كأنما لَيْلُه باللَّيل مَوْصولُ
لا فارقَ الصُّبْح كَفِّي إِنْ ظَفِرْتُ بِهِ وإِنْ بَدتْ غُرَّةٌ مِنْهُ وتَحْجيلُ
لِساهِرٍ طالَ في صُولٍ تَمَلْمُلُه كأَنَّه حَيَّةٌ بالسَّوْطِ مَقْتولُ
متى أرى الصبحَ قَدْ لاحَتْ مَخايِلُهُ واللَّيْل قَدْ مُزِّقَتْ عَنْهُ السَّرابيلُ
لَيْلٌ تَحَّيرَ ما ينْحَطُّ في جِهَةٍ كَأَنَّهُ فَوْقَ مَتْنِ الأَرْضِ مَشْكولُ
نُجومُهُ رُكَّدٌ لَيْستْ بِزائِلَةٍ كَأَنَّما هُنَّ في الجوِّ الْقَناديلُ
ما أَقْدَرَ اللهَ أَنْ يُدْني عَلَى شَحَطٍ مَنْ دارُهُ الحزْنُ مِمَّنْ دارُهُ صولُ
الله يَطْوي بِساطَ الْأَرْضِ بَيْنَهُما حَتَى يُرَى الرَّبْعُ مِنْهُ وهوَ مأَهْولُ

وفي هذه القصيدة يظهر الفرق واضحًا بين المعنى والغرض، ففي كل بيت معنى خاص، ومن مجموع هذه المعاني يتكون الغرض، فليس هناك ريب في أن قوله:

لا فارقَ الصُّبْح كَفِّي إِنْ ظَفِرْتُ بِهِ وإِنْ بَدتْ غُرَّةٌ مِنْهُ وتَحْجيلُ

فيه معنى جميل، وخيال رائع، ولكنه لا يمثل الغرض الذي قيلت من أجله القصيدة. وكذلك قوله:

---

[٢] ص١٦٦ ح ٣ من الطبعة الأولى.

لَيْلٌ تَحَّيرَ ما ينْحَطُّ في جِهَةٍ كَأَنَّهُ فَوْقَ مَتْنِ الأَرْضِ مَشْكولُ

فيه خيال يخلب العقول، وأي خيال أروع من حيرة الليل، وتقييده فوق متن الأرض بشكال! ولكن هب الشاعر قال هذا البيت مفردًا لا سابق له ولا لاحق، فأي تأثير يكون له في النفس وهو في ذلة اليتيم!

وكذلك قول أشجع بن عمرو السلمي في رثاء محمد بن منصور بن زياد:

أَنْعى فَتَى الْجودِ إِلى الْجودِ ما مِثلُ مَنْ أَنعَى بِمْوجودِ
أَنْعى فَتىً مَصَّ الثرَى بَعْدهُ بَقيَّةَ المْاء مِنَ العْودِ
وانْثَلَمَ المجْدُ بِهِ ثُلْمَةً جَانِبُها لَيْس بِمْسدودِ
فَالآنَ تُخْشَى عَثَراتُ النَّدَى وصوْلَةُ الْبُخْلِ عَلَى الجودِ

ففي كل بيت معنى جميل، وفي كل بيت خيال رائع، ولكن الصورة الشعرية لا تتم إلا بضم هذه المعاني بعضها إلى بعض، ومنها يتكون الغرض، وهو ذهاب المجد بفقد هذا الجواد.

٢

على أن الغرض قد يتشعب حين يوجد ما يقتضي ذلك، فقد ذهب الثكل برشد طريف بن أبي وهب العبسى، فقال يرثي ابنه بهذه الكلمات الموجعات التي أصبحت لذهوله كثيرة الأغراض:

أَرابعُ مَهْلًا بَعْضَ هذَا وأَجْملِي فَفي الْيأْسِ ناهٍ والْعزاءُ جَميلُ
فَإِنَّ الَّذي تَبْكينَ قَدْ حالَ دونَهُ تُرابٌ وزَوْراءُ المقامِ دَحولُ[٣]
نَحاهُ لِلَحْدٍ زِبْرقانٌ وخالِدٌ وفي الْأَرْضِ لِلْأَقوامِ قَبْلَكِ غولُ
وَأَيُّ فَتى وارَوْهُ ثُمَّتَ أَقْبلَتْ أَكُفُّهو تَحْثو مَعًا وتَهيلُ

[٣] الدحول: هي الحفرة الغامصة.

وَظَلَّتْ بي الْأَرْضُ الْفَضاءُ كَأَنَّما   تَصَعَّد بي أَرْكانُها وَتَجولُ
وَشَدَّ إِلَيَّ الطَّرْفَ مَنْ كانَ طَرْفُهُ   لِعَهْدِ عُبَيْدِ الله وَهوَ كَليلُ
لَئِنْ كانَ عَبْدُ الله خَلَّى مَكانَهُ   عَلَى حين شَيْبي بالشَّبابِ بَديلُ
لَقَدْ بَقيتْ مِنِّي قَناةٌ صَليبَةٌ   وإِنْ مَسَّ جِلْدي نَهْكَةٌ وَذُبولُ
وَما حالَةٌ إِلَّا سَتُصْرَفُ حالُها   إِلَى حَالَةٍ أُخْرَى وَسَوْفَ تَزولُ

فقد تنقل الشاعر من معنى إلى معنى، ومن غرض إلى غرض، تحت وطأة الحزن الذي مشى به من العزاء إلى الجزع، ومن الجزع إلى العزاء، فإنك تراه يروض نفسه على الصبر حين يقول:

أَرابعُ مَهْلًا بَعْضَ هذَا وأَجْمِلِي   فَفي الْيأَسِ ناهٍ والْعزاءُ جَميلُ

ثم تراه يغري بنفسه ثائرة الحزن حين يقول:

وَشَدَّ إِلَيَّ الطَّرْفَ مَنْ كانَ طَرْفُهُ   لِعَهْدِ عُبَيْدِ الله وَهوَ كَليلُ

ثم يعود فيقول:

وَما حالَةٌ إِلَّا سَتُصْرَفُ حالُها   إِلَى حَالَةٍ أُخْرَى وَسَوْفَ تَزولُ

وكذلك يطرب المحزون فلا يستقر على حال.

٣

والنثر كالشعر في المعاني والأغراض، وعندنا كتاب بديع الزمان الهمذاني[٤] إلى القاضي أبي القاسم علي بن أحمد في شكوى أبي بكر الحبري، وفيه طائفة من الصور الشعرية بقدر ما فيه من الأعراض، وانظر قوله في وصف العلم:

---

[٤] راجع مذاهب بديع الزمان الإنشائية في الجزء الأول والثاني من كتاب (النثر الفني).

والعلم أطال الله بقاء القاضي شيء كما تعرفه بعيد المرام، لا يصاد بالسهام ولا يقسم بالأزلام، ولا يرى في المنام، ولا يضبط باللحام، ولا يورث عن الأعمام ولا يكتب للئام، وزرع لا يزكو في كل أرض حتى يصادف من الحرص ثرى طيبًا ومن التوفيق مطرًا صيبًا، ومن الطبع جوًّا صافيًا، ومن الجهد روحًا دائمًا، ومن الصبر سقيًا نافعًا، والعلم علق لا يباع ممن زاد، وصيد لا يألف الأوغاد، وشيء لا يدرك إلا بنزع الروح، وغرض لا يصاب إلا بافتراش المدر، واستناد الحجر، ورد الضجر، وركوب الخطر، وإدمان السهر، واصطحاب السفر، وكثرة النظر، وإعمال الفكر، ثم هو معتاص على من ركا زرعه، وكرم أصله وفرعه، ووعى بصره وسمعه، وصفا ذهنه وطبعه. فكيف يناله من أنفق صباه على الفحشاء، وشغل سلوته بالغنى وخلوته بالعناء، وأفرغ جده على الكيس وهزله على الكأس؟ والعلم ثمر لا يصلح إلا للغرس ولا يغرس إلا في النفس، وصيد لا يقع إلا في البذر، ثم لا ينشب إلا في الصدر وطائر لا يخدعه إلا قفص اللفظ، ثم لا يغفله إلا شرك الحفظ، وبحر لا يخوضه الملاح ولا تطيقه الألواح، ولا تهيجه الرياح، وجبل لا يتسنم إلا بخطا الفكر، وسماء لا تصعد إلا بمعراج الفهم، ونجم لا يلمس إلا بيد المجد، أيكفي أن يصبح المرء بين الزق والعود، ويمسي بين موجبات الحدود، حتى يتم شبابه، ويشيب أترابه، ثم يلبس دنيته؛ ليخلع ديبته، ويسوي طيلسانه، ليحرف يده ولسانه، ويقصر سباله؛ ليطيل حباله، ويبدي شقاشقه، ليغطي مخارقه، ويبيض لحيته ليسود صحيفته، ويظهر ورعه، ليخفي طمعه، ويغشي محرابه؛ ليملأ جرابه، ويكثر دعاءه؛ ليحشو وعاءه، ويرجو أن يخرج من بين هذه الأحوال عالمًا، ويقعد حاكمًا! هذا إذا المجد كالوه بقفزان!

فهذه طائفة من المعاني ترجع إلى غرض واحد: هو أن العلم شيء عزيز لا يباله بعد الجهد إلا كرام النفوس[٥].

ويمكن للناقد أن يجد في بعض هذه المعاني شيئًا من الضعف، ولكنه لن ينكر على الكاتب أنه أفصح عن غرضه، وبلغ دعوته، بل وصل بها إلى قرار القلوب. وأهمية

[٥] وهذا لا ينافي أن غرض الكاتب هو التحريض على كبت عدوه الحيري.

الصور الشعرية كما أسلفنا القول ترجع إلى تمكين المعاني في النفس، والوصول إلى التأثير الذي هو غاية البيان.

وانظر قول بديع الزمان في وصف هذا القاضي ووصف قومه:

> وأقسم لو أن اليتيم وقع في أنياب الأسود، بل الحيات السود، لكانت سلامته منها أحسن من سلامته إذا وقع بين غيابات هذا القاضي وأقاربه، وما ظنك بقوم يحملون الأمانة على متونهم، ويأكلون النار في بطونهم، حتى تغلظ قصراتهم من مال اليتامى، وتسمن أكفالهم من مال الأيامى؟ وما ظنك بدار عمارتها حراب الدور وعطلة القدور، وخلاء البيوت، من الكسوة والقوت؟ وما قولك في رجل يعادي الله في الفلس، ويبيع الدين بالثمن البخس، ومن حاكم يبرز في ظاهر أهل السمت وباطن أصحاب السبت، فعله الظلم البحت، وأكله الحرام السحت؟ وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام، ولص لا ينقب إلا خزانة الأوقاف، وكردي لا يغير إلا على الضعاف، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود؟! وما زلت أبغض حال القضاء طبعًا وحيلة، حتى أبغضتهم دينًا وملة، وألعنهم دربة حتى لعنتهم قربة، بما شاهدت من هذا الحيري وقاسيت، وعانيت من حطبه وخبطه ما عانيت.

وهذه صورة شعرية تمثل الظالمين من القضاة في جميع الأقطار، وفي جميع العصور؛ لأن نزعات الإنسانية واحدة، أو كأنها واحدة في الخير والشر. والوصف الصادق يعذب ويستملح في كل قطر وفي كل جيل.

٤

ولك أن تتخطى النثر المحبر إلى الكلمات المأثورة التي جادت بها البديهة؛ لترى كيف تكون المعاني والأغراض.

فمن ذلك ما ذكره الجاحظ عن تمني يزيد الرقاشي وقد تمنى بحضرته قوم فقال: أتمنى كما تمنيتم؟ قالوا: تمنه! قال: «ليتنا لم نخلق، وليتنا إذا خلقنا لم نعص، وليتنا

إذ عصينا لم نمت، وليتنا إذ متنا لم نبعث، وليتنا إذا بعثنا لم نحاسب، وليتنا إذ حوسبنا لم نعذب، وليتنا إذ عذبنا لم نخلد».

وفي مثل هذا المعنى يقول الحجاج: «ليت الله إذ خلقنا للآخرة كفانا أمر الدنيا فرفع عنا الهم بالمأكل والمشرب والملبس والمنكح، أو ليته إذ أوقعنا في هذه الدار كفانا أمر الآخرة، فرفع عنا الاهتمام بما ينجي من عذابه».

وفي هاتين الأمنيتين وصف دقيق لحيرة النفس الإنسانية التي ما زالت تكد وتكدح في استكناه أسرار الغيب، ثم سقطت صريعة الإعياء، بعد مرارة الإخفاق!

وأحب أن لا يغفل القارئ عن دقة الترتيب في هذه الصورة الشعرية، وأريد بالترتيب السير مع حركات النفس، فقد ابتدأ الرقاشي بهذه الصرخة «ليتنا لم نخلق!»، وهي أول نفثة يجود بها المكروب، ثم أخذ يجيل نظر الحيرة، ويتمنى إذ خلق لو وقاه الله المعصية، ويتمنى إذ عصا لو نجا من الموت، إلى آخر ما قال.

وقيل لبعض العرب: أي شيء تتمنى، وأي شيء أحب إليك؟ فقال: لواء منشور، والجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير!

وهذه صورة يبسم لها القارئ، ولكنها على ذلك صورة صادقة لكثير من النفوس. وأدق منها قول الآخر، وقد قبل له، أجزعت من الموت؟ وقد صلى ركعتين فأطال، وكان أمر بقتله. فأجاب «إن أجزع فقد أرى كفنًا منشورًا، وسيفًا مشهورًا، وقبرًا محفورًا».

وهذه صورة دقيقة لذلك الموقف الرهيب!

وقال أعرابي لسليمان بن عبد الملك: إني أكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله، فإن وراءه إن قبلته ما تحبه. قال هاته يا أعرابي فنحن نجود بسعة الاحتمال على من لا نأمن غيبته، ولا نرجو نصيحته، وأنت المأمون عيبًا، الناصح جيبًا. قال: فإني سأطلق لساني بما خرست عنه الألسن تأدية لحق الله تعالى: إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، وخافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فهم حرب للآخرة وسلم للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعًا، والأمة كسفًا وخسفًا. وأنت مسئول عما اجترموا وليسوا مسئولين عما اجترمت. فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك: فإن أعظم الناس عند الله غبنًا من باع آخرته بدنيا غيره. فقال سليمان: أما أنت يا أعرابي، فقد سللت لسانك وهو سيفك. قال: أجل يا أمير المؤمنين لك لا عليك!

وفي هذا الحوار كما يرى القارئ طائفة من المعاني يتكون منها غرض واحد. وكذلك نستطيع حين نوازن بين الكتاب والخطباء والشعراء أن نفرق بين المعاني والأغراض.

وأرجو أن أوفق في الأبحاث الآتية إلى مراعاة ما وضعته من القواعد الأصول[٦].

[٦] كل ما سلف من الفصول كان مقدمة لشرح قواعد النقد كما يفهمه المؤلف، وهي فصول كتبت أول مرة سنة ١٩٢٥ ومن المؤكد أن القارئ كان ينتظر أن يضيف المؤلف إلى هذه الطبعة ما جد له من الآراء في مدى عشر سنين. ولكنا اكتفينا بما أثبتناه في الطبعة الأولى: لأن كتاب «النثر الفني» انته؟؟ كل ما وفقنا إليه بعد ذلك من الأفكار النقدية، وليس من الحزم أن ننقل هنا ما سجلناه هناك.

الفصل الثالث عشر

الحصري وشوقي

بينّا في الأبحاث الماضية ما يجب أن يتوفر في الناقد الموازن من الشروط، وبسطنا القول في نظرية الصور الشعرية التي تعتمد عليها في النقد بعد مراعاة ما عني به الأقدمون من اختيار الألفاظ والأساليب، والآن ندخل في بحث جديد لم يسلكه أحد من قبل: هو الموازنة بين القصائد المشهورة التي جرت مجرى المعارضة والمماثلة كما فعل ابن المعتز في معارضة الحسين بن الضحاك، وابن عبد ربه في معارضة مسلم بن الوليد، وابن درّاج في معارضه أبي نواس، والبارودي في معارضة أبي فراس، إلخ.

ولهذا البحث أهمية كبيرة؛ لأنه سيمكننا من دراسة عرائس الشعر دراسة منظمة دقيقة، وسيرينا كيف تتصاول العقول، وكيف تتسابق القرائح، إذ كانت معارضة الشاعر للشعر نوعًا من السباق في عالم البيان.

ولنبدأ بالموازنة بين دالية الحصري: «يا ليل الصب متى عده» ودالية شوقي «مضناك جفاه مرقده»، فإن لهاتين القصيدتين أثرًا في أندية الأدب ومجالس الغناء ومن الخير أن نميط اللثام عما فيهما من مواطن الحسن، ومظان الضعف، وأن نبين أي الشاعرين أبرع لفظًا، وأشرف معنى، وأسمى خيالًا.

والحُصْري[1] — بضم الحاء المهملة، وسكون الصاد المهملة، وبعدها راء مهملة هو أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري المقرئ الضرير القيرواني، وهو ابن خالة أبي إسحاق الحصري صاحب كتاب زهر الآداب، وقد ذكر ابن بسام في الذخيرة أن أبا

[1] ذكر ابن خلكان أنه منسوب إلى الحصر التي تفرش، وقد حدثنا السيد حسني عبد الوهاب أنه منسوب إلى «الحصر» وهي قرية قديمة بالقرب من القيروان.

الحسن الحصري كان بحر براعة، ورأس صناعة، وزعيم جماعة، وأنه طرأ على الأندلس منتصف المئة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه من القيروان، والأدب بأفق الأندلس يومئذ نافق السوق، معمور الطريق، فتهاداه ملوك الطوائف تهادي الرياض بالنسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأنس المقيم.

ولكنه فيما نقل لم يطمئن هناك، فاحتمل على مضض بين زمانه، وبعد قطره، ثم اشتملت عليه مدينة طنجة بعد خلع ملوك الطوائف، وتوفي بها رحمه الله سنة ٤٨٨ وله قصيدة طويلة في قراءات نافع، وله ديوان شعر[٢]، وهو القائل:

أَقـولُ لَـهُ وَقَـدْ حَـيَّـا بِـكَـأْسٍ   لَـها مِـنْ مِـسْـكِ رِقَّـتِـهِ خِـتـامُ
أَمِـنْ خَـدَّيْـكَ تُـعْـصَـرُ قـالَ كَـلَّا   مَـتَـى عُـصِـرَتْ مِـنَ الْـوَرْدِ الْـمُـدامُ

ويقول ابن بسام في وصفه: «على أنه كان فيما بلغني ضيق العطن، مشهور اللسن، يتلفت إلى الهجاء، تلفت الظمآن إلى الماء».

وكنا نودّ لو حفظ لنا التاريخ صورة مضبوطة لأخلاق هذا الشاعر المجيد، فإن كلمة ابن بسام لا تفيد غير الظن، وأين الظن من اليقين.

ويمكن الحكم بأنه كان خبيرًا بأسرار اللغة العربية، فإن في الاغتراب وصحبة الملوك عونًا على فهم دقائق الوجود.

أما شوقي فشاعر معروف في مصر والشرق، وله كلف بمعارضة القدماء، وهو كذلك خبير بأسرار اللغة العربية، وبصير بشئون الحياة، وهو كالحصري افتتح قصيدته بالنسيب، واختتمها بالمديح ولكني سأقتصر في الموازنة على صدر القصيدتين، إذ كان النسيب هو السبب فما يرجى لهما من الخلود، إن كان لهذا العالم حظ من الخلود[٣].

---

[٢] راجع وفيات الأعيان.

[٣] للشاعر شوقي حظ عظيم من عناية المؤلف، وقد كتب عنه فصولا أخرى نقد بها مذاهبه الشعرية والاجتماعية، ويمكن الرجوع إليها في الجزء الأول والثاني من كتاب (البدائع).

قصيدة الحصري

يَا لَيْلُ الصَّبُّ مَتَى غَدُهُ   أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ
رَقَدَ السُّمَّارُ فَأَرَّقَهُ   أَسَفٌ لِلْبَيْنِ يُرَدِّدُهُ
فَبَكَاهُ النَّجْمُ وَرَقَّ لَهُ   مِمَّا يَرْعَاهُ وَيَرْصُدُهُ
كَلِفٌ بِغَزَالٍ ذِي هَيَفٍ   خَوْفُ الْوَاشِينَ يُشَرِّدُهُ
نَصَبَتْ عَيْنَايَ لَهُ شَرَكًا   فِي النَّوْمِ فَعَزَّ تَصَيُّدُهُ
وَكَفَى عَجَبًا أَنِّي قَنِصٌ   لِلسِّرْبِ سَبَانِي أَغْيَدُهُ
صَنَمٌ لِلْفِتْنَةِ مُنْتَصِبٌ   أَهْوَاهُ وَلَا أَتَعَبَّدُهُ[٤]
صَاحٍ وَالْخَمْرُ جَنَى فَمِهِ   سَكْرَانُ اللَّحْظِ مُعَرْبِدُهُ
يَنْضُو مِنْ مُقْلَتِهِ سَيْفًا   وَكَأَنَّ نُعَاسًا يُغْمِدُهُ
فَيُرِيقُ دَمَ الْعُشَّاقِ بِهِ   وَالْوَيْلُ لِمَنْ يَتَقَلَّدُهُ
كَلاّ لاَ ذَنْبَ لِمَنْ قَتَلَتْ   عَيْنَاهُ وَلَمْ تَقْتُلْ يَدُهُ

***

يَا مَن جَحَدَتْ عَيْنَاهُ دَمِي   وَعَلَى خَدَّيْهِ تَوَرُّدُهُ
خَدَّاكَ قَد اِعْتَرَفَا بِدَمِي   فَعَلَامَ جُفُونُكَ تَجْحَدُهُ
إِنِّي لَأُعِيذُكَ مِنْ قَتْلِي   وَأَظُنُّكَ لاَ تَتَعَمَّدُهُ
بِاللهِ هَبِ الْمُشْتَاقَ كَرًى   فَلَعَلَّ خَيَالَكَ يُسْعِدُهُ
مَا ضَرَّكَ لَوْ دَاوَيْتَ ضَنَى   صَبٍّ يُدْنِيكَ وَتُبْعِدُهُ
لَمْ يُبْقِ هَوَاكَ لَهُ رَمَقًا   فَلْيَبْكِ عَلَيْهِ عُوَّدُهُ
وَغَدًا يَقْضِي أَوْ بَعْدَ غَدٍ   هَل مِنْ نَظَرٍ يَتَزَوَّدُهُ
يَا أَهْلَ الشَّوْقِ لَنَا شَرَقٌ   بِالدَّمْعِ يَفِيضُ مَوْرِدُهُ
يَهْوَى الْمُشْتَاقُ لِقَاءَكُمُو   وَصُرُوفُ الدَّهْرِ تُبَعِّدُهُ

[٤] الصنم: هو التمثال، ولا تزال هذه الكلمة على ألسنة أهل المغرب، وإن كانت في مصر مما ينكر الذوق.

***

ما أحلَى الوَصْلَ وأَعْذَبَهُ		لَــوْلا الأيَّــامُ تُـنَـكِّـدُهُ
بِالبَيْنِ وبِالْهجْرانِ فَيا		لَفُؤَادِي كيْف تَجَلُّدُهُ

قصيدة شوقي

مُضْناكَ جفاهُ مَرْقَدُهُ		وبـكـاهُ ورحَّـمَ عُـوَّدُهُ
حَيْرانُ القَلْبِ مُعَذَّبُهُ		مَقْروحُ الجَفْنِ مُسَهَّدُهُ
أَوْدَى حَرَفًا إِلَّا رَمَقًا		يُبْقيهِ عَلَيكَ وَتُنْفِدُهُ
يَسْتَهْوي الوُرْقَ تَأَوُّهُهُ		وَيُذيبُ الصَخْرَ تَنَهُّدُهُ
وَيُناجي النَّجْمَ وَيُتْبِعُهُ		وَيُقيمُ اللَيْلَ وَيُقعِدُهُ
وَيُعَلِّمُ كُلَّ مُطَوَّقَةٍ		شَجَنًا في الدَّوْحِ تُرَدِّدُهُ
كَمْ مَدَّ لِطَيْفِكَ مِنْ شَرَكٍ		وَتَأَدَّبَ لا يَتَصَيَّدُهُ
فَعَساكَ بِغُمْضٍ مُسْعِفُهُ		وَلَعَلَّ خَيالَكَ مُسْعِدُهُ
الحُسْنُ حَلَفْتُ بِيوسُفِهِ		وَالسُّورَةِ إِنَّكَ مُفْرَدُهُ
قَد وَدَّ جَمالَكَ أَو قَبَسًا		حَوْراءُ الخُلْدِ وَأَمْرَدُهُ
وَتَمَنَّتْ كُلُّ مُقَطِّعَةٍ		يَدَهَا لَوْ تُبْعثُ تشْهدُهُ
جَحَدَت عَيناكَ زَكِيَّ دَمي		أَكَذلِكَ خَدُّكَ يَجْحَدُهُ
قَدْ عَزَّ شُهودي إِذْ رَمَتا		فَأَشَرْتُ لِخَدِّكَ أُشْهِدُهُ
وَهَمَمْتُ بِجيدِكِ أَشْرَكُهُ		فَأَبى وَاسْتَكْبَرَ أَصْيَدُهُ
وَهَزَزْتُ قَوامَكَ أَعْطِفُهُ		فَنَبا وَتَمَنَّعَ أَمْلَدُهُ
سَبَبٌ لِرِضاكَ أُمَهِّدُهُ		ما بالُ الخَصْرِ يُعَقِّدُهُ
بَيْني في الحُبِّ وَبَيْنَكَ ما		لا يَقْدِرُ واشٍ يُفْسِدُهُ
ما بالُ الْعاذِلِ يَفْتَحُ لي		بابَ السُّلوانِ وَأوصِدُهُ
وَيَقولُ تَكادُ تُجَنُّ بِهِ		فَأَقولُ وَأوشِكُ أَعْبُدُهُ

مَوْلايَ وَروحي في يَدِهِ   قَدْ ضَيَّعَها سَلِمَتْ يَدُهُ
نَاقوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ   وَحنَايَا الْأَضْلُعِ مَعْبَدُهُ
حُسَّادي فِيهِ أَعْذِرُهُمْ   وَأَحقُّ بِعُذْري حُسّدهْ
قَسَمًا بِثَنايا لُؤْلُئِها   قَسَمَ الْياقوتُ مُنَضَّدُهُ
وَرُضابٍ يُوعَدُ كَوْثَرُهُ   مَقْتولُ الْعِشْقِ وَمُشْهَدُهُ
وَبِخَالٍ كَادَ يُحَجُّ لَهُ   لَوْ كان يُقْبَّلُ أَسْودُهُ
وقَوَام يَرْوِي الْغُصْنُ لَهُ   نَسَبًا وَالرُّمْحُ يُفنِّدُهُ
وَبِخَصْرٍ أَوْهَنَ مِنْ جَلَدي   وَعَوادي الْهَجْرِ تُبَدِّدُهُ
ما خُنْتُ هَواكَ وَلا خَطَرَتْ   سَلْوَى بِالْقَلْبِ تُبَرِّدُهُ

الموازنة

ولنذكر أولًا ما في القصيدتين من الأغراض، وإنا لنجد الحصري تكلم عن طول الليل، وطيف الخيال، وخمر الرضاب، وسيف المقلة، وجناية العين، وحمرة الخد، واستعطاف الحبيب، وفناء المحب. ونجد شوقي تكلم عن لوعة المضني، وطيف الخيال، وجمال المحبوب، وجناية العين، وحسن القد والجيد، ودقة الخصر، والصبر على الوشاة، وتفدية الحبيب، والرفق بالحساد، والحرص على الحب، والبراءة من السلوان، فقصيدة شوقي إذًا أحفل بالأغراض.

مواطن الحسن

ولنوازن بين المطالع، وإنا لنجد الحصري يقول:

يَا لَيْلُ الصَّبُّ مَتَى غَدُهُ   أَقيَامُ السَّاعةِ مَوْعِدُهُ
رَقَدَ السُّمَّارُ فأَرَّقَهُ   أَسَفٌ لِلْبَيْنِ يُرَدِّدُهُ
فَبَكاهُ النَّجْمُ وَرَقَّ لَهُ   مِمَّا يَرْعاهُ وَيَرْصُدُهُ

ونجد شوقي يقول:

مُضْناكَ جفاهُ مَرْقَدُهُ   وبكاهُ ورحَّمَ عُوَّدُهُ
حَيْرانُ القَلْبِ مُعَذَّبُهُ   مَقْروحُ الجَفْنِ مُسَهَّدُهُ
أَوْدَى حَرَفًا إِلَّا رَمَقًا   يُبْقيهِ عَلَيكَ وَتُنْفِدُهُ
يَسْتَهْوي الوُرْقَ تَأَوُّهُهُ   وَيُذيبُ الصَخْرَ تَنَهُّدُهُ
وَيُناجي النَّجْمَ وَيُتْبَعُهُ   وَيُقيمُ اللَيْلَ وَيُقعِدُهُ
وَيُعَلِّمُ كُلَّ مُطَوَّقَةٍ   شَجَنًا في الدَّوْحِ تُرَدِّدُهُ

والمطلع في رأينا هو أول صورة شعرية، لا أول بيت، ومطلع شوقي أوفى وأروع من مطلع الحصري، وخطاب الحبيب في قول شوقي:

مُضْناكَ جفاهُ مَرْقَدُهُ   وبكاهُ ورحَّمَ عُوَّدُهُ

أرق من خطاب الليل في قول الحصري:

يَا لَيْلُ الصَّبُّ مَتَى غَدُهُ   أقيَامُ السَّاعةِ مَوْعِدُهُ

وقول شوقي في حيرة المحب وعذابه وفنائه:

حَيْرانُ القَلْبِ مُعَذَّبُهُ   مَقْروحُ الجَفْنِ مُسَهَّدُهُ
أَوْدَى حَرَفًا إِلَّا رَمَقًا   يُبْقيهِ عَلَيكَ وَتُنْفِدُهُ
يَسْتَهْوي الوُرْقَ تَأَوُّهُهُ   وَيُذيبُ الصَخْرَ تَنَهُّدُهُ

هذه الأبيات أوفى وأمتع من قول الحصري:

رَقَدَ السُّمَّارُ فأَرَّقَهُ   أَسَفٌ لِلْبَيْنِ يُرَدِّدُهُ

وقول شوقي:

وَيُناجي النَّجْمَ وَيُتْبَعُهُ وَيُقيمُ اللَيْلَ وَيُقعِدُهُ

أقرب في صدقه إلى الواقع من قول الحصري:

فَبَكاهُ النَّجْمُ وَرَقَّ لَهُ مِمَّا يَرْعاهُ وَيَرْصُدُهُ

وقول الحصري في تصيد الطيف:

نَصَبَتْ عَيْناىَ لَهُ شَرَكًا في النَّوْمِ فَعَزَّ تَصَيُّدُهُ
وَكَفَى عَجَبًا أَنِّي قَنصٌ لِلسِّربِ سَبانِي أَغْيَدُهُ

أبرع من قول شوقي:

كَمْ مَدَّ لِطَيْفِكَ مِنْ شَرَكٍ وَتَـأَدَّبَ لا يَـتَـصَـيَّـدُهُ
فَعَساكَ بِغُمْضٍ مُسْعِفُهُ وَلَعَلَّ خَيالَكَ مُسْعِدُهُ

لأن الحصري حدثنا عن حقيقة صادقة، وهي تمنع الطيف: فليس في طوق المحب أن يظفر بطيف حبيبه كلما مد له الأشراك.

ولا يعجبني تأدب شوقي في قوله:

كَمْ مَدَّ لِطَيْفِكَ مِنْ شَرَكٍ وَتَـأَدَّبَ لا يَـتَـصَـيَّـدُهُ

لأن التأدب هنا ضعف، ولو ذكر أنه يهاب أن يتصيده لحمدنا له هيبة الحسن، وإن الحسن لمهيب الجناب[٥].

---

[٥] هذه اللفتة تذكر بقول الشاعر:

ويروقني قول شوقي:

مَوْلايَ وَروحي في يَدِهِ قَدْ ضَيَّعَها سَلِمَتْ يَدُهُ
نَاقوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ وَحنَايَا الْأَضْلُعِ مَعْبَدُهُ
حُسَّادي فِيهِ أَعْذِرُهُمْ وَأَحقُّ بعُذْري حُسّدهْ

فإن فيه صورة للوعة المحب يشفق بمحبوبه ويحنو عليه، في ظلمه وعدوانه، ولم يعرض الحصري لمثل هذا المعنى البديع، وأخلق بهذه الأبيات أن تكون صلاة للحسن، إن قضى الله أن نصلي له، كما يصلي فريق للشمس عند الشروق، والهوى — كما قيل — إله معبود.

وما أرفق شوقي وأرقه حين يقول:

قَد وَدَّ جَمالَكَ أَو قَبَسًا حَوْراءُ الخُلْدِ وَأَمْرَدُهُ

فإن الحسن لا يعبد بأرق من هذا الوصف، وهل العبادة إلا وصف المعبود بالتفرد والجلال.

وقول الحصري:

صاحٍ وَالخَمْرُ جَنَى فَمِهِ سَكْرانُ اللَّحْظِ مُعَرْبِدُهُ

أروع وأبدع من قول شوقي:

وَرُضابٍ يُوعَدُ كَوْثَرُهُ مَقْتولُ الْعِشْقِ وَمُشْهَدُهُ

وأرى من الظلم أن نوازن بين هذين البيتين، فإن بيت الحصري بيت فذ نادر المثال، وفيه وحده صورة شعرية رائعة، وما رددته إلا فتنت به فتنة جديدة وظهر لي منه معنى جديد، كالوجه المشرق لا نهاية لحسنه، ولا حد لقدرته على تصريف القلوب.

حمى نفسه الحسن أضعاف ما حمى نفسه الجمر لما التهب

ولك أن تتأمل كلمة «جنى» في قوله:

صاحٍ وَالخَمْرُ جَنَى فَمِهِ　　سَكْرانُ اللَّحْظِ مُعَرْبِدُهُ

وما هذه العربدة يا صاح؟ إنها الأشراك التي يقيدك بها اللحظ، وأنت تنهل من ورده العذب الجميل!

وقول شوقي:

جَحَدَت عَيناْكَ زَكِيَّ دَمي　　أَكَذلِكَ خَدُّكَ يَجْحَدُهُ
قَدْ عَزَّ شُهودي إِذْ رَمَتا　　فَأَشَرْتُ لِخَدِّكَ أُشْهِدُهُ

أرق من قول الحصري:

يا مَن جَحَدَتْ عَيْناهُ دَمِي　　وَعَلَى خَدَّيْهِ تَوَرُّدُهُ
خَدَّاكَ قَد اِعْتَرَفا بِدَمِي　　فَعَلامَ جُفونُكَ تَجْحَدُهُ

لأن الاستفهام في قول شوقي أعطى المعنى شيئًا من الحسن، وزاده تمكينًا في النفس، على ما فيه من الابتذال.

وقد أجاد الحصري في استعطاف الحبيب إذ يقول:

لَمْ يُبْقِ هَواكَ لَهُ رَمَقًا　　فَلْيَبْكِ عَلْيهِ عُوَّدُهُ
وَغَدًا يَقْضِي أَوْ بَعْدَ غَدٍ　　هل مِنْ نَظَرٍ يتَزَوَّدُهُ

ولا نجد هذه النغمة المحزنة في قصيدة شوقي، وإنها لتذكرنا بهذا البيت الحزين:

وَأَرَى الأَيَّامَ لا تُدْنِي الَذي　　أَرْتجي مِنْك وتُدْني أَجَلي

مظان الضعف

وإني لأستثقل الصنم المنتصب في قول الحصري:

صَنَمٌ لِلْفِتْنَةِ مُنْتَصِبٌ أَهْـواهُ ولا أتَـعَـبَّدُهُ

لأن كلمة «الصنم» كلمة غير شعرية[٦]. والعرب تستملح «الدمية» في وصف المرأة الجميلة والدمية هي الصورة المنقشة من الرحام، والجمع دمي، قال بعض الأعراب:

وَإِنِّي لَأُهْدَي بالْأَوانِس كالدُّمَى وَإِنّـي بأَطْراف الْقنا للعُوبُ
وَإِنِّي عَلَى ما كانَ مِنْ عُنْجُهِيّتي ولـوْثـة أعْـرابـيّـتـي لأُديـبُ

وكذلك أستضعف قول الحصري:

ما أحْلَى الوَصْلَ وأَعْذَبَهُ لَـوْلا الأيَّـامُ تُـنَـكِّـدُهُ
بِالبَيْنِ وبِالْهجْرانِ فَيا لَفُؤَادِي كيْف تَجَلُّدُهُ

وأضعف منه قول شوقي:

بَيْني في الحُبِّ وَبَيْنَكَ ما لا يَـقْدِرُ واشٍ يُـفْسِـدُهُ
ما بالُ الْعاذِلِ يَفْتَحُ لي بابَ السُّـلوانِ وَأوصِدُهُ

ولا أدري ما قيمة التعجب في البيت الثاني من هذين البيتين، وهو لا يزيد شيئًا عن الصوت العامي المشهور «كيد العواذل كايدني بس اسمع شوف».
وكذلك لا قيمة لقوله:

[٦] لكثرة ما ورد في ذم الأصنام، وقد أشرنا في هامش سلف إلى أن هذه الكلمة لا تزال حية على ألسنة أهل المغرب، وهم يقولون: «صنم» حيثما يشيرون إلى التمثال.

وَبِخَصْرٍ أَوْهَنَ مِنْ جَلَدي　　وَعَوادي الْهَجْرِ تُبَدِّدُهُ

وهي مبالغة مردودة؛ لأن الذي يستملح الخصر الدقيق لا يرضيه أن يكون أوهن من صبر المحب تعدو عليه عوادي الصدود.

وقد ظلم شوقي نفسه حين قال:

وقَوَام يَرْوِي الْغُصْنُ لَهُ　　نَسَبًا وَالرُّمْحُ يُفنِّدُهُ

كما أساء الحصري إلى شعره إذ قال:

إِنِّي لَأُعيذُكَ مِنْ قَتْلِي　　وَأَظُنُّكَ لاَ تَتَعَمَّدُهُ

فإن هذا خيال فقهاء، لا خيال شعراء!

روعة الخيال

وإنه ليجمل بنا بعد هذا أن نوازن بين ما للحصري وشوقي من الخيال الرائع، وإنا لنستجيد قول الحصري:

يَنْضُو مِنْ مُقْلِتِهِ سَيْفًا　　وَكَأَنَّ نُعَاسًا يُغْمِدُهُ
فَيُرِيقُ دَمَ الْعُشَّاقِ بِهِ　　وَالْوَيْلُ لِمَنْ يَتَقَلَّدُهُ
كَلاَّ لاَ ذَنْبَ لِمَنْ قَتَلَتْ　　عَيْنَاهُ وَلَمْ تَقْتُلْ يَدُهُ

وإن البيت الأول لمن ونبات الخيال، وفي البيت الثاني ضعف، والثالث مع ضعفه مستملح مقبول.

ونستجيد كذلك قول شوقي:

نَاقوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ　　وَحنَايَا الأَضْلُعِ مَعْبَدُهُ

وللقارئ أن يلومنا في استجادة هذا البيت، وأن يذكر أن هذا أيضًا خيال فقهاء، لا خيال شعراء. ولنا أن نذكر القارئ بأن المعابد والنواقيس من الألفاظ التي استملحها

العرب، لكثرة ما تحدث عنها الشعراء وهم يتغنون بمعالم اللهو، وملاعب الشباب، ولهم في الأديار شعر ممتع عُنيت بتفصيله في غير هذا الحديث[٧]، وكذلك ظرف شوقي حين تحدث عن المعبد والناقوس، وكان خياله قريبًا في الحسن من خيال الحصري، إذ توهم اللحظ سيفًا يكاد يغمده النعاس، وإني لمفتون بهذا الخيال.

البراعة في تناول المعاني

وإنا لنرى شوقي أبرع من الحصري في تناول المعاني، ومن السهل أن نعلل هذا: فإن الحصري لم يجر في قصيدته إلا على الفطرة، وكان من ذلك أن رضى بعفو الخاطر. أما شوقي فمعارض من همه أن يظفر بالسبق، وكان من ذلك أن عني بترتيب المعاني، واختيار الألفاظ، وتنوع الأغراض. على أن هذا التكلف لم يمض بلا عيوب، فإنه لا معنى لقول شوقي:

وَبِخَالٍ كَادَ يُحَجُّ لَهُ　　　لَوْ كان يُقْبَّلُ أَسْودُهُ

ولا رونق لقوله:

وَتَمَنَّتْ كُلُّ مُقَطِّعَةٍ　　　يَدَهَا لوْ تُبْعثُ تشْهدُهُ

الحكم

وللقارئ — إن شاء الحكم — أن يرجع إلى ما أسلفنا القول عنه من مواطن الحسن، ومظان الضعف، ومواقع الخيال: ليرى أي الشاعرين أولى بالسبق، وأيهما أرجح في الميزان. وحسبه أن دللناه على ما في القصيدتين من المحاسن والعيوب، فإننا لا نعنى بالأشخاص، وإنما يعنينا أن ندرس الشعر، وأن نقف على ما فيه من القوة والضعف، والحسن والقبح. وكذلك ندرس البيان، ونحن نوازن بين الشعراء.

---

[٧] تحد هذا البحث في كتاب «أثر الشعر في ربط الشعوب».

الفصل الرابع عشر

البُحتري وشوقي

قلنا: إن لشوقي كلفًا بمعارضة المتقدمين من الشعراء، ووازنا بين داليته ودالية الحصري في الكلمة السابقة، والآن نوازن بينه وبين البحتري، فقد عارض سينيته في وصف إيوان كسرى بقصيدة سينية وصف بها قصر الحمراء. ولهاتين القصيدتين قيمة كبيرة، ومن الخير أن نوازن بينهما موازنة دقيقة؛ ليقف القارئ على ما فيهما من براعة الوصف وحسن البيان.

ولنذكر أولًا أن شوقي يتأثر البحتري منذ زمن بعيد، ويود لو ظفر شعره بتلك الديباجة البحترية، التي ضربت بها الأمثال.

ولننظر كيف يقول في خطاب «أم المحسنين»:

النِّيلُ فَجَّرَ مَشْرَعيْنِ وَعَيْلَمًا ‏ ‏ ‏ ‏ وَتَفَجَّرَتْ يُمْناكِ خَمْسَةَ أَبْحُرِ
أَحْيَيْتِ في فَضْلِ المُلوكِ وَعِزِّهِمْ ‏ ‏ ‏ ‏ ما ماتَ مِنْ أُمِّ الْخَليفَةِ جَعْفَرِ
إِنَّ الَّذي قَدْ رَدَّها وَأَعادها ‏ ‏ ‏ ‏ في بُرْدتَيْكِ أَعادَ فيَّ البُحْتُري

وسنرى كيف يقول وهو يطوف بقصر الحمراء:

وَعَظَ الْبُحْتُريَّ إِيوانُ كِسْرَى ‏ ‏ ‏ ‏ وَشَفَتْني الْقُصورُ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ

حياة البحتري

ولد أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري في سنة ٢٠٦ بمنبج بين حلب والفرات. ومنبج — بالفتح، ثم السكون، وباء موحدة مكسورة وجيم — بلد قديم طيب الهواء. ولد فيه جماعة من فرسان البلاغة منهم: البحتري، وأبو فراس. ومن قبلهما عبد الملك بن صالح الذي قال له الرشيد لما دخل منبج: أهذا منزلك؟ قال: هو لك، ولي بك يا أمير المؤمنين. قال: كيف بناؤه؟ قال: دون منازل أهلي، وفوق منازل الناس.

وقال: وكيف ذلك، وقدرك فوق أقدارهم؟ قال: ذلك خلق أمير المؤمنين أتأسى به، وأقفو أثره، وأحذو حذوه.

قال: فكيف طيب منبج؟ قال: عذبة الماء، طيبة الهواء، قليلة الأدواء.

قال: فكيف ليلها؟ قال: سحر كله!

وفي التشوق إلى منبج يقول إبراهيم بن المدبر، وقد خلى بها شعبة من فؤاده:

وَلَيْلَةَ عَيْنِ المَرْجِ زَارَ خيَالُهُ فَهَيَّجَ لي شوْقًا وَجَدَّد أحْزاني
فَأَشْرَفتُ أَعْلَى الدَّيْرِ أَنْظُرُ طامِحًا بأَلْمَحِ آماقٍ وَأَنْظَرِ إنْسانِ
لَعَلِّي أَرَى أَبْياتَ مُنْبجَ رُؤْيَةً نُسَكِّنُ مِنْ وَجْدي وتَكْشِفُ أشْجاني
فَقَصَّرَ طَرْفي واسْتَهَلَّ بِعَبْرَةٍ وَفَدَّيْتُ مَنْ لَوْ كان يَدْري لَفَدَّاني
وَمَثَّلَهُ شَوْقي إِلَيْهِ مُقابِلي وَناجاهُ عَنّي بالضَّميرِ وناجاني

وإنما ذكرنا لك هذه الكلمات عن منبج لندرك بعض السر في رقة البحتري، وجمال شعره، فإن للبلد الطيب الهواء، العذب الماء، القليل الأدواء، أثرًا كبيرًا في تكوين نفس الشاعر، والكاتب، والخطيب[١]؛ ولأن البحتري كان كثير الحنين إلى منبج، وكان كثيرًا ما يشيد بها في شعره ولننظر كيف يقول في خطاب أبي جعفر محمد بن حميد الطوسي:

لا أَنْسَيَنْ زَمَنًا مُهَذَّبًا وَظِلالَ عَيْش كانَ عِنْدَكَ سَجْسَجِ

[١] انظر تفضيل هذا المعنى في الكلام عن أبي الحسن الجرجاني في الجزء الثاني من كتاب: «النثر الفني».

في نِعْمَةٍ أَوطِنْتُها وَسَكَنْتُ في أَفْيائها فكأنَّني في مَنْبِجِ

بداية حياته

شب البحتري وترعرع في منبج. وكان يمدح بها فيما يقولون أصحاب البصل والباذنجان!

قالوا: «وكان منه ما كان في علوة التي شبب بها في كثير من أشعاره، وهي بنت زريقة الحلبية، وزريقة أمها»، ويظهر من هذه الكلمة أن زريقة الحلبية أم علوة كان لها شأن في عالم الجمال، وأن البحتري حين أغرم بعلوة لم يرم فؤاده إلا بين يدي فتاة لعوب، نشأت في مهد المرح، وتقلبت فوق أعطاف الدلال.

ولو أن العرب لم ينصرفوا عن التصوير لخلفوا لنا دمية لعلوة، وأرونا كيف كانت هذه الفتاة التي أضرمت نار الوجد في صدر الوليد، وعلمته كيف تكون الشكوى، وكيف يكون الأنين! وإن الشعر لمدين لهذه الألهة التي أوحت إلى البحتري أن يقول بعد أن خلاها بالشام، وسكن العراق:

أَعِيدِي فِيَّ نَظْرَةَ مُسْتَثِيبٍ تَوَخَّى الأَجْرَ أَوْ كَرِهَ الأثاما
تَرَيْ كَبِدًا مُحَرَّقَةً وَعَيْنًا مؤَرَّقَةً وَقَلْبًا مُسْتَهاما
أُلامُ عَلَى هَواكِ وَلَيْسَ عَدْلًا إذا أحْبَبْتُ مِثْلَكِ أنْ أُلاما
لَقَدْ حَرَّمْتِ مِنْ وَصْلي حَلالًا وَقَدْ حَلَّلْتِ مِنْ هَجْري حَراما
تَناءَتْ دارُ عَلْوَةَ بَعْدَ قُربٍ فَهَلْ رَكْبٌ يُبَلِّغُها السِّلاما
وَجَدَّد طَيْفُها عَتْبًا عَلَيْنا فَما يَعْتادُنا إلَّا لِماما
وَرُبَّتَ لَيْلَة قَدْ بتُّ أسْقَى بعَيْنيْها وَكَفَّيْها المُداما
قَطَعْنا اللَّيْل لَثْمًا وَاعْتِناقًا وَأَفْنَيْناهُ ضَمًّا وَالْتِزامًا
لَئِنْ أضْحَتْ مَحِلَّتُنا عِراقًا مُشَرِّقَةً وَحِلَّتُها شآما
فَلَمْ أُحْدِثْ لَها إلاَّ ودادًا وَلَمْ أزدَدْ بها إلاَّ غَراما

وهناك نفس ثانية كان لها على قلب البحتري سلطان. ومن الوقار أن لا نعرض لها في هذا الحديث، وقد بسطنا عنها القول في كتاب «مدامع العشاق»، ويكفي أن نذكر أنموذجًا من شعره في وصف تلك النفس، وإنه ليقول:

هَل لي سَبيل إلى الظُّهْرانِ مِنْ حَلَبِ وَنَشْوةٍ بَيْنَ ذاكَ الوَرْدِ والْآس
أَمُدُّ كَفِّى لِأَخْذِ الْكاسِ مِنْ رشأٍ وَحاجَتي كُلُّها في خامِلِ الْكاس
بقُرْبِ أنْفاسِهِ أشْفي الْغَليلَ إذا دَنا فَقَرَّبها مِنْ حرَّ أنْفاسي

اتصاله بأبي تمام

ولعل أظهر حادث نقل البحتري من عهد إلى عهد هو اتصاله بأبي تمام أمير الشعراء في ذلك الحين، فقد صار إليه وهو بحمص، وعرض عليه شعره. وكان أبو تمام يجلس فلا يبقى شاعر إلا قصده، وعرض عليه شعره. فلما سمع البحتري أقبل عليه وترك سائر الناس. فلما تفرقوا قال له: أنت أشعر من أنشدني، فكيف حالك؟ فشكا إليه خلة، فكتب إلى أهل معرة النعمان يشهد له بالحذق ويوصيهم بإكرامه، قال البحتري: «فأكرموني بكتابه، ووظفوا لي أربعة آلاف درهم، فكانت أول مال أصبته»، وقال البحتري: أنشدت أبا تمام شيئًا من شعري، فأنشدني بيت أوس بن حجر:

إذا مُقْرَمُ مِنَّا ذَرَى حَدُّ نابه تَخمَّط فينا نابُ آخر مُقْرم[٢]

وقال: نعيت إلى نفسي! فقلت: أعيذك بالله من هذا! فقال: إن عمري ليس يطول وقد نشأ لطيىء مثلك. أما علمت أن خالد بن صفوان المنقري رأى شبيب بن شبة وهو يتكلم، وهو من رهطه، فقال: يا بني نعي نفسي إليَّ إحسانك في كلامك؛ لأنا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب إلا مات من قبله. قال: فمات أبو تمام بعد سنة من هذا.

[٢] الفحل المقرم هو الذي أقرمه صاحبه: تركه عن الركوب والعمل وودعه للفحلة وقرمه، وتخمط الفحل: هدر. ومن المجاز: تخمط الرحل: تغضب وثار. والمراد هما من تخمط الثاني ظهوره وارتفاعه.

وهذه بالطبع وسوسة من أبي تمام، ولكنها شاهد على حسن رأيه في شعر البحتري، وقد كان أبو تمام من أعلم الناس بالشعر، حتى قالوا: إنه في اختياره أبلغ منه في شعره.

وقال البحتري: أنشدت أبا تمام شعرًا لي في بعض بني حميد وصلت به إلى مال له خطر، فقال لي: «أحسنت، أنت أمير الشعراء بعدي»، فكان قوله أحب إليّ من جميع ما حويته.

ولا يفوتنا أن نذكر وصية أبي تمام للبحتري، فقد نوه بها ابن رشيق، وساقها صاحب زهر الآداب، وهي تدلنا على رأي أبي تمام في نظم الشعر وذوقه في اختيار الأوقات، وتدلنا كذلك على أسلوب البحتري في حياته الأدبية، فقد ساس نفسه بما أوصاه به أستاذه. وفيها أيضًا نوع من التربية نحب أن نسجله في هذا الحديث.

قال البحتري: كنت في حداثتي أروم الشعر، وكنت أرجع فيه إلى طبعي، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه، ووجوه اقتضابه، حتى قصدت أبا تمام، وانقطعت فيه إليه، واتكلت في تعريفه عليه، فكان أول ما قال لي: يا أبا عبادة، تخير الأوقات، وأنت قليل الهموم، صفر من الغموم. واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة، وقسطها من النوم. وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقًا، والمعنى رشيقًا، وأكثر فيه من بيان الصبابة، وتوجع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق، فإذا أخذت في مديح سيد ذي أياد، فاشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأبن معالمه وشرف مقامه، ونص المعاني، واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل شعرك إلا وأنت فارغ القلب. واجعل شهوتك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه: فإن الشهوة نعم المعين. وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين: فما استحسن العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه، ترشد إن شاء الله.

قال البحتري: فأعملت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة[٣].

ولهذه الوصية أغراض، يرجع بعضها إلى رياضة النفس تأهبًا للقريض، ويرجع بعضها إلى جوهر الفن، أما فيما يرجع إلى رياضة النفس فأبو تمام مسبوق بطائفة

[٣] السياسة هنا حسن التدبير.

من الشعراء والخطباء، أوصوا باختيار الأوقات التي تصفو فيها النفس وبلطف الحس، ويستيقظ الوجدان، ومنهم من دعا إلى الاستنجاد بالمياه الجارية، والرياض الحالية، والأماكن الخالية. إلا أن أبا تمام — مع أنه مسبوق — وفق كل التوفيق حين قال: «واجعل شهوتك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه، فإن الشهوة نعم المعين»، وهذه كلمة فاصلة في حياة الفنانين على الإطلاق، سواء كانوا شعراء أم كتابًا، أم مصورين، أم مثالين؛ لأن الإجادة في الفنون تتوقف على الشهوة، وأكاد أحكم بأن الفنان لا يبدع ولا يجيد، إلا إن كان له من فنه معبود جديد.

وأما فيما يرجع إلى جوهر الفن فأبو تمام قصر وصيته على العناية بالنسيب والمديح، وسكت عن بقية الأغراض التي يهتم بها الشعراء، فلم يتكلم عن الرثاء، ولا الهجاء، ولا الفخر، ولا الوصف. مع أن الوصف من أهم ما يعني به الشعراء، ولعله اكتفى بهذه الكلمة العامة التي تنطبق على كل موضوع إذ قال: «ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد»، وهي كلمة دقيقة على ما فيها من الابتذال.

ولا يحسبن القارئ أن في إقبال البحتري على ما أوصاه به أستاذه دليلًا على أن شعر أبي تمام وشعر البحتري من نمط واحد ... كلا! فإن أبا تمام في وصيته يمثل الأستاذ، ولا يمثل الشاعر؛ لأنا لو حاكمنا شعره إلى وصيته لراعنا بين المنزعين من الفرق البعيد، ولا سيما فيما يتعلق بالتشبيب، فإن أبا تمام لم يتغن بالحسن إلا قليلًا، وحظه من صدق اللوعة ضئيل.

شخصية شوقي

ومهما يكن من شيء، فإن عناية البحتري بوصية أستاذه بيانًا لأسلوبه في رياضة نفسه، وتهذيب شعره، فلننظر بهذه المناسبة، كيف يروض شوقي نفسه، وكيف يهذب شعره، وكيف يتناول ما يقصد إلى نظمه من شتى الأغراض، فقد صحبنا شوقي وعاصرناه، وهو بحمد الله يعيش معنا في مدينة واحدة، وقد نقرأ عليه سينيته في قصر الحمراء قبل أن يضعها في الميزان، وإنا لنزن بالقسطاس المستقيم.

صاحب شوقي إن شئت، فستراه قليل الحديث، وستعجب كيف يكون هذا الصيت الذائع، لهذا الرجل الصموت، وقد تصفه بالتواضع كما وصفه كثير من المتأدبين، ولكن وقد عرفت شوقي، أحكم بأن هذا الرجل مجنون جديد من مجانين ليل، وليلاه هي الشعر، وهو بالشعر مجنون، لا مغرم ولا مفتون، فإن الغرام ولا مفتون، فإن الغرام والفتنة من أيسر ما يعرض لأرباب القلوب.

يحدثك شوقي حديثًا عاديًّا لا روعة له، ولكنه لا ينفك يدور بنظرته الحائرة، وكأنه يبحث عن شيء في لفائف قلبه، وحنايا نفسه، وأعماق ضميره — دخلت عليه، وهو يتأهب لرثاء عبد اللطيف الصوفاني، فأخذ يحدثني عن الجامعة المصرية ونظامها الجديد، ثم يغتني بهذه الكلمة: «الصوفاني بك معضلة من المعضلات، هو تمثال إخلاص، ولكن هل له عقل الفلاسفة والزعماء؟»، فعرفت أن الرجل في واد آخر غير الحديث عن الجامعة المصرية وأن قلبه، ونفسه، وحسه، ووجدانه في شغل بما يعدّه لرثاء الصوفاني بك «تمثال الإخلاص»، وعرفت أنه لا بد أن يقول شيئًا في تحديد تلك الشخصية، ثم انتظرت يوم التأبين، فإذا هو يقول عن أثر الفقيد في المجالس النيابية:

ما كان قُسًّا وَلا زِيادًا وَلا بِسِحْرِ البيان جاءَ
لَكِنْ إذا قامَ قالَ صِدْقًا وَجانَبَ الزُّورَ وَالرِّياءَ

وقد وصفه الأستاذ خليل مطران وصفًا صادقًا حين قال:

ينظم بين أصحابه فيكون معهم، وليس معهم، وينظم في المركبة، وفي السكة الحديدية، وفي المجتمع الرسمي، وحيث يشاء، ولا يعرف جليسه أنه ينظم إلا إذا سمع منه بادئ بدء غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد، ثم رأى ناظريه، وقد برقا وتواترت فيهما حركة المحجرين، ثم بضربه، وقد رفع يده إلى جبينه، وأمرها عليه إمرارًا خفيفًا هنيهة بعد هنيهة — فإذا قوطع في خلال النظم انتقل إلى أي بحث يباحث فيه حاضر الذهن صافيه، جميل البادرة، كعادته في الحديث — ثم إذا استأنف ذلك المنظوم ولو بعد أيام طوال عاد إليه كأنه لم تنقطع عنه مستظهرًا ما تم منه حافظًا لبقية المعنى الذي يضمره، يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمت ونسيها شهرًا، ثم ذكرها فكتبها في جلسة واحدة — يكلف أحيانًا بمعارضة المتقدمين، ولا يندر عليه أن يبزهم — ولا يجهد فكره ولا يكده في معنى أو مبنى، فأما المعنى فيجيئه على مرامه، أو على أبعد من مرامه؛ ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء، ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب في لغات الإفرنج والأعراب وفلسفة الحقوق، وحقائق التاريخ، وغرائب السير التي يحفظ منها غير يسير، إلى مشاركات علمية، وتنبيهات فنية، استقاها من مطالعته في

صنوف الكتب، واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب. وأما المبني فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول: ترى فيه من نسج البحتري، ومن صياغة أبي تمام، ومن وثبات المتنبي، ومن مفاجآت الشريف، ومن مسلسلات مهيار، وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم، وهي أنه نظم شوقي: ذلك شعر العبقرية والتفوق.

ملامح وصفية

وإذا ذكرنا عادة البحتري وشوقي في قرض الشعر، فلنذكر كذلك أنهما يشتركان في العناية بالآداب العربية، فقد ترك البحتري كتابًا سماه «معاني الشعر»[٤]، وترك كتابًا آخر في الحماسة كالذي تركه أبو تمام ولكنه يمتاز عنه بسهولة اللغة وتنوع الموضوعات. وشوقي — وإن لم يصنف كتبًا في الآداب — يقرأ ويدرس بشراهة تفوق الوصف، ويتعقب الحركة الأدبية بنشاط عجيب. ويختلفان في إنشاد الشعر والإشادة به، فقد كان البحتري يحتفي بإنشاد شعره، ويسلك في ذلك مسلك التلحين والتطريب، كان يطيل النظر في وجوه الحاضرين؛ ليرى مبلغ إعجابهم به، وإكبارهم له، حتى نفر الناس منه، وعبث به أهل السفه، وأصحاب المجون. أما شوقي: فقلما يتحدث عن شعره، وقلما ينشده، وإنما يوكل بإنشاده من يتوسم فيه حسن الفهم وحسن الأداء. وهذا المسلك، مع ما فيه من دلائل الحياء أو الشمم، غير مأمون العواقب، وكثيرًا ما آذى الشاعر، وعاد عليه بالضرر البليغ.

وفاءُ البحتري وشوقي

ولقد كانت الشاعرية، ولا تزال دالة على سمو النفس، ويقظة الوجدان والحوادث هي التي تميز عناصر النفوس، وقد وقع للبحتري وشوقي من كبار الحوادث ما ظهر معه ما لهما من قوة النفس، ومتانة الخلق وكرم العنصر، ولم يحن الوقت لتدوين ما وقع لشوقي! فلنكتف بهذا التلميح، ولنذكر ما صير البحتري مثلًا في الوفاء.

[٤] قد يظن أن هذا كتاب في النقد، ولكنا نرجح أنه كان مجموعة من المختارات المرتبة على حسب المعاني.

كان المتوكل — كما ذكر صاحب زهر الآداب — عقد لولده المنتصر والمعتز والمؤيد ولاية العهد، ثم تغير على المنتصر دون أخويه، وكان يسميه المنتظر، ويقول له: أنت تتمنى موتي، وتنتظر وقتي! ويأمر الندماء أن يعبثوا به إلى أن أوغر صدره، وأقل صبره، فلما كانت ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومئتين، كان المتوكل يشرب مع الفتح في قصره المعروف بالجعفري ومعه جماعة من الندماء والمغنين، وكان المنتصر معهم، فلما انصرف ثلاث ساعات من الليل، قال لزرافة التركي: ألا تسمعنى ساعة حتى أشكو إليك ما يمر بي؟ قال: بلى، وجعل يماطله ويطاوله، وغلق بغا الشرابي الأبواب كلها إلا باب الماء، ومنه دخل الذين قتلوا المتوكل، وقد ضربوه ضربة قطع بها حبل عاتقه، وتلقاه الفتح بنفسه فأكب عليه، فقتلا جميعًا، وبويع المنتصر من ساعته. قال الحصري: «وكانت مدة المنتصر في الخلافة مدة شيرويه بن كسرى حين قتل أباه ستة أشهر» — وللظالم الويل.

كانت هذه القتلة الشنيعة التي تردى بها خليفة من خلفاء المسلمين، وكان هذا الخليفة ولي نعمة البحتري، وكان استبداد المنتصر إذ ذاك كافيًا في ردعه عن رثاء مولاه، ولكنه رثاه بقصيدة وصفها أبو العباس تعلب بقوله: «ما قبلت هاشمية أحسن منها! وقد صرح فيها تصريح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب»، وفيها يقول:

تَغَيَّرَ حُسْنُ الجَعْفَرِي وَأُنْسُه ... وَقُوِّضَ بَادي الجَعْفَرِيّ وَحَاضِرُهْ
تَحَمّلْ عَنْهُ سَاكِنُوهُ فُجَاءَةً ... فَآضَتْ سَوَاءً دُورُهُ وَمَقَابِرُهْ
وَلَم أرَ مِثْلَ الْقَصْرِ إذْ رِيعَ سِرْبُهُ ... وَإذْ ذُعِرَتْ أطْلَاؤهُ وَجَآذِرُهْ
وَإذْ صِيحَ فيهِ بِالرَّحِيلِ فَهُتِّكَتْ ... عَلَى عَجَلٍ أسْتَارُهُ وَسَتَائِرُهْ
إذا نَحْنُ زُرْنَاهُ أَجَدَّ لَنا الْأَسَى ... وَقَدْ كانَ قَبْلَ الْيَوْمِ يَبْهَجُ زائرُهُ
فَأيْنَ عَمِيدُ النَّاسِ في كُلِّ نَوْبَةٍ ... تَنُوبُ وَنَاهي الدَّهْرِ فيهِمْ وآمِرُهُ
تَخَفَّى لَهُ مُغْتَالُهُ تَحْتَ غِرَّةٍ ... وَأوْلَى لِمَنْ يَغْتَالُهُ لَوْ يُجَاهِرُهْ
صَرِيعٌ تَقَاضَاهُ السُّيُوفُ حُشَاشَةً ... يَجُودُ بِها وَالمَوْتُ حُمْرٌ أظافِرُه
حَرَامٌ عليّ الرَّاحُ بَعْدَاكَ أوْ أرَى ... دَمًا بدَمٍ يَجْرِي عَلَى الأرْضِ مائِرُهْ
وَهَلْ يُرْتَجَى أنْ يَطْلُبَ الدَّمَ طالِبٌ ... مَدَى الدَّهْرِ والمَوْتُورُ بالدّمِ وَاتِرُهْ
فَلا مُلّيَ البَاقي تُرَاثَ الَّذي مَضَى ... وَلاَ حَمَلَتْ ذاكَ الدّعَاءَ مَنَابِرُهْ

ونظرة واحدة إلى ما كان يجري في تلك العصور من الظلم والاضطهاد تريك أن البحتري كان من أشجع الناس وأوفاهم بهذه القصيدة، على أنه لم يقف عند هذا الحد، بل كان يرتاح في كثير من شعره إلى ذكر المتوكل والفتح بن خاقان، وانظر كيف يفيض شعره بالأسى وهو يقول لبعض من يمدحه:

تَداركَني الإِحْسانُ مِنْكَ وَنالَني   عَلَى فاقَةٍ ذاكَ النَّدَى وَالتَّطوُّلُ
وَدافَعْتَ عَنِّي حينَ لا الفَتْحُ يُرْتَجي   لِدْفعِ الأَذَى عَنِّي وَلا المُتَوكِّلُ

وما أوجع ما يقول من كلمة ثانية:

مَضَى جَعَفَرٌ وَالْفَتْحُ بَيْنَ مُوَسَّدٍ   وَبَيْنَ قَتيلٍ في الدِّماءِ مُضَرَّجِ
أَأَطْلُبُ أَنْصارًا عَلَى الدَّهْرِ بَعْدَ ما   ثَوى مِنْهُما في التُّرْبِ أَوْسي وخزْرجي

وانظر كيف يقول، وقد بان بعض من يهوى:

عَسَى آيسٌ مِنْ رَجْعَةِ الْوَصْلِ يوصَلُ   وَدهْرٌ تَوَلَّى بِالْأَحِبَّةِ يُقْبِلُ
أَيا سَكَنا فاتَ الْفِراقَ بِنَفْسِهِ   وَحالَ التَّعادي دُونَهُ وَالتَّنزُّلُ
أَتَعْجَبُ لَمَّا لَمْ يَغُلْ جِسْمي الضَّنى   وَلَم يَخْتَرِمْ نَفْسي الْحِمامُ المعَجَّلُ
فَقَبْلَكَ بانَ الْفَتْحُ عَنِّي مودِّعًا   وَفارَقَني شَفْعًا لَهُ المَتَوَكِّلُ
فَما بَلَغَ الدَّمْعُ الَّذي كُنْتُ أَرْتَجي   وَلأَفعَلَ الوَجْدُ الَّذي خِلْتُ يَفْعَلُ
وَما كُلُّ نيرانِ الجَوَى تَقْتُلُ الحشا   وَمَا كُلُّ أَدواءِ الصَّبابَةِ تَقْتُلُ

تلك هي نفس البحتري، الذي عذبته علوة في بداية حياته، وصهره الحزن على المتوكل في أخريات أيامه، وقد عرف القارئ عنه شيئًا فيه بعض الغناء، وعرف كذلك ما بينه وبين شوقي من الاختلاف والائتلاف، ومن الواجب أن يعرف منهج هذين الشاعرين في بكاء الممالك، والتفجع لنكبات الشعوب، قبل أن يرى كيف وصف البحتري إيوان كسرى، وكيف وصف شوقي قصر الحمراء.

الفصل الخامس عشر

بكاء الممالك عند البحتري وشوقي

كانت عواطف الشعراء عواطف فردية، لا اجتماعية، فكان الشاعر يبكي وجده ونعيمه وهو يندب الرسوم ويتوجع للطلول، ولم يهتم العرب ببكاء الممالك، والتفجع للشعوب، إذ كانوا في بداية الحياة وكان الرجل منهم قلما يعني بغير نفسه، وأهله، وذويه، فكانوا في شغل بأنفسهم عن بلايا الإنسانية التي تصرخ من حولهم وهم عنها غافلون.

ثم جاء القرآن فسلك في الحديث عن الممالك البائدة مسلك التخويف والترهيب، فلم يعطف عليها بكلمة، ولم يستر لها عورة؛ لأن القرآن لم يكن كتاب شعر، يرمي إلى روعة الفن وجمال الخيال، وإنما كان كتاب حكمة وموعظة، فكان من حقه أن يقول بحزم ورزانة:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ ❋ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

ولو لم يكن الزجر والردع من أغراض القرآن الأساسية، لكان له شأن غير هذا الشأن، وهو يتحدث عن فرعون وإبليس، ومن إليهم من الجبابرة والطغاة، فقد جرى حديثه عنهم مجرى الشماتة، وكانوا ينبوع سحر لا ينضب ولا يغيض لو كان القرآن كتاب فن وكتاب خيال.

على أن العرب لم يغفلوا عن الإشادة بما طوى الدهر لهم من حضارة، ولم يفتهم التغني بما كان لأسلافهم من ضخامة المدنية، وإن شابوا ذلك بالتحسر على ما درس من معالم اللهو، والتحزن لما عفا من ملاعب الشباب، فمن ذلك قول الأسود بن يعفر النهشلي:

نام الْخَليُّ وَما أحِسُّ رُقادي — والهَمُّ مُحْتَضِرٌ لَدَيَّ وِسادي
مِنْ غَيْر ما سَقَمٍ ولكِن شَفَّني — هَمٌّ أراهُ قدْ أصابَ فؤَادي
وَمِنَ الحوادِثِ لا أبالَكَ أنَّني — ضُرِبَتْ عَليَّ الأرْضُ بالأسْدادِ
لا أهْتَدي فيها لِموضِعِ تَلْعَةٍ — بَيْنَ العِراقِ وَبيْنَ أرْضِ مُرادِ
وَلَقَدْ عَلِمْتُ سِوى الَّذي نَبَّأتنى — أنَّ السَّبَيلَ سبيلُ ذي الأعْوادِ
إن المنيَّةَ والحُتُوفَ كِلاهُما — يُوفي المَخارِمَ يَرْقُبان سَوادي
لَنْ يَرْضَيا مِنِّي وفاءَ رَهينَةٍ — مِنْ دُونِ نَفْسي طارفي وتِلادى

ثم يقول في بكاء من ساد من الذاهبين:

مَاذَا أُؤَمِّلُ بعْد آلِ مُحرِّق — تَرَكوا مَنازِلَهُم وَبَعْدَ إِيادِ
أَهْلَ الخَوَرْنَقِ وَالسَّديرِ وَبارِقٍ — وَالْقَصْرِ ذي الشُّرُفاتِ مِنْ سِنْدادِ
أَرْضٌ تَخَيَّرَها لِطيبِ مَقيلِها — كَعْبُ بنُ مامَةَ وَابْنُ أُمِّ دُؤادِ
جَرَتِ الرِّياحُ عَلَى مَكَانِ دِيارِهِمْ — فَكَأَنَّما كانوا عَلَى ميعادِ
وَلَقَد غَنوا فيها بِأَنْعَمِ عيشَةٍ — في ظِلِّ مُلْكٍ ثابِتِ الأَوْتادِ
نَزَلوا بِأَنقِرَةٍ يَسيلُ عَلَيهِمو — ماءُ الفُراتِ يَجيءُ مِنْ أَطْوادِ
فَإِذا النَّعيمُ وَكُلُّ ما يُلْهَى بِهِ — يَوْمًا يَصيرُ إِلى بِلىً وَنَفادِ

ثم عاد إلى بكاء شبابه، فقال:

إِمّا تَرَيْني قَدْ بَليتُ وَغاضَني — ما نيلَ مَنْ بَصَري وَمِنْ أَجْلادي[١]
وَعَصَيْتُ أَصْحابَ الصَبابَةِ وَالصِبا — وَأَطَعْتُ عاذِلَتي وَلَانَ قِيادي
فلَقَدْ أَروحُ عَلَى التِّجارِ مُرَحَّلًا — مِذِلًا بِمالي لَيِّنًا أَجْيادي
ولَقَد لَهوتُ وَلِلشَبابِ لَذاذَةٌ — بِسُلافَةٍ مُزِجَت بِماءِ غَوادِ
مِن خَمرِ ذي نَطَفٍ أَغَنَّ مُنَطَّقٍ — وافى بِها لِدَراهِمِ الأَمْجادِ

[١] الأجلاد: جمع جلد بالتحريك، وهو القوة.

يَسْعَى بِها ذو تُومَتْيِن مُشَمّرٌ قَنَأَتْ أَنامِلُهُ مِن الْفِرصادِ
والْبيضُ برْمين القُلوبَ كَأنّها أدْحيُّ بْين صربمةٍ وجماد
ينْطِفْنَ مغْروفًا وهُنّ نواعمٌ بيضُ الوجْوه رفيقةُ الأكباد

ونحا هذا المنحى متمم بن نويرة في عبنيته التي يقول فيها:

وَلَقَدْ علِمْتُ ولا محالَةَ أنّني للْحادثات فهلْ ترَيْني أجْزعُ
أَفْنَيْن عادًا ثُم آل مُحرِّقٍ فتَركْنهُمْ بددًا وما قَدْ جمَعوا
وَلَهُنَّ كان الحارثان كِلاهُما ولهْنَ كان أخْو المصانع تُبَّعُ[٢]
لا بُدَّ مِنْ تَلفٍ مُصيبٍ فانْتظرْ أَبأَرْض قوْمك أمْ بأخْرَىَ نُصْرعُ
وليَأتِينّ عليْك يوْمٌ مرّة يُبْكَى عَليْك مُقنّعا لا نسْمعُ

وكذلك نجد في خطب العرب وأشعارهم شذرات في التوجع لما انقرض من الممالك والشعوب، لكنها لا تمثل الوقفات الفنية التي تشد إليها الرحال، كوقفة البحتري عند رسوم الإيوان، ووقفة شوقي عند أطلال الحمراء.

إيوان كسرى

وقد يجمل أن نذكر أن إيوان كسرى، الذي استلم البحتري أحجاره، وطاف بأركانه، كان مضرب المثل عند الأعراب، فقد قيل لأعرابي: كيف نصنع بالبادية إذا انتصف النهار، وانتعل كل شيء ظله؟ فأجاب: وهل العيش إلا ذاك؟ يمشي أحدنا ميلًا فيرفض عرقًا كأنه الحمان، ثم تنصب عصاه، ويلقي عليها كساءه، وتقبل الرياح من كل جانب، فكأنه في إيوان كسرى.

وقد حُكيَ فيما نقل ياقوت أن المنصور لما أراد بناء بغداد استشار خالد بن برمك في هدم الإيوان وإدخال آلته في عمارة بغداد، فقال له: لا تفعل يا أمير المؤمنين! فقال: أبيت إلا التعصب للفرس! فقال: ما الأمر كما ظن أمير المؤمنين، ولكنه أثر عظيم يدل على أن ملة ودينًا وقومًا أذهبوا ملك بانيه لدينٌ وملكٌ عظيمٌ، فلم يصغ إلى رأيه وأمر

[٢] المصانع: القصور.

بهدمه، فوجد النفقة عليه أكثر من الفائدة بنقضه فتركه، فقال خالد: الآن أرى يا أمير المؤمنين أن تهدمه؛ لئلا يقال: إنك عجزت عن خراب ما عمره غيرك، ومعلوم ما بين الخراب والعمارة!

وقد تكون هذه الحكاية صحيحة، وقد تكون خرافة تناقلها الناس، ولكنها على كل حال دليل على منزلة الإيوان في صدور العرب لذلك العهد.

أما قصر الحمراء الذي بكاه شوقي فهو من قصور الأندلس، والأندلس هي الفردوس المفقود، الذي يبكيه المسلمون، ولننظر فسيحدثنا شوقي عنه أصدق الحديث.

نفسية البحتري

وأريد بنفسية البحتري ذلك الخاطر الذي استولى عليه حين همّ بوصف الإيوان، وقد رأيناه يذكر لذلك علتين: إحداهما في بداية القصيدة، والثانية في النهاية، أما الأولى فهي الهرب من الهموم، ومن ظلم الأقارب، بالفزع إلى طلول الإيوان، ينسى في أكنافها حزنه وبثه، ويستودعها أساه وشجاه، وذلك حيث يقول:

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسي   وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جِبْسِ[٣]
وَتَماسَكْتُ حْيثُ زَعْزَعني الدّهْـ   ـرُ الْتِماسًا مِنْهُ لتَعْسِي وَنُكْسي
بُلَغٌ مِنْ صُبابَةِ العَيشِ عِنْدِي   طَفّفَتْها الأيّامُ تَطْفيفَ بَخْسِ
وَبَعيدٌ مَا بَيْنَ وَارِدِ رِفْهٍ   عَلَلٍ شُرْبُهُ وَوَارِدِ خِمْسِ[٤]
وَكَأَنَّ الزَّمَانَ أَصْبَحَ مَحْمُو   لا هَواهُ مَعَ الْأَخَسِّ الْأَخَسِّ
وَاشْتِرائِي الْعِرَاقَ خُطَّةُ غْبنٍ   بَعْدَ بَيْعِي الشَّآم بَيْعَةَ وَكسِ
لا تَرُزْني مُزَاوِلًا لاخْتبَارِي   عِنْد هَذي البَلْوَى فتُنْكِرَ مَسِّي[٥]
وَقَديمًا عَهِدْتَني ذا هَنَاتٍ   آبياتٍ عَلى الدَّنيئاتِ شُمْسِ
وَلَقَدْ رَابَني نُبُوُّ ابنِ عَمِّي   بَعْد لينٍ مِنْ جانبَيْهِ وأُنْسِ

---

[٣] الحبس: هو الدنيء الجبان.

[٤] الخمس: شر الأظماء.

[٥] لا تزرني: لا تمتحني.

وإذا ما جُفيتُ كُنْتُ حَرِيًّا أَنْ أُرَى غَيْرَ مُصْبحٍ حَيْثُ أُمْسِي

ثم انتقل إلى الموضوع مباشرة، فقال:

حَضَرَتْ رَحْلِيَ الهُمُومُ فَوَجَّهْـ ـتُ إِلَى أَبَيَضِ المدائِنِ عنْسِي
أَتَسلَّى عنِ الحُظُوظِ وآسَي لِمَحل مِنْ آلِ سَاسَان دَرْسِ
ذَكَّرَتْنِيهِمُ الخُطُوبُ التَّوَالِي وَلَقَدْ تُذْكِرُ الخُطُوبُ وتُنْسِي

ونراه في نهاية القصيدة يذكر أنه بكى الإيوان، وليست الدار داره ولا الجنس جنسه؛ لأن لأهله نعمى عند أهله؛ ولأنهم أيدوا ملكهم وشدوا قواه، بما أمدوهم به من الكتائب في أيام القتال، وذلك حيث يقول:

عَمَرَتْ للسّرُورِ دَهْرًا فصَارَتْ للتّعَزّي رِبَاعُهُمْ وَالتّأَسِّي
فَلَهَا أَنْ أُعِينَهَا بِدُمُوعٍ مُوقَفَاتٍ عَلى الصَّبَابَةِ حُبْسِ
ذاكَ عِنْدِي وَلَيْستِ الدَّارُ دارِي باقْتَرَابٍ مِنْها ولا الْجِنْسُ جِنْسِي
غَيْرَ نُعْمَى لأَهْلِهَا عِنْدَ أَهْلِي غَرَسُوا مِنْ ذَكَائِها خيْرَ غَرْسِ
أيّدُوا مُلْكَنَا وَشَدُّوا قُوَاهُ بكُماةٍ تَحْتَ السَّنَوَّرِ حُمْسِ[٦]
وأَعَانُوا عَلَى كتَائِبِ أَرْيَا طَ بطَعْنٍ عَلَى النُّحورِ وَدَعْسِ
وأَرَانِي مِنْ بَعْدُ أَكْلَفُ بِالأَشْـ ـرافِ طُرًّا مِنْ كُلّ سِنْخٍ وَإِسِّ[٧]

وفي هذا البيت الأخير يذكر أنه يكلف بالأشراف من كل جنس، ويبكي المجد الذاهب، وإن تقطعت بينه وبين أهله الأسباب.

---

[٦] السنور: السلاح.

[٧] الأصل والجنس.

نفسية شوقي

أما شوقي فقد حدثنا عن خاطره حين هم بوصف الحمراء، فترك لنا قطعة منثورة تصف حسه، ووجدانه، وهو يطوف بذلك البيت، وقد سلك شوقي هذا المسلك غير مرة، فإنا نراه قدم قصيدته في وصف رومة برسالة بعث بها إلى أستاذنا الجليل إسماعيل بك رأفت، ونجده فعل مثل ذلك حين قدم للأستاذ مرجليوت قصيدته في وصف النيل، وإلى القارئ كلمته عن رحلته إلى وطن ابن خفاجة وابن زيدون:

> لما وضعت الحرب الشومى أوزارها، وفضحها الله بين خلقه وهتك إزارها، ورم لهم ربوع السلم وجدد مزارها، أصبحت وإذا العوادي مقصرة، والدواعي غير مقصرة، وإذا الشوق إلى الأندلس أغلب، والنفس بحق زيارته أطلب، فقصدته من برشلونة، وبينهما مسيرة يومين بالقطار المجد، والبخار المشتد، أو بالسفن الكبرى الخارجة من المحيط، الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط، فبلغت النفس بمرآة الأرب، وكحلت العين في تراه بآثار العرب، وإنها لشتى المواقع، متفرقة المطالع، في ذلك الفلك الجامع، يسري زائرها من حرم إلى حرم، كمن يمسي بالكرنك ويصبح بالهرم، فلا يتقارب غير العتق والكرم، طليطلة تطل على جسرها البالي، واشبيلية تشبل على قصرها الخالي، وقرطبة منتبذة ناحية بالبيعة الغراء، وغرناطة بعيدة مزار الحمراء، وكان البحتري رحمه الله رفيقي في هذا الترحال، وسميري في الرحال، والأحوال تصلح على الرجال، كل رحل لحال، فإنه أبلغ من جلَّى الأثر، وحيا الحجر، ونشر الخبر، وحشر العبر، ومن قام في مأتم على الدول الكبر، والملوك البهاليل الغرر، عطف على الجعفري حين نحمل عنه الملا، وعطل من الحلى، ووكل بعد المتوكل للبلى، فرفع قواعده في السير، وبنى ركنه في الخبر، وجمع معالمه في الفكر، حتى عاد كقصور الخلد امتلأت منها البصيرة وإن حلا البصر، وتكفل بعد ذلك لكسرى بإيوانه، حتى زال عن الأرض إلى ديوانه، وسينيته المشهورة في وصفه ليست دونه، وهو تحت كسرى في رصه ورصفه، وهي تريك حسن قيام الشعر على الآثار، وكيف تتجدد الديار في بيوته بعد الاندثار. قال صاحب (الفيح القسي في الفتح القدسي) بعد كلام: «فانظروا إلى إيوان كسرى وسينية البحتري في وصفه، تجدوا الإيوان قد حرث شعفائه وعفرت

شرفاته، وتجدوا سينية البحتري قد بقى بها كسرى في ديوانه، أضعاف ما بقي شخصه في إيوانه»، وهذه السينية هي التي يقول في مطلعها:

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسي   وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جِبْسِ

والتي اتفقوا على أن البديع الفرد من أبياتها قوله:

والـمـنـايـا مَـوَاثِـلٌ وَأَنُـوشِـرْ   وَأنُ يُزْجِي الصُّفُوفَ تَحْتَ الدِّرَفْس[8]

فكنت كلما وقفت بحجر، أو طفت بأثر، تمثلت بأبياتها، واسترحت من مواثل العبر إلى آياتها، وأنشدت فيما بيني وبين نفسي:

وَعَظَ الْبُحْتُرِيَّ إِيوانُ كِسْرَى   وَشَفَتْني الْقُصورُ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ

ثم جعلت أروض القول على هذا الروي، وأعالجه على هذا الوزن، حتى نظمت هذه القافية المهلهلة، وأتممت هذه الكلمة الريضة، وأنا أعرضها على القراء، راجيًا أن يلحظوها بعين الرضاء، ويسحبوا على عيوبها ذيل الإغضاء.

وهذه الكلمة تمثل نثر شوقي، فهو يسجع ولا يكاد يبين[9]، غير أنه قد يوفق إلى تشابيه مبتكرة تسير مسير الأمثال، كقوله في وصف آثار العرب في بلاد الإسبان: «يسري زائرها من حرم إلى حرم، كمن يمسي بالكرنك ويصبح بالهرم».

وتلك والله عبادة صريحة لآثار الفراعنة على ضفاف النيل.

وهي كذلك تمثل رأيه في شعر البحتري، فهو عنده «أبلغ من جلى الأثر، وحيا الحجر، ونشر الخبر، وحشر العبر»، وتصور لنا تلك الكلمة ما كان يجول في نفس شوقي، وكيف كان روح البحتري يُطيف به وهو يطوف بالحمراء.

[8] الدرفس: العلم، وهي كلمة فارسية، ومنها جاءت الكلمة الفرنسية.

[9] غضب شوقي رحمه الله من هذه الكلمة، وكان يرى نفسه أكتب الناس، ونحن لا نؤمن بقوته الكتابية، ولكنا مع ذلك نراه بلغ الغاية في رسالته عن قناة السويس.

ولا يدري من هم الذين يذكر شوقي أنهم اتفقوا على أن البديع الفرد من قصيدة البحتري هو قوله:

وَالـمـنَـايـا مـواثِـلً وأنَـوشِــرْ وإِنَ يُرْجِي الصُّفوفَ تَحْتَ الدِّرفْسِ

وكنا نحب لو ينبه لقوله في وصف الإيوان:

لَيسَ يُدرَى أصُنْعُ إنْسٍ لجنٍّ سَكَنوهُ أمْ صُنعُ جنٍّ لإنْسِ

وقوله في بكائه:

لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَن الليَالِي جَعَلَتْ فيه مَأْتَمًا بَعْدَ عُرْسِ

ولشوقي رأيه، فقد يختلف النقد أحيانًا باختلاف الأذواق.

الفصل السادس عشر

حنين شوقي إلى مصر

قد رأيت في الكلمة الماضية أن البحتري ابتدأ سينيته بالتبرم بالعيش وشكوى الزمان، والتنكر لظلم الأقربين؛ وكان ذلك لأن نزعته لم تكن اجتماعية، وإنما كانت فردية. أما شوقي فقد ابتدأ سينيته بقطعة وجدانية، تفيض بالحنين إلى مصر، وتزخر بالشوق إلى النيل، وهو كأنما يتكلم عن نفسه، ويحدث الناس عن شجونه، ولكنه في الواقع يتوجع لما يعاني وطنه من وطأة الظلم، ويتفجع لما تقاسي بلاده من قسوة الاضطهاد، وإنه ليبكي ملاعب شبابه، وعهود صباه، حين يقول في مطلع هذه السينية:

اخْتلافُ النّهَارِ واللَّيْل يُنْسِي   فَاُذْكُرَا لِي الصّبَا وَأَيَّامَ أُنْسي
وصِفا لي مُلاوَةً مِنْ شَبابٍ   صُوِّرتْ مِنْ تَصوُّراتٍ ومسِّ
عَصَفَتْ كَالصِّبا اللَّعوبِ ومرَّتْ   سِنَةً حُلْوةً وَلَذَّةَ خَلْسِ

ثم يأخذ في الحديث عن مصر، فيقول:

وَسَلَا مِصْرَ هلْ سَلَا الْقَلْبُ عنْهَا   أَو أَسا جُرحَهُ الزَمانَ المُؤَسّي
كُلَّما مَرَّتِ اللَيالي عَلَيهِ   رَقَّ وَالعَهدُ في اللَيالي تُقَسّي
مُستَطارٌ إِذا البَواخِرُ رَنَّت   أَوَّلَ اللَيلِ أَو عَوَت بَعدَ جَرسِ

ولا أحب أن أنتقل إلى خطاب شوقي للباخرة قبل أن أنبه القارئ إلى روعة الحسن في قوله:

وَسَلَا مِصْرَ هلْ سَلَا الْقَلْبُ عنْهَا   أَو أَسا جُرحَهُ الزَمانَ المُؤَسّي

فقد جعل حبه لبلاده أعز من أن تنال منه الليالي، وجعل جرحه في هوى مصر أعضل من أن يطب له الزمان، وانظر كيف وصف قلبه حين قال:

كُلَّما مَرَّتِ اللَيالي عَلَيهِ   رَقَّ وَالعَهدُ في اللَيالي تُقَسّي
مُستَطارٌ إِذا البَواخِرُ رَنَّت   أَوَّلَ اللَيلِ أَو عَوَت بَعدَ جَرسِ

وهو هنا لم يذكر أن قلبه كان يخفق كلما أومض البرق، أو هب النسيم، كما كان يتحدث الأعراب، وإنما يصف ما يحسه الغريب على شواطئ المحيط. وأين وميض البرق، وهبوب الريح، من أصوات البواخر في غسق الليل؟ — ثم قال:

يا اِبنَةَ اليَمِّ ما أَبوكِ بَخيلٌ   ما لَهُ مولَعًا بِمَنعٍ وَحَبسِ
أَحَرامٌ عَلَى بَلابِلِهِ الدَّوْ   حُ حَلالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ
كُلُّ دارٍ أَحَقُّ بِالأَهْلِ إِلّا   في خَبيثٍ مِنَ المَذاهِبِ رِجْسِ

والقارئ يتلقى هذه الأبيات الآن بشيء من الطمأنينة، أما الذين قرءوها يوم قالها شوقي فلهم فيها رأي، ومن كان في ريب من هذا فليذكر الأحكام العرفية، لا قدر الله لها رجعة، ولا كتب لها أوبة، فقد كنا نتغنى بقول شوقي:

أَحَرامٌ عَلَى بَلابِلِهِ الدَّوْ   حُ حَلالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ

ثم تتمثل مصر في صورة الشجرة الوريقة، نفرت عنها البلابل المغردة، ثم صارت مأوى للبوم، ومقيلًا للغربان، وكذلك كانت مصر في ذلك الحين، فكان شهيد الحرية محمد بك فريد، يرسل الأماني عساها تقبل ثرى مصر، وتنهل من سلسبيل النيل، ثم لا تجاب له طلبة، ولا يدنو منه مأمول، في حين أن بلاد الفراعنة كانت مفتحة الأبواب لكل أثيم القلب، وقاح الوجه، خبيث اللسان!! وسيظل قول شوقي:

أَحَرامٌ عَلَى بَلابِلِهِ الدَّوْ   حُ حَلالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ

سيظل هذا البيت مثارًا للشجى والأسى، حتى تغدو تلك الشجرة ذات الظلال والأفنان، وهي للبلابل مأوى وللطواويس مقيل. أما قوله:

كُـلُّ دارٍ أَحَـقُّ بِـالأَهْـلِ إِلّا   في خَبيثٍ مِنَ المَذاهِبِ رِجْسِ

فهو رمية مسددة في صدر الظلم، ونحر الاستبداد، وسيظل غصة يشجي بها بعض الحلوق — ثم قال في خطاب الباخرة:

نَفسي مِرجَلٌ وَقَلبي شِراعٌ   بِهِما في الدُموعِ سيري وَأَرسي
وَاِجْعَلي وَجْهَكِ «الفَنارَ» وَمَجرا   كِ يَدَ «الثَغْرِ» بَينَ رَمْلٍ وَمَكْسِ
وطَني لَوْ شُغِلْتُ بِالْخُلْد عنْهُ   نَازعَتْني إليْه في الْخُلْد نفْسي
وهَفَا بِالْفُؤَادِ في سلْسبِيل   ظَمَأٌ لِلسّواد منْ عيْن شمْس
شَهِد الله لَمْ يغِبْ عنْ جُفُونِي   شَخْصُهُ ساعة ولمْ يخْلُ حسّي
يُصْبِحُ الفِكْرُ وَالمَسَلَّةُ ناديـ   ـهِ وَبِالسَرْحَةِ الزَكِيَّةِ يُمْسي

وأي نفس يمثلها شوقي في هذا الشعر البديع، إنه والله يمثل النفس المصرية، وحسبي أن أقول: النفس المصرية، وهل في الدنيا — ولولا التقى لأضفت إليها الآخرة — وطن خليق بأن يعذب في سبيله أبناؤه مثل وادي النيل؟

إن الذي يعيش في مصر، وله ذوق شوقي وإحساسه، ليس بكثير عليه أن يقول:

وطَني لَوْ شُغِلْتُ بِالْخُلْد عنْهُ   نَازعَتْني إليْه في الْخُلْد نفْسي
وهَفَا بِالْفُؤَادِ في سلْسبِيل   ظَمَأٌ لِلسّواد منْ عيْن شمْس
شَهِد الله لَمْ يغِبْ عنْ جُفُونِي   شَخْصُهُ ساعة ولمْ يخْلُ حسّي

ولقد كانت مصر، ولا تزال بابا من الفتنة لكل من يمسي وله فيها رأي مطاع وبفضلها يقول فرعون:

﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

ولقد يذكرون أن المأمون قال لجنوده، وهو يشاهد الأهرام: «أبهذه كفر فرعون بربه!». فقال له أحد وزرائه: يا أمير المؤمنين إن الله يقول:

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾

فإذا كانت هذه بقايا ما دمر الله فلفرعون العذر إن غلب عليه الضلال.

وطغيان ملوك مصر دليل على ما تورث أهلها من العزة، وتغرس فيها من الجبروت، كالسيف الصقيل يحمل صاحبه على الفتك، ويحبب إليه العدوان. وسبحان من لو شاء لرزقنا قسطًا من أسباب الفتنة في هذه البلاد.

ثم يقول شوقي وهو يتمثل الجزيرة والنيل:

وكَأنِّي أرَى الجزيرةَ أيْكا ... نَغَمَت طَيْرُهُ بِأَرْخَمَ جَرْسِ
هِيَ بَلقيسُ في الخَمائِلِ صَرحٌ ... مِن عُبابٍ وَصاحَبٌ غَيْرُ نِكْسِ
حَسْبُها أَنْ تَكونَ لِلنِّيلِ عِرْسًا ... قَلْبُها لَمْ يُجَنَّ يَوْمًا بِعِرسِ
لَبِسَتْ بِالأَصيلِ حُلَّةَ وَشْيٍ ... بَيْنَ صَنعاءَ في الثِّيابِ وَقَسِّ[1]
قَدَّها النِّيلُ فَاسِتَحَتْ فَتَوارَتْ ... مِنْهُ بِالجِسْرِ بَيْنَ عُرْيٍ وَلُبْسِ
وَأَرَى النِّيلَ كَالْعَقيقِ بَوادِيـ ... ـهِ وَإِن كانَ كَوْثَرَ المُتَحَسِّي
اِبنُ ماءِ السَماءِ ذو المَوكِبِ الفَخمِ ... الَّذي يَحسُرُ العُيونَ وَيُخسي
لا تَرَى في رِكابِهِ غَيْرَ مُثْنٍ ... بِجَميلٍ وَشاكِرٍ فَضْلَ عُرْسِ

وهذا خيال وادع جميل، ولكن شوقي لم يصبر عليه، بل عاد إلى هجيراه من النوح على مجد خوفو ورمسيس، وأخذ يقول:

وَأَرَى الجيزَةَ الحَزينَةَ ثَكْلَى ... لَمْ تُفِقْ بَعْدُ مِنْ مَناحَةِ رَمْسي[2]
أَكْثَرَت ضَجَّةَ السَواقي عَلَيْهِ ... وَسُؤالَ اليَراعِ عَنْهُ بِهَمْسِ
وَقِيامَ النَّخيلِ ضَفَّرْنَ شِعْرًا ... وَتَجَرَّدْنَ غَيْرَ طَوْقٍ وَسَلْسِ[3]
وَكَأَنَّ الأَهْرامَ ميزانُ فِرْعَو ... نَ بِيَوْمٍ عَلَى الجَبابِرِ نَحْسِ
أَو قَناطيرُهُ تَأَنَّق فيها ... أَلفُ جابٍ وَأَلفُ صاحِبِ مَكْسِ

[1] قس: بالفتح موضع بين العريش والفرما من أرض مصر تنسب إليه الثياب القسية.

[2] يريد رمسيس.

[3] السلس: من قولهم سلسلت النحلة إذا ذهبت منها أصول السعف.

رَوْعَةٌ فـي الضُـحَـى مَـلاعِـبُ جِـنٍّ   حينَ يَغْشى الدُجَى حِماها وَيُغْسي

وكذلك يحسب شوقي، وهو يندب مجد الفراعنة، أن ما في الطبيعة من ماء ونبات وجماد يبكي معه ذلك الملك الذي بطش به القدر وعدا عليه القضاء.

والشاعر حين يرضى يحسب الكون يبتسم لابتسامه؛ وحين يغضب يحسب الكون يكتئب لاكتئابه، ولعل هذه السذاجة هي أظرف ما في الشعراء؛ إذ كانت سمة من سمات الطفولة البريئة، وكم في الطفولة من معان تسكن إليها شوارد النفوس.

ثم انتقل شوقي إلى الحديث عن أبي الهول فقال:

وَرَهـيـنُ الـرِمـالِ أَفْـطَـسُ إِلّا   أَنَّهُ صُـنـعُ جِـنَّـةٍ غَـيرُ فُـطسِ
تَتَجَلّى حَقيقَةُ النّاسِ فيهِ   سَبُعُ الخَلْقِ في أَساريرِ إِنْسي
لَعِبَ الدَّهْرُ في ثَراهُ صَبِيًّا   وَاللَّيالي كَواعِبًا غَيْرَ عُنْسِ[٤]
رَكِبَتْ صُيَّدُ المَقاديرِ عَينَيْهِ   لِـنَـقْـدٍ وَمَـخْـلَـبَـيـهِ لِـفَـرْسِ
فَأَصابَتْ بِهِ المَمالِكَ كِسْرى   وَهِرَقْلًا وَالعَبقَرِيَّ الفَرَنْسي

وهذا أيضًا خيال شعراء، فهو يتوهم أن المقادير ركبت عيني أبي الهول لنقد الحوادث، وأعدت مخلبيه لافتراس الطغاة، ولكن هيهات لما يظن هيهات، والويل لأمة تنتظر في خمود حتى يثأر لها قعيد الصحراء.

على أن من الحق أن نبين أن شوقي لم يسق هذه الخرافة، وهو يحسبها حقيقة، إنما هو الفن يقتضي على صاحبه باستغلال موارد الخيال، وأبو الهول — رضي الله عنه — إن كان وليًّا، — وجل جلاله — إن كان إلهًا — معبود قديم طالما قدمت له القرابين، ولا يزال المصريون يتيمنون بما كان يتيمن به آباؤهم من قبل، ويتشاءمون مما كانوا يتشاءمون منه، كما لا يزال العرب يحسبون حساب السائح والبارح، أسوة بما كان يفعل آباؤهم الأقدمون، ولولا اتقاء الفتنة لذكرت نماذج من أساطير الأولين ترينا كيف كان «هداة الأمم» يثيرون ما ركد فيها من العواطف بالإشادة بما عرف لهم من المعبودات، وعلى هذا المنهج جرى شوقي فسبح بحمد أبي الهول في جملة من قصائده الطوال، والشاعر كالخطيب لا تهمه العقول إذا ظفر بالقلوب.

[٤] عنس: جمع عانس، وهي الفتاة يطول مكثها في دار أبيها بعد إدراكها حتى تخرج من عداد الأبكار.

ثم عاد شوقي إلى قلبه، وقد غمره الحزن، فأخذ يناجيه بهذا الترجيع الحزين، وانظر كيف يقول:

يـا فُـؤادي! لِـكُـلِّ أَمْـرٍ قَـرارٌ   فيهِ يَبْدو وَيَنْجَلي بَعْدَ لَبْسِ
عَـقَـلَـتْ لُـجَّـةُ الْأُمـورِ عُـقـولًا   كانَت الحوتَ طولَ سَبْحٍ وَغَسِّ[٥]
غَرِقَتْ حَيْثُ لا يُصاحُ بِطافٍ   أَو غَـريـقٍ وَلا يُـصـاخُ لِـحِـسِّ
فَلَكٌ يَكْسِفُ الشُّموسَ نَهارًا   وَيَـسـومُ الـبُـدورَ لَـيـلَـةَ وَكْسِ
وَمَـواقـيـتُ لِـلْأُمـورِ إِذا مـا   بَلَغَتْها الأُمورُ صارَت لِعَكْسِ
دُوَلٌ كَـالـرِّجـالِ مُـرْتَـهَـنـاتٌ   بِـقِـيـامٍ مِـنَ الـجُـدودِ وَتَـعْـسِ
وَلَـيـالٍ مِـنْ كُـلِّ ذاتِ سِـوارٍ   لَـطَـمَـتْ كُـلَّ رَبِّ رومٍ وَفُـرسِ
سَـدَّدَتْ بِـالـهِـلالِ قَـوْسًـا وَسَـلَّـت   خِنْجَرًا يَنْفُذانِ مِنْ كُلِّ تُرْسِ
حَكَمَتْ في القُرونِ خوفو وَدارا   وَعَـفَـتْ وائِـلًا وَأَلْـوَتْ بِـعَـبْـسِ
أَينَ مَرْوانُ في المَشارِقِ عَرْشٌ   أَمَـوِيٌّ وَفـي الـمَـغـارِبِ كُـرْسـي

وقفة قصيرة

لاحظنا أن شوقي تحدث عن نفسه قليلًا في بداية القصيدة، ثم اندفع في الحديث عن شوقه إلى مصر، وتفجعه لما تقاسي من عاديات الخطوب، فرأيناه يصور الجزيرة ويمثل استحياءها حين قدها النيل، ثم رأيناه يذكر أن الجيزة لا تزال في أثواب الحداد على رمسيس، وأن السواقي لا تبرح ترسل على ذكره الدموع والأنين، وأن النخيل تجردت في الحزن عليه، فلم يبق عليها غير الشعور والأطواق، ورأيناه كذلك يتكلم عن أبي الهول وعن الأهرام، ويتخيل أبا الهول قارعة عتيدة لإهلاك الطغاة، ثم رأيناه وقد عاوده القلق على مصر ولم يقنعه السكون إلى الخيال، فأخذ يزفر من جديد ويقول:

يا فُؤادي! لِكُلِّ أَمْرٍ قَرارٌ   فيهِ يَبْدو وَيَنْجَلي بَعْدَ لَبْسِ

وأين هذا القرار، يا بلبل النيل! هاته، هاته، وخد من أرواحنا ما تشاء!

[٥] الغس: مرادف للسبح.

ثم شرع يصف القدر بهذه الصورة الشعرية البديعة وهو يقول:

عَـقَـلَـتْ لُـجَّـةُ الْأُمـورِ عُـقـولًا كانَت الحوتَ طولَ سَبْحٍ وَغَسِّ
غَرِقَتْ حَيْثُ لا يُصاحُ بِطافٍ أَو غَـريقٍ وَلا يُصـاخُ لِـحِسِّ
فَلَكٌ يَكْسِفُ الشُموسَ نَهارًا وَيَسـومُ الـبُدورَ لَـيلَـةَ وَكْسِ

ولم تظفر النفس الإنسانية برثاء أبرع من هذا الرثاء، ولا جدت العقول من يذرف عليها مثل هذه الدمعة، وهي على جبروتها ألعوبة وأضحوكة القضاء، ومن ذا الذي وقف على القبر الذي ثوت فيه آمال الأمم المعذبة، ثم جاد عليها بمثل هذه الدمعة الغالية، يذرفها مثل شوقي على تلك العقول التي عقلتها لجة الخطوب، والتي غرقت حيث لا يصاخ لحس، ولا يصاح بطاف أو غريق.

ولقد كانت هذه النفثات مقدمة جميلة لرثاء الحمراء، فقد مهد شوقي لوقفته على أطلالها تمهيدًا هو غاية الغايات في إعداد النفس لبكاء المجد الذاهب، والملك السليب. والنفس المصرية يذكرها مجد الفراعنة بمجد العرب، كما يذكرها ملك العرب بملك الفراعنة، والشجى ببعث الشجى، وهذا كله قبر مالك، لو يعلم اللائمون.

ولم يصنع البحتري هذا الصنيع وإنما حدثنا عما طفقت الأيام من صبابة عيشه، وما كان من غبنه حين باع الشام واشترى العراق، وكيف رابه نُبُوٌّ ابن عمه بعد أن كان أنيس المحضر، لين الجانبين، ثم قال:

حَضَرَتْ رَحْلِيَ الهُمُومُ فَوَجَّهْت إِلَى أَبَيضِ المدائِنِ عنْسِي
أتَسلَّى عنِ الحُظُوظِ وآسَي لِمَحل مِنْ آلِ سَاسَان دَرْسِ

وهذا هو عين الاقتضاب، ولا يبعد عندي أن يكون الزمن قضى على جزء من هذه القصيدة، وإن لم يوجد ما يرجح هذا الظن، فقد كانت هذه القصيدة بلا ريب موضع عناية الرواة، ولكن المريب هو أن يزهد البحتري في حسن التخلص وهو يجبر قصيدة من أروع قصائده إن لم تكن أجمل ما قال. وكان من عادته كذلك أن يخير للبداية ما يمت بصلة وثيقة إلى ما سينتقل إليه، وأشهر ما له في هذا الأسلوب قصيدته الميمنة في عتاب الفتح بن خاقان، فقد ابتدأها بقطعة من النسيب هي أيضًا عتاب، وذلك حيث يقول:

يَهُوْنُ عَلَيْها أَن أبيتَ مَتَيَّما   أُعالِجُ شَوْقًا في الضَّميرِ مُكَتَّما
وَقَدْ جاوَزتُ أرْضَ العِراقِ وَأصْبَحتْ   حِمَى وَصْلِها مُذْ حاوَرَتْ أَبْرَقَ الْحِمَى
بَكتْ حُرْقةً عِنْدَ الْفراقِ وَأَرْدَفَتْ   سُلوًا نَهى الْأَحْشاءَ أَنْ تَتَضَرَّما
فَلمْ يَبْقَ مِنْ مَعْروفِها غَيْرُ طائِف   يُلِمُّ بِنا وَهْنًا إِذا الرَّكْبُ هَوَّما

وفي هذه القصيدة يقول:

وَلمْ أعْرفِ الذّنْبَ الَّذي سُؤْتَني لَهُ   فأَقْتُلَ نَفْسِي حَسْرَةً وَتَنَدُّما
وَلَوْ كَانَ ما خُبِّرْتُهُ أو ظَنَنْتُهُ   لَمَا كَانَ غَرْوًا أَنْ أَلُومَ وَتُكْرِما
أُذَكِّرُكَ العَهْدَ الَّذي لَيْسَ سُؤْدَدًا   تَناسِيهِ والْوُدَّ الصّحيحَ المُسَلَّما
أُقِرُّ بِما لَمْ أجْنِهِ مُتَنَصِّلًا   إِلَيْكَ عَلَى أنِّي إخالُكَ أَلْوَمَا
ليَ الذّنْبُ مَعْرُوفًا وإنْ كنْتُ جاهِلًا   بِهِ وَلَكَ العُتْبَى عَلَيَّ وأَنْعِمَا
وَمِثْلُكَ إنْ أَبْدَى الفَعَالَ أعادَهُ   وإنْ صَنَعَ المَعْرُوفَ زَادَ وَتَمّمَا

نقول: إن البحتري لم يؤثر التخلص في قصيدته السينية، وإنما آثر الاقتضاب، ولا كذلك شوقي، فقد أخذ يتكلم عن ويلات الممالك ونكبات الشعوب، ثم دخل في الموضوع برفق وهو يقول:

أَينَ مَرْوانُ في المَشارِقِ عَرْشٌ   أَمَوِيٌّ وَفي المَغارِبِ كُرْسي
سَقِمَتْ شَمْسُهُم فَرَدَّ عَلَيْها   نورَها كُلُّ ثاقِبِ الرَّأيِ نَطْسِ
ثُمَّ غابَتْ وَكُلُّ شَمْسٍ سِوى هاتيـ   ـكَ تَبْلى وَتَنْطَوي تَحْتَ رَمْسِ
وَعَظَ الْبُحْتُرِيَّ إِيوانُ كِسْرَى   وَشَفَتْني الْقُصورُ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ

نقرر هذا، ثم نذكر أن البحتري لا لوم عليه في أن خلت قصيدته من مثل المقدمة الممتعة التي افتتحت بها قصيدة شوقي؛ لأن ظروف البحتري، وقد ضاق به عيشه، وظلمه أهله، غير ظروف شوقي وهو يحاول العودة إلى وطن أسير تحالفت عليه الرزايا وتنكر له الزمان، وأصلاه أهله نار العقوق، وهو قد خلف في هذا الوطن أحلام شبابه وأوهام صباه، وترك فيه ما كان يملك من أسباب الحياة، ثم هو لا يدري إذا عاد أيقر قراره فيلقي عصا التسيار، أم تعصف به وشاية جديدة، تحمله إلى المنفى من جديد …

ولو كان للبحتري مثل هذا القلب المشرد، وهو يشد رحال إلى الإيوان، لكان له شأن آخر، ولكانت شكواه مضرب الأمثال، ولكن الشاعر له «رسالة» يؤديها إلى أهل عصره، ولا مفر له من أدائها ما دام له قلب ووجدان، وكان «رسالة» شوقي حين قال سينيته أن يصف ما يلاقي أهل مصر من الكمد، وهم يودعون كل يوم فريقًا من أبنائهم الأحرار، ويستقبلون بالرغم منهم ما يلقي إليهم البحر من نفايات الأمم وأوشاب الأقطار، وكان له في ذلك هذا البيت الذي يصلح لكل أمة ولكل جيل:

أَحَـرَامٌ عَلَـى بَـلابِـلِـهِ الـدَّوْ   حُ حَلاَلٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ

وفي مقابله البحتري، وهو يتحدث عن نفسه:

وَاشْتِرائِي الْعِرَاقَ خُطَّةُ غَبْنٍ   بَعْدَ بَيْعِي الشَّآم بَيْعَةَ وَكسِ

ولكن أين هذا من ذاك؟ وأين قول البحتري في عنف الدهر وجوره:

وَكَأَن الزَّمَانَ أَصْبَحَ مَحْمُو   لا هَواهُ مَعَ الْأَخَسِّ الْأَخَسِّ

من قول شوقي في المعنى نفسه:

عَـقَـلَـتْ لُـجَّـةُ الْأُمُـورِ عُـقُـولًا   كَانَت الحُوتَ طُولَ سَبْح وَغَسِّ
غِرِقَتْ حَيْثُ لاَ يُصَاحُ بِطَافٍ   أَوْ غَـرِيقٍ وَلاَ يُصَـاخُ لِـحِسِّ

فإن هذه صورة شعرية نادرة المثال.
ومطلع البحتري:

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسي   وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جِبْسِ

فيه ضعف وانحلال، وليس بقاطع الدلالة على الإباء، وخير منه مطلع شوقي:

اخْتلافُ النّهَارِ واللَّيْل يُنْسِي   فَاُذْكُرا لِي الصّبَا وَأَيَّامَ أُنْسي

وإن كنا لا ندري بمن يستنجد، وقد نسي أيام صباه، ورحم الله ابن الأحنف إذ يقول:

نَزَفَ البُكاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فَاسْتَعِر   عَيْنًا لِغَيرِكَ دَمْعُها مِدْرارُ
مَنْ ذا يُعيُركَ عَيْنَهُ تَبْكي بِها   أرَأَيْتَ عَيْنًا للدُّموعِ تُعَارُ

ويذكرون أن لورد كرومر حضر عرسًا مصريًّا وسمع المغني يقول: «حبيبي غاب، هاتوه لي يا ناس»، فلما سأل المترجم عن معنى هذا الصوت ووقف على مدلوله قال: «إن المصري لكسول، وإنه ليطلب حتى من يعينه على رد محبوبه الغائب». وكذلك يطلب شوقي من يحدثه عن أيام الأنس في عهد الشباب، وإنه لمطلب عجيب!

الفصل السابع عشر

بين البحتري وشوقي

ولقد أخذ البحتري: بعد مقدمته الوجيزة يتكلم عن إيوان كسرى، ويتحدث عن بناته، ويعرض بسكان القفار من الأعراب، فيقول:

أتَسلَّى عنِ الحُظُوظِ وآسَي ... لِمَحل مِنْ آلِ سَاسَان دَرْسِ
ذَكَّرَتْنِيهِمُ الخُطُوبُ التَّوَالِي ... وَلَقَدْ تُذْكِرُ الخُطُوبُ وتُنْسِي
وُهُمو خافِضونَ في ظِلِّ عالٍ ... مُشْرِفٍ يحْسِرُ العْيون ويْحسِي
مُغْلِقٌ بَابَهُ عَلَى جَبَل الفَبْقِ ... إِلَى دارَتَيْ خِلاطٍ وَمَكْسِ
حلَلٌ لَمْ تَكُنْ كَأَطْلاَلِ سُعْدَى ... في قِفَارٍ منَ الْبَسَابِسِ مُلْسِ
وَمَسَاعٍ لَوْلاَ المُحَابَاةُ منِّي ... لَمْ تُطِقْها مَسْعَاةُ عُنْسٍ وَعَبْسِ
نَقَلَ الدَّهْرُ عَهْدَهُنَّ من الْجِدَّةِ ... حَتَّى غَدَوْنَ أَنْضَاءَ لُبْسِ
فَكأَنَّ الْجِرْمَازَ منْ عَدَمِ الْأُنْسِ ... وَإِخْلاقِهِ بَنِيَّةُ رَمْسِ
لَوْ تَراهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيالي ... جَعَلَتْ فيه مأْتمًا بَعْدَ عُرْسِ
وَهو يُنْبيكَ عَنْ عَجائِبِ قَوْمٍ ... لا يُشابُ البَيَانُ فيهِمُ بلبْسِ

وهذا البيت الأخير تمهيد مباشر لوصف ما في الإيوان من النقوش والتهاويل، ولنا إليه عودة، فلنلاحظ الآن أن البحتري يتحبس، وهو يبين عن أثر الإيوان في نفسه، ويتوقف وهو يفصح عما بين العرب والفرس من شتى الفروق، وترجع هذه الحبسة إلى اتقاء الفتنة، وكبح ما يجمع عن هذه المقارنة من شهوة التنافر وإثارة الأحقاد؛ ولهذا يقول في هدوء:

حلَلٌ لَمْ تَكُنْ كَأَطْلَالِ سُعْدَى في قِفَارٍ منَ الْبَسَابِسِ مُلْسِ
وَمَسَاعٍ لَوْلاَ المُحَابَاةُ منِّي لَمْ تُطِقْهَا مَسْعَاةُ عُنْسٍ وَعَبْسِ

وقد صدق، وإن جرح الإيوان، وإلا فما هي أطلال سعدى، ورسوم ليلى ونؤي عفراء! ولم يجد شوقي ما يضطره إلى مثل هذه المواربة، إذ كان يتكلم عن مجد المسلمين والعرب، في بلاد إسلامية مجموعة الأهواء، ومن هنا نراه يقول في وضوح وجلاء:

رُبَّ لَيْلٍ سَرَيْتُ وَالبَرْقُ طِرْفي وَبِساطٍ طَوَيْتُ وَالرِّيحُ عَنْسي
أَنْظِمُ الشَرْقَ في (الجَزيرَةِ) بِالغَرْ بِ وَأَطْوي البِلادَ حَزْنًا لِدَهْسِ
في دِيارٍ مِنَ الخَلائِفِ دَرْسٍ وَمَنارٍ مِنَ الطَّوائِفِ طَمْسِ
وَرُبًا كَالْجِنانِ في كَنَفِ الزَّيْتو نِ خُضْرٍ وَفي ذَرا الكَرْمِ طُلْسِ
لَمْ يَرُعْني سِوَى ثَرىً قُرْطُبِيٍّ لَمَسَتْ فيه عِبْرَةَ الدَّهْرِ خَمْسي
يَا وَقَى اللهُ مَا أُصَبِّحُ مِنْهُ وَسَقَى صَفْوَةَ الْحَيَا مَا أُمَسِّي
قَرْيَةٌ لا تُعَدُّ في الْأَرْضِ كانَتْ تُمْسِكُ الأَرْضَ أَنْ تَميدَ وَتُرْسي
غَشِيَت ساحِلَ المُحيطِ وَغَطَّتْ لُجَّةَ الرُّومِ مِنْ شِراعٍ وَقَلْسِ
رَكِبَ الدَّهْر خَاطِري في ثَرَاهَا فَأَتَي ذلِكَ الْحِمَى بَعْدَ حَدْسِ
فَتَجَلَّت لِيَ القُصورُ وَمَنْ فيها مِنَ العِزِّ في مَنازِلَ قُعْسِ
ما ضَفَت قَطُّ في المُلوكِ عَلى نَذْ لِ المَعالي وَلا تَرَدَّت بِنَجْسِ

ومن الخير أن ندل على الأبيات المختارة هنا وهناك. ونحن نستجيد قول البحتري:

ذَكَّرَتْنِيهِمُ الخُطُوبُ التَّوَالِي وَلَقَدْ تُذْكِرُ الخُطُوبُ وتُنْسِي

ولعجز هذا البيت مغزى بديع، ونستجيد كذلك قوله:

نَقَلَ الدَّهْرُ عَهْدَهُنَّ من الْجِدَّةِ حَتَّى غَدَوْنَ أَنْضَاءَ لُبْسِ
فَكأَنَّ الْجِرْمَازَ منْ عَدَمِ الْأُنْسِ وَإِخْلاقِهِ بَنِيَّةُ رَمْسِ

وفي هذين البيتين دقة وخيال، وللقارئ أن يتأمل كيف صارت هذه الحلل: «أنضاء لبس» وكيف أمسى الجرماز وكأنه: «بنية رمس». فأما قوله:

لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَن اللَيَالِي　　　جَعَلَتْ فيه مَأْتَمًا بَعْدَ عُرْسِ

فهو غاية الغايات في بكاء المغاني، يتحكم فيها البلى، وتبطش بها أيدي العفاء. ونستجيد قول شوقي:

لَمْ يَرُعْنِي سِوَى ثَرىً قُرْطُبِيٍّ　　　لَمَسَتْ فيه عِبْرَةَ الدَّهْرِ خَمْسِي

ولمس العبرة من المعاني الدقيقة. وقد بلغ غاية الرفق، وهو يقول في تحية هذا الثرى:

يَا وَقَى الله مَا أُصَبِّحُ مِنْهُ　　　وَسَقَى صَفْوَةَ الْحَيَا مَا أُمَسِّي

ونستجيد كذلك قوله:

رَكِبَ الدَّهْر خَاطِري في ثَرَاهَا　　　فَأَتَي ذلِكَ الْحِمَى بَعْدَ حَدْسِ

يصف تلك البقعة بالدروس، ويذكر أنه ضل ولم يهتد إلا بعد أن ركب خاطره الدهر، ومع هذا لم يصل إلا بعد توهم وحدس، وتلك وثبة من وثبات الخيال.

ثم أخذ البحتري يصف ما في الإيوان من صور المعارك فقال:

فَـإذا مـا رَأَيْتَ صـورَةَ أَنْطـا　　　كِيَّةَ ارْتَعْتَ بَيْنَ رومٍ وَفُرْسِ
وَالْـمَـنَـايـا مَـواثِـلٌ وأَنَـوشِـرْوانْ　　　يُزْجِي الصُّفوفَ تَحْتَ الدِّرفْسِ
في اخْضرارٍ مِنَ اللِّباسِ عَلَى　　　أَصْفَرَ يَخْتالُ في صَبيغَةِ وَرْسِ
وَعِـراك الـرِّجـالِ بَـيْـنَ يَـدَيْـه　　　في خُفوتٍ منْهُمْ وَإِغماضِ جَرْسِ
مِنْ مُشيحٍ يَهْوِي بِعامِلِ رُمْحِ　　　وَمُـلِـيـحٍ مِـنَ الـسِّـنـانً بـتُـرْسِ
تَصِفُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا　　　ءَ لَـهُـمْ بَـيْـنَـهُـمْ إشارَةُ خُـرْسِ
يَـغْـتَـلـي فـيـهـمُ ارْتيَابِي حَتَّـى　　　تَـتَـقَـرَّاهُـمُـو يَـدَايَ بِـلَـمْـسِ

وهذه القطعة من أدق ما قيل في الوصف، بذكر أنه شهد في الإيوان صورة كسرى، وهو يحاصر أنطاكية وأنك لو رأيت هذه الصورة لارتعت من حملة الفرس على الروم، وكيف يرتاع المرء، وهو يشاهد صورة على الحائط؟ هذا هو وجه الحسن فهو يذكر أنك حين ترى هذه الصورة، لا يخطر ببالك أنها صورة، وإنما تحسب لصدق التصوير أنك في ميدان القتال، والمنايا مواثل أمامك، فيما أنوشروان يزجي الصفوف تحت اللواء. ولم يفته أن يصف ما على الجنود من ألوان الثبات، وما هم عليه من إيثار الخفوت، بين مشيح بالرمح، ومليح بالسنان، وانظر كيف يقول:

تَصِفُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا ... ءَ لَهُمْ بَيْنَهُمْ إشارَةُ خُرْسِ
يَغْتَلي فيهمُ ارْتيَابِي حَتَّى ... تَتَقَرَّاهُمُو يَدَايَ بِلَمْسِ

فهو يراهم جد أحياء، وإن لم يسمع لهم صوت؛ لأن في سماتهم ما يدل على اكتفائهم بالإشارة كما يكتفي الخرس، ثم يعود إلى نفسه فيذكر أنه أمام صورة، ثم يغلب على حسه فيرتاب فيما يراه: فيلمس الصورة بيده ليعرف أحقيقة هي أم خيال!، والمصور الحاذق هو الذي يسبغ على صوره أثواب الحياة. ولقد أذكر أني شهدت في أطلال الفراعنة بالأقصر صورة سمكة، ولم أكد أملأ منها عيني حتى خلتها تتقلب، وكذلك يسحر الفن الجميل.

ولقد نحا شوقي منحى البحتري في الوصف، وإن اختلف الموصوف، فقال وقد تجلت له تلك القصور:

وَكَأَنّي بَلَغْتُ لِلعِلْمِ بَيْتًا ... فيهِ مالُ العُقولِ مِنْ كُلِّ دَرْسِ
قُدُسًا في الْبِلادِ شَرْقًا وَغَرْبًا ... حَجَّهُ الْقَوْمُ مِنْ فَقيهٍ وَقَسِّ
وَعَلَى الْجُمْعَةِ الْجَلالَةُ و(النَّا ... صِرُ) نُورُ الْخَميسِ تَحْتَ الدّرِفْسِ
يُنْزِلُ التَّاجَ عَنْ مَفارِقِ (دونٍ) ... ويُحَلِّي بِه جَبينَ (الْبرْنِس)
سِنَةٌ مِنْ كَرىً وَطَيْفُ أَمانٍ ... وَصَحَا الْقَلْبُ مِنْ ضَلاَلٍ وَهَجْسِ
وَإِذَا الدَّارُ مَا بِهَا مِنْ أَنيسٍ ... وَإِذَا الْقَوْمُ مَا لَهُمْ مِنْ مُحسِّ
وَرَقيقٍ مِنَ الْبُيوتِ عَتيقٌ ... جاوَزَ الأَلْفَ غَيْرَ مَذْمُومِ حَرْسِ
أَثَرٌ مِن (مُحَمَّدٍ) وَتُراثٌ ... صارَ (لِلرُّوحِ) ذي الْوَلاءِ الأَمَسِّ

بَـلَـغَ الـنَّـجْـمَ ذِرْوَةً وَتَـنـاهَـى   بَيْنَ (ثَهْلانَ) في الأَساسِ و(قُدْسِ)
مـرْمَـرٌ تَـسْـبَـحُ الـنـوَاظِـرُ فِـيـه   وَيَطُولُ المَدَى عَلَيْهَا فَتُرْسِي
وَسَـوَار كَـأَنَّـهَـا فـي اسْـتـوَاءٍ   أَلِفَاتُ الْوَزِيرِ في عَرْضِ طرْسِ
فَتْرَةُ الدَّهْرِ قَدْ كَسَتْ سَطَرَيْها   ما اكْتَسَى الهُدْبُ مِنْ فُتورٍ وَنَعْسِ
وَيْـحَـهـا كَـمْ تَـزَيَّـنَـتْ لِـعَـلـيـمٍ   واحِدِ الدَّهرِ وَاسْتَعدَتْ لِخَمْسِ
وَكَأَنَّ الّرَفيفَ في مَسْرَحِ العَيْـ   ـنِ مُلاءٌ مُدَنَّراتُ الدِمَقْسِ
وَكَـأَنَّ الآيَـاتِ فـي جـانِـبَـيْـهِ   يَتَنَزَّلْنَ مِنْ مَعارِجِ قُدْسِ
مِنْبَرٌ تَحْتَ (مُنْذِرٍ) مِنْ جَلالٍ   لَمْ يَزَلْ يَكْتَسيهِ أَو تَحْتَ قُسِّ
وَمَـكَـانُ الْـكِـتَـابِ يُـغْـرِيـكَ رَيًّـا   وَرْدِه غَـائِـبًـا فَـتَـدْنُـو لِـلَـمْـسِ

وهذه القطعة على طولها لا تسمو إلى ما وصلت إليه النفثة البحترية من فتنة القلب والوجدان، ولعل السر في هذا أن البحتري وجد في الإيوان صورة الحرب بين الفرس والروم، وصورة الحرب يهز النفس، وتثير ما كمن فيها من عناصر القوة والفتوة. أما شوقي فقد وجد بالقصر آيات من القرآن، لم يذكر أكانت في وصف الجنة، أم في الدعوة إلى القتال؟ والفن الذي يستمد قوته من الأصول الدينية، الوادعة الهادئة، لا يصلح إلا للكهول، والويل للأمم إذا لم تغلب عليها نزعات الفروسية، ولم يستبد بها ما في الشباب من نشاط وجنون.

وما أبعد الفرق بين قول البحتري:

والـمـنـايـا مَـوَاثِـلٌ وَأَنُـوشِـروانْ   وَأنُ يُزْجِي الصُّفُوفَ تَحْتَ الدِّرَفْس

وبين قول شوقي:

وَعَلَى الْجُمْعَةِ الْجَلالةُ و(النَّا   صِرُ) نُورُ الْخَمِيسِ تَحْتَ الدّرِفْسِ

وشوقي يصف ما رآه، فلا لوم عليه ولا تثريب، وصدق من قال:

فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رَمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّت

وقد لا نجد في هذا العصر من يسمح بأن توضع في المساجد والمعابد صور المعارك والحروب. ولم يظلم أحد أهل الشرق، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون: فقد حولوا جهودهم العلمية والفنية إلى الآخرة، كما بينا ذلك في كتاب «الأخلاق عند الغزالي»، وتركوا الدنيا لمن هم أحق بها من شياطين الغرب، وحيا الله أولئك الشياطين، فهم ملائكة هذا الجيل، وإن رذائل القوة لخير من فضائل الضعف، لو يعلم الشرقيون.

ولشوقي أن يذكر أن جلالة الدين كانت لذلك العهد من أقوى البواعث على حراسة الملك، ولم تكن صورة رسمية يستبق إليها طلاب الرزق، وللرزق أبواب! يدل على هذا قوله:

سِنَةٌ مِنْ كَرىً وَطَيْفُ أَمَانٍ وَصَحَا الْقَلْبُ مِنْ ضَلاَلٍ وَهَجْسِ
وَإِذَا الدَّارُ مَا بِهَا مِنْ أَنيسٍ وَإِذَا الْقَوْمُ مَا لَهُمْ مِنْ مُحسِّ

فهو يأسى على أن تبين أن ذلك الحرم ومن فيه من الملوك، وما فيه من آثار العقول، ليس إلا سنة من الكرى، وطيفًا من الأماني.

ويعجبني قوله في وصف القصر:

مرْمَرٌ تَسْبَحُ النوَاظِرُ فِيه وَيَطُولُ المَدَى عَلَيْهَا فَتُرْسِي
وَسَوَار كَأَنَّهَا في اسْتوَاءٍ أَلِفَاتُ الْوَزِيرِ في عَرْضِ طرْسِ

وإن كان تشبيه سواري القصر بألفات ابن مقلة فيه شيء من الضعف إذ كان جمال الخط لا يتعدى الحسن إلى الجلال، والفرق بعيد بين الحس الفاتن، والجمال الرائع، فجمال النهر في الليالي المقمرة فيه حسن وفتنة، وفيه أيام السرار، روعة وجلال.

وقول شوقي:

وَمَكَانُ الْكِتَابِ يُغْرِيكَ رَيًّا وَرْدِه غَائبًا فَتَدْنُو لِلَمْسِ

مأخوذ من قول البحتري:

يَغْتَلي فيهمُ ارْتيَابِي حَتَّى   تَتَقَرَّاهُمُو يَدَايَ بِلَمْسِ

وبيت البحتري أجود في معناه، وهو كذلك يقتضيه السياق، أما بيت شوقي فهو في مكانه غريب.

وقول شوقي بعد ذلك الوصف:

صَنْعَةُ (الدَّاخِلِ) المُبارَكِ في الْغَرْ   بِ وَآلٍ لَـهُ مَـيـامـيـنَ شُـمْـسِ

فيه ضعف، وكأنه لم يقله إلا على سبيل التكملة، وما أغنى الشعر عن مثل هذا التذييل!!

الفصل الثامن عشر

الفصل بين البحتري وشوقي

رأينا كيف وصف البحتري ما رآه في الإيوان من رسم المواقعة بين الفرس والروم، ونذكر الآن أنه انتقل من ذلك الوصف إلى الحديث عن تلك الكأس الروية التي اصطبح بها في الإيوان، فقال:

قَدْ سَقَاني وَلَمْ يُصَرِّدْ أَبو الْغَوْ ... ثِ عَلَى الْعَسْكَرَيْنِ شَرْبَةَ خَلْسِ
مِنْ مُدَامٍ تَقُولُهَا هِيَ نَجْمٌ ... أَضْوَأ اللَّيْلِ، أَوْ مُجَاجَةُ شَمْسِ
وتــراهــا إذا أجَـدَّت سُــرورًا ... وَارْتياحًا لِلشَّارِبِ المتَحَسِّي
أُفْرِغَتْ في الزُّجَاجِ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ ... فَهي مَحْبُوبةٌ إلى كُلّ نفْس
وَتَوَهَّمْتُ أَنَّ كِسْرَى إِبَرْويـ ... ـزَ مُعاطِيَّ وَالْبَلَهْبَذُ أُنْسي
حُلُمٌ مُطْبِقٌ عَلَى الشَّكِّ عَيْني ... أَمْ أَمانٍ غَيَّرْنَ ظَنِّي وَحَدْسِي

وهذه القطعة لا تجد ما يقابلها في سينية شوقي؛ لأن صاحب الشوقيات لم يزر أطلال الحمراء؛ ليغرق همومه هناك في أكواب الشمول، كما فعل البحتري وهو يزور الإيوان، فكان لنا أن ندرس هذه الأبيات على سبيل الاستطراد، إذ لا تقتضيها الموازنة، ولا يدعو إليها التفضيل، ونحن نستملح قوله:

مِنْ مُدَامٍ تَقُولُهَا هِيَ نَجْمٌ ... أَضْوَأ اللَّيْلِ، أَوْ مُجَاجَةُ شَمْسِ

ووصف الخمر بمجاجة الشمس فيه شيء من روعة الخيال، وعجز هذا البيت يشفع لصدره، وقد تدخل اللفظة في شفاعة اللفظات، ويمر البيت في خلال الأبيات، كما يقول صاحب زهر الآداب، وكذلك نستجيد قوله في وصف تلك الصهباء:

وتـراهـا إذا أجَـدَّت سـرورًا وارتياحًا للشارب المتحسّي
أُفْرِغَتْ في الزُّجَاجِ مِنْ كُلّ قَلْبٍ فَهي مَحْبُوبةٌ إلى كُلّ نفْس

ولك أن تتأمل كيف يرنو الشارب المتحسي إلى المدام، ثم يخالها أفرغت في الزجاج من كل قلب! ولا تنس أنه يقول: (من كل قلب) وأنها لذلك (محبوبة إلى كل نفس)، فإن لهذا الشمول والتعميم معنى يروع أصحاب الأذواق من علماء المعاني. وانظر كيف دارت الخمر بعد ذلك برأس البحتري فتوهم — ومن ذا الذي لا يتوهم وهو في مثل حاله! — أن كسرى نديمه، والبلهبذ أنيسه، وكيف ثاب إلى رشده، وأخذ يفكر أهو في حلم أطبق عينيه على الشك، أم هي أمان غيرن ظنه وحدسه! وفي هذا الترديد ما فيه من تمثيل الحيرة والارتياب في رأس المتعقل النشوان.

ثم عاد إلى وصف الإيوان فقال:

وَكَأَنَّ الإيوانَ مِنْ عَجَبِ الصَّنْـ ـعَة جَوْبٌ في جَنْبِ أَرْعَنَ جلْس
يَتَظَنَّى مِنَ الكآبَة أَنْ يَبْـ ـدُو لِعيْنَيْ مُصبِّحٍ أو مُمَسِّي
مُزْعَجًا بِالْفِراقِ عَنْ أُنْسِ إِلْف عَزَّ أَوْ مُرْهَقًا بتَطْلِيق عِرْسِ
عكَسَتْ حَظَّهُ اللّيالي وَباتَ الـ ـمُشتَرِي فيهِ وَهو كوْكبُ نَحسِ
فَـهـوَ يـبْـدِي تَـجَـلُّدًا وَعَـلَـيْـهِ كَلْكلٌ مِنْ كَلاكِلِ الدَّهْرِ مُرْسِي
لمْ يَعِبْهُ أَنْ بُزَّ مِنْ بُسُطِ الدّيـ ـباجِ وَاستُلّ من سُتورِ الدِّمَقْسِ
مُـشْـمَـخِـرٌّ تَـعْـلُـو لَـهُ شُـرُفَـاتٌ رُفِعَتْ في رُءوس رَضْوى وَقُدْسِ
لابِسَاتٌ من البَيَاضِ فَمَا تُبْـ ـصِرُ منـهـا إلاّ غَـلائلَ بُـرْسِ
لَيسَ يُدرَى أصُنْعُ إنْسٍ لجنٍّ سَكَنوهُ أمْ صُنعُ جنٍّ لإنْسِ
غَيرَ أنّي أرَاهُ يَشْهَدُ أنْ لَمْ يَكُ بَانيهِ في المُلُوكِ بنِكْسِ

وفي هذه القطعة نجد البحتري يتمثل الإيوان في صورة المحب أترعت الليالي كأسه بأنس أليفه، ثم أزعجته بالفراق والعروس أصفاه الدهر حلاوة الوصل، ثم أرهقه بالطلاق، ويراه يتظنى من الكآبة أن يبدو لعيني من يطالعه عند الصباح، أو عند المساء، وكيف لا يكون كذلك وقد عكست حظه الليالي، فأصبح مثار الشجى، ومبعث الأسى، بعد أن كان من مرابع الغزلان، وملاعب الحور الحسان!! وانظر كيف يقول:

فَـهـوَ يـبْدِي تَـجَلُّدًا وَعَلَيْهِ كَلَّكلٌ مِنْ كَلاَكِلِ الدَّهْرِ مُرْسِي

وفي هذا البيت صورة رائعة لذلك الإيوان الذي صوره البحتري «كائنًا حيًّا» أناخ الدهر عليه بكلكله، فأراه كيف تكون مضاضة الذل بعد نضارة العز، وكيف يكون العدم بعد الوجود. وللشاعر في الديار الخالية وقفات تبعث ميت الوجد، وتثير دفين الإحساس، فإن كانت في ريب من ذلك فحدثني أي شيطان، أو أي ملاك، أوحى إلى البحتري: أن الإيوان أصبح — وقد استُلت ستور الدمقس وبسط الديباج — شبيهًا بالغادة الحسناء نزع عنها البؤس ما كانت تملك من الثياب، فأضحت متجردة تدعوك إلى الرحمة حينًا وتعريك بالفتون أحيانًا؟ ونحن نعيذ القارئ أن يرمينا بالغلو والإسراف، فهذا والله ما نفهمه من قول البحتري:

لمْ يَعِبْهُ أنْ بُزّ منْ بُسُطِ الدّيـ ـباجِ وَاستُلّ من سُتورِ الدِّمَقْسِ

وكذلك نزع الدهر ما كان بالإيوان من عارض التهاويل، وخلاه كالعادة المتجردة لا تدري أكان تجردها من قسوة الفقر، أم من سكر الدلال ... وما نريد أن نزيد! وللقارئ أن يتأمل حسن الأداء في قوله:

عكَسَتْ حَظَّهُ اللّيالي وَباتَ الـ ـمُشتَرِي فيهِ وَهو كوْكبُ نَحسِ

فإنه لم يقل: «بات المشتري فيه كوكب نحس»، وإنما قال: «بات المشتري فيه، وهو كوكب نحس». وكلمة: «وهو» لها ما لها من الفضل في تأكيد المعنى وتقريره، عند علماء المعاني ... وكذلك قوله فيما صارت إليه شرفات الإيوان:

لابسَاتٌ من البَيَاضِ فَمَا تُبْـ ـصِرُ منها إلاّ فَلائلَ بُرْسِ

فإن كلمة «من» لها هنا موقع جميل، وهي أدل على التقليل من التنوين! ... أما قوله:

لَيسَ يُدرَى أصُنْعُ إنْسٍ لجنٍّ سَكَنوهُ أمْ صُنعُ جنٍّ لإنْسِ

فهو من عيون هذه القصيدة، والعرب ينسبون إلى الجن صنع كل عجيب، وهي خرافة قديمة، تزخر بها الأساطير، وهي كذلك مورد من موارد الخيال — وكان من المستهجن أن يعقب البحتري هذا البيت الفرد بقوله:

غَيرَ أنّي أرَاهُ يَشْهَدُ أنْ لَمْ يَكُ بَانيهِ في المُلُوكِ بنِكْسِ

وهو بيت ضعيف بينه وبين سابقه بون بعيد ... وقد عاد إلى وصف ما في الإيوان، فقال:

فَكَأنّي أرَى المَرَاتبَ والقَوْ مَ، إذا ما بَلَغتُ آخرَ حسّي
وَكَأنّ الوُفُودَ ضاحينَ حَسرَى من وقُوفٍ خَلفَ الزِّحامِ وَخُنْسِ
وَكأنّ القِيَانَ، وَسْطَ المَقَا صِيرِ، يُرَجّحْنَ بينَ حُوٍّ وَلُعسِ
وَكَأنّ اللّقَاءَ أوّلُ مِنْ أمْـ ـسِ، وَوَشْكَ الفرَاقِ أوّلُ أمْسِ
وَكَأنّ الذي يُرِيدُ اتّبَاعًا طامعٌ في لُحوقهمْ صُبحَ خمسِ
عَمَرَتْ للسّرُورِ دَهْرًا، فصَارَتْ للتّعَزّي رِبَاعُهُمْ، وَالتّأسّي
فَلَهَا أنْ أُعِينَهَا بدُمُوعٍ، مُوقَفَاتٍ عَلى الصَّبَابَةِ، حُبْسِ

ولهذه الأبيات روعة يحسها من شهد من التصوير الصادق مثل ما شهد البحتري في أعطاف الإيوان. والبحتري بهذا الوصف فنان، يقول على علم ويعرف ما يعني، ولك أن تتأمل كلمة «كأن» موقعها الجميل في قوله:

وَكَأنّ الوُفُودَ ضاحينَ حَسرَى من وقُوفٍ خَلفَ الزِّحامِ وَخُنْسِ

وقوله:

وَكأنّ القِيَانَ، وَسْطَ المَقَا صِيرِ، يُرَجّعنَ بينَ حُوٍّ وَلُعسِ

وقوله:

وَكَأنّ اللّقَاءَ أوّلُ مِنْ أمْـ ـسِ، وَوَشْكَ الفرَاقِ أوّلُ أمْسِ

وقد دللت القارئ على مواطن الحسن في هذه القصيدة، فلينهل بعد ذلك من رحيقها كما يشاء.

نفثة شوقي

أما شوقي فقد أخذ يبكي الحمراء بعد وصفها فقال:

مَـنْ لِـحـمـراءَ جُـلّـلَـت بِـغُـبَـار
الـدهـرِ كَـالـجُـرحِ بَـيْـنَ بُـرْءٍ وَنُـكْسِ
كَسنَـا البَرقِ لو مَحَـا الضَّـوءُ لَحْظًا
لَـمَحَـتْـهـا الـعُـيُـون مِـن طُـول قَـبـسِ
حِـصـنٌ غِـرنَـاطَـة وَدَارُ بَـنِـي الْأحْـمَـرِ
مِـن غَـافِـلٍ ويَـقـظَـان نَـدْسِ
جَـلـلَ الـثَّـلـج دُونَـهَـا رَأسَ شِـيـرى
فَـبَـدَا مِـنْـه فـي عَـصَـائِـب بِـرْسِ
سَـرْمـدٌ شَـيْـبُـه ولَـم أرَ شَـيـبًـا
قَـبْـلَـه يُـرجـئ الـبَـقَـاء ويُـنْـسِـي
مَشَت الحَادِثَات في غُرَف الحَمْـ (الحمراء)
ـرَاء مَـشْـي الـنَّـعِـيِّ فـي دَار عُـرسِ
هَـتَـكـت عِـزَّة الـحِـجَـاب وَفَـضَّـت
سُـدَّة الـبَـاب مِـنْ سَـمـيـرٍ وأُنـسِ

عَـرَصَـاتٌ تَـخَـلَّـت الـخَـيْـل عَـنْـهَـا
واسْـتَـرَاحَـت مِـن احـتِـرَاسٍ وعَـسِ
ومَـغَـان عَـلَـى الـلـيَـالـي وِضَـاءٌ
لَـم تَـجِـد لِـلـعَـشِـيِّ تَـكْـرَار مَـسِّ
لا تَرَى غَيْر وَافِدينَ على التَّاريخ
سَـاعِـيـن فـي خُـشُـوعٍ وَنَـكـسِ
نَـقَّـلـوا الـطَّـرْف فـي نَـضَـارَة آسٍ
مِـن نُـقُـوش وَفـي عُـصَـارة وَرْسِ
وَقِـبَـابٍ مـن لاَزَوَرْد وَتِـبْـرٍ
كـالـرُّبـا الـشُّـمَّ بَـيْـنَ ظـلٍّ وشَـمـسِ
وخُـطُـوط تَـكَـفَّـلَـت لِـلـمَـعَـانِـي
ولأَلـفَـاظِـهَـا بِـأَزْيَـن لُـبـسِ
وَتَـرَى مَـجْـلِـس الـسِّـبَـاع خَـلاءً
مُـقْـفـر الـقَـاع مِـن ظِـبـاءٍ وخُـنـسِ
لا الـثُّـرَيَّـا ولا جَـوارِي الـثُّـرَيَّـا
يَـتَـنَـزَّلـن فِـيـه أَقْـمـار أُنـسِ
مَـرْمـرٌ قَـامَـت الأُسُـود عَـلَـيْـه
كَـلَّـةَ الـظـفْـر لَـيِّـنَـات الـمـجَـسِ
تَـنْـثُـر الـمَـاء فـي الـحِـيَـاض جُـمَـانًـا
يَـتـنَـزَّى عَـلَـى تَـرَائِـب مُـلْـسِ

وفي هذه الكلمة نرى شوقي يتمثل الحمراء، وهي مجللة بغبار الدهر، وهذا خيال رائع، ولكنه ليس بكثير على شوقي، فقد ألف الحديث عن أسرار الحياة وطبائع الوجود، وكلف منذ بعيد بالإبانة عن عدوان الحوادث، والإفصاح عن عسف الخطوب، ويكاد يستنطق الموت، وهو يتحدث عن مصير من استراحوا من دار الختل والنفاق ... وانظر كيف يذكر أن الحمراء أصبحت كالجرح بين برء ونكس، وهذا أصدق تصوير لذلك الأثر الذي يحج إليه أحفاد بأنه، فبعدونه ويمنونه، لو تنفع الأماني، أو تصدق الوعود،

ومن ذا الذي لم يفكر في نكبة الحمراء، ولم يتمن لو يصبح وهو خليفة ابن زياد؟ ولكن أين فتوة العرب؟ وأين شباب الزمان؟

وللقارئ أن يتصور كيف مشت الحادثات في غرف الحمراء مشي النعي في دار عرس، فهذا أيضًا خيال رائع، وهو مأخوذ من قول أبي نواس:

فَتَمَشَّت في مَفَاصِلِهِم كتَمَشَي البُرْءِ في السَقم

ما لنا ولهذا التكلف؟ فقد ذكر النقاد أن أبا نواس كذلك مسبوق، على أن تشبيه هتك الحوادث لأستار الحمراء بهتك النعي لدار العرس، أروع من تشبيه أثر خمر في مفاصل الندامى بأثر البرء في جسم السقيم، وقول شوقي:

مَشَت الحَادِثَات في غُرَف الحَمْـ (الحمراء)
ـــرَاء مَـشْـي الـنَّـعِـيِّ فـي دَار عُـرسِ
هَـتَـكـت عِـزَّة الـحِـجَـاب وَفَـضَّـت
سُـدَّة الـبَـاب مِـنْ سَـمـيـرٍ وأُنـسِ

فيه روعة، وفيه جلال، فهو يصور بطش الحوادث بالحمراء، ويصور مع هذا ما كان للحمراء من عزة وسلطان ... أما قوله:

وَتَرَى مَجْلِس السِّبَاع خَلاءً مُقْفر القَاع مِن ظِباءٍ وخُنسِ
لا الثُّرَيَّا ولا جَوارِي الثُّرَيَّا يَتَنَزَّلن فِيه أَقْمار أُنسِ

فهو وصف انفرد به، ولم يعرض لمثله البحتري، وكان عجبًا أن يغفل عن إيراده، فإن القصور الخالية تذكر الإنسان فيما تذكر بمن كان يرتع فيها ويلعب، من كل ممشوقة القد، مجدولة الخلق، مصقولة الجبين.

خروج العرب من الجنة

وقد انفرد شوقي كذلك بالحديث عن خروج العرب من الجنة، ولا أعبر بغير ذلك، فقد كان شعراء الأندلس يتغنون بذلك الفردوس، ويرونه حسبهم من نعم الآخرة والأولى، ولقد نظر شوقي إلى خروجهم نظرة مملوءة بالدمع حين قال:

آخَرَ العَهدِ بِالجَزيرَةِ كانَت ... بَعدَ عَركٍ مِنَ الزَمانِ وَضَرسِ
فَتَراها تَقولُ رايَةُ جَيشٍ ... بادَ بِالأَمسِ بَينَ أَسرٍ وَحَسِّ
وَمَفاتيحُها مَقاليدُ مُلكٍ ... باعَها الوارِثُ المُضيعُ بِبَخسِ
خَرَجَ القَومُ في كَتائِبَ صُمٍّ ... عَن حِفاظٍ كَمَوكِبِ الدَفنِ خُرسِ
رَكِبوا بِالبِحارِ نَعشًا وَكانَت ... تَحتَ آبائِهِم هِيَ العَرشُ أَمسِ
رُبَّ بانٍ لِهادِمٍ وَجَموعٍ ... لِمُشِتٍّ وَمُحسِنٍ لِمُخِسِّ
إِمرَةُ الناسِ هِمَّةٌ لا تَأَنّى ... لِجَبانٍ وَلا تَسَنّى لِجِبسِ
وَإِذا ما أَصابَ بُنيانَ قَومٍ ... وَهيُ خُلقٍ فَإِنَّهُ وَهيُ أُسِّ

ومع أن شوقي أشار كما ترى في هذه الأبيات إلى أن ضعف العرب في أخريات أيامهم كان السبب في خروجهم من تلك البلاد، إذ كانت إمرة الناس لا تتسنى لجبس، ولا تتأتى لجبان، فقد أشار كذلك برفق إلى أن عهدهم لم ينقض إلا بعد عرك من الزمان وضرس. والحق أن فتح العرب للأندلس كان من الأحداث الخطيرة، وكان من الطبيعي أن تدور عليهم الدائرة، وأن يحل بهم ما حل بالفرس والروم. ولا تذكر ما شب في صدورهم من نار العداوة والبغضاء، ولا ما شجر بينهم على الملك من خلاف، ولا ما انغمسوا فيه من اللذات والشهوات، ولكن اذكر أنهم كانوا يحتلون بلادًا لا زال أهلها يفكرون في الحرية ويحلمون بالاستقلال، والأمة الضعيفة لا تضرب عليها الذلة والمسكنة أبد الآبدين، كما يتوهم الفاتحون، وإنما يظل ضعفها يفتك بالغاصبين في خفاء، كما تفتك على ضعفها الجراثيم، ثم ينتفض هذا الضعف فجأة، فإذا هو قوة جارفة تسقط من بأسها الممالك، وتطيح من هولها العروش. فإن كنت في ريب من ذلك فحدثني ماذا صنع العرب بالشعوب التي ملكوها باسم الدين! ألم تثأر تلك الشعوب لنفسها من الدين؟ ألم يهجموا عليه بجيش من الوساوس والخرافات والأضاليل والأباطيل حتى صيروه كالخرقة البالية لا تصلح لزينة، ولا ستر ولا وقاية؟

اسمع يا صاح! القوة هي كل شيء في الوجود، والقوة فوق الحق، فإن أردت أن تحيا فتسلح لهذه الحياة، والقوة هي السلاح، ومن قال بغير ذلك فهو في حاجة إلى استشارة الطبيب!

وكذلك كان العرب، فلقد ركبوا البحر وهم أقوياء، فكان عرشًا، وركبوه وهم ضعفاء فكان نعشًا، وما تغير البحر، ولكن تغير الناس، ركبوه أول مرة وهم فاتحون، ثم ركبوه آخر مرة وهم هاربون، وما أبعد الفرق بين الفتح والفرار!

ثم قال شوقي في توديع تلك الديار:

يا دِيارًا نَزَلتُ كَالخُلدِ ظِلًّا	وَجَنىً دانِيًا وَسَلسالَ أُنسِ
مُحسِناتِ الفُصولِ لا ناجِرٌ فيـ	ـها بِقَيظٍ وَلا جُمادى بِقَرسِ
لا تَحِشُّ العُيونُ فَوقَ رُباها	غَيرَ حورٍ حُوِّ المَراشِفِ لُعسِ
كُسِيَت أَفرُخي بِظِلِّكِ ريشًا	وَرَبا في رُباكِ وَاشتَدَّ غَرسي
هُم بَنو مِصرَ لا الجَميلُ لَدَيهِمْ	بِمُضاعٍ وَلا الصَنيعُ بِمَنسي
مِن لِسانٍ عَلى ثَنائِكِ وَقفٌ	وَجَنانٍ عَلى وَلائِكِ حَبسِ
حَسبُهُم هَذِهِ الطُلولُ عِظاتٍ	مِن جَديدٍ عَلى الدُهورِ وَدَرسِ
وَإِذا فاتَكَ اِلتِفاتٌ إِلى الما	ضي فَقَد غابَ عَنكَ وَجهُ التَأَسّي

وما أريد الخوض في تحليل هذه الأبيات، فقد طال الحديث، إنما أذكر أننا غنمنا هذه القصيدة من حياة شوقي في الأندلس، وغنمنا معها «قطعة خشب» من قصر الحمراء تجدها في متحف الشاب المهذب حسين شوقي، ويا ليتنا نحرص على ما بقي في أيدينا من ملك العرب والمسلمين ...!

وسيذكر القارئ بعد هذا كله أني أوازن بين البحتري وشوقي، وسيسأل أيهما أشعر؟ وأنا أرجوه أن يراجع الموازنة ليحكم بما يشاء.

أما أنا فقد حكمت، والسلام[١].

---

[١] بمناسبة سينية البحتري يحسن أن نشير إلى أن الشاعر محمد الهراوي وضع قصيدة سينية عن أبي الهول كان فيها معنى المعارضة للبحتري، وإن لم يقل ذلك، وهي قصيدة جيدة، نختار منها قوله:

نسي الناس يا أبا الهول أنا　　أمة كالحديد صلب المجسِّ
لم يعبنا أنا بلتنا شعوب　　وبلّوْنا الشعوب من كل جنس
كل من ساءنا أذقناه سوءًا　　بيد الله كل كأس بكأس
فاسألوا الروم ما دهى الروم فينا　　واسألوا الفرس عن مصاب الفرس
أمم تلك ذات ناب وضرس　　قد مضغنا ما بين ناب وضرس
فنيت كلها نحن بقينا　　من حمى الله في حظيرة قدس

وللهراوي قصيدة أخرى سينية هي بلا شك من وحي البحتري، وهي قصيدته التي وقف بها على دار الشيخ محمد عبده في عين شمس، وكان من الحتم أن نشير إلى ذلك لنبين كيف سرت أنفاس البحتري إلى شعراء هذا الجيل.

الفصل التاسع عشر

البوصيري وشوقي

للبوصيري قصيدة مشهورة تسمى «البدرة» عارضها شوقي بقصيدة سماها «نهج البردة»، وقد رأينا أن نوازن بين هاتين القصيدتين؛ لنقف على مبلغ البوصيري وشوقي من العلم بأسرار الإسلام، وقد عُني هذان الشاعران بدرس الشريعة لإظهار ما فيها من المحاسن، ودرء ما يوجه إليها من الشبهات، وسيكون موقفنا في درس هاتين القصيدتين موقف المؤرخ، وقد تؤرخ الأفكار كما يؤرخ الأشخاص، وحسبنا أن ندل القارئ على مواطن الضعف فيما صبغ من الأفكار بصبغة إسلامية، وللقارئ بعد ذلك رأيه، فإن شاء مضى في البحث والتنقيب، وإن شاء رضي واكتفى بما عليه عامة الناس، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

حياة البوصيري

هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج. كان أحد أبويه من (أبو صير) والآخر من (دلاص) فركبت له منهما نسبه، وقيل: (الدلاصيري) لكنه اشتهر بالبوصيري، وكان يعاني صناعة الكتابة والتصرف ويباشر الشرقية ببلبيس[1].

والبوصيري شاعر مصري ظريف من شعراء القرن السابع تجري في شعره النكت المستملحة، وله في شكوى حاله والتذمر من الموظفين قصائد لا تخلو من ذكاء، وفي شعره وصف للحالة الاجتماعية في عصره، وأحسبه من الصادقين، فهو يذكر أن

[1] توفي البوصيري سنة ٦٩٥هـ وله قبر مشهور في الأسكندرية، يتصل به مسجد كبير تدرس به العلوم الدينية.

الموظفين كانوا يسرقون الغلال، وأنه لولا ذلك ما لبسوا الحرير، ولا شربوا الخمور، وأن من الكتاب طائفة تنسكت وعُدت من الزهاد مع أنها تملأ بطونها بالسحت، وتأكل مال اليتيم، ويذكر أن القضاة خانوا الأمانة، وبرروا خيانتهم بتأويل القرآن والحديث، ويذكر أن المسلمين والأقباط كانوا مختلفين، فكان المسلمين يقولون: لنا بمصر حقوق، ونحن أولى الآخذين، وكان القبط يقولون: نحن ملوك مصر، ومن سوانا هم الغاصبون، وكان اليهود يستحلون مال الطوائف أجمعين.

وفي ذلك يقول:

نَقَدتُ طوائفَ المُستخدمينا ... فلم أرَ فيهمُ رجلًا أمينا
فقد عاشرتهمْ ولبثتُ فيهمْ ... مع التجريبِ من عمري سِنِينا
فكُتَّابُ الشَّمالِ همو جميعًا ... فلا صَحِبَتْ شِمالُهُمُ اليَمِينا
فَكَمْ سَرقُوا الْغِلالَ وما عَرَفْنا ... بهم فكأنَهْم سرقوا الْعُيْونا
ولولا ذاك ما لَبِسُوا حريرًا ... ولا شَرِبُوا خُمُورَ الأندَرينا
ولا رَبَّوا من المردانِ مُردًا ... كَأَغْصانٍ يَقُمْنَ وَيَنْحَنِينا
وَقَدْ طَلَعَتْ لِبَعْضِهِمُ ذُقونٌ ... ولكِنْ بَعْدَما حَلقُوا ذُقونا
وَأَقْلامُ الجَماعَةِ جائِلاتٌ ... كأَسْيَافٍ بأَيْدِي لاعِبِينا
وقد ساومْتَهُمْ حَرْفًا بحَرْفٍ ... وكلُّ اسْمٍ يَحُطوا مِنه سينا
أَمولَايَ الوَزير غَفَلتَ عَمَّا ... يُتِمُّ مِنَ اللّئام الكَاتِبِينَا
تَنَسَّك مَعشَرٌ مِنهُم وَعُدُّوا ... مِن الزُّهَّاد والمتُتَوَرِّعينا
وَقِيلَ لَهُمْ دُعاءٌ مُسْتَجابٌ ... وَقَدْ مَلَئُوا مِنَ السُّحْتِ البُطُونا
تَفَقَّهَتِ القُضاةُ فَخانَ كُلٌّ ... أَماَنَتَهُ وَسَمَّوْهُ الأمِينا
وما أَخْشَى عَلَى أَمْوالِ مِصْرٍ ... سِوَى مِنْ مَعْشَرٍ يَتَأَوَّلُونا
يَقُولُ المُسْلِمُونَ لَنا حُقوقٌ ... بها ولَنَحْنُ أَوْلَى الآخِذِينا
وقَالَ الْقِبْطُ نحنُ ملوكُ مصرٍ ... الْمُلُوكُ وإنْ سوَاهُمُو هُم غاصِبُونا
وَحَلَّلتِ الْيَهُودُ بِحِفظِ سَبْتٍ ... لَهُمْ مَالَ الطَوائِفِ أَجْمَعِينا
وما ابنُ قُطَيَّبةٍ إلاَّ شَرِيكٌ ... لهُمْ في كُلِّ مَا يَتَخَطَّفُونا
أغارَ عَلَى قُرَى (فَاقوسَ) مِنْهُ ... بِجَوْرٍ يَمْنَعُ النَّوْمَ الجُفُونا
وَصَيَّرَ عِيْنَها حِمْلًا وَلكِنْ ... لِمَنْزِلِهِ وَغَلَّتَها خَزِينا

وَأَصْبَحَ شُغْلُهُ تَحْصِيلَ تِبْرٍ ... وكانَتْ رَاؤُهُ مِنْ قبْلُ نُونا
وَقَدَّمَهُ الَّذِينَ لَهُمْ وُصُولٌ ... فَتَمَّمَ نَقْصَهُ صِلَةُ اللذينا
وفي دَارِ الْوِكالَةِ أَيُّ نَهْبٍ ... فَلَيْتَكَ لَوْ نَهَبْتَ النَّاهِبِينا
فَقَام بِهَا يَهُودِيَّ خَبِيث ... بَسُوم المُسْلمين أذىً وهونا
إذَا أَلْقَى بِها مُوسى عَصاهُ ... تَلَقَّفَتِ الْقَوَافِلَ والسَّفِينا
وَشَاهِدُهُمْ إذَا اتُّهِمُوا يُؤَدِّي ... عَنِ الْكُلِّ الشَّهَادَةَ وَاليَمِينا

وهذه القطعة ذكرها صاحب فوات الوفيات من قصيدة طويلة يذكر أنها كانت مشهورة، وشهرتها فيما نرى لا ترجع إلى قيمتها الأدبية؛ لأنها قصيدة ضعيفة تغلب عليها الابتذال، وإنما ترجع شهرتها إلى ما فيها من التنديد بالموظفين، والناس يبغضون الموظفين حين يعرفون بالطمع والاستبداد. ولهذه القصيدة قيمتها من الوجهة التاريخية، فهي شاهد على اختلاف الطوائف في مصر وعلى ما كان يجري إذ ذاك بين المسلمين والنصارى واليهود، وهي كذلك شاهد على عيوب الإدارة في ذلك الحين.

ومن شعر البوصيري فيما يجري مجرى الدعابة قوله في الحديث عن جارية راودها عن نفسها فأنكرت عليه الشيب والضعف:

أَهَوىً والمَشيبُ قَد حال دُونه ... والتَّصَابي بَعدَ المَشِيبِ رُعُونَهْ
أبَتِ النَّفْسُ أنْ تُطِيعَ وقالَتْ: ... إنَّ حبيَّ لا يدخل القنينهْ
كَيف أعصِي الهَوَى وطينَة قَلبي ... بالهَوَى قَبْلَ آدمَ مَعْجُونَهْ
سَلَبَتْهُ الرُّقَادَ بَيْضة خِدْرٍ ... ذاتُ حُسْنٍ كالدُّرَّة المَكْنُونَهْ
سُمْتُها قُبْلَة تُسَرُّ بها النَّفْـ ... ـسُ فقالت: كذا أكونُ حزينهْ
قُلْتُ لا بُدَّ أنْ تسِيري إلى الدَّ ... ارِ فقالتْ: عسى أنا مجنونهْ
قلتُ سيري فإنَّني لَك خيرٌ ... مِنْ أب رَاحمٍ وَأُمٍّ حَنُونَهْ
أنَا نعم القَرينِ إنْ كُنتِ تَبغيـ ... ـينَ حلالًا وأنتِ نعمَ القرينهْ
قالتِ اضرِبْ عَن وَصلِ مِثلي صَفحًا ... واضرب الخلَّ أو يصيرَ طحينهْ
لا أرَى أن تَمَسَّني يَدُ شَيخٍ ... كيف أرضى به لطشتي مشينهْ

قُلْتُ إنِّي كَثيرُ مَالٍ فقالَتْ: هَبكَ أنتَ المُبَارزُ القارُونَهْ

وهذا أيضًا شعر ضعيف، ولكن فيه «حكاية ظريفة» من حكايات مولانا الشيخ رضي الله عنه وأرضاه!

وأظرف من هذه القطعة أبياته التي بعث بها إلى ناظر الشرقية، وكانت له حمارة استعارها منه الناظر فأعجبته، فكتب على لسانها إليه:

يا أيُّها السَّيِّدُ الذي شَهِدَتْ ألفاظُهُ لي بأنهُ فاضلْ
ما كانَ ظَنِّي يَبيعُني أحَدٌ قطُّ ولكنْ صَاحِبِي جَاهلْ
لو جَرَّسُوهُ عليَّ مِنْ سَفَهٍ لقلتُ غيظًا عليه يستاهلْ
أَقصَى مُرَادِي لَوْ كُنْت في بَلَدِي أرعى بِها في جَوانِبِ السَّاحِلْ
وبعدَ هذا فما يَحلُّ لكمْ أخذِي؛ لأنَّي مَن سَيِّدي حَامَلْ

وقد استظرف ناظر الشرقية هذه الأبيات، ورد إليه الحمارة، ولم يكن فيها من الزاهدين!

ونحن نستملح كذلك قصيدته التي بعث بها إلى أحد الوزراء في شكوى حاله، وهي قصيدة طريفة، يذكر فيها أنه فقير، وأن أبناءه لا يجدون ما يأكلون، وأنهم يتحسرون لفقد الكعك أيام الأعياد، وأن امرأته زارت أختها وشكت إليها سوء الحال، فأشارت عليها بضربه، ونتف ذقنه شعرة شعرة. وفي تفصيل ذلك يقول وهو يخاطب ذلك الوزير:

إليكَ نَشْكُو حالَنا إننا حَاشَاكَ مِن قَومٍ أُولِي عُسْرَهْ
في قِلَّةٍ نَحْنُ ولكِن لَنَا عائلة في غاية الكَثْرَهْ
أُحدِّثُ المولَى الحديثَ الذي جَرَى عليهم بالخيطِ والإبرَ
صاموا مع الناس ولكنَّهمْ كانوا لَمِنْ يبصرُهم عِبرَه
إن شَربوا فالبِئْرُ زِيرٌ لهُمْ ما بَرِحَتْ والشَّرْبَة الجَرَّه
لهم من الخبيزِ مسلوقة في كل يومٍ تشبهُ النشرَه
أقولُ مهما اجتمعوا حولها تنزَّهوا في الماءِ والخضره

وأقبلَ العيدُ وما عندهم قمحٌ ولا خبزٌ ولا فطره
فارْحَمْهُم إنْ أبْصَرُوا كَعْكَة في يدِ طفلٍ أو رأوا تَمْرَه
تشخصُ أبصارُهمو نحوها بشهقة تتبعُها زفرَه
كم قائلٍ يا أبَتا منهمُ: قَطَعْتَ عَنَّا الخُبْزَ في كَرَّه
ما صِرْتَ تأتينا بفلس ولا بِدِرْهَمٍ وَرِقٍ وَلا نُقْرَه
وَأنتَ في خِدْمَة قَوْمٍ فَهَلْ تخدمهمْ يا أبتا سُخرهْ
ويومَ زارتْ أمهمْ أختها والأختُ في الغيرة كالضَّرَّهْ
وأقبلتْ تشكو لها حالها وصبرها مني على العسره
قالت لها كيفَ تكونُ النسا كذا معَ الأزواجِ يا غِرَّهْ
قُومِي اطْلبي حَقَّكِ منه بِلا تَخَلفٍ منكِ ولا فَترَه
وإنْ تَأَبَّى فخُذي ذَقْنَهُ أوَّ انتفيها شعرة شعره
قالت لها ما عادتي هكذا فإنَّ زوجي عنده ضجره
أخافُ إن كلمتهُ كلمة طَلَّقَني قالتْ لها بَعْرَه
وهونَتْ قدري في نفسها فجاءت الزوجةُ مُجْتَرَّه
فقاتَلتني فتَهَدَّدتُهَا فَاستَقبَلتْ رَأسِي بِآجِرَّه
وَحَقُّ مَنْ حالَتُهُ هذِهِ أَنْ يَنْظُرَ المَوْلى لهُ أَمْرَه

وفي هذه القصيدة كثير من التعابير المصرية، ولا تزال بقاياها موجودة في بلبيس[٢].

قصيدة البردة

تعد قصيدة البردة أول قصيدة قيمة في مدح الرسول ﷺ ولم تكن المدائح النبوية مما يتكلم فيه الشعراء، والبوصيري هو الذي ابتكر هذا النوع، أو هو الذي بسطه وأطال فيه القصيد، فإن قصائد الكميت بن زيد في مدح آل البيت تعتبر نواة لهذا الفن الذي

[٢] ما كتب هنا عن البوصيري هو أصل ما في كتاب: المدائح النبوية في الأدب العربي والمؤلف يفلس أحيانًا فينقل معانيه من كتاب إلى كتاب، وهي ليست بسرقة؛ لأنها تشبه نقل الدنانير من جيب إلى جيب في الثوب الواحد، أليس كذلك؟ بلى، أيها المؤلف!

أكثر منه المولّدون، وقد مدح الرسول في حياته، مدحه كعب بن زهير بلاميته المشهورة التي يقول في أولها:

بانَت سُعادُ فَقَلبي اليَومَ مَتبولُ مُتَيَّمٌ إِثرَها لَم يُفدَ مَكبولُ
وَما سُعادُ غَداةَ البَينِ إِذ رَحَلوا إِلّا أَغَنُّ غَضيضُ الطَرفِ مَكحولُ

ومدحه الأعشى بداليته التي يقول فيها:

فَأَقسَمْتُ لا أرْثي لهَا مِنْ كَلالَةٍ ولا منْ وحي حتّى تُلاقي محمّدا
نبيٌ يرى ما لا ترونَ، وذكرهُ أغَارَ، لَعَمْرِي، في البِلادِ وَأَنجَدَا

ويرتاب الدكتور طه حسين في قصيدة الأعشى، ويظنها من وضع الرواة، وهي على فرض صحتها ليست من المدائح النبوية، وكذلك بانت سعاد؛ لأن المدح الذي جرى على لسان كعب والأعشى لا يزيد شيئًا عن غيره من المدح الذي جرى في ذلك العهد موجهًا إلى الملوك، أما المدائح النبوية فتمتاز بعدّ شمائل النبي وسرد ما في الرسالة من المحاسن الباقية، ودفع ما وُصم به الرسول من النقائص والعيوب. وهي فوق هذا كله تقال وتنشد تقربًا إلى الله، وهي عند الصوفية من جملة الأوراد.

البردة

وقد حدثنا البوصيري عن سبب وضعه للبردة، فقال: «كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله ﷺ منها ما كان اقترحه علي الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير. ثم اتفق بعد ذلك أن أصابني فالج أبطل نصفي، ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها، واستشفعت بها إلى الله تعالى في أن يعافيني، وكررت إنشادها ودعوت وتوسلت، ونمت فرأيت النبي ﷺ فمسح على وجهي بيده المباركة، وألقى عليّ بردة فانتبهت ووجدت فيّ نهضة، فقمت وخرجت من بيتي ولم أكن أعلمت بذلك أحدًا، فلقيني بعض الفقراء فقال لي: أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله ﷺ فقلت: أيها؟ فقال: التي أنشأتها في مرضك، وذكر أولها، وقال: والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله ﷺ ورأيت رسول الله ﷺ يتمايل وأعجبته، وألقى على من أنشدها بردة. فأعطيته إياها، وذكر الفقير ذلك وشاع المنام».

وفي هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيري، فهو رجل فيه طيبة وسذاجة، كأكثر الصوفية، فليس من المعقول أن يبرأ مريض من مرضه لآية يتلوها، أو قصيدة ينشدها، كما برئ البوصيري بقصيدته، ولو مرض مفتي الديار المصرية — لا سمح الله — ما استغنى بالبردة عن الطبيب! ولعل حكاية البوصيري هذه هي سبب ما سار بجانب البردة من الخرافات، فقد ذكر بعض الشراح لكل بيت من أبياتها فائدة، فبعضها أمان من الفقر وبعضها أمان من الطاعون! وهذا النوع من الغفلة قديم، فقد كان الزمخشري يذكر شيئًا من مثل هذا عن سور القرآن … ونلاحظ كذلك أن البوصيري كرر عبارة ﷺ خمس مرات في هذه الفقرة الصغيرة. وتكرار الصلاة على النبي كلما ذكر اسمه من وساوس المتأخرين، وقد زاد البوصيري على ذلك في القصيدة المصرية: فهو يدعو الله أن يصلي على النبي وشيعته وصحبه عدد الحصى والثرى والمدر وعدد نجم السماء ونبات الأرض وعدد وزن مثاقيل الجبال وقطر جميع الماء والمطر، وما حوت الأشجار من ورق، وعدد الحروف المقروءة والمكتوبة وعدد الوحش والطير والأسماك والأنعام، وعدد الجن والأنس والأملاك، وعدد الذر والنمل والحبوب والشعر والصوف والريش والوبر، وعدد ما أحاط به العلم المحيط وما جرى به القلم والقدر، وعدد نعم الله على الخلائق مذ كانوا ومذ حشروا، وعدد ما كان في الأكوان وما يكون إلى يوم البعث، وتكون هذه الصلاة بهذا التحديد:

فِـي كُلِّ طَـرْفَـةِ عَـيْـنٍ يَـطْـرِفـونَ بِـهـا … أَهْـلُ الـسَّـمَـاواتِ والأَرْضِـيـنَ أَوْ يَـذَرُوا
مِـلْءَ الـسَّـمَـاواتِ والأَرْضِـيـنَ مَـعْ جَـبَـلٍ … والْفَرْشِ والْعَرْشِ والكُرْسِي وما حَصَرُوا
مَـا أَعْـدَمَ الـلـهُ مَـوْجـودًا وأَوْجَـدَ مَـعْـ … ـدُومَـا صَـلاةً دَوَامًـا لَـيـسَ تَـنْـحَـصِـرُ
تَـسْـتَـغْـرِقُ الـعَـدَّ مَـعْ جَـمْـعِ الـدُّهُـورِ كَـمَـا … تُـحِـيـطُ بِـالـحَـدِّ لا تُـبْـقِـي ولا تَـذَرُ

وهذا النمط من الصلاة على النبي لم يكن معروفًا في صدر الإسلام وإنما هو تصرف من غلاة الصوفية أمثال صاحب دلائل الخيرات.

والبردة بعد هذا كله مشهورة في جميع الأقطار الإسلامية، وقد كانت جزءًا من الهدية التي قدمها ابن خلدون إلى تيمورلنك، ولهذه الهدية قيمتها في تقدير الحياة العقلية عند المتقدمين.

نهج البردة

أما نهج البردة فقصيدة وضعها شوقي تذكارًا لحج الخديوي السابق سنة ١٢٢٧هـ، وقدمها إليه بكلمة صغيرة، ثم شرحها المرحوم الشيخ سليم البشري شرحًا وجيزًا بينًا، قال في نهايته: «ولو أن الكاتب عمد إلى كل بيت ففسر غريبه، وفصل مجمله، وأفشى معناه، ونزل عند مغازيه، وعرض على وجوه العربية مفرده ومركبه، وأرسل الإشارة إلى كل ما وقع له من دقائق البلاغة وفنون البديع وطلب القصة التي يومأ إليها فيه، ووازن بينه وبين ما يجانسه من الشعر ويسايره من الكلام، وغير ذلك مما يجري في شرح الكلام ويدخل في أبواب نقده وتفسيره، لطال القول وتجاوز القصد».

وكنا نسمع في مجالس أهل العلم بالأدب أن الشيخ سليم البشري لم يشرح نهج البردة، وإنما الشرح لابنه الشيخ عبد العزيز إن شاء أيده وإن شاء نفاه[٣]. ولهذا الشرح مقدمة وضعها محمد بك المويلحي، وهي مقدمة تتناسب مع ما كتبت له، فقد حقق فيها أن الشعر باب من أبواب الكلام، فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام، وأتعب نفسه في التفرقة بين الشعر وبين القرآن، ووصل إلى: «أن القرآن ليس بشعر، وما هو من الشعر بشيء، وأين هو من الشعر؟ والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى، فأين الوزن، وأين التقفية، وأين المعاني التي ينتحيها الشعراء من معانيه، وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه؟» ثم قال: «فإذن لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت»، وكان الظن بصاحب عيسى بن هشام أن يعرف أن الكلام في تحريم الشعر وإبحاته، مما ينبو عنه الذوق في القرن العشرين!!

تلك كلمة وجيزة قلناها تمهيدًا للموازنة بين البردة ونهج البردة وإنَّا لنرجو أن يكون في هذا التمهيد بعض الغَنَاء.

[٣] غضب الأستاذ عبد العزيز البشري من هذا الكلام، وساجلنا في جريدة البلاغ، وهو يؤكد أن أباه رحمه الله هو صاحب الشرح، ونحن نؤكد من جانبنا أن الشيخ عبد العزيز هو الذي كتب ذلك الشرح، وكان الشيخ سليم رحمه الله غنيًا بفضله الحق عن مثل هذا الفضل المفتعل، ولكن هذا ما وقع. وليت شعري كيف نطمئن إلى الأخبار الأدبية إذا عز علينا أن نحقق خبرًا قامت الشواهد على صحته، ونحن شهود العصر الذي وقع فيه.

ولهذه القصة تفاصيل يراها القارئ في كتاب: أكواب الشهد والعلقم فليرجع إليها هناك.

الفصل العشرون

بين البوصيري وشوقي والبارودي

ابتدأ البوصيري قصيدته بالتشبيب، ونحا شوقي منحاه، وتلك عادة عربية قديمة، لم يفكر الشعراء في تركها إلا في هذا الجيل، وإن كان من قدمائهم من نالها بملام، كالمتنبي إذ يقول:

إذا كَان مَدحٌ فالنَّسِيب المُقَدَّم أَكُل فصيحٍ قال شعرًا مُتَّيم؟

وكان للصوفية شيء من الغزل المستملح المقبول، فكان مريدوهم يئولونه فيرونه موجهًا إلى الذات الإلهية أو الحضرة النبوية، ولهم في ذلك التأويل أعاجيب يبسم لها ثغر الحزين، فليرجع إليها من شاء في كتب التوحيد، ليقف على شيء من تصورات أولئك الناس، فقد برروا ما جرى على ألسنة شيوخهم، من المجون، وجعلوه نوعًا من الرمز والتمثيل، وتطلف المتأدبون منهم فأجروه مجرى الاستعارة التمثيلية، وألحقوا ما يجري بين عشاق الأرواح بما يجري بين عشاق الأشباح، إلى آخر ما لهم في هذا الباب من لطف الاحتيال.

وهذا كله أثر تلك العادة: وهي افتتاح الشعر بالنسيب، وهي عادة لم يقلع عنها شوقي إلى الآن، وأظرف ما وقع له في هذا المسلك قصيدته في مشروع ملنر، فقد افتتحها بهذه الأبيات:

اِثنِ عَنانَ القَلبِ وَاسلَم بِهِ مِن رَبرَبِ الرَملِ وَمِن سِربِهِ
وَمِن تَثَنّي الغيدِ عَن بانِهِ مُرتَجَّةَ الأَردافِ عَن كُثبِهِ
ظِباؤُهُ المُنكَسِراتُ الظُبا يَغلِبنَ ذا اللُبِّ عَلى لُبِّهِ

بيضٌ رِقاقُ الحُسنِ في لَمحَةٍ   مِن ناعِمِ الدُرِّ وَمِن رَطبِهِ
ذَوابِلُ النَرجِسِ في أَصلِهِ   يَوانِعُ الوَردِ عَلى قُضبِهِ
زِنَّ عَلى الأَرضِ سَماءَ الدُجى   وَزِدنَ في الحُسنِ عَلى شُهبِهِ
يَمشينَ أَسرابًا عَلى هينَةٍ   مَشيَ القَطا الآمِنِ في سِربِهِ
مِن كُلِّ وَسنانٍ بِغَيرِ الكَرى   تَنتَبِهُ الآجالُ مِن هُدبِهِ

وهي قصيدة طويلة، ثلثها في النسيب. ويذكر شوقي أنه قالها كارهًا ولا يبعد على هذا أن يكون ما فتحها به من التشبيب جزءًا من المنحة، التي اجتداها أنصار المشروع إذ ذاك!! وقد رأيت من شعراء العصر من يعجب من الحملة التي وجهها النقاد إلى افتتاح الشعر بالنسيب وهو يرى ذلك نوعًا من الرياضة لقرائح الشعراء، وأذكر أني رأيت في كلام القدماء ما يؤيد هذا المعنى، فقد كان منهم من يرى التوفيق إلى إجادة التشبيب بابًا للتوفيق إلى الإجادة في سائر القصيد. ومهما يكن من شيء فقد سار البوصيري وشوقي على أثر من تقدمهم من الشعراء، ولا تقل: كان الأدب يقضي بتجنب هذا النهج في المدائح النبوية، فقد شبب كعب بن زهير بمحبوبته وهو في حضرة الرسول، فما لامه النبي، ولا أنكرها عليه أصحابه، ولا آخذه بها مؤرخو الآداب.

ولنا أن نلاحظ أن البوصيري جرى في تشبيبه مجرى المحاكاة والتقليد، فإنا نراه يقول في مطلع البردة:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جيرَانٍ بِذِي سَلَمِ   مزجتَ دمعًا جرى من مقلة بدمِ
أَمْ هبَّتِ الرِّيحُ مِن تِلقَاءِ كاظِمَةٍ   وأَوْمَضَ البَرْقُ في الظلْماءِ مِنْ إضَمِ

وذو سلم: واد ينحدر عن النائب في أرض بني البكّاء على طريق البصرة إلى مكة كما ذكر ياقوت، وفيه يقول كثيِّر:

أَمِن آلِ سَلْمى دِمنَة الذنَّائِبِ   إلى المِيت مِنْ رَيعانَ ذَاتِ المطارِبِ
يلُوحُ بأَطْرَافِ الأَجِدَّة رَسْمُها   بذي سَلَمٍ أطلالُها كالمذاهِبِ

وكاظمة: جو على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، وفيه يقول بعض الشعراء:

يا حَبَّذَا البَرق أكنَاف كَاظِمَة ... يَسعى عَلَى قَصَرات المرخ والعُشَر
لله دَرُّ بُيوتٍ كَان يَعْشَقُهَا ... قَلبي وَيَألفُهَا إن طُيبت بصري
فَقَدتهَا فَقدَ ظَمآنٍ إدَاوَتَه ... والقَيظَ بقْذِف وَجه الأرض بالشَّرر
أُمنِيَّةُ النَّفس أن تزْدَاد ثَانَيِةً ... وَحَالنَا وَالأمَانِي حُلْوة الثَمر

وإضم: واد بجبال تهامة، وهو الوادي الذي فيه المدينة، وفيه يقول سلامة بن جندل:

يا دَارَ أسمَاءَ بِالعَليَاءِ مِن إِضَمِ ... بينَ الدَّكادِكِ مِن قَوٍّ فمَعْصُوبِ
كَانتَ لَهَا مَرَّة دارًا فَغَيَّرَهَا ... مَرُّ الرِّياحِ بسَاقي التُّربَ مجلوبِ

وذكر البوصيري لهذه المواطن، وشغفه بها، وحنينه إليها، ينافي مصريته، وكان له أن يتشوق إلى أحبابه في بلبيس أو فاقوس، كما يتشوف بعض الناس إلى أحبائه في سنتريس وأسيوط، ولكن يظهر أن المغاني العربية كانت احتلت رءوس الشعراء، فكان من ذلك أن أكثروا من ذكر نجد، وسلع، وأروند، وإن لم يكن لهم بهذه المواطن هوى، ولم ينعموا فيها باصطباح ولا اغتباق؛ ولذلك نجد التكلف ظاهرًا في حديث البوصيري عن جيرانه بذي سلم، ونحسبه اختارها للقافية، كما اختار إضم لهذا الغرض، وأين هذا الوجد المتكلف من قول من شغل عن أروند ببغداد:

وقَالت نِسَاء الحَيَّ أَّين ابْن أُختنَا؟ ... ألا خَبِّرُونا عَنْه حُيِّيتمُو وفدا
رَعَاه ضمَان الله هَل في بِلادِكُم ... أَخو كَرَمٍ يَرْعَى لِذِي حَسَب عهدا
فإنَّ الَّذي خَلَّفتُمُوه بأرضِكم ... فَتَى مَلأً الأحشاء هِجرانه وجدا
أَبَغدَادَكُم تُنسِّيه أَروَندَ مَربَعًا ... ألا خاب من يشْري بِبغداد أَرَّوندا
فَدَتهُنَّ نَفسِي! لو سَمِعن بِما أَرَى ... رَمَى كل جِيدٍ من تنهُّده عقدا

ومن الناس من يعتذر عن صاحب البردة بأنه تشوق إلى تلك المواطن لصلتها بمدينة الرسول، وهذا الاعتذار يؤيد ما أشرنا إليه من أنه يتغزل محاكاة وتقليدًا، ولو كان صادق اللوعة لشبب بغادة مصرية، وحن إلى معنى من معاني النيل[١]، ولم يتقيد شوقي بهذا القيد حين قال:

رِيمٌ عَلى القاعِ بَينَ البانِ وَالعَلَمِ   أَحَلَّ سَفكَ دَمي في الأَشهُرِ الحُرُمِ

وإنما أطلق نفسه من ربقة التقليد، فلم يتحدث عن نجد، ولا عن تهامة، وإن غلبت عليه بعض الأخيلة العربية، فإن سفك الدم في الأشهر الحرم بقية من خيال الأعراب، فقد كانوا يأمنون فيها مقارعة السيوف، ويظلون لا عاصم لهم من فتك العيون.

ولم يوفق البوصيري إلى حسن الأداء حين قال:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جيرَانٍ بِذِي سَلَمِ   مزجتَ دمعًا جرى من مقلة بدمِ

فإن قوله: «جرى من مقلة» حشو لا قيمة له، ولا وجه لما يقوله بعض الشيوخ من أن ذلك تأكيد، فإنه لم يشك أحد في أن الدم يجري من العين.

ومن رجال الأدب من لا تروقه كلمة «على القاع» في قول شوقي:

رِيمٌ عَلى القاعِ بَينَ البانِ وَالعَلَمِ

أما قوله:

أَحَلَّ سَفكَ دَمي في الأَشهُرِ الحُرُمِ

ففيه مقابلة يستملحها علماء البديع، وفيه براعة استهلال، وهو كذلك غاية في حسن الأداء.

[١] في كتاب (المدائح النبوية) توجيه لكلام البوصيري فارجع إليه هناك.

وقول البوصيري:

فما لعينيكَ إن قلتَ اكففا هَمَتا　　　وَمَا لِقَلْبِك إنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ يَهِمِ

فيه ضعف وابتذال، وهو غير موصول بسابقيه، وقد انتقل قبل أن يتم المعنى، فقال:

أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أنَّ الحُبَّ مُنْكتِمٌ　　　ما بَيْنَ مُنْسَجِم منهُ ومضطَرِمِ
لولاَ الهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعًا عَلَى طَلَلٍ　　　ولا أرقتَ لذكرِ البانِ والعلم

وقد حار الشراح في ربط هذه الأبيات.
وقد يستجاد قوله:

فكيفَ تُنْكِرُ حُبًّا بعدَ ما شَهِدَتْ　　　بهِ عليكَ عدولُ الدَّمْعِ والسَّقَم
وَأَثْبَتَ الوجْدُ خَطَّيْ عَبْرَةٍ وضَنًى　　　مِثْلَ البَهارِ عَلَى خَدَّيْكَ والعَنَمِ

وشوقي أبرع من البوصيري في الحديث عن طيف الخيال، فإنا نجد البوصيري يقول:

نعمْ سرى طيفُ من أهوى فأرقني　　　والحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذاتِ بالأَلَمِ[٢]

وهو بيت مفرد لم يتم به المعنى. أما شوقي فقد أفصح عن مراده حين قال:

يا ناعِسَ الطَرفِ لا ذُقتَ الهَوى أَبَدًا　　　أَسهَرتَ مُضناكَ في حِفظِ الهَوى فَنَمِ
أَفديكَ إِلفًا وَلا آلو الخَيالَ فِدًى　　　أَغراكَ بِالبُخلِ مَن أَغراهُ بِالكَرَمِ
سَرى فَصادَفَ جُرحًا دامِيًا فَأَسا　　　وَرُبَّ فَضلٍ عَلى العُشّاقِ لِلحُلُمِ

[٢] نقدنا هذا البيت في بعض مؤلفاتنا فقلنا: إنه نظرة سينمائية، ولكن قد يتفق أحيانًا أن القلوب أسرع من ذلك، وللقلوب وثبات أسرع من البرق.

والفرق بعيد بين قول البوصيري:

نعمْ سرى طيفُ من أهوى فَأرَّقَني

وبين قول شوقي:

سَرى فَصادَفَ جُرحًا دامِيًا فَأَسا

وشوقي يجيد هذا النوع من الترتيب، وهو صاحب هذا البيت البديع:

نَظرَةٌ فَابتِسَامَةٌ فَسَلامُ　　　فكَلَامٌ فمَوعِد فَلِقاءَ

وقول شوقي «ورب فضل على العشاق للحلم» أرفق من قول البوصيري: «والحب يعترض اللذات بالألم» — أما قول شوقي:

يا ناعِسَ الطَرفِ لا ذُقتَ الهَوى أَبَدًا　　　أَسهَرتَ مُضناكَ في حِفظِ الهَوى فَنَمِ

فهو عندي أغزل بيت قاله المحدثون ... وفي قوله:

أَفديكَ إِلفًا وَلا آلو الخَيالَ فِدًى　　　أَغراكَ بِالبُخلِ مَن أَغراهُ بِالكَرَمِ

صورة صادقة لعبث العشق بالقلوب: فهو يغري المحبوب بالبخل، ويغري طيفه بالجود، وسماحة الطيف بابٌ إلى اضطرام الفؤاد.

ويقول البوصيري في مدافعة اللائمين:

يا لائِمي في الهَوَى العُذْرِيِّ مَعْذِرَة　　　منِّي إليكَ ولو أنصفتَ لم تلُمِ

ويقول شوقي:

يا لائِمي في هَواهُ وَالهَوى قَدَرٌ   لَو شَفَّكَ الوَجدُ لَم تَعذِل وَلَم تَلُمِ

وبيت شوقي أجمل، وقوله: «الهوى قدر» من أبدع ما قيل في دفع العذل والملام[٣].
أما قوله: «لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم»، فهو أجود في معناه من قول الشريف الرضيّ:

أقُولُ لـلاَّئِـمِ الـمُـهْـدِي مَـلامَـتَـهُ:   ذُق الهَوَى وإن اسْطَعْت الملاَمَ لُم

ومن قول ابن الفارض:

دَعَ عَنْكَ تَّعَنِيْفِيّ وَذُقْ طَعْمَ الْهَوَى   فَـإِذَا عَشِـقْـت فَـبَعد ذلِك عَـنِّفِ

ولكن البوصيري كان أرق، وهو يحاور اللائم بقوله:

عَدَتْكَ حالِيَ لا سِرِّي بِمُسْتَتِرٍ   عن الوُشاةِ وَلا دَائي بمنحسمِ

أما شوقي فقد غلبت عليه الحكمة، وهو يقول في حوار لائمه:

لَـقَـد أَنَـلـتُـكَ أُذنًـا غَـيـرَ واعِـيَـةٍ   وَرُبَّ مُنتَصِتٍ وَالقَلبُ في صَمَمِ

وشوقي يخلق الفرص ليقذف بالكلمة الحكيمة، وتلك إحدى سماته، ولكنها قد تزحزحه عن إصابة الغرض في بعض الأحيان، على أن من الحق أن نذكر أن شوقي يعتز بالوجد وهو يدفع لائمه، فكان له أن يصرح بأنه منح العاذل أذنًا غير واعية، وقلبًا غير سميع، ولا كذلك البوصيري فقد جعل الوجد داء ترجى منه السلامة، ووصف لائمه بنصح الجيب حين قال:

[٣] راجعنا الدكتور طه حسين وقال: إن هذا المعنى مسروق من الأغنية البلدية. «وعد ومكتوب علي ومقدر عالجبين»، ولكن هذا لا يمنع من استحسان قول شوقي «والهوى قدر».

مَحَّضَتْنِي النُّصْحَ لكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ   إنَّ المُحِبَّ عَن العُذَّالِ في صَمَمِ

إلى هنا فرغ البوصيري من النسيب، فلنقف قليلًا عند المعاني التي انفرد بها شوقي، وإنا لنستجيد قوله:

رَمى القَضاءُ بِعَينَي جُؤذَرٍ أَسَدًا   يا ساكِنَ القاعِ أَدرِك ساكِنَ الأَجَمِ

وهذا معنى قديم، والطريف فيه هو تصوير العينين بصورة السهم يرمي به القضاء، فهو لا يذكر أن الجوذر رماه، وإنما يذكر أن القضاء رماه بعيني جؤذر، والقضاء خبير بأنواع النصال!

وقد بلغ الرفق في قوله:

لَمّا رَنا حَدَّثَتني النَفسُ قائِلَةً   يا وَيحَ جَنبِكَ بِالسَهمِ المُصيبِ رُمي
جَحَدتُها وَكَتَمتُ السَهمَ في كَبِدي   جُرحُ الأَحِبَّةِ عِندي غَيرُ ذي أَلَمِ
رُزِقتَ أَسمَحَ ما في الناسِ مِن خُلُقٍ   إِذا رُزِقتَ اِلتِماسَ العُذرِ في الشِيَمِ

والبيت الأخير يمت إلى ما قبله بصلة ضعيفة؛ لأن النظرة الفاتنة أعز وأمنع من أن تعد من جملة الذنوب، والذي يكتم جرح الحب لا يصفح لمحبوبه عن جناية، فما هذا المن على الجمال!

وأخطأ شارح القصيدة حين استأنس بقول المتنبي:

إنْ كانَ سَرّكُمُو ما قالَ حاسِدُنَا   فَمَا لجُرْحٍ إذا أرْضاكُمُ ألَمُ

ثم أخذ شوقي يصف هذا السرب الذي صحب حبيبته، فقال:

مَنِ المَوائِسُ بانًا بِالرُبى وَقَنًا   اللاعِباتُ بِروحي السافِحاتُ دَمي
السافِراتُ كَأَمثالِ البُدورِ ضُحًى   يُغِرنَ شَمسَ الضُحى بِالحَلي وَالعِصَمِ
القاتِلاتُ بِأَجفانٍ بِها سَقَمٌ   وَلِلمَنِيَّةِ أَسبابٌ مِنَ السَقَمِ
العاثِراتُ بِأَلبابِ الرِجالِ وَما   أُقِلنَ مِن عَثَراتِ الدَلِّ في الرَسَمِ

المُضرِماتُ خُدودًا أَسفَرَتْ وَجَلَتْ   عَن فِتنَةٍ تُسلِمُ الأَكبادَ لِلضَرَمِ
الحامِلاتُ لِواءَ الحُسنِ مُختَلِفًا   أَشكالُهُ وَهوَ فَردٌ غَيرُ مُنقَسِمِ
مِن كُلِّ بَيضاءَ أَو سَمراءَ زُيِّنَتا   لِلعَينِ وَالحُسنُ في الآرامِ كَالعُصُمِ
يُرَعنَ لِلبَصَرِ السامي وَمِن عَجَبٍ   إِذا أَشَرنَ أَسَرنَ اللَيثَ بِالعَنَمِ
وَضَعتُ خَدّي وَقَسَّمتُ الفُؤادَ رُبًى   يَرتَعنَ في كُنُسٍ مِنهُ وَفي أَكَمِ

وهذه القطعة من البيان المشرق الجميل، وأستلمح منها قوله:

العاثِراتُ بِأَلبابِ الرِجالِ وَما   أُقِلنَ مِن عَثَراتِ الدَلِّ في الرَسَمِ

فقد جعلهن يمشين على القلوب، فيعثرن بقلب بعد قلب، وإن لم يسلمن من عثرات الدلال، وهن يتخطرن في الضحى، وعند الأصيل ...

وأستجيد كذلك قوله:

يُرَعنَ لِلبَصَرِ السامي وَمِن عَجَبٍ   إِذا أَشَرنَ أَسَرنَ اللَيثَ بِالعَنَمِ

فقد وصفهن بالخفر والحياء، وذكر أنهن يرعن حين تسمو إليهن العين، والسحر كل السحر في الحسن الحذر الهيوب، وكان من العجب أن يأسر هؤلاء الخفرات الليث إذا أشرن إليه بالبنان المخضوب ... وما أروع قوله بعد ذلك في خطاب محبوبته:

يا بِنتَ ذي اللَبَدِ المُحَمِّيِّ جانِبُهُ   أَلقاكِ في الغابِ أَم أَلقاكِ في الأُطُمِ
ما كُنتُ أَعلَمُ حَتّى عَنَّ مَسكَنُهُ   أَنَّ المُنى وَالمَنايا مَضرِبُ الخِيَمِ[٤]

[٤] يرى الدكتور طه حسين أن أخيلة شوقي خلت من الصبغة المصرية وهو يتكلم عن البان والعلم، ومضرب الخيم، وأن قوله يا بنت ذي اللبد يذكرنا بقول ابن هانئ:

يا بنت ذي السيف الطويل نجاده   أكذا يجور الحكم في ناديك

مَن أَنبَتَ الغُصنَ مِن صَمصامَةٍ ذَكَرٍ وَأَخرَجَ الريمَ مِن ضِرغامَةٍ قَرِمِ
بَيني وَبَينُكِ مِن سُمرِ القَنا حُجُبٌ ومِثلُها عِفَّةٌ عُذرِيَّةُ العِصَمِ
لَم أَغشَ مَغناكِ إِلا في غُضونِ كِرًى مَغناكَ أَبعَدُ لِلمُشتاقِ مِن إِرَمِ

وفي هذه الأبيات صورة فاتنة لذلك الشذوذ الذي تحوكه الطبيعة، وإنها لصناع! ومن ذا الذي لم يفكر في الرجل يقطر من جوانبه اليأس، وتعبس الدنيا حين يعبس، ويثور الوجود حين يثور، وفي بيته فتاة من صلبه تحسبها لرقتها وحيائها ظبية تنثني أو غصنًا يميد.

وقول شوقي:

ما كُنتُ أَعلَمُ حَتّى عَنَّ مَسكَنُهُ أَنَّ المُنى وَالمَنايا مَضرِبُ الخِيَمِ
مَن أَنبَتَ الغُصنَ مِن صَمصامَةٍ ذَكَرٍ وَأَخرَجَ الريمَ مِن ضِرغامَةٍ قَرِمِ

أجود في معناه من قول الطغرائي:

إني أُريدُ طروقَ الحَيِّ من إضَمٍ وقد حماهُ رماةٌ من بني ثُعلِ
يحمونَ بالبِيض والسُّمْرِ اللدانِ بهمْ سودَ الغدائرِ حُمْرَ الحَلْي والحُلَلِ

وإنما كان أجود لتلك النظرة الدقيقة التي سجل بها شوقي عجبه من أن ينبت الغصن من السيف الذكر، ويخرج الريم من الضرغامة القرم!

وقول شوقي:

بَيني وَبَينُكِ مِن سُمرِ القَنا حُجُبٌ ومِثلُها عِفَّةٌ عُذرِيَّةُ العِصَمِ
لَم أَغشَ مَغناكِ إِلا في غُضونِ كِرًى مَغناكَ أَبعَدُ لِلمُشتاقِ مِن إِرَمِ

أصرح في معناه وأجود من قول الطغرائي:

تؤم ناشئة بالجزع قد سُقيت　　نِصالُها بمياه الغَنْجِ والكَحَلِ[٥]
قد زادَ طيبَ أحاديثِ الكرامِ بها　　ما بالكرائمِ من جُبنٍ ومن بُخُلِ
تبيتُ نارُ الهَوى منهنَّ في كَبِدٍ　　حرَّى ونار القِرى منهم على القُلَلِ
يقتُلنَ أنضاءَ حبٍّ لا حَراكَ بها　　وينحرونَ كرامَ الخيلِ والإِبِلِ

قصيدة البارودي

ونريد أن نلم إلمامة بقصيدة البارودي التي سماها «كشف الغمة في مدح سيد الأمة»، وهي ميمية طويلة ضمنها سيرة النبي ﷺ من حين مولده إلى يوم انتقاله إلى جوار ربه، وبناها كما قال على سيرة ابن هشام. والبارودي شاعر فحل، يعتز به تاريخ الأدب في مصر، وقد نوازن بينه وبين أبي فراس. ولم نفكر في الموازنة بينه وبين البوصيري؛ لأنا لم نتأكد من أنه رمى إلى معارضته، ولكن رأينا من الواجب أن نقدم للقارئ نماذج من قصيدة (كشف الغمة) في المواطن التي يعرض لمثلها البوصيري وشوقي؛ ليكون الموضوع أوفى، وليجد القارئ في تعدد الصور الشعرية مجالًا للنقد والتمييز ... فلنذكر الآن ما بدأ به البارودي قصيدته من النسيب قال:

يا رَائِدَ البَرقِ يَمِّم دارَةَ العَلَمِ　　وَاحدُ الغَمامَ إِلى حَيٍّ بِذِي سَلَمِ
وَإِن مَرَرتَ عَلى الرَّوحاءِ فَامرِ لَها　　أَخلافَ سارِيَةٍ هَتّانَةِ الدِّيَمِ
مِنَ الغِزارِ اللَّواتي في حَوالِبِها　　رِيُّ النَّواهِلِ مِن زَرعٍ وَمِن نَعَمِ
إِذا استَهَلَّت بِأَرضٍ نَمْنَمَتْ يَدُهَا　　بُرْدًا مِنَ النَّوْرِ يَكسُو عارِيَ الأَكَمِ
تَرى النَّباتَ بِها خُضْرًا سَنابِلُهُ　　يَختالُ في حُلَّةٍ مَوشِيَّةِ العَلَمِ
أَدعُو إِلى الدَّارِ بِالسُّقيا وَبِي ظَمَأٌ　　أَحَقُّ بِالرِّيِّ لَكِنّي أَخُو كَرَمِ
مَنازِلٌ لِهَواها بَينَ جانِحَتي　　وَدِيعَةٌ سِرُّها لَمْ يَتَّصِلْ بِفَمِي
إِذا تَنَسَّمتُ مِنها نَفحَةً لَعِبَت　　بِيَ الصَبابَةُ لِعبَ الريحِ بِالعَلَمِ
أَدِر عَلى السَّمعِ ذِكراها فَإِنَّ لَها　　في القَلبِ مَنزِلَةً مَرعِيَّةَ الذِمَمِ

---

[٥] الغنج: حلاوة العين.

عَهدٌ تَوَلّى وَأَبقى في الفُؤادِ لَهُ شَوقًا يَفُلُّ شَباةَ الرَأيِ وَالهِمَمِ
إذا تَذَكَّرتُهُ لاحَت مَخائِلُهُ لِلعَينِ حَتّى كَأَنّي مِنهُ في حُلُمِ
فَما عَلى الدَّهرِ لَو رَقَّت شَمائِلُهُ فَعادَ بِالوَصل أَو أَلقى يَدَ السَّلَمِ
تَكاءَدَتني خُطُوبٌ لَو رَمَيتُ بِها مَناكِبَ الأَرض لَم تَثبُتْ عَلى قَدَمِ
في بَلدَةٍ مِثلِ جَوفِ العَير لَستُ أَرى فيها سِوَى أُمَمٍ تَحنُو عَلَى صَنَمِ
لا أَستَقِرُّ بِها إِلاّ عَلى قَلَقٍ وَلا أَلَذُّ بِها إِلاّ عَلَى أَلَمِ
إذا تَلَفَّتُّ حَولي لَم أَجد أَثَرًا إلا خَيالي وَلَم أَسمَع سِوى كَلِمي
فَمَن يَرُدُّ عَلى نَفسي لُبانَتَها أَو مَن يُجيرُ فُؤادِي مِن يَدِ السَّقَمِ

وهذا شعر جزل رصين، تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي الأسلوب، فهو يستسقي للروحاء وما إليها من المعاني العربية، ويجمع بين شتى الأغراض في الموضوع الواحد، ويعرض له المعنى تبعًا فيتحول إليه لتحسبه نسي المعنى الأصيل. ألا ترى كيف استسقى للروحاء؟ وهذا هو الغرض الأول، ثم مضى في وصف السارية الهتانة الديم، فقال:

مِنَ الغِزارِ اللَّواتي في حَوالِبِها رِيُّ النَّواهِلِ مِن زَرعٍ وَمِن نَعَمِ
إِذا استَهَلَّت بِأَرضٍ نَمْنَمَتْ يَدُها بُرْدًا مِنَ النَّوْرِ يَكسُو عارِيَ الأَكَمِ
تَرى النَّباتَ بِها خُضْرًا سَنابِلُهُ يَختَالُ في حُلَّةٍ مَوشِيَّةِ العَلَمِ

وكان يتمنى لو رقت شمائل الدهر فعاد بالوصف، أو ألقى يد السلم، فانتقل من هذا الغرض إلى وصف ما تكاءده من الخطوب، وما مني به من الإقامة في بلد مثل جوف العير يعبد أهله الأصنام، لا يستقر به إلا على قلق، ولا يلذ به إلا على ألم، إذا تلفت حوله لم يجد سوى خياله، ولم يسمع غير أصداء.

وهذا بحث مجمل نرجو أن نعود إليه في الكلمة الآتية بشيء من التفصيل.

الفصل الحادي والعشرون

أسلوب البارودي

قلت في الكلمة الماضية: إن شعر البارودي تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي الأسلوب، وذكرت في تأييد ذلك أنه قد يتحول إلى المعنى الطارئ حتى لنحسبه نسي المعنى الأصيل، وهذا الأسلوب معروف في أشعار الجاهليين والمخضرمين، ومن نحا نحوهم من شعراء الأعصر الخالية، فإنا نرى طرفة بن العبد يشبه قباب محبوبته بخلايا السفين، ثم يترك المشبه ويمضي في الحديث عن المشبه به فيقول:

كَأَنَّ حُمُولَ المالِكيَّةِ غُدوَةً   خَلايا سَفينٍ بِالنَواصِفِ مِن دَدِ
عدولية أو من سفين بن يامنٍ   يجورُ بها المَّلاح طورًا ويهتدي
يشقُّ عُبابَ الماءِ حَيزُومُهَا بِهَا   كَمَا قسَمَ التُّربَ المُفائِلُ باليَدِ

وتراه يهم بالحديث عن نفسه فيقول:

وإنّي لَأمضِي الهَمَّ عِند احتِضَارِه   بِهَوجَاء مِرقَالٍ تَرُوحُ وَتَغْتَدي

ثم يندفع في وصف الناقة حتى لا يشك القارئ في أنه من أجلها هذه القصيدة، إذ يصفها في أكثر من ثلاثين بيتًا، ثم يعود بعد لأي إلى الحديث عن نفسه فيقول:

ولَستُ بِحَلاَّل التَّلَاع مَخَافَة   ولكِن مَتى يَستَرفِد القَومُ أرَّفِد

وكذلك تجد كعب بن زهير يقول في ثغر محبوبته سعاد:

تَجلو عَوارِضَ ذي ظَلَمٍ إِذا اِبتَسَمَت كَأَنَّهُ مُنهَلٌ بِالراحِ مَعلولُ

ثم يمضي في وصف ما مزجت به هذه الراح فيقول:

شُجَّت بِذي شَبَمٍ مِن ماءِ مَحنِيَةٍ صافٍ بِأَبطَحَ أَضحى وَهُوَ مَشمولُ
تَنفِي الرِّيَاحُ القَذَى عَنْه وَأَفرطَهُ مِن صَوبِ سارِيَةٍ بيضٍ يَعاليلُ

ونراه يقول في بعد محبوبته:

أَمسَت سُعادُ بِأَرضٍ لا يُبَلِّغُها إِلّا العِتاقُ النَجيباتُ المَراسيلُ

وكان هذا كافيًا في الإبانة عن بعد الشقة، ولكنه وصف الناقة التي تبلغه تلك الأرض ينحو عشرين بيتًا. ثم عاد بعد هذا كله إلى ما رمى إليه من استعطاف الرسول فقال:

تَسعى الوُشَاةُ بِجَنبَيها وَقولُهُمُ: إِنَّكَ يَا ابنَ أَبي سُلمى لَمَقتولُ
وَقالَ كُلُّ خَليلٍ كُنتُ آمُلُهُ: لا أُلفِيَنَّكَ إِنّي عَنكَ مَشغولُ
فَقُلتُ خَلّوا سبيلي لا أَبَا لَكُمُ فَكُلُّ ما قَدَّرَ الرَحمَنُ مَفعولُ
كُلُ اِبنِ أُنثى وَإِن طالَت سَلامَتُهُ يَومًا عَلى آلَةٍ حَدباءَ مَحمولُ
أُنبِئتُ أَنَّ رَسولَ اللهِ أَوعَدَني وَالعَفُوُ عِندَ رَسولِ اللهِ مَأمولُ
مَهلًا هَداكَ الَّذي أَعطاكَ نافِلَةَ الـ قُرآنِ فيها مَواعيظٌ وَتَرتِيلُ
لا تَأَخُذَنّي بِأَقوالِ الوُشاةِ وَلَم أُذنب وإنْ كَثُرَت عَنّي الأَقاويلُ

وقد سلك البارودي هذا المسلك في قصيدته (كشف الغمة)، فقد رأينا كيف أفاض في وصف السحب وهو يستسقي للروحاء، وكيف انتقل من الحديث عن وجده إلى الحديث عن غربته. ولنذكر الآن شاهدًا آخر نؤيد به اختياره لهذا الأسلوب:

وصف الغار

وصف القرآن الغار الذي آوى إليه النبي ﷺ مع الصديق وصفًا لا زخرف فيه، إذ قال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

ووصفه أبو بكر رضي الله عنه على هذا النحو فقال: «كنت مع النبي ﷺ في الغار فرأيت آثار المشركين. قلت: يا رسول الله: لو أن أحدهم رفع قدمه لرآنا، قال: ما ظنك باثنين الله ثالثهما!».

وتحدثت عائشة عن ذلك فقالت: «ولما كان ليلة بات النبي ﷺ في الغار، أمر الله تعالى شجرة فنبتت في وجه الغار، وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار، وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبي ﷺ على قدر أربعين ذراعًا معهم قسيهم وعصيهم، فتقدم رجل منهم فرأى حمامتين على فم الغار، فقال لأصحابه: ليس في الغار شيء، رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد، وقال رجل آخر: الغار! فقال أمية بن خلف: «ما أربكم فيه، وعليه من نسج العنكبوت ما أرى أنه قبل أن يولد محمدًا[١]».

فأمامنا الآن حقيقة ثابتة: «هي أن النبي كان مع رفيقه في الغار، وأن الله أنزل سكينته عليه فلم يخف ولم يحزن»، وقد وصفت هذه الحقيقة في القرآن وفي كلام الصديق وصفًا يرجع في جوهره إلى الإشادة بفضل الله ورحمته، ووصفت في كلام عائشة وصفًا فيه شيء من الزخرف والخيال: إذ أضافت حديث الحمامتين والعنكبوت — ولنا في حديث عائشة رأي لا يسمح به ظرف الزمان — فلنذكر كيف تناول البوصيري وشوقي والبارودي هذه الحادثة، وكيف نحا البارودي في وصفها منحى شعراء الجاهلية.

أما البوصيري فقد قال:

فالصدقُ في الغارِ والصديقُ لم يرِما   وَهُمْ يقولونَ ما بالغارِ مِنْ أَرِمِ[٢]

[١] راجع وضح النهج.

[٢] أي لا أثر فيه.

ظَنُّوا الحَمامَ وظَنُّوا العَنْكَبُوتَ على   خيْرِ البَرِيَّة لَمْ تَنْسُجْ ولمْ تَحُم
وقاية اللهِ أغنتْ عن مضاعفة   من الدروعِ وعن عالٍ من الأطمِ

وهذا وصف لم يخرج عما ورد في القرآن من وقاية الله لنبيه وإنزاله السكينة عليه، ولم يعد ما حدثت به عائشة من حوم الحمام ونسج العنكبوت.

أما شوقي فقد قال:

سَل عُصبَةَ الشِركِ حَولَ الغارِ حائِمَةً   لَولا مُطارَدَةُ المُختارِ لَم تحُمِ
هَل أَبصَروا الأَثَرَ الوَضّاءَ أَم سَمِعوا   هَمسَ التَسابيحِ وَالقُرآنِ مِن أُمَمِ[3]
وَهَل تَمَثَّلَ نَسجُ العَنكَبوتِ لَهُمْ   كَالغابِ وَالحائِماتُ الزُغْبُ كَالرُخَمِ
فَأَدبَروا وَوُجوهُ الأَرضِ تَلعَنُهُمْ   كَباطِلٍ مِن جَلالِ الحَقِّ مُنهَزِمِ
لَولا يَدُ اللهِ بِالجارَينِ ما سَلِما   وَعَينُهُ حَولَ رُكنِ الدينِ لَم يَقُمِ
تَوارَيا بِجَناحِ اللهِ وَاستَتَرا   وَمَن يَضُمُّ جَناحُ اللهِ لا يُضَمِ

وفي هذه القطعة يسخر شوقي من المشركين، ويهزأ بهم، ويمثل ضلالهم وإخفاقهم تمثيلًا بشعًا مخيفًا يخزى له وجه الشرك ويرغم به أنف الجحود، وللقارئ أن يتأمل قوله:

فَأَدبَروا وَوُجوهُ الأَرضِ تَلعَنُهُمْ   كَباطِلٍ مِن جَلالِ الحَقِّ مُنهَزِمِ

فإنه من أجمل ما شبه فيه المحسوس بالمعقول. أما البارودي فقد قال:

وَجاءَهُ الوَحيُ إِيذانًا بِهِجرَتِهِ   فَيَمَّمَ الغارَ بِالصِّدِّيقِ في الغَسَمِ[4]
فَمَا اسْتَقَرَّ بِهِ حَتّى تَبَوَّأَهُ   مِنَ الحَمائِمِ زَوجٌ بارِعُ الرَّنَمِ
بَنى بِهِ عُشَّهُ وَاحْتَلَّهُ سَكَنًا   يَأوي إِلَيهِ غَداةَ الرِّيحِ وَالرَّهَمِ

---

[3] من قرب.

[4] في الظلام.

إلفانِ ما جَمَعَ المِقدارُ بَينَهُما   إلّا لِسِرٍّ بِصَدرِ الغَارِ مُكْتَتَمِ
كِلاهُما دَيدَبانٌ فَوقَ مَربأَةٍ   يَرعَى المَسالِكَ مِن بُعدٍ وَلَم يَنَمِ
إن حَنَّ هَذا غَرامًا أَو دَعا طَرَبًا   باسمِ الهَديلِ أَجابَت تِلكَ بِالنَّغَمِ
يَخالُها مَن يَراها وَهيَ جاثِمَةٌ   في وَكرِها كُرَةً مَلساءَ مِن أَدَمِ[٥]
إن رَفرَفَت سَكَنَت ظِلًّا وَإِن هَبَطَت   رَوَت غَليلَ الصَّدى مِن حائِرٍ شَبِمِ
مَرقُومَةُ الجِيدِ مِن مِسكٍ وَغالِيَةٍ   مَخضُوبَةُ الساقِ وَالكَفَّينِ بِالعَنَمِ
كَأَنَّما شَرَعَت في قانِئٍ سَرِبٍ   مِن أَدمُعِي فَغَدَت مُحمَرَّةَ القَدَمِ
وَسَجفَ العَنكَبُوتُ الغارَ مُحتَفِيًا   بِخَيمَةٍ حاكَها مِن أَبدَعِ الخِيَمِ
قَد شَدَّ أَطرافها فَاستَحكَمَت وَرَسَت   بِالأَرضِ لَكِنَّها قامَت بِلا دِعَمِ
كَأَنَّها سابِرِيٌّ حاكَهُ لَبِقٌ   بِأَرضِ سابُورَ في بَحبُوحَةِ العَجَمِ
وَارَت فَمَ الغارِ عَن عَينٍ تُلِمُّ بِهِ   فَصارَ يَحكي خَفاءً وَجهَ مُلتَثِمِ
فَيا لَهُ مِن سِتارٍ دُونَهُ قَمَرٌ   يَجلُو البَصائِرَ مِن ظُلمٍ وَمِن ظُلَمِ
فَظَلَّ فيهِ رَسولُ اللهِ مُعتَكِفًا   كَالدُرِّ في البَحرِ أَو كَالشَّمسِ في النَسَمِ
حَتّى إذا سَكَنَ الإِرْجافُ وَاحْتَرَقَت   أَكْبادُ قَومٍ بِنارِ اليَأسِ وَالوَغَمِ
أَوحى الرَّسولُ بِإِعدادِ الرَّحيلِ إِلى   مَن عِندَهُ السِّرُّ مِن خِلٍّ وَمِن حَشَمِ
وَسارَ بَعدَ ثَلاثٍ مِن مَباءَتِهِ   يَؤُمُّ طَيْبَةَ مَأوى كُلِّ مُعتَصِمِ

وفي هذه القطعة انتقل البارودي من سرد القصة النبوية إلى الإفاضة في وصف الحمامتين والعنكبوت، فتحدث عن بناء العش والغرض من سكناه وتكلم عن حراسة الحمامتين، ورعايتهما للمسالك البعيدة، وهجرهما النوم، وتغنيهما باسم الهديل، وذكر كيف كانت الحمامة مخضوبة الساق والكفين، وكيف كانت مرقومة الجيد، وكيف كانت محمرة القدم كأنما شرعت في دموعه الحمراء، وتكلم عن الخيمة التي شد أطنابها العنكبوت ووصفها بجودة النسج حتى ليحسبها الرائي حلة سابرية، إلى آخر ما قال.

وهذا كله خروج عن الموضوع، واستسلام إلى الخيال، وكذلك كان يفعل الأقدمون.

[٥] من جلد.

النظم في قصيدة البارودي

وتمتاز قصيدة البارودي بالترتيب؛ لأنه ساير الحوادث وفقًا لما قصه ابن هشام، ولا كذلك شوقي والبوصيري، فقد أطاعا الخواطر الطارئة، وقدما بعض الحوادث على بعض، وتكلما عن النبي ﷺ وعن معجزاته مثلًا قبل أن يذكرا الميلاد.

ولكن مزية الترتيب التي انفرد بها البارودي كانت بابًا لفقد الشعر في أكثر القصيدة، فأصبحت بذلك «منظومة» كتلك المنظومات التي تعرف بالمتون، وإلى القارئ أنموذجًا يرى به غلبة النظم في ميمية البارودي إذ قال:

وَأَمَّ طَـيـبَـةَ مَـسْـرورًا بِـعَـودَتِـهِ ... يَطوي المَنازِلَ بِالوَخّادَةِ الرُّسُمِ
ثُمَّ استَهَلَّت وُفُودُ الناسِ قاطِبَةً ... إِلـى حِـمـاهُ فَـلاقَـت وافِـرَ الـكَـرَمِ
فَكانَ عامَ وُفودٍ كُلَّما اِنصَرَفَت ... عِصابَةٌ أَقبَلَت أُخرى عَلى قَدَمِ
وَأَرسَلَ الرُّسلَ تَترى لِلمُلوكِ بِما ... فِـيـهِ بَـلاغٌ لِأَهلِ الذِّكرِ وَالـفَـهَـمِ
وَأَمَّ غـالِـبُ أَكـنـافَ الـكَـديـدِ إِلـى ... بَني المُلَوَّحِ فَاستَولى عَلى النَّعَمِ
وَحِينَ خانَت جُذامٌ فَلَّ شَوكَتَها ... زَيدٌ بِجَمعٍ لِرَهطِ الشِّركِ مُقتَتِمِ
وَسارَ مُنتَحِيًا وادي القُرى فَمَحا ... بَـنـي فَزارَةَ أَصلَ اللُّؤمِ وَالـقَـزَمِ
وَأَمَّ خَـيـبَـرَ عَـبـدُ الـلـهِ فـي نَـفَـرٍ ... إِلـى الـيَـسِـيـرِ فَـأَرداهُ بِـلا أَثَـمِ
وَيَمَّمَ اِبنُ أُنَيسٍ عُرضَ نَخلَةَ إِذ ... طَغـا اِبنُ ثَورٍ فَأَصماهُ وَلَم يَخِمِ
ثُمَّ استَقَلَّ اِبنُ حِصنٍ فَاحْتَوَت يَدُهُ ... عَلى بَني العَنبَرِ الطُّرّارِ وَالشُّجُمِ
وَسارَ عَمرو إِلى ذاتِ السَّلاسِلِ في ... جَمعٍ لُهامٍ لِجَيشِ الشِّركِ مُصطَلِمِ
وَغَـزوَتـانِ لِـعَـبـدِ الـلـهِ واجِـدَةٌ ... إِلـى رِفـاعَـةَ وَالأُخـرى إِلـى إِضَـمِ

وهذا الأسلوب ظاهر غالب في هذه القصيدة، وقد يصل أحيانًا إلى الغموض، ولا ترجع الشاعرية إلى البارودي إلا حين يذكر نفسه وبلواه، وانظر كيف يقول، وهو يتحدث عن رجائه في نصرة النبي له يوم الميعاد:

إِنّي وَإِن مالَ بي دَهري وَبَرَّحَ بي ... ضَيمٌ أَشاطَ عَلى جَمرِ النَّوى أَدَمي
لثابِتُ العَهدِ لَم يَحلُل قُوى أَمَلي ... يَأسٌ وَلَم تَخطُ بِي في سَلوَةٍ قَدَمي
لَم يَترُكِ الدَّهرُ لي ما أَستَعِينُ بِهِ ... عَـلى الـتَّـجَـمُّـلِ إِلّا ساعِدي وَفَـمِـي

هَذا يُحَبِّرُ مَدحي في الرَّسولِ وَذا   يَتلُو عَلى الناسِ ما أُزجيهِ مِن كَلِمِي

وفي هذه الأبيات الأربعة لونان من التعبير، أولهما: مملوءٌ بالحرارة؛ لأنه يمثل أمنية دفنتها الحوادث في صدر الشاعر، وثانيهما: فيه ضعف وفتور؛ لأنه عاد إلى القصص من جديد، ولعل أغرب ما وقع له من «النظم» اعتذاره عن افتتاح قصيدته بالنسيب إذ قال في تقديمها للرسول:

فَهاكَها يا رَسُولَ اللهِ زاهِرَةً   تُهدِي إِلى النَّفسِ رَيّا الآسِ وَالبَرَمِ
وَسمتُها بِاسمِكَ العَالِي فَأَلبَسها   ثَوبًا مِنَ الفَخرِ لا يَبلى عَلى القِدَمِ
غَرِيبَةٌ في إِسارِ البَينِ لَو أَنِسَت   بِنَظرَةٍ مِنكَ لاستغنَت عَنِ النَّسَمِ
لَم أَلتَزِم نَظمَ حَبّاتِ البَدِيعِ بِها   إِذ كانَ صَوغُ المَعانِي الغُرِّ مُلتَزِمِي
وإنما هي أبيات رجوت بها   نَيلَ المُنى يَومَ تَحيا بَذَّةُ الرِّمَمِ
نَثَرتُ فِيها فَرِيدَ المَدحِ فَانتَظَمَت   أحسن بمنتثر فيها ومنتظم
صَدَّرتُها بِنَسِيبٍ شَفَّ باطِنُهُ   عَن عِفَّةٍ لَم يَشِنها قَولُ مُتَّهِمِ
لَم أَتَّخِذهُ جُزافًا بَل سَلَكتُ بِهِ   فِي القَولِ مَسلَكَ أَقوامٍ ذَوِي قَدَمِ
تابَعتُ كَعبًا وَحَسّانًا وَلِي بِهِما   في القَولِ أُسوَةُ بَرٍّ غَيرِ مُتَّهَمِ
وَالشِّعرُ مَعرَضُ أَلبابٍ يُرُوجُ بِهِ   ما نَمَّقَتهُ يَدُ الآدابِ وَالحِكَمِ
فَلا يَلُمنِي عَلى التَّشبِيبِ ذُو عَنَتٍ   فَبُلبُلُ الرَّوضِ مَطبُوعٌ عَلَى النَّغَمِ

ويمكن بعد هذا البيان أن نقرر أن قصيدة البارودي يغلب فيها النظم عند سرد الحوادث، ويغلب فيها الشعر عند الوصف، وعند مناجاة الوجدان.

سميّك يا رسول الله

وقد اشترك الشعراء الثلاثة: البوصيري والبارودي وشوقي في التسمي باسم النبي ﷺ وكلهم يرجو أن ينجو بفضل التسمي باسمه فنجد البوصيري يقول:

إِنْ آتِ ذَنْبًا فَمَا عَهْدِي بِمُنْتَقِضٍ   مِنَ النبيِّ وَلا حَبْلِي بِمُنْصَرِمِ
فإِنَّ لِي ذِمَّة مِنهُ بِتَسمِيتَي   مُحمَّدًا وَهُوَ أوفى الخلقِ بالذِّمَمِ

ونجد شوقي يقول:

يا أَحمَدَ الخَيرِ لي جَاهٌ بِتَسمِيَتي وَكَيفَ لا يَتَسامى بِالرَسولِ سَمي

ونجد البارودي يقول:

خَدَمتُهُ بِمَديحي فَاعتَليتُ عَلى هامِ السِّماكِ وَصارَ السَّعدُ مِن خَدَمي
وَكَيفَ أَرهَبُ ضَيمًا بَعدَ خِدمَتِهِ وَخادِمُ السَّادَةِ الأَجوادِ لَم يُضَمِ
أَم كَيفَ يَخذُلُني مِن بَعدِ تَسمِيَتِي بِاسمٍ لَهُ في سَماءِ العَرشِ مُحتَرَمِ

والبوصيري هو صاحب الفكرة، وقد تبعه البارودي، ولحقهما شوقي، وتلك مسألة فيها نظر كما يقولون!

الفصل الثاني والعشرون

التخلص والاقتضاب

التخلص هو انتقال الشاعر من فن إلى فن بمناسبة ظاهرة، ويقابله الاقتضاب، ويكثر التخلص في شعر المحدثين، كما يكثر الاقتضاب في شعر القدماء. قال ابن رشيق: وأولى الشعر بأن يسمي تخلصًا ما تخلص فيه الشاعر من معنى، ثم رجع إلى ما كان فيه، كقول النابغة الذبياني في آخر قصيدة اعتذر بها إلى النعمان بن المنذر:

وكَفْكفْتُ مِنِّي عَبْرَةً، فرَدَدتُها إلَى النَّحرِ مِنهَا مُستَهِلٌّ ودَامِعُ
عَلَى حِينَ عَاتبتُ المَشِيبَ عَلَى الصِّبا وقلتُ: ألَمَّا أصحُ والشَّيبُ وَازعُ؟

ثم تخلص إلى الاعتذار فقال:

ولكنَّ هَما دُونَ ذلِكَ شَاغلٌ مَكان الشَّغَافِ تَبتّغِيه الأصَابعُ[1]
وعِيدُ أبِي قَابوسَ في غَيرِ كُنهِهِ أتَانِي ودُونِي رَاكِسٌ فالضَّواجِعُ

ثم وصف حاله عندما سمع ذلك، فقال:

فبتُّ كَأنِّي سَاوَرَتنِي ضَئِيلة مِن الرُّقْش في أنيابِها السُّمُّ نَاقِعُ
يُسَهَّدُ في لَيلِ التَّمامِ سَلِيمُهَا[2] تُطلِّقُهُ طَورًا وطَورًا تُراجِعُ

[1] الشغاف: هو غلاف القلب وهو جلدة دونه كالحجاب.

[2] السليم هو الملدوغ، سمي بذلك تفاؤلًا بسلامته. كما قيل في الصحراء مضارة.

فوصف الحية والسليم الذي شبه به نفسه ما شاء، ثم تخلص إلى الاعتذار الذي كان فيه، فقال:

أتاني — أبيتَ اللَّعنَ[٣] — أنَّكَ لُمتَني   وتِلكَ التِي تَستكّ مِنها المَسَامعُ

ثم اطرد ما شاء من تخلص إلى تخلص حتى انقضت القصيدة …

وقد يقع من هذا النوع شيء يعترض في وسط النسيب من مدح من يريد الشاعر مدحه بتلك القصيدة، ثم يعود بعد ذلك إلى ما كان فيه من النسيب، ثم يرجع إلى المدح، كما فعل أبو تمام، وإن أتى بمدحه الذي فيه منقطعًا، وذلك قوله في وسط النسيب من قصيدة له مشهورة:

ظَلَمتك ظَالِمَة البَرِيء ظَلُوم   والظُّلم مِن ذِي قُدرَةٍ مّذمُوم
زَعَمَت هَوَاك عَفَا الغَدَاة كَمَا عَفَت   مِنْهَا طُلُولٌ باللِّوَى ورُسُوم
لا والذِي هُو عالِمٌ أنَّ النوَى   أجلٌ وأنَّ أبا الحُسيْن كريمُ
ما زُلْتُ عَن سَنَن الوِدَاد ولا غَدَت   نَفسِي عَلَى إلفٍ سِواك تَحوم

ثم قال ذلك:

لِمُحَمَّد بْن الهيْثَم بْن شَبَابَةٍ   مَجدٌ إلى جَنْب السَّمَاك مُقِيم

ويسمى هذا النوع: الإلمام، وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب في الخروج إلى المدح، بل يقولون عند فراغهم من نعت الإبل وذكر القفار وما هم بسبيله:

دع ذا، وعد عن ذا، ويأخذون فيما يريدون، أو يأتون بإنَّ المشددة ابتداء للكلام الذي يقصدونه، فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح متصلًا بما قبله، ولا منفصلًا بقوله: (دع ذا)، و(عَدّ عن ذا) ونحو ذلك سمي طفرًا وانقطاعًا، وكان البحتري كثيرًا ما يأتي به نحو قوله:

---

[٣] تحية جاهلية عاشت حينًا ثم ماتت، وكانت في الأغلب مما يخاطب به الملوك، ولو خاطبت بها اليوم واحدًا من ملوك عصرك لاتهموك بقلة الذوق.

لولا الرجاءُ لمتُ من ألمِ الهوى　　لكِنَّ قلبي بالرجاءِ موكلُ
إِن الرَّعيَّة لَم تَزَل في سِيرَةٍ　　عُمَرِيَّةٍ مُذْ سَاسَهَا المُتَوَكِّل

فلننظر بعد ذلك ما اختاره شعراؤنا الثلاثة من التخلص والاقتضاب.
أما البوصيري فقد آثر التخلص إذ قال في محاورة العذول:

إني اُتهمتُ نصيحَ الشَّيبِ في عَذَلٍ　　والشَّيْبُ أَبْعَدُ في نُصْحٍ عَنِ التُّهَم
فإِنَّ أَمَّارَتي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظَتْ　　مِن جَهلِهَا بِنَذِيرِ الشَّيبِ والهَرمِ
ولا أَعَدَّتْ مِنَ الفِعْلِ الجَمِيلِ قِرَى　　ضَيفٍ أَلَمَّ بِرَأسِي غَير مُحتَشِمِ
لو كُنت أعلم أنِّي مَا أُوَقِّرُه　　كَتَمت سِرًّا بَدَا لِي مِنه بِالكَتَم
مَن لي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِن غَوَايتِهَا　　كَمَا يُرَدُّ جِمَاحُ الخَيلِ بِاللُّجُمِ
فلا تَرُمْ بالمعاصِي كَسْرَ شَهْوَتِها　　إِنَّ الطعامَ يُقَوِّي شهوة النهمِ
والنفسُ كالطِّفلِ إن تُهمِلهُ شَبَّ عَلى　　حُبِّ الرَّضَاعِ وإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِم
فاصرفْ هَوَاهَا وحَاذِرْ أَنْ تُوَلِّيَهُ　　إِنَّ الهَوَى ما تَوَلَّى يُصمِ أَوْ يَصمِ
وَراعِهَا وهِيَ في الأعمَالِ سَائِمة　　وإِنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ المَرْعَى فَلَا تُسِم
كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّة لِلْمَرءِ قاتِلَة　　مِن حيثُ لم يَدرِ أَنَّ السُّمَّ في الدَّسَمِ
وَاخْشَ الدَّسائِسَ مِن جُوعٍ وَمِنْ شِبَع　　فَرُبَّ مَخْمَصَة شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ
واسْتَفْرِغ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قد امْتَلأَتْ　　مِنَ المَحارِمِ وَالْزَمْ حِمْيَة النَّدَمِ
وخَالِفِ النَّفسَّ والشَّيطانَ واعصِهما　　وَإِنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصحَ فَاتَّهم
وَلا تُطِعْ مِنهُمَا خَصْمًا وَلا حَكمًا　　فأَنْتَ تَعْرِفُ كيْدَ الخَصْمِ وَالحَكمِ
أَسْتَغْفِرُ الله مِنْ قَوْلٍ بِلاَ عَمَلٍ　　لقد نَسبتُ بِه نسْلًا لِذِي عُقُمِ
أَمَرتُكَ الخَيْرَ لكِنْ مَا ائتَمَرتُ بِهِ　　ومَا استقمتُ فمَا قولِي لكَ استقِمِ
ولا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ المَوتِ نافِلة　　ولَمْ أُصَلِّ سِوَى فَرْضٍ ولَمْ أَصُمِ
ظَلَمْتُ سُنَّة مَنْ أحيَا الظَّلامَ إِلَى　　أَنِ اشْتَكَتْ قَدَماهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَم

وهذا النوع من التخلص غير مقبول، إذ لاحظنا أنه تخلص من النسيب إلى المدح، أما إذا لاحظنا أنه تخلص من النسيب إلى حساب النفس، ثم إلى مدح الرسول فإنا نغفر له هذه الإطالة؛ لأنها في غرض من أغراضه الأساسية، وهو الدعوة إلى تهذيب النفس، وتطهير الوجدان.

ومن الخير أن نذكر أن البوصيري لا يفعل ذلك في جميع قصائده، فقد رأيناه يواجه الغرض بلا مقدمة في همزيته، فيقول:

كيفَ تَرقَى رُقِيَّكَ الأَنْبيَاءُ   يا سَمَاءً ما طَاوَلَتْها سَمَاءُ
لمْ يسَاووك في عُلاك وقد حَا   لَ سَنًا مِنك دُونَهُم وسَناءُ
إنَّمَا مَثَّلُوا صِفاتِك للِنَّا   س كمَا مَثَّلَ النُّجومَ المَاءُ

وكأنما جاراه شوقي في افتتاح همزيته فقال:

وُلِدَ الهُدى فالكائِناتُ ضِيَاءُ   وفَمُ الزَّمَانِ تبَسُّمٌ وثناءُ
الرُّوحُ والمَلأُ المَلائِكُ حَولَهُ   للدِّينِ والدُّنْيا بِه بُشَراءُ
والعَرْشُ يَزهو والحَظِيرَةُ تزدَهِي   والمُنتهى والسِّدرَةُ العَصْمَاءُ

ولكن أين ابتداء شوقي من ابتداء البوصيري؟ إن الفرق لبعيد! وإن كان في تعبير البوصيري شيء من الجفاء، في حق الأنبياء.

وأعود فأذكر أني أستملح قول البوصيري في رياضة النفس:

وَاخْشَ الدَّسائِسَ مِن جُوعٍ وَمِنْ شِبَع   فَرُبَّ مَخْمَصَة شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ

وجمال هذا البيت يرجع إلى ما فيه من صدق الدعوة: فإن النفس يضر بها الزهد، كما يطغيها الترف، كالجسم ترديه المسغبة، كما تضره البطنة.

وأستجيد كذلك قوله:

أَمرتُكَ الخَيْرَ لكِنْ مَا ائتَمَرتُ بِهِ   ومَا استقمتُ فمَا قولِي لكَ استقِمِ

وحسن هذا البيت يرجع إلى سماحة الشاعر ورفقه، وخلوص دعوته من شوائب الصلف والكبرياء، وهذا أدب يحتاج إلى مثله أطباء النفوس.

وقد آثر البارودي أيضًا حسن التخلص إذ قال:

لَيتَ القَطا حِينَ سارَت غُدوَةً حَمَلَت عَنّي رَسائِلَ أَشواقي إِلى إِضَمِ
مَرَّت عَلَينا خِمَاصًا وَهيَ قارِبَةٌ مَرَّ العَواصِفِ لا تَلوي عَلى إِرَمِ
لا تُدركُ العَينُ مِنها حينَ تَلمَحُها إلا مِثالًا كَلَمْحِ البَرقِ في الظُّلَمِ
كَأَنَّها أَحرُفٌ بَرقِيَّةٌ نَبَضَت بِالسِّلكِ فَانتَشَرَت فِي السَّهل وَالعَلَمِ
لا شيء يسبقها إلا إذا اعتقلت بنانتي في مديح المصطفى قلمي

وهذا تخلص مستملح مقبول، ومضيّ الشاعر في وصف القطاة إيثارٌ للأسلوب القديم الذي نوهنا به في الكلمة الماضية، ونريد أن نقرر أن هذا الأسلوب جزء من الفن الشعري عند الجاهليين والمخضرمين، ومن سايرهم من المحدثين، وبيان ذلك أن الشاعر يرى من الفن أن يصف ما يعرض له وصفًا يحيله صورة شعرية تكاد تستقل عما تتصل به نوعًا من الاستقلال، وتكون لهذا الوصف قيمة أيَ قيمة حين يراد به تأكيد معنى من المعاني المقصودة. ومن أمثلة قول أبي صعترة البولاني:

فمَا نُطفَةٌ من حَبِّ مُزنٍ تَقَاذَفَت بِه جَنبَتَا الجُودِيِّ واللَّيل دَامِس[٤]
فلمَّا أقرَّتهُ اللِّصَابِ تنفسَّتْ شمَالٌ بأعلى مَائِهِ فهو فارِسُ[٥]
بأطيَبَ مِن فِيها وما ذُقتُ طعمَهُ ولكنَّني فِيما ترَى العَينُ فارِسُ

فإن للشاعر من المبالغة في وصف ماء المزن غرضًا خاصًّا هو الإشادة بعذوبة ذلك الثغر الشهّي المذاق، ويماثل هذا قول عاتكة المرية، وكانت كما قال صاحب زهر الآداب عشقت ابن عم لها فراودها عن نفسها:

ومَا طَعْمُ مَاءٍ أَيُّ مَا تَقُولُهُ تَحَدَّرَ مِنْ غُرٍّ طُوَالِ الذَّوَائِبِ
بِمُنْعَرجٍ مِنْ بَطْنِ وَادٍ تَقَابَلَتْ عَلَيْهِ رِيَاحُ الصَّيْفِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

[٤] الجودي: الجبل.

[٥] اللصاب: الشعب الصغير في الجبل.

نَفَتْ جَرْيَةُ الْمَاءِ الْقَذَى عَنْ مُتُونِهِ ... فَمَا إِنْ بِهِ عَيْبٌ تَرَاهُ لِشَارِبِ
بأَطْيَبَ مِمَّن يَقْصُرُ الطَّرَفُ دُونَهُ ... تُقَى اللهِ وَاسْتِحْيَاءُ بَعض الْعَوَاقِبِ

فإن لها من وصف الماء في عذوبته وجمال موقعه، وحاجة الأعراب إليه غرضًا خاصًّا هو الإشادة بجمال الحياء وطيب العفاف.

ويشبه هذين المثالين ما أنشده ابن دريد:

ما وَجد أعرابيةٍ قَذَفت بها ... صُرُوف النَّوى مِن حَيث لم تك ظَنَّت
تَمنَّت أحَاليبَ الرِّعاء وَخيمَةً ... بِنْجدٍ فلم يُقدر لها ما تمَنَّت
إذا ذكرَت مَاء العِضاه وَطيبِه ... وبَرد الحصى من نحوِ نجدٍ أرَنَّت
بِأوجَدَ مِن وَجدٍ بِريَّا وَجَدتُه ... غَداة غَدَونا غُدوَةً وإطمَأنَّت
فإن يَك هذا عَهْد رَيَّا وأهلهَا ... فَهذا الَّذي كُنّا ظَنَنَّا وظَنَّت

وأروع من هذا قول الأبيوردي[٦]:

وما أُمُّ ساجي الطَّرْفِ مالَ بِهِ الكَرى ... على عَذَباتِ الجزعِ تَحسَبُهُ قُلبا
تُراعي بإحدى مُقْلَتَيْها كِناسَها ... وَتَرْمي بِأُخْرى نَحْوَهُ نَظَرًا غَرْبا
فَلاحَ لَها مِنْ جانِبِ الرَّمْلِ مَرْتَعٌ ... كَأَنَّ الرَّبيعَ الطَّلْقَ ألبَسَهُ عَصْبا
فَمالَت إليهِ، وَالحَريصُ إذا عَدَت ... بِهِ سَورَهُ الأطماعُ لم يَحْمَد العُقْبى
وَآنَسَها المَرْعى الخصيب وَصادَفَتْ ... مدى العينِ في أرجائه بلدًا خصبا
فَلَمّا قَضَتْ مِنْهُ اللُّبانَة راجَعَتْ ... طَلاها فَأَلْفَتْهُ قَضى بَعْدَها نَحْبا
أُتيحَ لَها عاري السَّواعِدِ لَمْ يَزَلْ ... يَخوضُ إِلى أَوْطارِهِ مَطْلَبًا صَعْبا
فولَّتْ على ذعرٍ وبالنِّفسِ ما بها ... من الكربِ لا لقِّيت في حادثٍ كربا

[٦] تجد تفصيل هذه المعاني الوجدانية في كتاب «مدامع العشاق» عند الكلام عن «الطبيعة في أنفس الشعراء».

بِأَوجَدَ مِنّي يَومَ عَجَّتْ رِكابُها ... لِبَيْنٍ فَلَمْ تَتْرُكْ لِذي صَبْوَة لُبّا

وكان يكفي أن يشبه الشاعر وجده بفراق محبوبته بلوعة الظبية يعتال رشأها الذئب، ولكن هذه الصورة الشعرية التي وضعها للغزالة المروّعة الملتاعة جعلت المعنى أوقع في النفس، وأملك للقلب، وأروع للوجدان.

ولننتقل بعد ذلك إلى شوقي، وإنا لنراه صدف عن التخلص وآثر الاقتضاب، فانتقل فجأة من ذلك النسيب المونق المشرق إلى الحديث عما تضمر الدنيا من المبكيات، وما تُجن من ظلمات الخطوب، وتدرج من هذا إلى الحديث عن غفلة النفس وفقرها إلى الأخلاق، وكذلك يقول:

يا نَفسُ دُنياكِ تُخفى كُلَّ مُبكِيَةٍ ... وَإِن بَدا لَكِ مِنها حُسنُ مُبتَسَمِ
فُضّي بِتَقواكِ فاهًا كُلَّما ضَحِكَتْ ... كَما يَفُضُّ أَذى الرَقشاءِ بِالثَرَمِ
مَخطوبَةٌ مُنذُ كانَ الناسُ خاطِبَةٌ ... مِن أَوَّلِ الدَهرِ لَم تُرمِل وَلَم تَئِمِ
يَفنى الزَمانُ وَيَبقى مِن إِساءَتِها ... جُرحٌ بِآدَمَ يَبكي مِنهُ في الأَدَمِ
لا تَحفَلي بِجَناها أَو جِنايَتِها ... المَوتُ بِالزَهرِ مِثلُ المَوتِ بِالفَحَمِ
كَم نائِمٍ لا يَراها وَهيَ ساهِرَةٌ ... لَولا الأَمانِيُّ وَالأَحلامُ لَم يَنَمِ
طَورًا تَمُدُّكَ في نُعمى وَعافِيَةٍ ... وَتارَةً في قَرارِ البُؤسِ وَالوَصَمِ
كَم ضَلَّلَتكَ وَمَن تُحجَب بَصيرَتُهُ ... إِن يَلقَ صَابًا يَرِد أَو عَلقَمًا يَسُمُ
يا وَيلَتاهُ لِنَفسي راعَها وَدَها ... مُسوَدَّةُ الصُحفِ في مُبيَضَّةِ اللِمَمِ
رَكَضتُها في مَريعِ المَعصِياتِ وَما ... أَخَذتُ مِن حِميَةِ الطاعاتِ لِلتُخَمِ
هامَت عَلى أَثَرِ اللَذّاتِ تَطلُبُها ... وَالنَفسُ إِن يَدعُها داعي الصِبا تَهِمِ
صَلاحُ أَمرِكَ لِلأَخلاقِ مَرجِعُهُ ... فَقَوِّمِ النَفسَ بِالأَخلاقِ تَستَقِمِ
وَالنَفسُ مِن خَيرِها في خَيرِ عافِيَةٍ ... وَالنَفسُ مِن شَرِّها في مَرتَعٍ وَخِمِ
تَطغى إِذا مُكِّنَت مِن لَذَّةٍ وَهَوًى ... طَغيَ الجِيادِ إِذا عَضَّت عَلى الشُكُمِ
إِن جَلَّ ذَنبي عَنِ الغُفرانِ لي أَمَلٌ ... في اللهِ يَجعَلُني في خَيرِ مُعتَصِمِ
أَلقى رَجائي إِذا عَزَّ المُجيرُ عَلى ... مُفَرِّجِ الكَرَبِ في الدارَينِ وَالغَمَمِ
إِذا خَفَضتُ جَناحَ الذُلِّ أَسأَلُهُ ... عِزَّ الشَفاعَةِ لَم أَسأَل سِوى أَمَمِ
وَإِن تَقَدَّمَ ذو تَقوى بِصالِحَةٍ ... قَدَّمتُ بَينَ يَدَيهِ عَبرَةَ النَدَمِ

لَزِمتُ بابَ أَميرِ الأَنبِياءِ وَمَن يُمسِك بِمِفتاحِ بابِ اللهِ يَغتَنِمِ

وهذه قطعة مختارة، الجيد فيها أكثر وأجود مما يقابله في كلام البوصيري وإن قول شوقي:

لا تَحفَلي بِجَناها أَو جِنايَتِها المَوتُ بِالزَهرِ مِثلُ المَوتِ بِالفَحَمِ

لأشرف معنى وأسمى خيالًا من قول البوصيري:

وَاخْشَ الدَّسائِسَ مِن جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ فَرُبَّ مَخْمَصَة شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ

ولك أن تلاحظ أن البوصيري وقف موقف الناصح الأمين، فلما وصل إلى نفسه ذكر أنه لم يُصلِّ ولم يَصُم سوى الفرض، وأنه يَاسى على أن لم يتزود نافلة قبل الموت، وأنه لذلك ظلم سُنة من أحيا الظلام حتى تورمت قدماه، ومن هنا لم تكن الفرصة سانحة؛ ليذرف ما ذرف شوقي من الدمع.

وأين شوقي من البوصيري؟ لقد كان البوصيري من أئمة الصوفية، أما شوقي فقد كان حين نظم قصيدته من رجال البلاط، وكان يحسن أن يقول:

رمضان وَلَّى هَاتِهَا يا سَاقِي مُشتَاقَةً تَسعَى إلى مُشتَاقِ

ومن هنا سنحت له الفرصة ليزفر تلك الزفرة الحرة، ويرمي بذلك الدم الموجع الذي يذيب لفائف القلوب، وانظر كيف يقول:

إِن جَلَّ ذَنبي عَنِ الغُفرانِ لي أَمَلٌ في اللهِ يَجعَلُني في خَيرِ مُعتَصِمِ

وكان شوقي أوفر الناس إحساسًا بخطر ذنبه، وكرم ربه، حين قال:

وَإِن تَقَدَّمَ ذو تَقوى بِصالِحَةٍ قَدَّمتُ بَينَ يَدَيهِ عَبرَةَ النَدَمِ

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

الفصل الثالث والعشرون

المعجزات

لنا في المعجزات رأيٌ خاص، لا يسمح به ظرف الزمان؛ لأن درس المعجزات بطريقة علمية يتطلب عرض ما يحيط بها من الحقائق والفروض، وقد يثير فتنة نحن عنها أغنياء[1]، فلنذكر فقط ما يتصل بما ذكره البوصيري، وشوقي، والبارودي من معجزات النبي ﷺ ولنذكر قبل ذلك أن القرآن يفيض بالتذمر من إلحاح المعاندين ولجاجتهم في طلب المعجزات، إذ كان النبي يدعو إلى تحكيم العقل، وكان أولئك الكفار يأبون إلا أن تكون الرسالة مصحوبة بألعاب بهلوانية، تنفر منها القلوب، وتأباها العقول، وتنبو عنها الأذواق، ولننظر كيف يقول فيهم عز شأنه وتبارك اسمه في سورة الإسراء:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۞ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۞ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾

[1] ومع ذلك سمح الزمن وأبدينا بعض الآراء بصراحة في كتاب «المدائح النبوية» حين حللنا بردة البوصيري، وحين نقدنا قصة المولد النبوي، وقد بدأ الناس يفهمون أن الإسلام في غنى بجماله الحق عن زخرف الأباطيل.

وهذه الآيات صريحة في أن النبي لا يملك لنفسه شيئًا؛ وأن الأمر كله لله، وأن في القرآن هدىً وتبصرةً لقوم يعقلون، وأصرح من هذا قوله تعالى في سورة العنكبوت:

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

ومعنى هذه الآيات أن معجزة النبي الباقية هي القرآن، وفي تأييد ذلك يقول البوصيري:

آياتُ حقٍّ مِن الرّحمَنِ مُحدَثَة قَدِيمَة صِفَة المَوْصوفِ بِالقِدَم
لم تقترنْ بِزمَانٍ وَهي تُخبرُنَا عَن المَعَادِ وعَنْ عَادٍ وعَنْ إرَمِ
دَامَتْ لَدَيْنا فَفاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَة مِنَ النَّبِيِّينَ إذْ جَاءَتْ ولَمْ تَدُمِ

وتبعه شوقي فقال:

جاءَ النبِيّونَ بِالآياتِ فَانصَرَمَتْ وَجِئتَنا بِحَكيمٍ غَيرِ مُنصَرِمِ
آياتُهُ كُلَّما طالَ المَدى جُدُدٌ يَزينُهُنَّ جَلالُ العِتقِ وَالقِدَمِ
يَكادُ في لَفظَةٍ مِنهُ مُشَرَّفَةٍ يوصيكَ بِالحَقِّ وَالتَقوى وَبِالرَحِمِ

ويمكن بعد هذا أن نقرر أن شعراءنا الثلاثة لم يهتموا بنقد الأخبار الواردة في المعجزات، وإن كان شوقي على شيء من الحرص، ويليه البوصيري، أما البارودي فقد نظم كل ما صادفه من هذا القبيل، وقد اشترك البوصيري والبارودي في الحديث عن سجود الأشجار، وسعيها إلى الرسول، فقال البوصيري:

جاءتْ لدَعْوَتِهِ الأشجارُ ساجِدَة تَمْشِي إليهِ عَلَى سَاقٍ بِلا قَدَمِ
كأنَّما سَطَرَتْ سَطْرًا لِمَا كَتَبَتْ فُرُوعها مِن بَدِيعِ الخَطِّ بِالقَلَمِ

وقال البارودي:

أَتلكَ أَمْ حِينَ نادى سَرْحَةً فَأَتَت إِلَيهِ مَنشُورَةَ الأَغصانِ كَالحُمَمِ
حَنَّت عَلَيهِ حُنُوَّ الأُمِّ مِن شَفَقٍ وَرَفرَفَت فَوقَ ذاكَ الحُسنِ مِن رَخَمِ

جاءَتهُ طَوعًا وَعادَت حينَ قالَ لَها: عُودِي وَلو خُلِّيَتْ لِلشَّوقِ لَم تَرِمِ

وانفرد البارودي بالحديث عن شق صدر النبي وهو غلام، فقال:

فَبَينَما هُوَ يَرعى البَهْمَ طافَ بِهِ شَخصانِ مِن مَلَكوتِ اللهِ ذي العِظَمِ
فَأَضجَعاهُ وَشَقّا صَدرَهُ بِيَدٍ رَفيقَةٍ لَم يَبِت مِنها عَلى أَلَمِ
وَبَعدَ ما قَضَيا مِن قَلبِهِ وَطَرًا تَوَلَّيا غَسلَهُ بِالسَّلسَلِ الشَّبِمِ
ما عالَجا قَلبَهُ إلا لِيَخلُصَ مِن شَوبِ الهَوى وَيَعِي قُدسِيَّةَ الحِكَمِ
فَيا لَها نِعمَةً للهِ خَصَّ بِها حَبيبَهُ وَهوَ طِفلٌ غَيرُ مُحتَلِمِ

وشقُّ الملائكة لصدر النبي وغسلهم إياه بالسلسبيل ليس من المعجزات؛ لأن المعجزة تكون للإقناع، وهو لم يدع إلى ربه في طفولته حتى يكون للإقناع مجال، وإنما هو نوع من التطهير لم تجر به العادة ولم يعرفه الناس، والله يختص برحمته من يشاء، وقد مر البارودي بهذه الأسطورة مرَّ الطيف، فلم يعرض لها بنقد ولم يتناولها بتحليل، ونحن نكتفي هنا بأن نقرر أنها في حاجة إلى تحقيق، ثم نلتفت إلى ما فيها من روعة الخيال، فقد صوّر النبي فيها صورة رائعة، وتمثَّل فيها لطف الله به، وإحسانه إليه، وتكريمه إياه، وهي صورة شعرية نحب أن نمتع بها القارئ؛ لبرى كيف ابتدأ القَصَص في سيرة النبي ﷺ.

ذكر محمد بن ظفر من حديث طويل أن النبي ﷺ قال:

وكنت مُسترضَعًا في بني سعد بن بكر، فبينما أنا ذات يوم مُنتَبِذٌ من أهلي في بطن واد مع أتراب لي من الصبيان إذا أنا برهط ثلاثة معهم طشت بَرهرَهة من الذهب ملآن ثلجًا، فأخذوني من بين أصحابي، وانطلق أصحابي هرابًا حتى انتهوا إلى شفير الوادي، ثم أقبلوا على الرهط وقالوا: ما أَرَبُكُم من هذا الغلام؟ فإنه ليس منا، هذا ابن سيد قريش، وهو مسُترضَع فينا، غلام يتيم ليس له أب فما يرد عليكم قتله، وماذا تصيبون من ذلك؟ فإن كنتم لا بد قاتليه فاختاروا منا أيّنا شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فإنه يتيم، فلما رأى الصبيان أن القوم لا يحيرون جوابًا انطلقوا مسرعين إلى الحيّ يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم، قال: فعمد أحدهم فأضجعني إلى

الأرض إضجاعًا رفيقًا ثم شق بطني ما بين مفرق صدري إلى عانتي، وأنا أنظر إليه، ولم أجد لذلك مَسًّا ثم أخرج أحشاء بطني فغسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها، ثم أعادها إلى مكانها، ثم قام التاني منهم فقال لصاحبه: تنَحَّ عنه، فنحّاه عني، ثم أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي وأنا أنظر إليه، فصدّعَه ثم أخرج منه مُضغة سوداء فرمى بها، ثم أمَرَّ يده يمنةً منه، وكأنه يتناول شيئًا فإذا بخاتم من نور في يده يحار الناظرون إليه فختم به قلبي فامتلأ نورًا، وذلك نور النبوة والحكمة، ثم أعاده مكانه فوجدت برد الخاتم في قلبي دهرًا، ثم قال الثالث: تَنَحَّ عنه، فنحّاه عني، فأمرّ يده على مفرق صدري إلى مُنَّتهى عانتي، فالتأم ذلك الشق بإذن الله تعالى، ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني إنهاضًا لطيفًا، ثم قال للأول الذي شقّ بطني: زنه بعشرين من أمته فوزنني فرجَحتُهُم، ثم قال: زنه بمئة من أمّته فوزنني فرجحتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته فوزنني فرجحتهم، ثم قال: دعه فوالله لو وزنته بأمته لرجحهم. قال: ثم ضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي، وما بين عيني، ثم قالوا: لا تُرع، فإنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرَّت به عيناك. قال: فبينما نحن كذلك إذ أقبل الحي بحذافيرهم، فإذا ظئري أمام الحي تهتف بأعلى صوتها، وتقول: وا ضعيفاه! فانكبوا عليَّ وضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي، وما بين عينَّي — يعني الملائكة — وقالوا: حبذا أنت من وحيد! وما أنت بوحيد، إن الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض! ثم قالت ظئري: وا يتيماه!! استضعفت من بين أصحابك فقتلت لضعفك! قال: فانكبوا عليَّ وضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي، وما بين عينَّي — يعني الملائكة — وقالوا: حبذا أنت من يتيم! ما أكرمك على الله! لو تعلم ما يراد بك من الخير لقرَّت به عيناك! فوصل الحي إلى شفير الوادي فلما أبصرتني أمي — وهي ظئري — قالت: لا أراك إلا حيًّا بعد! فجاءت حتى انكبت عليَّ، ثم ضمتني إلى صدرها، فوالذي نفسي بيده إني لفي حجرها قد ضمتني إليها، وإن يدي لفي يد بعض الملائكة، وجعل القوم لا يرونهم، قال: فقال بعض القوم: إن هذا الغلام قد أصابه لممٌ، أو طائفٌ من الجن فانطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويداويه، فقلت: يا هذا ما بي سيئ مما تذكرون، إن آرابي لسليمة وفؤادي صحيح، ليست لي فَلتة، فقال أبي — وهو زوج ظئري — ألا ترون

كلامه كلام فصيح؟ إني لأرجو أن لا يكون بابني بأس، فاتفقوا على أن يذهبوا بي إلى الكاهن، فلما انصرفوا بي قصّوا عليه قصتي، فقال: اسكتوا حتى أسمع من الغلام، فإنه هو أعلم بأمره منكم، فسألني فقصصت عليه القصة، وأمري من أوله إلى آخره، فوثب إليّ وضمني إلى صدره ثم نادى بأعلى صوته: يا للعرب! اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه! فواللات والعُزَّى لئن تركتموه وأدرك ليُبَدّلنَّ دينكم، وليسفِّهَن عقولكم وعقول آبائكم، وليخالفن أمركم، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله! قال: فعمدت ظئري إليه فانتزعتني من حجره، وقالت: لأنت أعته وأجن! ولو علمت أن هذا من قولك لما أتيتك به، فاطلب لنفسك من يقتلك، فإنّا غير قاتلي هذا الغلام! ثم احتملوني وأدوني إلى أهلهم وأصبحت مُفَزَّعًا مما فُعلَ بي، وأصبح أثر الشق ما بين صدري إلى منتهى عانتي كأنه الشّراك[٢].

وقد نقلنا هذا الحديث على طوله لنمكن القارئ من نقده وتمييزه، ولنجعله على بينة من الحكم له أو عليه، إن شاء، أما نحن فتريبنا فيه عبارته، إذ كانت عبارة ضعيفة لا تسمو إلى ما في صحيح الحديث من متانة التركيب وحلاوة التعبير، ويريبنا بنوع خاص مفتتح الحديث، فإن طريقة القصص التي سلكها قد تدل على أنه موضوعٌ، وذلك قوله: «روى شداد بن أوس قال: بينا نحن جلوس مع النبي ﷺ إذ أقبل شيخ من بني عامر وهو مدره قومه، يتوكأ على عصاه، فمثل بين يدي رسول الله ﷺ ونسبه إلى جده فقال: يابن عبد المطلب إني أنبئت أنك تزعم أنك رسول الله ﷺ إلى الناس، وأن الله تعالى أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والخلفاء، ألا وإنك تفوهت بعظيم، إنما كانت الأنبياء والخلفاء في بيتين من بني إسرائيل، وأنت ممن يعبد الحجارة والأوثان، فما لك والنبوة؟ ولكن لكل حق حقيقة، فأنبئني بحقيقة قولك، وبدوِّ شأنك، قال: فأعجب النبي بمسألته، ثم قال: يا أخا بني عامر، إن لهذا الحديث الذي سألتني عنه نبأ عظيمًا ومجلسًا كريمًا إلخ».

فإن القارئ يرتاب على الأقل في صحة هذه الجملة: «إني أنبئت أنك تزعم أنك رسول الله ﷺ إلى الناس»، فإن كلمة صلى لله عليه وسلم لا تقال لمن «يزعم» أنه رسول.

[٢] راجع كتاب نجباء الأبناء.

وعبارة «فأنبئني بحقيقة قولك وبدوِّ شأنك»، عبارة مولدة، ولا ريب في ذلك، وما أظن النبي يقول: «إن لهذا الحديث الذي سأتني عنه نبأ عظيمًا، ومجلسًا كريمًا»، فإن هذا أيضا من تعابير المولدين، ولكل عصر أسلوب.

أكتفي بهذا في نقد هذه الأقصوصة، وأترك للمشتغلين بعلم الحديث تقديمها إلى محكمة التعديل التجريح، وأَكِل إلى أستاذنا الدكتور طه حسين تأريخ هذا النوع من البيان، وأنتقل إلى ما ذكروه من العجائب عند ميلاد الرسول، كانصداع إيوان كسرى، وخمود نار الفرس، ونضوب بحيرة ساوة، وما إلى ذلك من خوارق العادات، قال البوصيري في البردة:

أبان مولده عن طيب عنصره ... يا حسن مبتدأ منه ومختتم
يوم تفرس فيه الفرس أنهمو ... قد أنذروا بحلول البؤس والنقم
وبات إيوان كسرى وهو منصدع ... كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف ... عليه والنهر ساهي العين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها ... ورد واردها بالغيظ حين ظمى
كأن بالنار ما بالماء من بلل ... حزنا وبالماء ما بالنار من ضرم
والجن تهتف والأنوار ساطعة ... والحق يظهر من معنى ومن كلم
عَموُا وصمُّوا فإعلانُ البشائرِ لمْ ... تُسْمَعْ وَبارِقَة الإِنْذارِ لَمْ تُشَمِ
مِنْ بَعْدِ ما أَخْبَرَ الأَقْوامَ كاهِنُهُمْ ... بأَنَّ دينَهُمُ الـمُعْوَجَّ لَمْ يَقُمِ
وبعدَ ما عاينوا في الأفقِ من شُهُبٍ ... منقضة وفقَ ما في الأرضِ من صنمِ
حتى غدا عن طريقِ الحقِ مُنهزمٌ ... من الشياطينِ يقفو إثرَ منهزمِ

وقال في الهمزية:

وَتَدَاعَى إِيوَانُ كِسْرَى وَلَولا ... آيَةٌ مِنْكَ مَا تَدَاعَى الْبِنَاءُ
وَغَدَا كُلُّ بَيْتِ نَارٍ وَفِيهِ ... كُرْبَةٌ مِنْ خُمُودِهَا وَبَلاَءُ
وَعُيُونٌ لِلْفُرْسِ غَارَتْ فَهَلْ كَا ... نَ لِنِيرَانِهِمْ بِهَا إِطْفَاءُ

ويقول شوقي في نهج البردة:

وَخَلِّ كِسرى وَإيوانًا يَدِلُّ بِهِ   هَوى عَلى أَثَرِ النيرانِ وَالأَيُمِ

ويقول في الهمزية:

ذُعِرَت عُرُوشُ الظَّالِمينَ فَزُلزِلَت   وَعَلَت عَلى تَيجانِهِم أَصداءُ
وَالنَّارُ خَاوِيَةُ الجَوانِبِ حَولَهُمْ   خَمَدَت ذَوائِبُها وَغَاضَ الماءُ
وَالآيُ تَترَى وَالخَوارِقُ جَمَّةٌ   جِبرِيلُ رَوّاحٌ بِها غَدّاءُ

ويرى القارئ أن البوصيري أكثر من شوقي إشادة بتلك الخوارق، وشعره فيها يفيض بالحياة، أما شوقي فقد آثر الحيطة، وهو يتكلم عن هذه الموضوعات، فكان شعره فيها أضعف من شعره في سائر أغراض القصيدة، وسنرى تحليله لفريضة الجهاد في الكلمة الآتية.

ويمكن بعد هذا أن نحكم بأن شعر البوصيري أروع من شعر شوقي في وصف الخوارق والمعجزات، وأن شوقي أبعد نظرًا من البوصيري في نقد الأخبار والآثار، فإن انصداع الإيوان، وخمود نار الفُرس، ونضوب بحيرة ساوة، وانقضاض الشهب على الأصنام: كل هذه الحوادث فيها نظر، وكلها في حاجة إلى تمحيص، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الفصل الرابع والعشرون

وصف القرآن

لم يُعن البارودي بوصف القرآن كما عُنِي به البوصيري وشوقي، أما البوصيري فقد قال:

دَعنِي ووَصفِي آيَاتٍ لَه ظَهَرَتْ ظهُورَ نَارِ القِرى ليلًا عَلى علَمِ
فَالدُّرُّ يَزدَادُ حُسنًا وهو مُنتَظِمٌ ولَيسَ يَنقُصُ قَدرًا غَير مُنتَظمِ
فَمَا تَطَاوَلُ آمَالُ المَدِيحِ إلى ما فِيهِ مِنْ كَرَمِ الأَخْلاَقِ والشِّيَمِ

وأول هذه الأبيات فيه شيء من السذاجة. وعبارة «دعني ووصفي آيات له ظهرت» عبارة عاميّة. وقوله:

فَالدُّرُّ يَزدَادُ حُسنًا وهو مُنتَظِمٌ ولَيسَ يَنقُصُ قَدرًا غَير مُنتَظمِ

غير واضح المدلول؛ لأن الدر الذي يتحدث عنه لا يصح أن يكون صفة القرآن؛ لأنه لا يُهمُّ بنظم القرآن، ولا يصح أن يكون صفة لتقريظ القرآن، إذ لم تسبق ذلك إشارةٌ ولم يتقدمه دليل، فلم يبق إلا أن تكون هذه خطرة عرضت للشاعر وعز عليه أن تضيع، فقيدها في ذلك البيت وهو في ذاته بيت جميل ... أما قوله:

فَمَا تَطَاوَلُ آمَالُ المَدِيحِ إلى ... ما فِيهِ مِنْ كَرَمِ الأَخْلَاقِ والشِّيَمِ

فهو بيت يُمدح به شخص، ولا يُقَرَّظ به كتاب، وقد كان الشاعر يرمي إلى وصف القرآن بأنه دعوة إلى محاسن الشيم، ومكارم الأخلاق، ولكنه لو يوفّق إلى حسن الأداء ...

وقوله بعد ذلك:

آياتُ حقٍّ مِن الرّحمَنِ مُحدَثة ... قَدِيمَة صِفَة المَوْصوفِ بِالقِدَم
لم تقترنْ بِزمَانٍ وَهي تُخبرُنَا ... عَن المَعَادِ وعَنْ عَادٍ وعَنْ إرَمِ

فيه إشارة إلى ما اختلف فيه المتكلمون عن قدم القرآن وحدوثه، وهي إشارة مبهمة لا تغني في دفع ولا تأييد، والبيت الثاني غير جيد المعنى؛ لأن إخبار القرآن عن عاد وعن إرم، ليس حجة إلا عند المسلمين، أما جمهور العالم فلا يصدق من أخبار العهود الأولى غير ما تشهد به الآثار، بَعدَ أمن اللبس والتزوير ...

أما قوله:

دَامَتْ لَدَيْنا فَفاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ ... مِنَ النَّبِيِّينَ إذْ جَاءَتْ ولَمْ تَدُمِ

فهو بيت القصيد، إذ كان القرآن هو المعجزة الباقية، وكان هو المرجع حين يَجِدُّ الخلاف، وهو أيضًا المعجزة الصريحة التي يعتز بها العقل، ويصح للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين، أما نبع الماء من بين يدي الرسول، وتظليل الغمام إياه، وسجود الأشجار له، وما إلى ذلك من المعجزات، فهي مسائل يحتاج عرضها إلى مخاطرة، وهي مخشيّة الضرّ، قبل أن تكون مَرجُوَّة النفع، ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

وقوله:

ما حُورِبَتْ قَطُّ إلاَّ عادَ مِنْ حَرَبٍ ... أَعْدَى الأعادي إليها مُلقِيَ السَّلَمِ

رَدَّتْ بلاغَتُها دَعْوى مُعارِضِها ردَّ الغيور يدَ الجاني عن الحُرمِ

كلمة صدق، ويكفي أن تقرأ القرآن بحيدةٍ ونزاهةٍ لتلمس هذه الحقيقة، فالقرآن كتابٌ خطرُ رهيب، يحمل عدوه على الإيمان به، والخشوع لديه. ولو صَحَّت — لا صحّت — أراجيف المُلحدين من أن القرآن من إنشاء محمد بن عبد الله لكان محمد هذا أعظم رجل شهده هذا الوجود.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾

وما أصدق قول البوصيري في آيات الكتاب العزيز:

لهَا مَعانٍ كَمَوْجِ البَحْرِ في مَدَدٍ وفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الحُسْنِ والقِيَمِ
فما تُعَدُّ وَلا تُحْصَى عَجَائبُها ولا تُسَامُ عَلَى الإكْثَارِ بِالسَّأَمِ
قَرَّتْ بِهَا عَينُ قَاريها فَقُلْت لَه: لَقَد ظَفِرْتَ بِحَبْلِ الله فَاعْتَصِمِ
إنْ تَتْلُها خِيفَة مِنْ حَرِّ نارِ لَظَى أطْفَأْتَ نارَ لَظَى مِنْ وِرْدِها الشَبمِ
لا تعْجَبَنْ لِحَسُودٍ راحَ يُنكِرُهَا تَجاهُلًا وهْوَ عَينُ الحَاذِقِ الفَهِمِ
قد تُنْكِرُ العيْنُ ضوْء الشَّمْسِ مِن رَمَدٍ ويُنْكِرُ الفَمُّ طَعْمَ الماءِ مِنْ سَقَمِ

وهذا البيت الأخير من فرائد الأمثال، وهو غاية في تقريع المكابرين ...

أما شوقي فقد قال:

جاءَ النبيّونَ بِالآياتِ فَانصَرَمَتْ وَجِئتَنا بِحَكيمٍ غَيرِ مُنصَرِمِ
آياتُهُ كُلَّما طالَ المَدى جُدُدٌ يَزينُهُنَّ جَلالُ العِتقِ وَالقِدَمِ
يَكادُ في لَفظَةٍ مِنهُ مُشَرَّفَةٍ يوصيكَ بِالحَقِّ وَالتَقوى وَبِالرَحِمِ

وهذا الوصف على إيجازه جميل، وكنت أود ألا يكتفي شوقي في وصف القرآن بهذه الأبيات ...، وقد انتقل إلى الإشادة بحديث النبي فقال:

يا أَفصَحَ الناطِقينَ الضادَ قاطِبَةً حَديثُكَ الشَهدُ عِندَ الذائِقِ الفَهِمِ
حَلَّيتَ مِن عَطَلٍ جِيدَ البَيانِ بِهِ في كُلِّ مُنتَثِرٍ في حُسنِ مُنتَظِمِ

بِكُلِّ قَولٍ كَريمٍ أَنتَ قائِلُهُ   تُحيِي القُلوبَ وَتُحيِي مَيِّتَ الهِمَمِ

وقول شوقي:

آياتُهُ كُلَّما طالَ المَدى جُدُدٌ   يَزينُهُنَّ جَلالُ العِتقِ وَالقِدَمِ

أروع من قول البوصيري:

فما تُعَدُّ وَلا تُحْصَى عَجَائِبُها   ولا تُسَامُ عَلَى الإكثَارِ بِالسَّأَمِ

وقول البوصيري:

إنْ تَتْلُها خِيفَة مِنْ حَرِّ نارِ لَظَى   أطْفَأْتَ نارَ لَظَى مِنْ وِرْدِها الشَّبمِ

فيه ضعف؛ لأنه ينقل القرآن من الغرض الذي أنزل لأجله، وهو تهذيب النفوس، وتثقيف العقول، إلى غرض ضئيل وهو اتخاذه وردًا من أوراد الصباح أو المساء، كما فعل المتأخرون.

وقوله:

حَلَّيتَ مِن عَطَلٍ جِيدَ البَيانِ بِهِ   في كُلِّ مُنتَثِرٍ في حُسنِ مُنتَظِمِ

غير جيد المعنى، وهو لا يزيد عن قول بعض الناس «أما القرآن فهو زينة البيان، وقلائد العقيان»، وعيب هذا النوع من الوصف يرجع إلى ما فيه من الشمول، وجودة الوصف لا تتم إلا بتجديد الموصوف.

وصف الهيجاء

عُنَي العرب كثيرًا بوصف الحرب، فأفاض شعراؤهم في الإشادة بذكر الغزاة، والتمدح بآثار المجاهدين، وهذا كتاب (الحماسة) شاهدٌ عدلٌ على تلك النزعة الحربية التي سيطرت على نفوس العرب زمنًا غير قليل، فقد اختار أبو تمام قطعًا قليلة في الحديث عن أدب النفس ومكارم الأخلاق، وفعل مثل ذلك في الفكاهات والمُلح والنسيب، ثم ملأ

كتابه بالحماسة والهجاء والمديح: وهي الفنون التي تترجم النفس العربية، وتكشف عما فيها من مطويّ النوازع، ومكنون الميول، وكذلك مُهِّدت السبيل الشعرائنا الذين أرادوا التنويه بما خاض النبي من المعارك، وما اقتحم من الحروب، وإن اختلفت مناحيهم في وصف الهيجاء.

أما البوصيري فقد تحدث عن الحرب بطريقة مجملة ولم يميز بعض الغزوات عن بعض، وهو يتكلم عن أخبار القتال، فوصفُه للحرب وصفٌ فَضفاضٌ يصلح لبوسًا لكل موصوف. وانظر كيف يقول:

راعتْ قلوبَ العدا أنباءُ بعثتهِ كَنَبْأَة أَجْفَلَتْ غَفْلًا مِنَ الغَنَمِ
ما زالَ يلقاهمُ في كلِّ معتركٍ حتى حَكَوْا بالقَنا لَحْمًا على وضَم
وَدُّوا الفِرَار فَكَادُوا يَغبِطونَ بهِ أشلَاءَ شَالَتْ مَع العِقبَانِ والرَّخمِ
تَمضِي اللَّيالِي ولا يَدرونَ عدَّتَهَا ما لَمْ تَكُنْ مِنْ لَيَالِي الأَشْهُرِ الحُرُمِ
كَأَنَّمَا الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ بِكلِّ قَرْمٍ إِلَى لَحْمِ العِدَا قَرِم
يَجُرُّ بَحْرَ خَمِيسٍ فوقَ سابِحَةٍ يَرمِي بِمَوجٍ من الأبطَالِ مُلتَطمِ
مِن كُلِّ مُنتَدِبٍ لله مُحتَسِبٍ يَسْطو بِمُسْتَأْصِلٍ لِلْكُفْرِ مُصطَلِم
حَتَّى غَدَتْ مِلَّةَ الإسلَامِ وهْيَ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ غُرْبَتِها مَوْصُولَةَ الرَّحِم

وإنه ليحسن أن نسجل إعجابنا بقوله في وصف المجاهدين من أصحاب الرسول:

هُم الجِبالُ فَسَلْ عنهمْ مُصادِمَهُمْ ماذا رأى مِنْهُمُ في كلِّ مُصطَدَم
وَسَل حُنَينًا وَسَلْ بَدرًا وَسَلْ أُحُدًا فُصُولَ حَتْفٍ لهُمْ أدْهَى مِنَ الوَخَم
المُصدِرِي البِيضَ حُمرًا بعدَ ما وَرَدَت مِن العِدَا كُلَّ مُسْوَّدٍ مِن اللِّمَمِ
وَالكَاتِبِينَ بِسُمْرِ الخَطِّ مَا تَرَكَتْ أقلَامُهُمْ حَرفَ جِسمٍ غَيرَ مُنعَجِمِ
شَاكِي السِّلَاحِ لَهُم سِيمَا تُمَيِّزُهُمْ والوَردُ يَمتَازُ بِالسِّيما مِن السَّلمِ
تُهدِى إِلَيكَ رِياحُ النَّصرِ نَشرَهمُ فَتَحسبُ الزَّهرَ في الأكمَامِ كُلَّ كَمي

وقد يستضعف قوله:

كَأَنَّهُمْ في ظُهُورِ الخيلِ نَبتُ رُبًا ... مِنْ شِدَّة الحَزْمِ لاَ مِنْ شِدَّة الحُزُمِ
طَارَت قُلُوبُ العِدَا مِن بأَسِهِمِ فَرَقًا ... فما تُفَرِّقُ بين البَهم والبُهمِ

أما البارودي — جعل الله له لسان صدقٍ في الآخرين — فقد وصف الحرب وصفًا حيًّا صارخًا يبعث ميت العزم، ويثير مدفون الصّيّال، وما ظنك بجندي سفاح نشأ في أرض الفراعنة الذين همُّوا ببناء الصروح الشوامخ؛ ليبلغوا أسباب السماوات وليحاربوا المقتدر القهار، وإنه لضلال أجمل من الهدى، وغي أهدى من الرشاد!

ولننظر كيف يقول:

قامَ النَّبِيُّ لِنَصرِ الحَقِّ مُعتَزِما ... بِجَحفَلٍ لِجُمُوعِ الشِّركِ مُحْتَرِمِ
تَبدُو بِهِ البِيضُ وَالقَسطالُ مُنتَشِرٌ ... كَالشُّهبِ في اللَّيلِ أَو كَالنّارِ فِي الفَحَمِ
لَمعُ السُّيُوفِ وَتَصهالُ الخُيولِ بِهِ ... كَالبَرقِ وَالرَّعدِ في مُغدَودِقٍ هَزِمِ
عَرمرَمٌ يَنسِفُ الأَرضَ الفَضاءَ إِذا ... سَرى بِها وَيَدُكُّ الهَضبَ مِن خِيَمِ
فِيهِ الكُماةُ الَّتي ذَلَّت لِعِزَّتِها ... مَعاطِسٌ لَم تُذَلَّل قَبلُ بِالخُطُمِ
مِن كُلِّ مُعتَزِمٍ بِالصَّبرِ مُحتَزِمٍ ... لِلقِرنِ مُلتَزِمٍ في البَأسِ مُهتَزِمِ
طالَت بِهِم هِمَمٌ نالُوا السِّماكَ بِها ... عَن قُدرَةٍ وَعُلُوُّ النَّفسِ بِالهِمَمِ
بِيضٌ أَساوِرَةٌ غُلبٌ قَساوِرَةٌ ... شُكسٌ لَدى الحَربِ مِطعامونَ في الأُزُمِ
طابَت نُفُوسُهُمُ بِالمَوتِ إِذ عَلِمُوا ... أَنَّ الحَياةَ الَّتي يَبغُونَ في العَدَمِ
ساسُوا الجِيادَ فَظَلَّت في أَعِنَّتِها ... طَوعَ البَنانَةِ في كَرٍّ وَمُقتَحَمِ
تَكادُ تَفقَهُ لَحنَ القَولِ مِن أَدَبٍ ... وَتَسبِقُ الوَحيَ وَالإِيماءَ مِن فَهَمِ
كَأَنَّ أَذنابَها في الكَرِّ أَلوِيَةٌ ... عَلَى سَفِينٍ لِأَمرِ الرِّيحِ مُرتَسِمِ
مِن كُلِّ مُنجَرِدٍ يَهوي بِصاحِبِهِ ... بَينَ العَجاجِ هَوِيَّ الأَجدَلِ اللَّحِمِ
وَالبِيضُ تَرجُفُ في الأَغمادِ مِن ظَمَأٍ ... وَالسُّمرُ تَرعَدُ في الأَيمانِ مِن قَرَمِ
مِن كُلِّ مُطَّرِدٍ لَولا عَلائِقُهُ ... لَسابَقَ المَوتَ نَحوَ القِرنِ مِن ضَرَمِ
كَأَنَّهُ أَرقَمٌ في رَأسِهِ حُمَةٌ ... يَستَلُّ كَيدَ الأَعادي بِابنَةِ الرَّقَمِ
فَلَم يَزَل سائِرًا حَتّى أَنافَ عَلى ... أَرباضِ مَكّةَ بِالفُرسانِ وَالبُهَمِ

وَلَفَّهم بِخَمِيسٍ لَو يَشُدُّ عَلى ... أَركانِ رَضوى لَأَضحى مائِلَ الدِّعَمِ
فَأَقبَلوا يَسأَلُونَ الصَّفحَ حِينَ رَأَوا ... أَنَّ اللَّجاجَةَ مَدعاةٌ إِلى النَّدَمِ
رِيعُوا فَذَلُّوا وَلَو طاشُوا لَوَقَّرَهُم ... ضَربٌ يُفَرِّقُ مِنهُم مَجمَعَ اللِّمَمِ

وهذه صورة شعرية قليلة الأمثال، وإنك لتعجب حين ترى البارودي يَفتنّ في تصوير الحرب، وهو يتحدث عن الغزوات غزوةً، غَزوةً وانظر كيف يقول مثلًا في يوم بدر:

يَومٌ تَبَسَّمَ فيهِ الدِّينُ وَانهَمَلَت ... عَلَى الضَّلالِ عُيونُ الشِّركِ بِالسَّجَمِ
أَبلَى عَلِيٌّ بِهِ خَيرَ البَلاءِ بِما ... حَباهُ ذُو العَرشِ مِن بَأسٍ وَمِن هِمَمِ
وَجالَ حَمزَةُ بِالصَّمصامِ يَكسؤُهُم ... كَسًا يُفَرِّقُ مِنهُم كُلَّ مُزدَحَمِ
وَغادَرَ الصَّحبُ وَالأَنصارُ جَمعَهُمُ ... وَلَيسَ فيهِ كَمِيٌّ غَيرُ مَنهَزِمِ
تَقَسَّمَتهُم يَدُ الهَيجاءِ عادِلَةً ... فَالهامُ لِلبِيض وَالأَبدانُ لِلرَّخَمِ
كَأَنَّما البِيضُ بِالأَيدي صَوالِجَةٌ ... يَلعَبنَ في ساحَةِ الهَيجاءِ بِالقِمَمِ
لَم يَبقَ مِنهُم كَمِيٌّ غَيرُ مُنجَدِلٍ ... عَلى الرّغامِ وَعُضوٌ غَيرُ مُنحَطِمِ
فَما مَضَت ساعَةٌ وَالحَربُ مُسعَرَةٌ ... حَتّى غَدا جَمعُهُم نَهبًا لِمُقتَسِمِ
قَد أَمطَرَتهُم سَماءُ الحَربِ صائِبَةً ... بِالمَشرَفِيَّةِ وَالمُرّانِ كَالرُّجُمِ
فَأَينَ ما كانَ مِن زَهوٍ وَمِن صَلَفٍ ... وَأَينَ ما كانَ مِن فَخرٍ وَمِن شَمَمِ
جاءُوا وِللشَّرِّ وَسمٌ في مَعاطِسِهم ... فَأُرغِمُوا وَالرَّدى في هَذِهِ السِّيَمِ
مَن عارَضَ الحَقَّ لَم تَسلَم مَقاتِلُهُ ... وَمَن تَعَرَّضَ لِلأَخطارِ لَم يَنَمِ

أما شوقي فقد وصف النبي في الحرب وصفًا رقيقًا لا يلائم ما تقضي به الحروب من غَلَبة الغضب وشمول العبوث، ولننظر كيف يقول:

البَدرُ دونَكَ في حُسنٍ وَفي شَرَفٍ ... وَالبَحرُ دونَكَ في خَيرٍ وَفي كَرَمِ
شُمُّ الجِبالِ إِذا طاوَلتَها انخَفَضَتْ ... وَالأَنجُمُ الزُهرُ ما واسَمتَها تَسِمِ
وَاللَيثُ دونَكَ بَأسًا عِندَ وَثبَتِهِ ... إِذا مَشَيتَ إِلى شاكي السِلاحِ كَمي
تَهفو إِلَيكَ وَإِن أَدمَيتَ حَبَّتَها ... في الحَربِ أَفئِدَةُ الأَبطالِ وَالبُهَمِ

مَـحَـبَّـةُ الـلـهِ أَلـقـاهـا وَهَـيـبَـتُـهُ   عَلى اِبنِ آمِنَةٍ في كُلِّ مُصطَدَمِ
كَأَنَّ وَجهَكَ تَحتَ النَقعِ بَدرُ دُجًى   يُضـيءُ مُلتَثِمًا أَو غَيرَ مُلتَثِمِ
بَـدرٌ تَـطَـلَّـعَ فـي بَـدرٍ فَـغُـرَّتُ   كَغُرَّةِ النَصرِ تَجلو داجِيَ الظُلَمِ

وهذا شعر جميل، لكنه أرَقُّ من أن يُوصَف به ذوو البأس وهم يقارعون الهول في ميدان الجلاد، ويعجبني قوله في وصف الغزاة:

مَهما دُعيتَ إِلى الهَيجاءِ قُمتَ لَها   تَرمي بِأُسْدٍ وَيَرمي اللهُ بِالرُجُمِ
عَلى لِوائِكَ مِنهُم كُلُّ مُنتَقِمٍ   للهِ مُستَقتِلٍ في اللهِ مُعتَزِمِ
مُسَبِّحٍ لِلِقاءِ اللهِ مُضطَرِمٍ   شَوقًا عَلى سابِخٍ كَالبَرقِ مُضطَرِمِ
لَو صادَفَ الدَهرَ يَبغي نَقلَةً فَرَمى   بِعَزمِهِ في رِحالِ الدَهرِ لَم يَرِمِ
بيضٌ مَفاليلُ مِن فِعلِ الحُروبِ بِهِمْ   مِن أَسيُفِ اللهِ لا الهِندِيَّةُ الخُذُمُ
كَم في التُرابِ إِذا فَتَّشتَ عَن رَجُلٍ   مَن ماتَ بِالعَهدِ أَو مَن ماتَ بِالقَسَمِ
لَولا مَواهِبُ في بَعضِ الأَنامِ لَما   تَفاوَتَ الناسُ في الأَقدارِ وَالقِيَمِ

حكمة الجهاد

لم يفصح البوصيري عن السر في مشروعية القتال، وأشار إليها البارودي إشارة خفيفة حين قال:

ذَاقُوا الرَّدَى جُرَعًا فَاستَسلَموا جَزَعًا   لِلصُّلح والحَرب مَرقَاةٌ إلى السَّلَمِ

أما شوقي فقد أبان عن حكمة الجهاد، وأفصح عنها إفصاحًا يُرضي المنصف ويَكبَح جهل الكَنُود، ولننظر كيف يقول:

قالوا غَزَوتَ وَرُسلُ اللهِ ما بُعِثوا   لِقَتلِ نَفسٍ وَلا جاءوا لِسَفكِ دَمِ
جَهلٌ وَتَضليلُ أَحلامٍ وَسَفسَطَةٌ   فَتَحتَ بِالسَيفِ بَعدَ الفَتحِ بِالقَلَمِ
لَمّا أَتى لَكَ عَفوًا كُلُّ ذي حَسَبٍ   تَكَفَّلَ السَيفُ بِالجُهّالِ وَالعَمَمِ

وَالشَرُّ إِن تَلقَهُ بِالخَيرِ ضِقتَ بِهِ ذَرعًا وَإِن تَلقَهُ بِالشَرِّ يَنحَسِمِ

وقد رأى لتأييد حجته أن يضرب المثل بالمسيحية، فقد كانت دين سلام وإخاء، ولكنها لم تقم إلا بالسيف، وفي هذا يقول:

سَلِ المَسيحِيَّةَ الغَرّاءَ كَم شَرِبَتْ بِالصابِ مِن شَهَواتِ الظالِمِ الغَلِمِ
طَريدَةُ الشِركِ يُؤذيها وَيوسِعُها في كُلِّ حينٍ قِتالًا ساطِعَ الحَدَمِ
لَولا حُماةٌ لَها هَبّوا لِنُصرَتِها بِالسَيفِ ما انتَفَعَت بِالرِفقِ وَالرُحَمِ

ثم عاد إلى تأكيد فضيلة الجهاد، فقال:

عَلَّمتَهُمْ كُلَّ شَيءٍ يَجهَلونَ بِهِ حَتّى القِتالَ وَما فيهِ مِنَ الذِّمَمِ
لَولاهُ لَم نَرَ لِلدَولاتِ في زَمَنٍ ما طالَ مِن عُمُدٍ أَو قَرَّ مِن دُهُمِ
تِلكَ الشَواهِدُ تَترى كُلَّ آوِنَةٍ في الأَعصُرِ الغُرِّ لا في الأَعصُرِ الدُهُمِ
بِالأَمسِ مالَت عُروشٌ وَاعتَلَتْ سُرُرٌ لَولا القَذائِفُ لَم تَثلَمْ وَلَم تَصُمِ

المدنية الإسلامية

وقد انفرد شوقي بالإفصاح عن جلال المدنية الإسلامية، وتقديمها على مدنية المصريين واليونان والرومان، وفي ذلك يقول:

دَع عَنكَ روما وَآثينا وَما حَوَتا كُلُّ اليَواقيتِ في بَغدادَ وَالتُوَمِ
وَخَلِّ كِسرَى وَإيوانًا يَدِلُّ بِهِ هَوى عَلى أَثَرِ النيرانِ وَالأَيُمِ
وَاترُك رَعمَسيسَ إِنَّ المُلكَ مَظهَرُهُ في نَهضَةِ العَدلِ لا في نَهضَةِ الهَرَمِ
دارُ الشَرائِعِ روما كُلَّما ذُكِرَتْ دارُ السَلامِ لَها أَلقَتْ يَدَ السَلَمِ
ما ضارَعَتها بَيانًا عِندَ مُلتَأَمٍ وَلا حَكَتها قَضاءً عِندَ مُختَصَمِ
وَلا احتَوَت في طِرازٍ مِن قَياصِرِها عَلى رَشيدٍ وَمَأمونٍ وَمُعتَصِمِ
مَنِ الَّذينَ إِذا سارَت كَتائِبُهُمْ تَصَرَّفوا بِحُدودِ الأَرضِ وَالتُخَمِ

وَيَجلِسونَ إِلى عِلمٍ وَمَعرِفَةٍ فَلا يُدانَونَ في عَقلٍ وَلا فَهَمِ
يُطَأطِئُ العُلَماءُ الهامَ إِن نَبَسوا مِن هَيبَةِ العِلمِ لا مِن هَيبَةِ الحُكُمِ

وقد مضى الشاعر في وصف خلفاء الإسلام، وما كان لهم من الأثر في حياطة الدين. ولا يعجبني من ذلك كله غير قوله:

وَاترُك رَعمَسيسَ إِنَّ المُلكَ مَظهَرُهُ في نَهضَةِ العَدلِ لا في نَهضَةِ الهَرَمِ

فإنه من فرائد الأمثال ... ولنسجّل بعد هذه الموازنة المفصلة أن البوصيري سمى في المدائح النبوية سُموًّا لم يُوفق إلى معشَارِه في سائر شعره؛ وهذا أثرٌ لصدق العاطفة، بخلاف صاحبيه، فإن شعرهما في هذا الباب دون ما يعرف الناس لهما من الشعر البليغ، وصدق شوقي حين قال:

المادِحونَ وَأَربابُ الهَوى تَبَعٌ لِصاحِبِ البُردَةِ الفَيحاءِ ذي القَدَمِ
مَديحُهُ فيكَ حُبٌّ خالِصٌ وَهَوًى وَصادِقُ الحُبِّ يُملي صادِقَ الكَلَمِ

الفصل الخامس والعشرون

أبو نواس وابن دراج

ولنوازن بين قصيدتين لشاعرين كان أحدهما شاعر زمانه في المشرق وهو أبو نواس، وكان ثانيهما شاعر زمانه في المغرب وهو ابن دراج: «سابق حَلبة الشعراء العامريين، وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين» كما قال أبو حيان.

وكان الواجب أن نذكر شيئًا عن أبي نواس وعصره، ولكنا رأينا أن نحيل القارئ إلى ما كتبه في ذلك الدكتور طه حسين في حديث الأربعاء، ونكتفي بما ذكره جامع الديوان من أن أبا نواس لما قدم على الخصيب في مصر صادف في مجلسه جماعة من الشعراء ينشدونه مدائح فيه، فلما فرغوا قال الخصيب: ألا تنشدنا أبا علي؟ فقال: أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تلقف ما يأفكون! قال: هات إذًا. فأنشده رائيته المشهورة:

أَجَـارَةَ بَـيـتَـيـنَـا أَبُـوكِ غَـيُـور وَمَيسُور مَا يُرْجَى لَدَيك عَسِير

فاهتز لها الخصيب، وأمر له بجائزة سنية. وقد طار ذكر هذه القصيدة في جميع الأمصار، وعارضها كثير من الشعراء، منهم أحمد بن دراج القسطلي الأندلسي — وسنبسط عنه القول — ومنهم حسان بن نمير المعروف بعرقلة الدمشقي، فقد وازن قصيدة أبي نواس بقصيدة مدح بها صلاح الدين بن يوسف بن أيوب وقصده بها إلى مصر، كما فعل أبو نواس حين توجه بقصيدته إلى الخصيب، وفيها يقول:

عَسَى مِنْ دِيَارِ الظَّاعِنِين بَشيرُ وَمِن جَور أَيَّام الفِرَاقِ مُجِيرُ
لَقَد عِيلَ صَبرِي بَعدَهمْ وَتَكَاثَرتْ هُمُومِي ولِكنَّ المُحِبَّ صَبُورُ

وكَم بَين أكنَافِ الثُغُورِ مُتَيَّمٌ … كَئِيبٌ غَزَتـه أعيَنٌ وثُغُـورُ
وكم ليلة بالماطرون قطعتها … ويوم إلى الميطور وهو مطير
سَقَى الله مِن سَطرَا ومَقرَا مَنَازِلًا … بِـهَا لِلـنَّدَامَـى نَظرَة وسُـرُورُ
ولا زَال ظِـلُّ «النَّـيِّرَيـنِ» فَـإنَّـه … طَوِيلٌ ويَومُ المَرءِ فِيه قَصيرُ
وَيا بَرَدَى لا زَال مَاؤك بَاردًا … ومَاء الحَيَا مِن سَاحَتَيك نَمِيرُ
أبَى العَيشَ إلَّا بَيْنَ أكْنَاف جِلَّقٍ … وَقَد لَاح فِيهـا أَشمُـس وبُدُور
وكم بِجِمَى جَيرُونَ سِربُ جآذرٍ … حَبَـائِلُـهُنَّ المَالُ وهـو نَفُـورُ
ولكِن سَأحوِيه إذا سِرت قَاصِدًا … إلـى بَلَـدٍ فِيـه الصَّـلاَح أمِيـرُ

وعارضها محمود سامي البارودي بقصيدة جيدة نختار منها قوله:

أَلا فَرَعَى اللهُ الصِّبَا مَا أَبَرَّهُ … وحيًّا شَبابًا مَرَّ وَهوَ نَضيرُ
إِذِ الْعَيْشُ أَفْوَافٌ تَرِفُّ ظِلالُهُ … عَلينا وسَلسالُ الوَفَاءِ نَميرُ
وَإِذْ نَحْنُ فيما بَيْنَ إِخْوَانٍ لَذَّة … عَلى شِيَمٍ مَا إِنْ بِهِنَّ نَكِيرُ
تُدارُ عَلَيْنَا الْكَأْسُ بَيْنَ مَلاعِبٍ … بِها اللَّهْوُ خِدْنٌ وَالشَّبَابُ سَمِيرُ
فَأَلْحَاظُنَا بَيْنَ النُّفُوسِ رَسَائِلٌ … وَرَيحَانُنَا بينَ الكُئوسِ سَفِيرُ
عَقدنَا جناحي لَيلِنَا بِنَهَارِنَا … وَطِرنَا مَعَ اللَّذَّات حَيثُ تَطيرُ
وقُلنا لِساقينا أدِرها فإنَّما … بَقاءُ الفتى بَعدَ الشَبابِ يَسيرُ
فَطَافَ بِها شَمسيَّة لَهبيَّة … لَهَا عِنْدَ أَلْبَابِ الرِّجالِ ثُئُورُ
إذا ما شَرِبناها أقمنا مَكاننا … وَظَلَّتْ بِنَا الأَرْضُ الْفَضَاءُ تَدُورُ

ويعجبنا منها قوله في وصف الحمائم الساجعة:

وَكَمْ لَيْلَةَ أَفْنَيْتُ عُمْرَ ظَلاَمِها … إلى أَنْ بَدَا لِلصُّبْحِ فيهِ قَتِيرُ
شَغَلْتُ بِها قَلْبي وَمَتَّعْتُ نَاظِرِي … ونَعَّمتُ سَمِعِي والبَنَانُ طَهورُ
صَنَعتُ بِها صُنعَ الكَرِيمِ بِأهلِهِ … وجِيـرتِـهِ والـغَـادِرونَ كَـثِـيـرُ
فَمَا رَاعَنَا إِلَّا حَفِيفُ حَمَائِمٍ … لَها بينَ أطرافِ الغُصونِ هَديرُ
تُجَاوِبُ أَتْرَابًا لَهَا فِي خَمَائِلٍ … لَهُنَّ بِهَا بَعدَ الحَنينِ صَفيرُ

نَوَاعِمُ لا يَعْرِفْنَ بُؤْسَ مَعِيشَةٍ ولا دائِراتِ الدَّهرِ كَيفَ تَدورُ
تَوَسَّدُ هَامَاتٌ لَهُنَّ وَسَائِدًا مِنَ الرِّيشِ فِيهِ طَائِلٌ وَشَكِيرُ
كَأَنَّ على أعطافِها مِن حَبيكِها تَمائمَ لَم تُعقَد لَهُنَّ سُيورُ
خَوَارِجُ مِنْ أَيْكٍ دَواخِلُ غَيْرِهِ زَهاهنَّ ظِلٌّ سَابِغٌ وغَديرُ
إذا غازَلَتهَا الشَمسُ رَفَّت كأنَّما على صَفحَتَّيهَا سُندُسٌ وَحريرُ
فلمَّا رَأيتُ الصُبحَ قَد رفَّ جِيدهُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ نَسْجِ الظَلامِ سُتُورُ
خَرَجْتُ أَجُرُّ الذَّيْلَ تِيهًا وَإِنَّمَا يَتِيهُ الْفَتَى إِنْ عَفَّ وَهْوَ قَدِيرُ

ومن الوفاء أن ننّوه بهذه القطعة الجزلة التي وصف بها نفسه، وهو يقول:

وَلِي شِيمَة تَأْبَى الدَّنَايَا وَعَزْمَة تَرُدُّ لُهامَ الجيشِ وَهوَ يَمورُ
إِذَا سِرْتُ فَالأَرْضُ الَّتِي نَحْنُ فَوْقَهَا مَرادٌ لِمُهري والمَعاقِلُ دُورُ
فَلا عَجبٌ إن لَم يَصُرنى مَنزِلٌ فَليسَ لِعِقبَانِ الهَواءِ وُبُكُورُ
هَمامَة نَفسٍ ليسَ يَنقى رِكابَها رَواحٌ عَلى طُولِ المَدى وبُكورُ
مُعَوَّدة ألاَّ تَكُفَّ عِنانَهَا عَنِ الجِدِّ إلاَّ أن تَتِمَّ أُمُورُ
لَها مِنْ وَراءِ الغَيبِ أُذنٌ سَميعَة وعَينٌ تَرَى ما لا يَراهُ بَصيرُ
وَفيتُ بِما ضَنَّ الكِرامُ فِراسة بِأَمْرِي وَمِثْلِي بِالْوَفَاءِ جَدِيرُ
وَأَصْبَحْتُ مَحْسُودَ الْجَلالِ كَأَنَّنِي عَلى كُلِّ نَفسٍ في الزَمَانِ أَميرُ
إذا صُلتُ كَفَّ الدَّهرُ مِن غُلَوَائهِ وإِن قُلتُ: غَصَّت بِالقُلُوبِ صُدورُ

وفي هذه المعارضات دليل على مبلغ ما ظفرت به قصيدة أبي نواس من تقدير الشعراء، فلنضعها في الميزان لنعرف بالتحديد ما فيها من مواطن الحسن ومظانّ الابتذال.

أغراض القصيدة

الغرض الأول لهذه القصيدة هو مدح الخصيب، وقد استتبع هذا عند الشاعر أن يتحدث قليلًا عن نفرة جارته منه، وانصرافها عنه، وأن يذكر ما دار بينه وبين زوجه من الحوار حين همَّ بالرحيل، وأن يصف كيف سار الشعراء إلى مصر، وكيف نسوا من أجل واليها جنات الشام ورياض العراق، وقد فرق مدحه للخصيب بين أجزاء القصيدة، فتكلم عن سؤدده وجوده وبصره بالعواقب وتنكيله بالمفسدين ثم عادّ فتكلم عن هيبته، وما أعد للسلم والحرب، وما له من طيب العنصر وكرم الأخلاق، ثم اختتم القصيدة بهذين البيتين:

وإنِّي جَديرٌ إذ بَلَغْتُكَ بالمُنى وأنْتَ بِما أمَّلْتُ فِبكَ جَدِيرُ
فَإنْ تُولِني مِنك الجَمِيلَ فَأهْلُهُ وإلاّ فـإِنِّـي عَـاذِرٌ وشَـكُـورُ

ولنأخذ في نقد القصيدة وتحليلها، فنذكر أولًا أنه حاور جارته بقوله:

أجَـارَة بَـيـتَـينَـا أَبُـوكِ غَـيُـور وَمَيسُور مَا يُرْجَى لَدَيك عَسِير
وإن كُنتِ لا حِلما ولا أنتِ زَوْجة فَلا بَرِحَتْ دُونِي عَليكِ سُتُورُ

وليس في صدر البيت الأول أثر لحسن الأداء، وعبارة «أجارة بيتينا» ثقيلة على السمع، وهي كذلك غير واضحة المدلول، أو هي تحتاج على الأقل إلى أن نذكر أن الشاعر قد يريد ببيتي جارته بيت السكن وبيت النسب وقد يريد غير ذلك، ولقد أذكر — من باب الفكاهة — أني كنت أناقش الأستاذ محمد الههياوي مرة في قيمة المنفلوطي وفهمه للأدب، فقال: كيف وقد مات ولم يفهم قول أبي نواس: أجارة بيتينا أبوك غيور لقد كان يكسر التاء من بيتينا ظنًا منه أن هذا اسم مكان[1]!!

[1] عاتبنا الأستاذ أبو بكر المنفلوطي على هذه الدعابة التي مست أخاه ولكننا لا نرى بأسًا من تسجيل بعض هفوات من عرفناهم من الأدباء، وهي مع ذلك لا تعض من المنفلوطي الكاتب، فقد شغل الشبان في عصره، وكان بلا جدال من أقطاب البيان.

وإنك لتكاد تلمس التناقض حين تقرن بيته الأول بقوله:

وإن كُنتِ لا حِلما ولا أنتِ زَوْجةٌ فَلا بَرِحَتْ دُونِي عَليكِ سُتُورُ

فهو أولًا يشكو عسر ما يرجو من هذه الجارة، وذلك يوجب أن تكون مرجع هواه، ثم يصرح بأنها لست زوجة ولا صديقة، فيضطرك إلى أن تسأله: وإلامَ تقصد حين تقول: «فلا برحت دوني عليك ستور»؟ ثم يغلب عليه ضيق الصدر وقلق النفس، فيقول:

وجَاوَرْتُ قوْمًا لا تَزاوُرَ بَيَنَهمْ ولا وَصْلَ إلَّا أن يَكُونَ نُشُورُ
فَمَا أنا بالمَشْغُوفِ ضَرْبَـة لازِبٍ ولا كلّ سُـلطَـانٍ عَـلَـيَّ قَـدِيـرُ

وهو بهذا يتململ من أسر فؤاده وحبس أمانيه في تلك البقعة التي لم يقرّ لقلبه فيها قرار، ولم تنعم عينه فيها بغير لألاء النجوم، حين تأنس العيون بالعيون، وتسكن القلوب إلى القلوب ...! ثم أخذ يحدثنا عن علمه بحركات الأهواء وخطرات النفوس، فقال:

وإنِّي لِطَرْفِ العَينِ بالعينِ زَاجِرٌ فَقَد كدْتُ لا يَخْفَى عَلَيّ ضَمِيرُ

والزجر هنا ليس معناه الردع، وإنما هو من زجر الطير. وأصله أن يرمي الرجل الطائر بحصاة أو يصيح به، فإن ولَّاه في طيرانه ميامنه تفاءل به، وإن ولاه مياسره تطاير منه، ويريد أنه يقرأ ما في الصدر بملاحظة العين، وهذا البيت تأكيد لما قرره قبل من عنف جارته به وقسوتها عليه، وإن لم تصرح بالقطيعة، ولم تعلن الصدود ... ولم يقف أبو نواس عند هذا الحد في وصف نفسه بصدق الفراسة، بل شبّه نظرته بنظرة العُقاب في سكون الريح، وقد طوت القوت ليلتين عن فرخها الأزغب، فقال:

كَما نَظَرَتْ والرِّيحُ سَاكِنَة لَهَا عُـقَـابٌ بـأرسَـاغِ الـيـدَيْـن نَـدُورُ
طوَتْ لَيلَتين القُوتَ عَن ذِي ضَرُورَة أُزَيْـغِـبَ لَـم يَـنْـبُـتْ عَـلَـيـهِ شَـكِـيـرُ
فأوْفَتْ عَلَى عَلْياءَ حِينَ بَدَا لَها مِن الشَّمْسِ قَرْنٌ والضَّرِيبُ يَمُورُ

تُقَلِّبُ طَرْفا في حِجَاجَيْ مَغَارَة   مِن الرَّأس لَم يَدْخُلْ عَلَيه سُرُورُ

وهذه اللفتة من أبي نواس فيها خروج على فطرته، إذ هي تقليد صريح لأسلوب الأعراب، ويظهر أن أبا نواس كان يُعني في المواقف الرسمية بمراعاة الأساليب القديمة، ابتغاء مرضاة الرواة واللغويين، كما كان ينقاد لفطرته كل الانقياد وهو يتحدث عن الصهباء، ويشيد بذكر الندامى والسقاة والمغنين، من كل رخيم الصوت، أو أصبح الوجه، أو عذب الحديث، وهو الذي يقول:

قَد أسحَب الزِّقَّ يَأبَانِي وأكرهُه   حَتَّى لَه في أدِيم الأرض أُخدُود
لا أرحِل الرّاح إلا أن يَكُون لَهَا   حَادٍ بِمُنتَحل الأشعَار غِرِّيد
فاستَنطِق العُوّد قَد طَال السُّكُوت بِه   لَن يَنطِق اللَّهو حَتى يَنطِق العُود

ولنذكر بعد هذا أن أبا نواس انتقل من الحديث عن نفرة جارته، وصدق فراسته، إلى الحديث عن حوار زوجه، فقال:

تَقُولُ التي مِن بَيتِهَا خَفَّ مَرْكَبَي: عَزِيزٌ عَلينَا أن نَرَاكَ تَسِيرُ
أمَا دُونَ مِصْرٍ لِلغنَى مُتَطَلّبٌ؟   بَلَى إنّ أسْبابَ الغِنَى لَكَثيرُ
فَقُلتُ لَها واستَعجَلَتْها بَوَادِرٌ   جَرتْ فَجَرى مِن جَرْيِهِنَّ عبَيرُ:
ذَرِيني أكَثِّرْ حَاسِدِيكِ بِرِحْلَة   إلى بَلَدٍ فِيه الخَصِيبُ أميرُ

وهذه القطعة من الشعر المختار، ويرجع جمالها إلى ما فيها من وضوح الفكرة وسلامة التعبير، وانظر الصدق في قوله:

أمَا دُونَ مِصْرٍ لِلغنَى مُتَطَلّبٌ؟   بَلَى إنّ أسْبابَ الغِنَى لَكَثيرُ

ولكن الشعراء في ذلك العهد لم يطب لهم من أسباب الغنى غير مدح الملوك والأمراء، وكان هذا بابًا لحصر العبقرية في ناحية واحدة هي خلق المحامد والمناقب، لكل من جُنَّ له الدهر فظفر بإثارة من الملك أو زاد بسطة في المال — وقوله:

ذَرِيني أكَثّرْ حَاسِدِيكِ بِرِحْلَة　　إلى بَلَدٍ فِيه الخَصِيبُ أميرُ

من الأبيات المختارة، والتعبير عن وفرة المال بكثرة الحساد من الكنايات المستملحة، وقد قال له الخصيب حين أنشد هذا البيت: إذًا يكثر حسادها، وتبلغ أملها. وأمر له بألف دينار، ثم قال في مدح الخصيب:

إذَا لَم تَزُرْ أرْضَ الخَصِيبِ رِكابُنا　　فَأيّ فَتًى بَعدَ الخَصِيبِ تَزُورُ
فما جَازَهُ جُودُ ولا حَلَّ دُونَه　　ولكِنْ يَصيرُ الجُودُ حَيثُ يَصيرُ

وليس لهذين البيتين قيمة أدبية، ومن السهل أن يزعم الشاعر أن ممدوحه خير الناس على الإطلاق، وأن الجود لا يجوزه، ولا يحل دونه، وإنما يصير حيث يصير، إلى ما هناك من وثبات الخيالا، وقد نال منه الضعف والإسفاف حين قال:

فلمْ تَرَ عَيني سُؤدُدًا مِثلَ سُؤدَدٍ　　يحِلّ أبو نَصْرٍ بِه ويَسِيرُ

ولكنه وُفق كل التوفيق حين قال:

فَتًى يَشْتَري حُسْنَ الثَنَاءِ بِمَالِهِ　　ويَعْلَمُ أنَّ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

فإنه يصف الخصيب بالسعي لنيل السمعة الحسنة، والصيت البعيد، ويصفه مع هذا بضبط النفس، والحذر من عاديات النوائب، وجائرات الخطوب، ولا تطيب الدنيا لملك أو أمير إلا إذا خطا في حكمه وملكه خطوات الحذِر الهيوب، الذي يتوقع في كل لحظة أن يتنكر له الدهر، وأن تثور من حوله الأقدار ... ثم أخذ يصف بطشه بالمفسدين، وتنكيله بالعابثين بأمن الناس، فقال:

وأَطرَق حَيَّات البِلاَد لَحَبّةٍ　　خَصيبيَّة التَّصمِيم حِين نَسور
سَمَوتَ لِأهلِ الجَوْرِ في حَال أمنِهمْ　　فَأضحَوا وكُلٌّ في الوَثَاق أسِيرُ
إذا قَام غَنَّتْهُ عَلَى السّاقِ حِلَيَة　　لَهَا خُطوة عِند القِيَام قَصِيرُ

وفي هذه الأبيات إشارة إلى أن مصر في ذلك العهد كانت تقاسي شيئًا من الاضطراب، وكانت لذلك طعمةً لاستبداد الحكام وسخرية الشعراء، وأي سخر آلم للنفس، وأوجع للقلب، من قول أبي نُواس في أحد فتيان مصر وهو يوسف في الصّفاد:

إذا قَام غَنَّتْهُ عَلَى السّاقِ حِلَيَةٌ لَهَا خُطوة عِند القِيَام قَصِيرُ

وقد أحسن أبو نواس في وصف الخصيب بنصح الجيب حين قال:

فَمَنْ يَكُ أمْسَى جَاهِلًا بِمَقَالَتي فَإنَّ أمِيرَ المُؤمِنينَ خَبِيرُ
ومَا زِلتَ تُولِيهِ النَّصِيحَة يَافِعا إلى أن بَدَا في العَارِضَينِ قَتِيرُ
إذا غَالَهُ أمرٌ فإمَّا كَفَيْتَهُ وإمَّا عَلَيه بالكِفاءِ تُشِيرُ

وهذا من أجمل ما يوصف به الرجل المخلص للحق حين يظفر بأسرار الملوك، وفي هذه القصيدة قطعة أخرها الشاعر، وكانت أولى بالتقديم، وهي وصف رحلة الشعراء إلى الخصيب، ونحن نسرد هذه القطعة تتميمًا للموضوع، ونصرح بأنها رديئة في العبارة، وفي السياق. قال:

رَحَلْنَ بِنَا مِن عَقرقُوفَ وَقَد بَدَا مِن الصُّبْحِ مَفتُوقُ الأدِيم شَهيرُ
فَمَا نَجَدَتْ بالمَاءِ حَتى رَأيتُهَا مَعَ الشَّمسِ في عَينيْ أبَاغَ تَغُورُ
وغُمّرْنَ مِن مَاءِ النُّقِيبِ بِشَرْبَة وَقَد حَانَ مِن دِيك الصَّباحِ زَميرُ
ووَافَينَ إشْرَاقا كَنَائِسَ تدْمُرٍ وهُنّ إلى رُعْنِ المُدَخِّنِ صُورُ
يُؤمِّمْنَ أهْلَ الغُوطَتَينِ كأنّمَا لَهَا عِند أهلِ الغُوطَتينِ ثُئورُ
وقاسَيْنَ لَيْلًا دونَ بَيْسانَ لم يكَدْ سنَا صُبْحِهِ، للناظرينَ، يُنِيرُ
وأصْبَحنَ بالجوْلَان يَرْضَخن صَخرَها وَلَم يَبْقَ من أجْرَاحِهِنّ شُطُورُ
وأصْبحنَ قد فوّزْنَ من نهرِ فُطرُسٍ وَهُنَّ عَنِ البَيْتِ المُقَدَّسِ زُورُ
طوالبَ بالرّكْبانِ غَزَّة هَاشِمٍ وَفي الفَرَمَا مِن حَاجِهِنّ شُقُورُ

واستأنف مدح الخصيب، فقال:

ولَمّا أتَتْ فُسْطاطَ مِصْر أجارها أجارَهَا   علـى رَكبِـهَـا أن لا تَـزَالَ مُـجِـيـرُ
مِـن الـقَـوْمِ بَـسّـامٌ كـأَنَّ جَـبِـيـنَـهُ   سَنَـا الـفَـجْـرِ يَـسْـري ضَـوءه ويُـنـيِـرُ
زَهَا بالخَصِيبِ السّيْفُ والرُّمحُ في الوَغَى   وفـي الـسِّـلْـمِ يَـزْهُـو مِـنْـبَـرٌ وسَـرِيـرُ
جَـوَّادٌ إذَا الأيْـدِي كَـفَـفْـنَ عَـن الـنَّـدَى   ومِـن دونِ عَـوْرَاتِ الـنِّـسَـاءِ غَـيُـورُ
لَـهُ سَـلَـفٌ فـي الأعـجَـمِـيـن كَـأنَّـهُـمْ   إذَا اسْـتُـؤذِنُـوا يَـوْمَ الـسَّـلامِ بـدُورُ

وسنعود إلى تحليل هذه القطعة الأخيرة حين نوازن بينها وبين ما يماثلها في قصيدة ابن دَرّاج.

الفصل السادس والعشرون

نفحة من الأدب الأندلسي

نقدنا في البحث الماضي قصيدة أبي نواس في مدح الخصيب، ورأينا مبلغه من الصدق حين ظنها كعصا موسى تلقف ما يأفكون، ولم يبق إلا أن نوازن بينها وبين قصيدة ابن درَّاج الذي أوصاه أميره بمعارضة أبي نواس، ولكنا رأينا أن نقف وقفة قصيرة عند رغبة المنصور بن أبي عامر في أن يظهر شاعره على شاعر الرشيد، فقد كانت هناك منافسة شديدة بين رجال المشرق ورجال المغرب في الأدب والفلسفة والتشريع، وكان لأهل الأندلس كلف شديد بالظهور على أهل المشرق، وكان لابن دراج هذا ولع عجيب بسبق من نبغ من الشعراء في مصر والشام والعراق، وسنرى كيف بذَّ أبا نواس وبرعه حين نضع قصيدته في الميزان، وكان من أثر ذلك التنافس أن عُقدت المفاضلات بين الكتاب والشعراء والمؤلفين: فازداد قادة الفكر قوة إلى قوة ونشاطًا إلى نشاط، وتقدم النقد تقدمًا ظهرت ثمرته فيما كان يعني به العرب إذ ذاك من العلوم والفنون.

وهذه رسالة أبي الوليد الشقندي — التي وضعها في تفضيل بَرَ الأندلس على بر العَدوة، والتي أثبتها المقرِيّ — طيب الله ثراه — في نفح الطيب — تدل على رغبة الأندلسيين في الظهور على من عداهم من العالمين، وإني لذاكر ما جاء عن الشعر والشعراء، لأضع يد القارئ على أثر هو في جملته ثمرة لما كان من التنافس بين قرطبة وبغداد، ولأنشر له صفحة من صحف النقد والمفاضلة تتمثل فيها عبقرية العرب في ذلك الفردوس المفقود[١].

[١] جاء في نفح الطيب ص ٧٧٨ ما نصه: «قال ابن سعيد، أخبرني والدي قال: كنت يومًا في مجلس صاحب سنه أبي يحيى بن أبي زكريا صهر ناصر بن عبد المؤمن فخري بين أبي الوليد الشقندي وبين

قال الشقندي بعد كلام طويل:

وهل لكم في الشعر ملك مثل المعتمد بن عباد في قوله:

وَلَيلٍ بِسدِّ النَّهر أُنسا قَطَعتُه بِذّات سِوار مِثل مُنعطف النّهر
نضت بُردَهَا عَن غُصن بَانٍ مُنعّمٍ فَياحُسن ما انشقّ الكمام عن الزّهر

وقوله في أبيه:

سّمّيذّعٌ يَهَب الآلاف مُبتّدِئًا وبّعْد ذلِك يُلفَى وهو يعتذر
له يَدٌ كُلُّ جَبَّارٍ يُقَبِّلُهَا لَولا ندَهَا لَقلنَا إنَّهَا الحجر

ومثل ابنه الرضي في قوله:

مَرُّوا بِنَا أُصلًا مِنْ غَيرِ مِيعَادِ فأوقَدُوا نار قلبي أيَّ إيقَادِ
لا غروَ إن زَادَ في وَجدِي مُرُوُرُهمو فَرُؤية المَاء تُذْكي غُلَّة الصّادي

وهل لكم ملك ألف في فنون الأدب كتابًا في نحو مئة مجلدة مثل المظفر بن الأفطس ملك بطليوس، ولم تشغله الحروب ولا المملكة عن همة الأدب؟ وهل لكم من الوزراء مثل ابن عمار في قصيدته التي سارت أشرد من مثل، وأحب إلى الأسماع من حبيب وصل، التي منها:

أَثْمَرْتَ رُمْحَكَ مِنْ رُءُوسِ مُلُوكِهُمْ لَمَّا رَأَيْتَ الغُصْنَ يُعْشَقُ مُثْمِرَا

أبي يحيى بن المعلم نزاع في التفضيل بين البرين. فقال الشقندي: لولا الأندلس لم يذكر بر العدوه، ولا شارف عنه فضيله، ولولا التوفير للمجلس لقلب ما نعلم. فقال الأمير أبو يحيى: أتريد أن تقول: كون أهل برنا عربًا وأهل بركم بربر؟ فقال: حاش لله! فقال الأمير: والله ما أردت غير هذا فظهر في وجهه أنه أراد ذلك، فقال ابن المعلم: أتقول: هذا وما الملك والفضل إلا من بر العدوة؟ فقال الأمير: الرأي عندي أن يعمل كل منكما رسالة في تفضيل بره، فالكلام هنا يطول ويمر ضياعًا وأرجو إذا أحلتما له فكر كما تصدر منكما ما يحسن تخليده ففعلا».

وَصَبَغْتَ دِرْعَكَ مِنْ دِمَاءِ كُمانِهِمْ   لَمَّا رَأَيْتَ الحُسْنَ يُلْبَسُ أَحْمَرَا

ومثل ابن زيدون في قصيدته التي لم يُقل — مع طولها — أرق منها في التشبيب، وهي التي يقول فيها[٢]:

كأنّنَا لَم نَبِتْ والوَصلُ ثَالثُنَا   وَالسَّعدُ قَدْ غَضَّ مِن أجفَانِ وَاشِينَا
سِرّانِ في خاطِرِ الظّلمَاءِ يَكتُمُنَا   حَتى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبحِ يُفشِينَا

وهل لكم من الشعراء مثل ابن وهبون في بديهته بين يدي المعتمد بن عباد، وإصابته الغرض حين استحسن المعتمد قول المتنبي:

إذَا ظَفِرَتْ منكِ العُيُونُ بنَظَرَةٍ   أَثَابَ بِهَا مُعيي المَطِيّ ورَازِمُهْ

فارتجل:

لَئِن جَاد شِعْر ابن الحسين فَإِنَّمَا   تُجِيد العَطَايا واللُّهَا تُفتَح اللَّها
تَنَبَّأَ عُجبًا بِالقَريض ولَو دَرَى   بَأَنَّك تَروي شِعرَه لَتَألَّهَا

وهل لكم مثل شاعر الأندلس ابن دراج الذي قال فيه الثعالبي: هو بالصقع الأندلسي كالمتنبي بصقع الشام، الذي إن مدح الملوك قال قوله:

أَلَم تعلَمِي أنَّ الثَوَاء هُو التَّوَى[٣]   وأَنَّ بُيُوتَ العَاجِزِينَ قُبُورُ

[٢] ارجع إلى هذه القصيدة في كتاب: «مدامع العشاق». فقد أثبتناها كلها هناك، وقد عارضها شوقي بنونية مطلعها:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا   نأسى لواديك أم نشجى لوادينا

[٣] النوى: الهلاك.

وأنَّ خَطِيرَات المَهَالِك ضُمَّنٌ   لِرَاكِبِهَا أنَّ الجَزَاءَ خَطِير
تُخَوِّفُني طُول السِّفَار وإنَّه   بِتَقبِيل كَفِّ العَامِرِيّ جَدِير
مُجِير الهُدَى والدِّين من كُلِّ مُلحِدٍ   ولَيس عَلَيه لِلضَّلاَل مُجير[٤]

وإن ذكر الغربة عن الأوطان، ومكابدة نوائب الزمان، قال:

قَالَتْ وقَد مَزَج الفِرَاق مَدَامِعًا   بِمَدَامِعٍ وَتَرَائِبًا بِتَرَائِب:
أتَفَرُّقٌ حَتى بِمَنزل غُربَة   كَم نَحْنُ لِلأيَّام نُهبَة نَاهِب
وَلَئِن جَنَيت عَلَيك تَرحَة رَاحِلٍ   فأنَا الزَّعِيم لَهَا بفرحَة آيِب
هَل أبصَرت عَينَاكِ بَدرًا طَالِعًا   في الأفقِ إلاَّ مِن هِلاَلٍ غَارِب

وإن شبّه قال:

لِمَعَاقِلٍ مِن سَوسَنٍ قَد شَيَّدَت   أَيدِي الرّبيع بِنَاءَهَا فَوق القُضُب
شُرُفَاتُهَا مِن فِضَّة وحُمَاتُهَا   حَول الأَمِير لَهُم سُيُوفٌ مِن ذَهَب

وهل من شعرائكم من تعرض لذكر العفة: فاستنبط ما يسحر به السحر، ويطيب به الزهر، وهو أبو عمرو بن فرج في قوله:

وَطَائِعَة الوِصَال عَفَفت عَنهَا   ومَا الشَّيطَان فِيهَا بِالمُطَاع
بَدَت في اللَّيل سَافِرَةً فَبَاتَت   دَيَاجِي اللَّيْل سَافِرة القِنَاع

[٤] اختار الشقندي قطعة كبيرة من قصيدة ابن دراج، ولكنا اكتفينا بذكر هذه الأبيات لأننا سنعود إلى القصيدة مرة ثانية، وقد قال الشقندي في التعقيب على ما اختاره:

وأنا أقسم مما حوته هذه الأبيات، من غرائب الآيات، لو سمع هذا المدح سيد بني حمدان لسلا به عن مدح شاعره الذي ساد كل شاعر، ورأى أن هذه الطريقة أولى بمدح الملوك من كل ما تفنن فيه كل ناظم وناثر.

وَمَا مِن لَحظَةٍ إلَّاّ وفِيهَا   إلَى فِتَن القُلُوب لَهَا دَوَاعِي
فَمَلَّكت النُّهَى حُجَّاب شَوقِي   لِأجرِي بِالعَفَاف عَلَى طِبَاعِي
وبِتُّ بِهَا مَبِيت السَّقب يَظمَا   فَيمتَعُه العُكَام مِن الرَّضَاع[٥]
كَذَاك الرَّوضُ مَا فِيه لِمثلِي   سِوَى نَظَر وَشَمٍّ مِن مَتَاع
وَلَست مِن السَّوَائِم مُهمَلات   فأتَّخِذ الرِّيَاض مِن المَرَاعِي

وهل بلغ أحد من مشبهي شعرائكم أن يقول مثل قول أبي جعفر اللماي:

عَارِضٌ أقبَل في جُنح الدُّجَى   يَتَهَادَى كَتَهَادِي ذِي الوَجَى
بَدَّدَت رِيح الصَّبَا لُؤلُؤَه   فَانبَرَى يُوقِد عَنه سُرُجَا

ومثل قول أبي حفص بن برد:

وكَأَنَّ اللَّيل حِين لَوَى   ذَاهِبًا والصُّبح قَد لاَحَا
كِلَّةٌ سَودَاء أحرَقَهَا   عَامِدٌ أسرَج مِصباحا

وهل منكم من وصف ما تحدثه الخمرة، من الحمرة على الوجنة، بمثل قول الشريف الطليق:

أصبَحَت شَمسًا وفُوه مَغرِبًا   وَيَد السَّاقِي المُحَيِّي مَشرِقَا
وَإذَا مَا غَرَبَت فِي فَمِه   تَرَكَت فِي الخَدِّ مِنه شَفَقَا

بمثل هذا الشعر فليطلق اللسان، ويفخر على كل إنسان.
وهل منكم من عمد إلى قول امرئ القيس:

سَمَوت إِلَيهَا بَعْد مَا نَام أَهلُهَا   سُمُوَّ حَبَاب المَاءِ حَالًا عَلَى حَال

---

[٥] السقب: ولد الناقة. والعكام: ما يعكم به.

فاختلسه اختلاس النسيم لنفحة الأزهار، واستلبه بلطفٍ استلاب ثغر الشمس لرضاب طل الأسحار، فلطفه تلطيفًا يمتزج بالأرواح، ويغني في الارتياح عن شراب الراح وهو ابن شهيد في قوله:

وَلَمّا تمَلأَّ مِن سُكرِه ... وَنَام وَنَامَت عُيُون الحَرَس
دَنَوت إلَيه عَلَى رِقبَةٍ ... دُنُوَّ رَفِيق دَرَى مَا التَمس
أدِبُّ إلَيه دَبِيب الكَرَى ... وَأَسمو إلِيه سُمُوَّ النَّفَس
أقَبِّل مِنه بَيَاض الطَّلَى ... وَأَرشُف منه سَوَاد اللَّعَس
فَبِتُّ بِه لَيلَتي نَاعِمًا ... إلى أَنْ تَبَسَّم ثَغْر الغَلَس

وقد تناول هذا المعنى ابن أبي ربيعة على عظم قدره وتقدمه فعارض الصهيل بالنهاق، وقابل العذب بالزعاق، فقال وليته سكت:

ونَفَّضْتُ عَنِّي النَّوم أقبلتْ مِشيَةَ الـ ... ـحُبَاب ورُكنِي خِيفَةَ القَوْم أَزْوَر

وأنا أقسم لو زار جملٌ محبوبة له لكان ألطف في الزيارة من هذا الأزور الركن المنفض للعيون، لكنه إن أساء هنا فقد أحسن في قوله:

قَالَت لَقَد أعْيَيْتَنَا حِجَّة ... فَأْتِ إذَا مَا هَجَع السّاهِر
وَاسْقُط عَلَيْنَا كَسُقُوط النَّدَى ... لَيْلَة لا نَاهٍ وَلا زَاجِر

ولله در محمد بن سفر أحد شعرائنا المتأخرين عصرًا المتقدمين قدرًا، حيث نقل السعي إلى محبوبته فقال: وليته لم يزل يقول مثل هذا، فبمثله ينبغي أن يَّتكلم، ومثله يليق أن يدون:

ووَاعَدتُهَا وَالشَّمْس تَجْنَح لِلنَّوى ... بِزَورَتِها شَمسًا وَبَدر الدُّجَى يَسري
فَجَاءَت كَما يَمشِي سَنَا الصُّبْح في الدُّجى ... وَطَورًا كَما مَرَّ النسيم علَى النَّهر
فَعَطَّرت الآفَاق حولِي فَأشعَرَت ... بِمَقدَمِهَا والعَرف يُشعِر بِالزَّهر
فَتَابَعت بِالتَقبِيل آثارَ سَعيِهَا ... كَمَا يَتَقصَّى قَارِئٌ أَحرُف السَّطْر

فَبِتّ بِهَا وَالليل قدْ نَام والهَوَى   تَنَبَّه بَين الغُصن والحِقْف والبَدْر
أعَانِقُهَا طَورًا وألثَم تَارَةً   إلى أن دَعَتنا لِلنَّوى رَايَة الفَجر
فَفَضَّت عُقُودًا لِلتَّعَانُق بَيْنَنَا   فَيَا لَيلَة القَدْر اترُكِي سَاعَة النَّفْر

وهل منكم من قُيِّد بالإحسان فأطلق لسانه الشكر، فقال — وهو ابن اللبانة:

بنَفسِي وَأهلِي جيرَةٌ مَا استَعَنتُهُم   عَلَى الدَّهرِ إلَّا وانثَنَيْت مُعَانا
أرَاشُوا جَنَاحِي ثُمَّ بَلُّوه بِالنَّدَى   فَلَم أستَطِع مِن أرضِهِم طَيَرَانا

ومن يقول لقد قطع عنه ممدوحه ما كان يعتاده منه من الإحسان، فقابل ذلك بقطع مدحه له، فبلغه أنه عتبه على ذلك، وهو ابن وضاح:

هَل كنْتُ إلَّا طَائِرًا بِفَنَائِكُم   في دَوح مَجدِكُم أقُوم وَأقعُد
إن تَسْلُبُونِي رِيشَكُم وَتُقَلِّصُوا   عَنِّي ظِلاَلَكُم فَكَيْف أُغَرِّد

وهل منكم شاعرٌ رأى الناس قد ضجّوا من سماع تشبيه الثغر بالأقاح، وتشبيه الزهر بالنجوم، وتشبيه الخدود بالشقائق، فتلطف لذلك في أن يأتي به في منزع يصير خلقه في الأسماع جديدًا، وكليله في الأفكار حديدًا، فأغرب أحسن إغراب، وأعرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل إعراب، وهو ابن الزقاق:

وأغيَدٍ طَاف بِالكئوس ضُحًى   وَحَثَّهَا وَالصَّبَاح قَد وَضَحَا
والرَّوض أهدَى لَنَا شَقَائِقَه   وَآسُه العَنبَرِيُّ قَد نَفَحَا
قُلْنَا وَأيْن الأقَاحُ؟ قَال لَنَا: أودَعْتُه ثَغْر مِن سَقَى القَدَحَا
فَظَلَّ سَاقِي المُدَام يَجْحَد مَا   قَال فَلَمَّا تَبَسَّم افتَضَحَا

وقال:

أدِيرَاهَا عَلَى الرَّوْض المُنَدَّى   وَحُكْم الصُّبح في الظَّلْمَاء مَاضِي

وَكَأس الرَّاح تَنْظُر عَنْ حَبَابٍ   يَنُوب لَنَا عَن الحَدَق المِراض
وَمَا غَرَبَت نُجُوم الْأُفْق لكِن   نُقلْن من السَّمَاء إلَى الرِّيَاض

وقال:

ورِيَاضٍ مِن الشَّقَائق أَضْحت   يَتهَادى بِهَا نَسيم الصَّبَاح
زُرتُهَا والغَمَام يَجْلد منْهَا   زَهَرَاتٍ تَرُوق لَوْن الرَّاح
قُلْتُ مَا ذَنْبُهَا؟ فَقَال مُجِيبا   سَرَقَت حُمْرَة الخُدُود المْلَاح

فانظر كيف زاحم بهذا الاختيال المخترعين وكيف سابق بهذا اللفظ المبتدعين، وهل منكم من برع في أوصاف الرياض والمياه؟ وما يتعلق بذلك فانتهى إلى غاية السباق، وفضح كل من طمع بعده في اللحاق، وهو أبو إسحاق بن خفاجة القائل:

وَعَشِيَّ أُنسٍ أَضجَعَتنِي نَشوَةٌ   فِيهَا يُمهِّد مَضجَعِي ويُدَمَّث
خَلَعَت عَلَيَّ بِهَا الأرَاكَة ظِلَّهَا   والغُصْن يُصغي والحَمَامُ يُحَدِّث
والشَّمس تَجنَح للِغُرُوب مَرِيضَةً   والرَّعْد يرقِي والغَمَامَة تَنفُث

والقائل:

لله نَهرٌ سَال في بَطحَاء   أشهَى وُرُودًا مِن لَمَى الحَسنَاء
مُتَعَطِّفٌ مِثل السِّوَار كَأنَّه   والزَّهر يَكْنُفُه مَجَرُّ سَمَاء
قَد رَقَّ حَتَّى ظُنَّ قُرصًا مُفْرَغًا   مِن فِضَّةٍ في بُردَة خَضْراء
وَغدَت تَحُفُّ بِه الغُصُون كَأنّها   هُدبٌ تَحُفُّ بِمُقلَةٍ زَرقاء
ولَطَالَمَا عَاطَيت فِيه مُدَامَةً   صَفرَاء تَخضِب أيدِي النُّدَمَاء
والرِّيح تَعبَث بِالغُصُون وَقَد جَرَى   ذَهَب الأصِيل عَلى لُجَيْن الماء

والقائل:

حُثّ المُدَامَة والنَّسِيم عَلِيل والظِّلُّ خَفَّاق الرِّوَاق ظَلِيل
والرَّوض مُهتَزَّ المَعَاطِف نَعمَةً نَشوَان تَعطِفُه الصَّبَا فيَمِيل
رَيَّان فَضَّضَه النَّدَى ثُمّ انجَلَى عَنه فَذَهَّب صَفحتَيه أصِيل

والقائل:

أذِن الغَمَام بِدِيمَةٍ وعُقَار فامزُج لَجَينًا مِنهُما بِنُضَار
واربَع عَلَى حُكم الرَّبِيع بِأجرَعٍ هَزِج النَّدَامَى مُفصِح الأَطيَار
مُتَقَسِّم الألحَاظِ بَين مَحَاسِنٍ مِن رِدف رَابِيَةٍ وخَصر قَرَار
نَثَرت بحِجر الرَّوض فِيه يَد الصَّبَا دُرَر النَّدَى ودَرَاهِم الأنوَار
وهَفَت بتَغرِيدٍ هُنَالِك أيكَةٌ خَفَّاقَةٌ بِمَهَبّ رِيح عَرَار
هَزَّت لَه أعطَافَهَا ولَرُبَّمَا خَلَعَت عَلَيه مُلاَءَة النُّوّار

والقائل:

سَقَيًا لَها مِن بِطَاح خَزٍّ وَدَوح نَهرٍ بِهَا مُطِلّ
إذ لَا تَرَى غَير وَجه شَمسٍ أطَلَّ فِيه عِذَار ظَلّ

والقائل:

نَهرٌ كَمَا سَال اللّمَى سَلسَال وَصَبًا بِليلٌ ذَيلُهَا مِكسَال
ومَهَبّ نَفحَة رَوضَةٍ مَطلُولَةٍ في جَانِبِيهَا لِلنّسِيم مَجَال
غَازَلتُهَا والأقحُوَانَة مَبسَمٌ وَالآس صُدغٌ والبَنفسجُ خال

والقائل:

وَسَاقٍ كَحِيل اللَّحظِ في شَأو حُسنِه جِمَاحٌ وبِالصَّبر الجَمِيل جِرَان
تَرَى لِلصِّبا نَارًا بِخَدَّيه لَم يَثُر لَهَا مِن سَوادي عَارضَيه دُخَان

سَقَاها وَقَد لَاح الهِلَال عَشِيَّةً   كَمَا اعوَجَّ في دِرع الكَميِّ سِنَان
عُقَارًا نَمَاها الكَرْمُ فَهي كَرِيمَةٌ   ولَم تَزن بِابن المُزْن فَهْي حَصَان
وَقَد جَال مِن جَونِ الغَمَامَة أَدهَمٌ   لَه البَرق سَوطٌ والشَّتَان عِنَان
وضَمَّخ دِرع الشَّمس نَحر حَدِيقَةٍ   عَلَيه مِن الطَّلِّ السقِيط جُمَان
وَنَمَّت بِأسرَار الرِّيَاض خَمِيلَةٌ   لَهَا النَّور ثَغرٌ والنَّسِيم لِسَان

والقائل:

وأَشْقَر تَضرم مِنه الوَغَى   بِشُعلَةٍ مِنْ شُعَل البَاس
مِن جُلَّنَارٍ نَاضِرٍ لَونُه   وأُذنُه مِن وَرَق الآس
تَطلُع لِلغُرَّة في شُقرَةٍ   حَبَابَةً تَضحَك في كَاسٍ

وهل منكم من يقول منادمًا لنديمه وقد باكر روضًا بمحبوب وكأس، فألفاه قد غطَّى محاسنه ضباب، فخاف أن يكسل نديمه عن الوصول إذا رأى ذلك، وهو أبو الحسن بن بسام:

ألا بَادِر فَمَا ثَانٍ سِوى ما   عَهِدت الكَأسُ والبَدرُ التَّمَام
ولا تَكْسَل بِرؤيَتِه ضَبَابًا   تَغَصُّ بِه الحَدِيقَة والمُدَام
فَإنَّ الرّوْض مُلتَثمٌ إلَى أن   تُوَافِيه فَيَنْحَطَّ اللِّثَام

وهل منكم من تغزل في غلام حائك بمثل قول الرصافي:

قَالُوا وَقَد أكثَرُوا في حُبِّه عَذَلِي: لَو لَم تَهِم بِمُذَال القَدْر مُبتَذَل
فُقلت لَو كَان أَمرِي في الصَّبَابَة لي   لاختَرتُ ذَاك ولكِن لَيسَ ذلِك لي
عَلِّقتُه حَبِيبِيَّ الثَّغر عَاطِرَه   حُلو اللَّمَى سَاحِر الأجفَان والمُقَل
غُزَيِّلٌ لَم تَزَل في الغَزل جَائِلَةً   بَنَانُه جَوَلان الفِكر في الغَزَل
جَذلان تَلعَب بالمِسواك أنمُلُه   عَلَى السَّدى لَعِب الأيَّام بالأجَل
ضَمًّا بكَفّيه أو فَحصًا بِأخمَصِه   تَخَبُّط الظَّبي في أشرَاك مُحتَبِل

ومثل قوله في تغلب مسكة الظلام على خلوق الأصيل:

وعَشِيٍّ رَائِقٍ مَنظَرُه قَد قَطَعناه عَلَى صِرف الشَّمُول
وَكَأَنَّ الشَّمس في أثنَائِه ألصَقت بِالأرض خَدًّا للنُّزُول
والصَّبَا تَرفَع أذيَال الرُّبا ومُحَيًّا الجَوِّ كَالنَّهرِ الصَّقِيل
حَبَّذا مَنزِلُنَا مُغتَبَقًا حَيثُ لا يَطرُقُنَا غيرُ الهَدِيل

وهل منكم من وصف غلامًا جميل الصورة راقصًا بمثل قول ابن خروف:

ومُنَزَّع الحَركَات يَلعَب بِالنُّهَى لَبِس المَحَاسن عِند خَلع لبَاسه
مُتَأوِّدًا كَالغُصن وَسْط رِيَاضِه مُتَلاعِبًا كَالظَّبي عِند كِناسه
بِالعَقل يَلعَب مُدبِرًا أو مُقبِلًا كَالدَّهر يَلعَب كيف شَاء بِنَاسِه
ويَضُمٌّ لِلقَدَمَين مِنْه رَأسَه كَالسَّيف ضُمّ ذبابُهُ لِرياسِه

وهل منكم من وصف خالًا بأحسن من قول النشار:

أَلوَّامِي عَلَى كَلَفِي بِحِبِّي مَتَى مِن حُبِّه أرجُو سَرَاحا
وبَين الخَدِّ والشَّفَتَيْن خَالٌ كَزِنْجِيّ أتَى رَوضًا صَباحا
تَحَيَّر في جَنَاه فَليس يَدرِي أيَجنِي الوَرد أم يجنِي الأقاحا

وهل منكم من اهتدى إلى معنى في لثم وردة الخد ورشف رضاب الثغر لم يهتد إليه أحد غيره، وهو أبو الحسن بن سلام المالقي في قوله:

لمَّا ظَفِرْت بلَيلةٍ مِن وَصلِه وَالصَّبُّ غَير الوَصْل لا يَشْفيه
أنضَجْت وَرْدَة خَدِّه بِتَنَفُّسِي وَطَفِقتُ أرشُف ماءَها مِن فِيه[٦]

[٦] حذفنا هنا جملة من كلام الشقندي لم نر لها أهمية.

وهل منكم أعمى قال في ذهاب بصره، وسواد شَعره، وهو الطُليطِلي:

أَمَا اشتَقَت مِنِّيَ الأَيَّامُ في وَطَنِي   حَتَّى تُضّايِق فيما عَنَّ مِن وِطَري
ولا قَضَت مِن سَواد العَيْنِ حَجَتَها   حَتَّى تَكُرَّ عَلى ما طَلَّ في الشَّعَر

وهل نشأ عندكم من النساء مثل ولاّدة المروانية[7]، ومثل زينب بنت زياد المؤدب التي تقول:

ولَمَّا أَبَى الوَاشُون إِلَّا فِرَاقَنَا   وَمَا لَهُم عِنْدي وعِنْدَك مِن ثَار
وَشَنُّوا عَلَى أسمَاعِنَا كُلَّ غَارَةٍ   وَقَلَّ حُماتِي عِنْد ذَاكَ وَأنصارِي
غَزَوْتُهُمو مِن مُقلَتَيَّ وَأَدْمُعِي   ومِن نَفَسِي بِالسَّيف والسّيل والنَار

ثم قال الشقندي بعد كلام: وأنا أختم هذه القطع المتخيرة بقول أبي بكر بن بقيّ ليكون الختام مسكًا:

عَاطَيتُه واللَّيلُ يَسحَب ذَيْلَه   صَهبَاءَ كَالمِسكِ الفَتِيق لِنَاشِق
وَضَممتُه ضَمَّ الكَمِيِّ لِسَيفِه   وَذُؤابَتَاه حَمَائِلٌ في عَاتِقي
حَتَّى إذَا مَالَت بِه سِنَة الكَرى   زَحزَحتُه شَيئًا وَكَان مُعَانِقِي
بَاعَدتُه عَن أَضْلُعٍ تَشْتَاقُه   كَيْلَا يَنَام عَلى وِسَادٍ خَافِقِ[8]

وقول الفاضل أبي حفص بن عمر القرطبي:

هُمُو نَظَروا فَهَامُوا   وَتَشرب لُبَّ شَارِبِهَا المُدَام
يَخَاف النَّاس مُقْلَتَهَا سِوَاها   أَيَذْعَر قَلْب حَامِلِه الحُسَام

[7] أنشد لها بيتين لم نر لهما قيمة.

[8] كتب إلينا الأديب محمد بن عباس القباج أن رين شباب الأندلس صفوان بن إدريس المتوفى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة عن سن لا تتجاوز السابعة والثلاثين، عارض أبيات الشقندي فقال:

سَمَا طَرفِي إليهَا وهو باكٍ　　وتحتَ الشَّمس ينسكِب الغَمام
وأذكُر قدَّها فأنوحُ وَجدا　　عَلَى الأَغْصَان تَنْدِب الحَمَام
وأُعْقبَ بَيْنُهَا في الصَّدْر غَمًّا　　إذا غَربَت ذُكَاء أتَى الظَّلام

وبقوله أيضًا:

لها رِدفٌ تَعَلَّق في لَطِيف　　وَذَاك الرِّدْف لِي ولَهَا ظَلُوم
يُعَذِّبُني إذا فَكَّرت فِيه　　وَيُتْعِبهَا إذَا هَمَّت تقُوم

تلك أيها القارئ نفحة الأندلسي، رأينا أن نمهد بها لدرس قصيدة ابن دراج، الذي أوصاه أميره المنصور بن أبي عامر بمعارضة أبي نواس كما ذكر ابن خلكان، وإنا لنرجو أن يكون فيما اقتطفناه تذكرة لطلاب الأدب، وتبصرة لعشاق البيان، فقد مضت عهود على نهضة الشعر في مصر ولم نجد من الباحثين من قيّد ما ابتكره شعراؤنا في العصر الحديث من المعاني الجديدة، وما ابتدعوه من الصور الطريفة، مع حرصهم على أن يمثل أغراض الحياة، وأطماع العقول، وألوان النفوس، وأهواء القلوب.

يا حسنه والحسن بعض صفاته　　والسحر مقصور على حركاته
بتنا نشعشعُ والعفافُ نديمنا　　خَمرين من غزلي ومِنْ كلماتِهِ
ضاجَعْتُهُ والليْلُ يُذكي تحتنا　　نارين من نفسي ومن وجناتِهِ
وضمَمتُهُ ضمَّ البَخِيلِ لمالِهِ　　يحنو عليه من جميعِ جهاتِهِ
أوثقتهُ في ساعديَّ لأنهُ　　ظبيٌ خشيتُ عليهِ من فلتاتِهِ
والقلبُ يرغبُ أن يصير ساعدًا　　ليفوزَ يالآمالِ منْ ضماتِهِ
حتى إذا هامَ الكرى بجفونِه　　وامتدَّ في عَضديّ طوعَ سناتِهِ
عَزَمَ الغرامُ عليّ في تقبيلِهِ　　فجعلتُ أبدي الطوعَ عن عزماتِهِ
وابى عفافي أن أقبلَ ثغرهُ　　والقَلْبُ مطويٌّ على جمراتِهِ
فاعجبْ لملتهبِ الجوانح غلة　　يَشكو الظَّما والماءُ في لهَوَاتِهِ

الفصل السابع والعشرون

حياة ابن دراج

كان أبو عمر أحمد بن درّاج القسطلي المتوفى سنة ٤٢١ للهجرة من كبار الشعراء، وكان بصقُع الأندلس كالمتنبي بصقُع الشام، كما قال صاحب اليتيمة، وكان له ديوان شعر في جزأين، كما ذكر صاحب وفيات الأعيان، وكان يجيد النثر، كما نص صاحب الذخيرة، ولكن الزمان لم يترك لنا ما نعرف به صدق ما قاله في وصفه مؤرخو الآداب، فقد ضاع ديوان شعره[١]، وضاعت رسائله البليغة، ولم يبق من آثار فضله إلا بقايا ضئيلة لا تكفي في الإبانة عن منزلته في عالم البيان.

ولنذكر أولًا ما قاله المؤرخون في وصفِه، ثم ننتقل إلى وصف نثره وشعره بقدر ما تسمح به الشواهد والأمثال.

قال ابن بسام في الذخيرة: «كان أبو عمر القسطلي في وقته لسان الجزيرة شاعرًا وأولًا حين عدّ معاصريه من شعرائها، وآخر حامل لوائها، وبَهجة أرضها وسمائها وأسوَة كُتابها وشعرائها ... به بُدئ ذكر الجميل وخُتم، حَل اسمه من الأماني محل الأنس، وأحد من تضاءلت الأول عن جلالة قدره، وكانت الشام والعراق خطر ذكره، وقد أحرى الثعالبي طرفًا من أمره، وأغرب بلمع من شعره»، ثم قال: «وإنما ذكرته هنا وإن كان من شعراء ابن أبي عامر؛ لأنه تراحت أيامه، وأغضى عنه حمامه، حتى أخرجته المحّن، وسالت به تلك الفتن».

والقارئ يرى في عبارة ابن بسام شيئًا من اللبس والغموض، وهذا يرجع إلى سببين: أولهما أن كتاب الذخيرة مُنّي بالمسخ والتحريف، ولا يزال إلى الآن مخطوطًا

[١] سيرى القارئ في هامش مقبل أن الديوان لم يضع.

يجده الباحث في دار الكتب المصرية، وثانيهما أن ابن بسام يؤثر السجع، والسجع قيدٌ يضطر الكاتب إلى التعثر، فتظهر في عباراته آثار الضعف والاضطراب.

وقال أبو حيان: «أبو عمر القسطلي سابق حلبة الشعراء العامريين، وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين، كان ممن طَوحت بهم تلك الفتنة الشنعاء، واضطرته إلى النجعة، فاستقر ملوك الأندلس أجمعين، يهز كلًّا بمدحه، ويستعينه على نكبته وليس منهم من يصغي له، أو يحفظ ما أضيع من حقه، وأرخص من عقله وهو يخبطهم بمقوّله[٢] فيصمّون عنه، إلى أن أناخ بساحة المنذر بن يحيى أمير سرقطسة، فألقى عصا سيره عندما بوأه، ورحب به وأوسع قراه، ولم يزل عنده وعند ابنه بعده».

وقال ابن فضل الله، كما ذكر صاحب معاهد التنصيص بعد ذكر قصيدة ابن دراج التي عارض بها أبا نواس:

> ومن وقف على هذه القصيدة وقصيدة أبي نواس عرف فضل قائلها على مَن تقدم، وشهد له بأنه سبق وإن تأخر، وجزم بأن الرجال معادن، ولم يَشُك أن الخواطر موارد لا تنزح، وأن الأفكار مصابيح لا تطفأ، وأن الأفهام مَرَاءٍ لا تتناهى صورها، وأن العقول سحائب لا ينفد مطرها، وعلم أن المعاني غير متناهية، والفضائل غير متوارية، وأن أم الليالي ولود، وأن الفضل في كل حين مشهود، وأن هذا الشاعر في قصيدته هذه التي عارض بها أبا نواس، لم يّدع له عارضًا يُسْتَمطر، ولا عارضةً تُذكَر. وإنه لحقيق أن ينشد:

وإنِّي وَإِنْ كُنْتُ الأخِيرَ زَمَانُهُ لآتٍ بِمَا لم تَسْتَطِعْهُ الأوَائِل

وكذلك كانوا يرون في ابن دراج شاعرًا مفلقًا يبخل بمثله الزمان، ولكن عدوان الحوادث على آثاره الأدبية حال بيننا وبين التثبت من صدق ما حكم به المتقدمون.

[٢] المقول: اللسان.

شيء من نثره

يغلب السجع في نثر ابن دراج، ويجد فيه القارئ شيئًا من مستملح التشبيه، ولنذكر القطعة الآتية على سبيل التمثيل:

حاش لله أن أستشف المسيل قبل جموحه، وأستكره الدر قبل حفوله، أو أتعامى عن سراج المعذرة، وأغفل عن الأدب الباهر في نظرة إلى ميسرة ... ولكن.

مـاذا تـقُـول لِأفَـراخٍ بـذِي مـرخ — حُمْرِ الحَوَاصِل لا مَاءٌ ولا شَجَرُ
ما أَوضحَ العُذر لِي لو أَنَّهم عَذَروا — وأجمَل الصَّبر بِي لو أَنَّهم صَبرُوا
لكِنَّهُم صَغُروا عَن أزمَةٍ كَبُرَت — فَمَا اعتِذَارِي عَمَّن عُذرُه الصِّغَرُ

وقد قلبت لهم ظهر مجن الأمور، وميزت بين الميسور والمعسور، فما وجدت أحسن بدءًا، ولا أحمد عودًا مما أذن الله لعباده الذين أعمرهم أرضه، وسخّر لهم بحره وبره، أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه، وحيث نتقلّب ففي كرمك، وأين نأمن ففي حَرَمِك، وحيث توحشنا دعوتك ولا تعدمنا نعمتك، فمن ملكك إلى ملكك، ومن يمينك إلى شمالك.

وفي كتاب الذخيرة عدة قطع على هذا الأسلوب، وإن كنت أرتاب في نصوصها لما في ذلك الكتاب من التحريف.

شيء من شعره

نعود فنذكر أن الدهر ضنّ علينا بآثار هذا الشاعر المجيد، فليرضَ القارئ بما نختاره من تلك القصائد التي أثبتها صاحب اليتيمة، أحسن الله له الجزاء، وإنا لنستجيد قوله في لوعة الشوق:

وَحشِيَّة اللَّفظ هَل يُؤذَى قَتيلُكم — دَمِي مُضَاع وَجَاني ذَاكِ عيَناك
إنِّي أرَاكِ بَقَتل النَّفسِ حَاذِقَةً فديتك — قُولِي فَدّيتُك مَن بِالقَتل أوصَاك

مَالِي ولِلبَرق أستَسقِيه مِن ظَمأ   هَـيـهَـات لا رِيَّ إِلَّا مِـن ثَـنَـايَـاك
لَولَا الضُّلوع لَظَلَّ القَلب نحوَكمُ   ضَعِي بِعينِك فَوقَ القَلب يُمنَاك
أُصلَيتِنِي لَوْعَة الهِجْرَان ظَالِمة   رُحمَاك مِن لَوعَة الهِجْرَان رُحمَاك

ونستجيد قوله في وصف السفن تشق عباب المحيط:

إلَيك شَحَنَّا الفُلكَ تَهوِي كَأنَّها   وَقَد ذُعِرَت عَن مَغرب الشَّمسِ غِربَانُ
عَلَى لُجَجٍ خُضْرٍ إذَا هَبَّت الصَّبَا   تَرَامَى بِنَا فيهَا ثَبِيرٌ وَثَهلان
وَإن سَكَنَت عَنَّا الرِّيَاح جَرَى بِنَا   زَفِـيـرٌ إلَـى الأحِـبَّـة حَـنَّـانُ
يَقُلنَ وَمَوجُ البَحْر وَالهَمِّ والدُّجَى   تَمُوج بِنَا فِيهَا عُيُونٌ وَآذَان
ألا هَلْ إلَى الدُّنيَا مَعَادٌ وهَل لنَا   سِوَى البَحْر قَبرٌ أو سِوَى الماء أكفَانُ
وَهَبْنا رَأينَا مَعْلَم الأرضِ هل لنَا   مِن الأرْض مَأوىً أو مِنَ الإنسِ عرْفَانُ
هَوَت أُمَّهُم مَاذا هَوَت بِرجَالِهِم   إلى نَازِح الآفَاقِ سُفْنٌ وَأظعَانُ
كَوَاكِبُ إلَّا أنَّ أفْلَاكَ سَيْرِهَا   زِمَامٌ وَرَحْلٌ أو شِرَاعٌ وَسُكّانُ

وفي هذه القصيدة يقول في شكوى الزمان، وتوديع الأحباب:

وإنَّ بِلَادًا أخْرَجَتني لَعَاطِّلٌ   وإنَّ زَمَانًا خَان عَهدِي لَخوَّانُ
سَلَامٌ عَلى الإخوَانَ تَسْلِيم آيِسٍ   وَسَقْيًا لِدَهرٍ كَان لِي فِيه إخوَانُ
فَلا مُؤنِسٌ إلَّا شَهِيقٌ وَزَفرَةٌ   ولا مُسعِدٌ إلَّا دُمُوع وأجفَانُ
وَمَا كَان ذَاك البَيْنُ بَينَ أحِبّةٍ   وَلَكِنْ قُلُوبٌ فَارَقَتْهُنَّ أَبدَانُ

وما أوجَع ما يقول:

فَيا عَجَبًا لِلصَّبْر مِنَّا كَأنَّنا   لَهم غَيرُ مَنْ كُنا وَهُم غَيرُ مَن كَانوا
مَضَى عَيشُهُم بَعْدِي وَعَيشِي بَعدَهُم   كَأنِّي قَد خُنتُ الوَفَاءَ وقَد خَانوا

ومن مختار القصيد قوله:

لَكَ الله بِالنَّصْرِ العَزِيزِ كَفيلُ　　أَجَدَّ مُـقـامٌ أَم أَجَـدَّ رَحـيـلُ
هُوَ الـفَـتحُ أَمَّا يَومُهُ فَمُعَجَّلٌ　　إلَـيكَ وَأَمَّـا صُـنـعُـهُ فَـجَـزِيـلُ
وآيَاتُ نَصرٍ مَا تَزَالُ وَلَمْ تَزَلْ　　بِـهِـنَّ عَـمَـايـاتُ الـضَّـلالِ تَـزولُ
سُيوفٌ تنُيرُ الحَقَّ أنَّى انْتَضَيْتَها　　وَخَيلٌ يَجولُ النَصرُ حَيْثُ تَجولُ
أَلا فِي سَبِيلِ اللهِ غَزوُكَ مَن غَوى　　وَضَـلَّ بِـهِ فِـي الـنَّـاكـثـينَ سَـبِـيلُ
لئِنْ صَدِئَتْ أَلبابُ قَوم بِمَكرِهِمْ　　فَسَيفُ الهُدَى فِي رَاحَتَيْكَ صَقِيلُ
وَإِنْ يَحْيَ فِيهم مَكْرُ جَالُوتَ جَدِّهِمْ　　فَـأَحـجَـارُ دَاوِدٍ لَـدَيْـكَ مُـثُـولُ
خَفِيفٌ عَلَى ظَهرِ الجَوَاد إِذَا عَدَا　　وَلكِن عَلَى صَدْرِ الكَمِيِّ ثَقِيلُ
وَجَرداءَ لَمْ تَبخَل يَدَاها بِغَايَةٍ ولا　　كَـرُّهَـا نَـحـو الـطِّـعَـان بَـخـيـلُ
لَها مِن خَوَافي لَقْوَةِ الجَوِّ أَرْبَعٌ　　وَكَشحَانِ مِن ظَبِي الفَلا وَتَلِيلُ
وَبيضٌ تَرَكْنَ الشِّرْكَ فِي كُل مُنْتَأىً　　فُـلُـولاً وَمَـا أَزرَى بِـهِـنَّ فُـلُـولُ
تَمُورُ دِمَاءُ الكُفرِ فِي شَفَراتِها　　وَيَرجِعُ عَنها الطَّرْفُ وَهوَ كَلِيلُ
وَأَسمَرَ ظَمآنِ الكُعُوبِ كَأَنَّمَا　　بِـهِـنَّ إِلَـى شُـرْبِ الـدِّمَـاءِ غَـلـيـلُ
إِذا مَا هَوَى لِلطَّعْنِ أَيقَنْتَ أَنَّه　　بِصَرف الرَّدَى نَحْو النُّفُوس رَسُولُ

وفيها يقول:

كَتائبُ عِزُّ النصرِ فِي جَنَبَاتِها　　وكُـلُّ عَـزِيـزٍ يـمَّـمَـتْـه ذلـيـلُ
يَسَيِرُ بِهَا فِي البرِّ والبَحرِ قَائدٌ　　يَسِيرٌ عَلَيْهِ الخَطْبُ وَهْوَ جَلِيلُ
إِذا انْشَقَّ لَيْلُ الحَربِ عَن صُبْحِ وَجْهِهِ　　فَقَد حَانَ مِن يَومِ الضَّلَالِ أَفُولُ

وله قصيدة عينية بديعة نوهت بها الذخيرة، ولكنها لم تسلم من التحريف، نختار منها قوله:

فَمَا تَجَاوَزْتُ قَرْنَ اللَّيْل مُعتَسِفًا　　إِلّا وقَـرن رَخـيـم الـدَّلِّ بَـارِعُـهُ
تَحِيَّتي مِنه تَقبيلٌ ومُعتَنَقٌ　　يَـشُـدُّنِـي غُـلُّـهُ فِـيـهِ وجَـامِـعُـهُ
لَم أخلَعِ الدِّرْعَ إِلّا حِينَ شَقَّقَهُ　　عَن صفحِ صَدريَ مَا تَحوي مَدَارِعُهُ

ولا تَوَقَّيتُ سَهْمًا مِنْ لَواحِظِهِ يُذيبُ سَيفِي وَفِي قَلبي مَواقِعُهُ
غُصْنٌ تَجَرَّعَ أَنداءَ الغَمَام فَمَا يُطَوَّقُ الدُّرَّ إلّا وَهْو جَازِعُهُ
يَميسُ سُكْرًا وسُكرُ الدَّلِّ عَاطِفُهُ وَتَارَةً وانثِنَاءُ الوَشْي لاذِعُه
فَبِتُّ تَحْتَ رِوَاقِ اللَّيلِ ثَانِيَهُ والشَّوْقُ ثَالِثُنا والوَصْلُ رَابِعُهُ
والسِّحْرُ مِن لَفظٍ يُنَازِعُني والمِسكُ يَعبقُ مِن كَأْسٍ أُنَازِعُهُ
رَاحًا يَمُدُّ سَنَاهَا نُورُ رَاحتِهِ لَولا النُّهى لجَرَتْ فِيهَا أَصَابِعُهُ
كَأَنَّما ذَاب فِيهَا وَرْدُ وَجْنَتِه وَشجَّهَا رِيقُه المعْسُول مَائِعُهُ
جَنَى حَيَاةٍ دَنتْ مِنِّي مَطَاعِمُهُ مِن بَعدِ مَا قَدْ نَأَتْ عنِّي مطامِعُهُ
قَدْ أَنهَبَ المِسْكَ والكَافُورَ خَازِنُهُ وأَرخِصُ الوَرْدَ والتُّفاحَ بَائِعُهُ
فيا ظَلامَ نُجومِ اللَّيْلِ إِذْ حُرِمَتْ بَدْرَ السماءِ وَفِي حِجري مَضَاجِعُهُ
ويا حَنِينَ ظِبَاءِ القَفْرِ إذ فَقدَتْ غَزَالَهُنَّ وَفي رَوْضِي مَرَاتِعُهُ

رائية ابن دراج

وأشهر قصائد ابن دراج رائيته في مدح المنصور بن أبي عامر، التي عارض بها رائية أبي نواس في مدح الخصيب، وقد ضن الدهر علينا أيضًا بهذه القصيدة، فلم تبق منها إلا قطع مبعثرة هنا وهناك[٣]، وقد راجعت كل ما وصلت إليه من تاريخ الأندلس، وسألت كل من أعرف أنه شغُل بتاريخ الأدب في تلك البلاد، ثم لم أظفر بمطلع هذه القصيدة، وإنما يبدءون بقوله:

أَلَم تعلَمِي أَنَّ الثَوَاء هُو التَّوَى وأَنَّ بُيُوتَ العَاجِزِينَ قُبُورُ

ومن البعيد أن يكون هذا البيت هو المطلع، إذ يبعد أن لا يضع الشاعر مقدمة لهذا الحوار[٤].

[٣] أصبحت القصيدة كلها تحت يدنا، وعرفنا أن الديوان لم يضع، فهو في مخطوط خزانة المؤرخ الكبير النقيب مولاي عبد الرحمن بن زيدان من أمراء البيت الملكي في المغرب، وقد تفضل السيد محمد بن عباس القباج، فأرسل لنا الرائية كاملة، فله منا أطيب الثناء.

[٤] هذا هو المطلع:

ولنأخذ في الموازنة فنذكر أن قول أبي نواس:

تَقُولُ التي مِن بَيتِهَا خَفَّ مَرْكَبي: عَزِيزٌ عَلينَا أن نَرَاكَ تَسِيرُ
أمَا دُونَ مِصْرٍ للِغنَى مُتَطَلّبٌ؟ بَلَى إنّ أسْبابَ الغِنَى لَكَثيرُ
فَقُلتُ لَها واستَعجَلَتْها بَوَادِرٌ جَرتْ فَجَرى مِن جَرْيِهِنَّ عبَيرُ:
ذَرِيني أكَثّرْ حَاسِدِيكِ بِرِحْلَةَ إلى بَلَدٍ فِيه الخَصِيبُ أميرُ

هذه القطعة دون قول ابن دراج:

ألَم تعلَمِي أنَّ الثَوَاء هُو التَّوَى وأنَّ بُيُوتَ العَاجِزِين قُبُورُ
وأنَّ خَطِيرَات المَهَالِك ضُمَّنٌ لِرَاكِبِهَا أنَّ الجَزَاءَ خَطِير
تُخَوِّفُني طُول السِّفَار وإنَّه بِتَقبِيل كَفِّ العَامِرِيّ جَدِير
ذَرِيني أَرِد مَاء المَفَاوِزِ آجِنًا إلى حَيْثُ مَاء المَكْرُمَات نَمِير

وقد بلغ ابن دراج ذروة البلاغة، وبذ أبا نواس وبرَعَه، بقوله في توديع زوجه ووليده:

ولَمَّا تَدانَت لِلوَدَاع وَقَد هَفَا بِصَبْرِي مِنْهَا أَنَّةٌ وَزَفِير
تُنَاشِدُني عَهْد المَوَدّة وَالْهَوى وَفي المَهْد مَبْغُوم النِّدَاء صغير
عَييٌّ بِمَرجُوع الخِطَاب وَلحْظُه بِمَوقع أهْوَاء النُّفُوس خَبِير
تَبَوَّأ مَمْنُوع القُلُوبِ وَمُهِّدَت لَه أَذْرُعٌ مَحْفُوفَة وَنُحُور
عَصَيْت شَفِيع النَّفس فيه وَقَادَني رَوَاح لِتَدْآبِ السُّرَى وبُكُور
وَطَار جَنَاح البَيْنِ بِي وَهَفَت بِهَا جَوَانِح مِن ذُعْرِ الفِرَاقِ تَطِير

دعي عزمات المستضام تسير فتنجد في عرض الفلا وتغور
لعل بما اشجاك من لوعة النوى يعز ذليل أو يفك أسير

لَئنْ وَدَّعَت مِني غَيُورًا فَإِنَّني عَلَى عَزْمَتِي مِن شَجوِها لَغَيْور

ولا لوم على أبي نواس في أن خلت قصيدته من مثل هذا الموقف الحزين، إذ لم يترك ببغداد زوجة ينازعه إليها الوفاء، ولا طفلًا تعطفه إليه نوازع الشوق ولواعج الحنين.

وأحب أن لا يفوت القارئ ترجيع هذا البيت:

تُنَاشِدُني عَهْد المَوَدّة وَالْهَوى وَفي المَهْد مَبْغُوم النِّدَاء صغير

وكلمة «مبغوم النداء» كلمة مختارة بارعة المدلول، وقوله:

عَيِيٌّ بِمَرجُوع الخِطَاب وَلحْظُه بِمَوقع أَهْوَاء النُّفُوس خَبِير

بيت نادر المثال، وقوله:

تَبَوَّأَ مَمْنُوع القُلُوبِ وَمُهِّدَت لَه أَذْرُعٌ مَحْفُوفَة وَنُحُور

من أرق ما صور به الحنان، وما أوجع ما يقول:

عَصَيْت شَفِيع النَّفْس فيه وَقَادَني رَوَاح لِتَدْآبِ السُّرَى وبُكُور
وَطَار جَنَاح البَيْنِ بِي وَهَفَت بِهَا جَوَانِح مِن ذُعْرِ الفِرَاقِ تَطِير

وانظر تصوير الحزم بقوله:

لَئنْ وَدَّعَت مِني غَيُورًا فَإِنَّني عَلَى عَزْمَتِي مِن شَجوِها لَغَيْور

وقول أبي نواس:

ولَمّا أتَتْ فُسْطاطَ مِصْرٍ أجارَهَا على رَكبِهَا أن لا تَزَالَ مُجِيرُ
مِن القَوْمِ بَسّامٌ كأَنَّ جَبِينَهُ سَنَا الفَجْرِ يَسْري ضَوءه ويُنيرُ

زَهَا بالخَصِيبِ السّيْفُ والرُّمحُ في الوَغَى وفـي الـسِّـلْـمِ يَـزْهُـو مِـنْـبَـرٌ وسَـرِيـرُ
جَـوَّادٌ إذَا الأيْـدِي كَـفَـفْـنَ عَـن الـنَّـدَى ومِـن دونِ عَـوْرَاتِ الـنِّـسَـاءِ غَـيُـورُ
لَـهُ سَـلَـفٌ فـي الأعـجَـمِـيـن كَـأنَّـهُـمْ إذَا اسْـتُـؤذِنُـوا يَـوْمَ الـسَّـلامِ بـدُورُ

في هذه القطعة سلاسة وجلاء، وهي أروع من قول ابن دراج:

تَلاقَت عَلَيه مِن تَمِيمٍ ويَعْرُبِ شُمُوسٌ تَلَالَا في العُلَا وَبُدُورُ
مِن الحِميَريْنَ الذِينَ أكُفُّهُم سَحَائِبُ تَهْمِي بِالنَّدَى وبُحُورُ
هُمو صَدَّقُوا بِالوَحْي حِينَ أتَاهُمُ وَمَا النَّاسُ إلّا عَابِدٌ وكَفُور
مَنَاقب يَعيَا الوَصْف عَن كُنْه قَدْرِها وَيَرْجِع عَنْهَا الوَهْم وَهْو حَسِير
ألا كُلُّ مَدْحِ عَنْ نَدَاك مُقَصِّرٌ وَكُلُّ رَجَاءٍ فـي سِوَاكَ غُرُور

ونحن حين نقابل هذه القطعة بكلمة أبي نواس نرى التكلف ظاهرًا في أبيات ابن دراج، وليتأمل القارئ قوله:

مَنَاقب يَعيَا الوَصْف عَن كُنْه قَدْرِها وَيَرْجِع عَنْهَا الوَهْم وَهْو حَسِير

فهو ظاهر الغُلُو، واضح التكلف، أما قوله:

هُمو صَدَّقُوا بِالوَحْي حِينَ أتَاهُمُ وَمَا النَّاسُ إلّا عَابِدٌ وكَفُور

فهو بيت ضعيف.

وقد وصف أبو نواس رحلته إلى مصر وصفًا لا قيمة له، أما ابن دراج فقد أجاد الوصف حين قال:

وَلوْ شَاهَدَتنِي وَالهَوَاجِر تَلْتَظِي عَلَيَّ وَرَقرَاق السَّرَاب يَمُور
أسَلِّط حَرِّ الهَاجِرَات إذَا سَطَا عَلَى حُرِّ وَجْهِي وَالأَصيل هَجِير
وأَسْتَنْشق النَّكْبَاء وَهْي لَوَاقِح وأَسْتَمطِئ الرَمْضَاءَ وَهْي تَفُور
وَللمَوْت في عَيْن الجَبَان تَلَوُّنٌ وَلِلذُّعْرِ في سَمْع الجَرِيء صَفِير

وَلَو شّاهَدتنِي وَالسُّرَى جُلُّ عَزْمَتي   وَجَرْسِي لِجِنَّان الفَلاَة سَمير
وَأَعْتَسِف المَوْمَاة في غَسَق الدُّجَى   وَلِلأسْد في غِيل الغِيَاض زَئِير
أَميرٌ عَلَى غُول التَّنَائِف مَالَه   إِذَا رِيعَ إلا المَشْرَفِي وَزِير
وَقَدْ خَيَّلَتْ طُرْق المَجَرّة أنَّهَا   عَلَى مَفرِق اللّيْل البَهِيم قَتِير
وَدَارَت نُجُوم القطْبِ حَتى كَأَنَّهَا   كئوسُ طَليّ والَى بِهن مُدِير
لَقد أَيْقَنت أَنَّ المُنَى طَوْعَ هِمَّتِي   وَأَنِّي بِعَطْفِ العَامِرِيُّ جَدِير

وهذا شعر جَزلٌ رصين، ومن المحزن أن السياق يدلنا على أن هذه القطعة الوصفية ضاع منها شيءٌ كثير[٥].

وقد انفرد ابن دراج بالإجادة في وصف هيبة اللقاء حين قال:

وَلَما تَوَافَوا لِلسَّلاَم وَرُفِّعَت   عَن الشَّمْسِ في أُفْقِ الشُّرُوق سُتُور
وَقَد قَام مِن زُرْق الأَسِنَّة دونَه   صُفُوف وَمِن بِيضِ السُّيُوف سُطُور
رَأَوْا طَاعَةَ الرَّحْمن كَيْف اعتِزَازُهَا   وَآيَات صُنْع الله كَيْف تُنِير
وَكَيْف اسْتَوى بِالبِرِّ والبَحرِ مَجْلِسٌ   وَقَام بِعِبء الرَّاسِيَاتِ سَرِير
فَسَارُوا عِجَالاً والقُلُوب خَوَافِقٌ   وَأَدْنُوا بِطَاء والنَّوَاظِر صُور
يَقُولون والإِجْلاَل يُخْرِس أَلسُنا   وَحَازت عُيُونٌ مِنهُمُ وصُدُور
لَقَد حَاطَ أَعْلاَم الهُدى بِكَ حَائِطٌ   وَقَدَّر فِيكَ المَكْرُمات قَدير

وهذه الصورة الشعرية تراءت للشاعر بفضل قول البحتري في هيبة اللقاء:

وَلَمَّا قَضَوا صَدْر السَّلاَم تَهَافَتُوا   عَلى يَدِ بسَّامٍ سجِيّتُه البَذْلُ
إِذَا شَرَعوا في خُطبَةٍ قَطَعَتهُمُو   جَلاَلَة طلق الوَجْه جَانُبه سهُل
إذا نَكَّسَوا أَبْصَارَهُم مِن مَهَابةٍ   وَمَالوا بِلَحظٍ خِلت أَنَهُمو قُبْل

[٥] أشرت من قبل إلى أن هذه القصيدة صارت كلها تحت يدي بفضل صديقنا القباج.

نَصَبتَ لَهُم طَرفًا حَديدًا وَمَنطِقًا سَديدًا وَرَأيًا مِثْل ما انتُضِي النَّصْل
فَمَا بَرِحْوا حَتَّى تَعَاطَتْ أَكُفُهْم قِرَاكَ ولا ضِغْنٌ لَدَيْهم ولا ذحل
بِك التأَمَ الشَّعبُ الَّذي كَانَ بَينَهُم عَلى حين بُعْدٍ مِنْه واجْتَمَع الشَّمل

وأبيات البحتري في هيبة اللقاء انتهبها كثير من الشعراء. وأذكر أن فقيد الشباب عبد الحليم المصري قدم إلينا قصيدة لنشرها في جريدة الأفكار سنة ١٩٢٠م في مدح الملك فؤاد، فوجهت نظره إلى ما انتهب من معاني البحتري، فغضب، ولم يصلح بيننا إلا الصديق عبد العزيز دعبيس.

الفصل الثامن والعشرون

بين صبري ومطران

١

نوازن في هذا البحث بين نونّيتين من شعر إسماعيل صبري وخليل مطران، ونرى من الخير أن نذكر طائفة من أخبار إسماعيل صبري وأشعاره، ونبدأ فنذكر أنه ولد في ١٦ فبرايل سنة ١٨٥٤، وتوفي في مطلع الربيع صباح ٢١ مارس سنة ١٩٢٣، وكان من رجال القانون، وآخر منصب تولاه هو منصب وكيل وزارة الحقانية.

كان صبري شاعرًا مجيدًا، ولكنه لم يكن من المكثرين، وقد وصل إلى أبعد حدود التفوق في المعاني الوجدانية، واتفق له أن يغّذَي الغناء حينًا من الزمان، وهو صاحب المّوال الذي كان يغنيه المطربون في أواخر السهرات:

الفَجر أهُو لاحْ قُومُوا يَا تُجَّارْ النُّوم
عَجَب تَنَامُوا وعَيْنِي ما تُشوف النُّوم
نَزَلت بَحْر المَحَبَّة أحسِب أنَّهُ عُوم
غَرقْت قالُوا جَميع النَّاس تسْتَاهِل
عِشْق الجَمَال غَنْدَره اليُومْ وغِيْر اليُومْ

وهو صاحب هذا الدور:

قَدَّكْ أَمِير الأَغْصَان   مـنْ غـيـر مُـكَـابِـر
وَوَرْد خَدَّاك سُلْطَان   عَـلَـى الأزَاهِـر
دَا الحُبّ كُلُّوا أَشجَان   يَـا قَـلْـبِ حَـاذِر

وَالصَّدّ وَيَّا الهِجْرَان　　جَـزَا الـمُـخَـاطِـر

دور

يَا قَلبِ أدِنْتَ حَبِّيت　　ورَجَـعْـت تِـنْـدَم
وَصَبَحت تِشْكِي مَا رِأيت　　لَـكْ حِـدّ يِـرحَـم
صَدَّقْت قَولي وَرَأيتْ　　ذُلَّ الـمُـتَـيَّم ... ...
يَامَا نَصَتَك وَنَهِيت　　لَـو كُـنْـت تـفْـهـم

دور

أعْرض لحُسْنك أوْرَاق　　وَاكْـتُـب وَدَوِّن
وَأَبَات صَرِيع الأَشوَاق　　وَاكْـتْـب وَخَـمِّـن
دَا هَجْر وصَبَابة وَفِرَاق　　يَـا رَبِّ هَـوِّن
وَارْحَم قُلُوب العُشَّاقْ　　دَا شـيء يِـجَـنِّـن

وللقارئ أن يلاحظ أن هذا من الشعر الملحُون، ولا يظهر حسنه إلا عند الغناء، وقد ظَلَّت هذه الأدوار على ألسنة الجماهير المصرية زمنًا غير قليل، وهي محفوظة في ألواح[١].

ومضى صبري يَفتنُّ افتتانًا شائقًا في مغازلة الصباحة، وهو صاحب القصيدة المأثورة «تمثال جمال»، وفيها تظهر براعته في مناغاة الحسناء:

يا لِوَاءَ الحُسنِ أَحزابُ الهَوى　　أَيقَظوا الفِتْنَةَ في ظلِّ اللِّواءِ
فَرَّقَتهُم في الهَوى ثَارَاتُهُم　　فَاجمَعِي الأَمْرَ وَصُوني الأَبرِيَاء
إنَّ هذَا الحُسْنَ كَالمَاءِ الَّذي　　فيهِ لِلْأَنفُسِ رِيٌّ وَشِفَاء
لا تَذُودِي بَعضَنَا عَن وِردِهِ　　دُونَ بَعْضٍ واعدِلِي بَيْن الظِّمَاء
أنتِ يَمُّ الحُسْنِ فِيهِ ازدَحَمَت　　سُفُنُ الآمَالِ يُزجِيهَا الرَّجَاء

[١] نريد بالألواح: أسطوانات الغناء.

يَقذِفُ الشَّوقُ بِهَا في مَائِجٍ ... بَيْنَ لُجَّينٍ عَنَاءٍ وَشَقَاء
شِدَّةٌ تَمضِي وَتَأتِي شِدَّةٌ ... تَقتَفِيهَا شِدَّةٌ هَل مِن رَجَاء
سَاعِفِي آمَالَ أنضَاءِ الهَوى ... بِقبولٍ من سَجَايَاكِ رُخَاء
وَتَجَلَي وَاجعَلي قَومَ الهَوى ... تَحْتَ عَرش الشَّمسِ بِالحُكْم سَوَاء
أقبِلِي نَستَقبِل الدُّنْيَا ومَا ... ضَمِنَته من مُعَدَّات الهَنَاء
واسفِري تِلكَ حُلًى مَا خُلِقَت ... لِتُوارَي بِلثَامٍ أو خِبَاء
واخطِري بَينَ النَّدَامَى يَحلِفوا ... أنَّ رَوضًا رَاحَ في النَّادِي وَجَاء
وانطِقي يَنثُرِ إذا حَدَّثتِنَا ... نَاثِرُ الدُّرِّ عَلَينَا ما نَشَاء
وَابسِمِي مَن كَان هذَا ثَغْرُهُ ... يَملأ الدُّنيَا ابتِسَاما وازدِهَاء
لا تَخَافي شَطَطًا مِن أنفُسٍ ... تَعثُرُ الصَّبوةُ فِيهَا بِالحَيَاء
رَاضَتِ النَخوةُ مِن أخلاَقِنا ... وارتَضَى آدَابَنَا صِدْقُ الوَلاَء
فلَو امتَدَّت أمَانِينا إلَى ... مَلَكٍ ما كَدَّرَت ذَاكَ الصَّفَاء
أنتِ رُوحَانِيَّةٌ لا تَدَّعِي ... انَّ هذَا الشَّكل مِن طِينٍ ومَاء
وانزِعِي عَن جِسمِك الثَّوب يَبِن ... لِلمَلَا تَكوِينُ سُكَّانِ السَّماء
وأَرِى الدُّنَيا جَنَاحَي مَلَكٍ ... خَلفَ تِمثالٍ مَصوغٍ مِن ضِيَاء

وهو أيضًا صاحب الأبيات الحسان:

أَبُثُّكِ مَا بِي فَإن تَرحَمي ... رَحِمتِ أَخَا لَوعَةٍ مَاتَ صَّبًّا
وَأَشكُو النَّوَى مَا أَمَرَّ النَّوى ... عَلَى هَائِمٍ إن دَعَا الشَّوقُ لَبَّى
وَأخشَى عَلَيكِ هُبُوبَ النَّسِيم ... وَإن هُوَ مِن جَانِبِ الرَّوضِ هَبَّا
وَأَستَغفِرُ الله مِن بُرهَةٍ ... مِنَ العُمرِ لَم تَلقَني فِيكِ صَبًّا
تَعَالَي نُجَدِّد زَمَانَ الهَنَاءِ ... وَنَنهَب لَيَالِيَهُ الغُرَّ نَهبَا
تَعَالي أَذُق بِكِ طَعْمَ السَّلام ... وَحَسبِي وَحسْبُكِ مَا كانَ حَربَا

وهو الذي يقول:

تُمسِي تُذَكِّرُنَا الشَّبَابَ وَعهدَهُ ... حَسنَاء مُرهَفَةُ القَوَامِ فَنَذْكُر

تَثِبُ القُلُوبُ إلى الرُّءوسِ إذَا بَدتْ   وَتُطِلُّ مِن حدقِ العُيونِ وَتنظُرُ

وهذا من وثبات الخيال.
وريحان هذا العصر أم كلثوم تغنِّي من شعره هذه الأبيات:

أَقصِر فُؤادي فَمَا الذِكرى بِنَافِعةٍ   ولا بِشَافِعَةٍ في رَدِّ مَا كَانَا
سَلا الفُؤَادُ الذَّي شَاطَرتَهُ زَمَنًا   حَملَ الصَّبابَةِ فَاخفِق وَحدَكَ الآنَا
هَلّا أخَذتَ لِهذَا اليَومِ أُهبَتَهُ   مِن قَبْلِ أَن تُصبِحُ الأَشوَاقُ أَشْجَانَا
لَهِفي عَلَيكَ قَضَيتَ العُمرَ مُقتَحِمًا   في الوَصْلِ نَارًا وفي الهِجْرانِ نِيرانا

وكانت داره بالمنيرة منتدى الأدباء والشعراء، وكانت له سهرات تفيض بالنمير العذب من الأدب الرفيع، وفي أواخر أيامه أمضّ المرض، فكانت زيارة الأدباء أحب إليه من عيادة الأطباء، وصفه الأستاذ أنطون الجميِّل فقال: «كان في عزلته يتطلع إلى أخبار الأدب كما يتطلع القائد الجريح إلى أخبار القتال[٢]».
وألهمته قسوة المرض قصيدة من الشعر الخالد الذي يصوّر آلام اليائس المحزون:

كَمْ سَاعَةٍ آلَمنِي مَسُّهَا   وَأَزعَجَتنِي يَدُهَا القَاسِيَه
فَتَّشْتُ فِيهَا جَاهِدًا لَم أَجِد   هُنَيهَةً وَاحِدةً صَافِيَه
وَكم سَقَتني المُرَّ أُخْتٌ لَها   فَرُحتُ أَشْكُوها إلَى التالِيَه
فَأَسْلَمَتني هذِه عَنْوَةً   لِساعَةٍ أُخرَى وَبِي مَا بِيَه
وَيْحَكَ يَا مِسْكِينُ هَل تَشْتَكِي   جَارِحَةَ الظُفْرِ إلَى ضَارِيَه
حَاذِر مِنَ السّاعات ويْلٌ لِمَن   يَأمنُ تِلْكَ الفِئَةَ الطَّاغِيَه
وَإن تَجِد مِن بَينِهَا سَاعَةً   جَعْبَتُهَا مِن غَصَصٍ خَالِيَه
فَالهُ بِهَا لَهْوَ الحَكِيم الَّذِي   لَم يُنْسِه حَاضِرُه مَاضِيَه
وَامرَح كَمَا يَمْرَحُ ذُو نَشوَةٍ   في قُلَّةٍ مِن تَحتِهَا الهَاوِيَه

[٢] هذا معنى العبارة التي سمعناها من خطبة أنطون الجميل، وقد ضاق الوقت عن مراجعة الأصل، وأخشى أن أكون لونت العبارة بعض التلوين.

فَهيَ وَإن بَشَّت وَإن دَاعَبَت مُـحـتَـالـةٌ خَـتّـالَـةٌ عَـادِيَـه
عِـنـاقُـهَـا خَـنْـقٌ وَتَـقـبِـيـلُـهَـا كَمَا تَعَضُّ الحَيَّةُ البَاغِيَه
هذَا هُو العَيشُ فَقُل لِلذِي تَـجـرَحُـهُ الساعةُ والثانِيَه
يا شاكيَ الساعاتِ أَسِمَع عَسَى تُنجِيكَ مِنْهَا السَّاعَةُ القَاضِيَه

ولم يخل قلبه من سوء ظن بالناس، يدل على ذلك قصيدة (الفزع الأكبر) إذ يقول:

غَاضَ مَاءُ الحَيَاءِ مِن كُلِّ وَجهٍ فَـغَـدَا كَـالِـحَ الـجَـوَانِـبِ قَـفْـرا
وَتَفَشَّى العُقُوقُ في النَّاسِ حَتَّى كَـادَ رَدُّ الـسَّـلَامِ يُـحـسَـبُ بِـرًّا
أوجُهٌ مِثلَمَا نَثَرْتَ عَلَى الأَجْدَا ثِ وردًا إِن هُنَّ أَبْدَين بِشْرا
وَشِفَاهٌ يَقُلْنَ أهلًا وَلَو أَدَّينَ مَا فِي الحَشَا لمَا قُلنَ خَيرا
عَـمْـرَكَ الـلـهَ هـلْ سَـلَامُ وِدَادٍ ذَاكَ أَم حَاوَلَ المُسَلِّمُ أمْرا

وفي هذه القصيدة يقول:

تَعِبَ الفَيلَسوفُ فِي النَّاسِ عَصرًا وَتَـوَلّـى الـسَّـرائِـرَ الـدِّيـنُ عَـصـرا
والـــوَرَى طَـــارِدٌ إزاءَ طَـــرِيـــدٍ وَعُـقَـابٌ يُـمـسِـى يُـطَـارِدُ صَـقـرا
وَجُيُوشٌ يُفُلُّ مِن بَعضِها البَعْـ ـضُ وهُضْبٌ كُبرَى تُنَاطِحُ صُغرَى
حَـاذِرِي يـا ذِئَـابُ صَولَـةَ أُسدٍ مِـنـكِ أَقـوَى نَـابًـا وأنـفَـذُ ظُـفْـرا
لا تَـنَـامِـي يـا أُسْـدُ إنَّ ذِئَـابًـا لَم تَنم مِن رَوَابِضِ الغَيلِ أَضرَى
عِـبَـرٌ كَـلُّـهَـا الـلَّـيَـالـي ولـكِـن أيـنَ مَـن يَـفـتَـحُ الـكِـتَـابَ ويَـقـرَا

وما أحب أن يفوتني إثبات هذه الأبيات:

يا سَرْحَةً بِجِوَار المَاءِ نَاضِرةً سَقَاكِ دَمعَي إذا لم يُوفِ ساقِيكِ
عَارٌ عَلَيكِ وَهَذا الظِّلُّ مُنتَشِرٌ فَتكُ الهَجير بِمِثلي في نَواحِيكِ
فمَن مُعِيري جَناحَي طائِرٍ غَرِدٍ كَي أَقْـطَـعَ شَـدوًا فـي أَعـالِـيكِ

فَلا أُنَفَّرَ عَن أَرضٍ غُرِسْتِ بِها وَلا يَرِنُّ بِسَمْعِي غِيرُ وَاديكِ

وإنما أكثرنا من الشواهد؛ لأن شعر صبري لم يُجمَع في ديوان، فأحببنا أن يطلع على فرائده قراء هذا الكتاب، وقد حاول الأدباء غير مرة أن يجمعوا شعره ثم صرفتهم الشواغل عما يريدون، وكان صبري نفسه قليل الاهتمام بتدوين شعره وكان يسأل عن ذلك، فيجيب: وهبته للفناء!

٢

أما مطران فهو شاعر مدبع، وهو من المكثرين، وله وثبات لا ينهض بها إلا الفحول، وشعره مدوَّن نشرت منه المجموعة الأولى باسم — ديوان الخليل — وينتظر أن يُجمَع شعره كله في عدة أجزاء، وقد عرفنا مطران وصحبنا، وهو تحفة من تحف الذوق والوفاء، وله في النثر أسلوب مضمَّخ بالنفحات الشعرية، وهو رجل خصب الذهن، مثقف العقل، مرهف الإحساس. ومن خصائص مطران التلطف والترفق، فليس له في مصر عدو واحد، على قلة ما يتفق ذلك لأهل الأدب والبيان، وكان الناس يسمونه شاعر القطرين، فلما مات شوقي سمَّوه شاعر الأقطار العربية، مع أنه من أزهد الناس في الألقاب.

وقد تولى رياسة جمعية أبولَّلو في مصر بعد شوقي، وهي جمعية شعرية أثَّرت أبلغ تأثير في الشعر الحديث، ومن أقطاب هذه الجمعية الدكتور أحمد زكي أبو شادي والدكتور إبراهيم ناجي، وهما من أكثر الناس تغنيًا بالشعر بين أدباء هذا الجيل.

٣

نونية صبري

فرعون وقومه:

لا القَومُ قَوْمي وَلا الأَعْوانُ أَعواني إذا وَنَى يومَ تحْصيلِ العُلا وَانِي
وَلَسْتُ إن لَم تُؤَيِّدني فَراعِنَةٌ مِنْكُم بِفرعَون عالِي العَرشِ وَالشَّانِ

لا تَقْرَبوا النِّيلَ إن لَم تَعْمَلوا عَمَلًا   فَمَاؤُهُ العَذْبُ لَم يُخْلَق لِكَسْلانِ
رِدُّوا الـمَـجَـرَّةَ كَـدًّا دونَ مَـورِدِهِ   أو فَـاطْـلُـبـوا غَـيْـرَهُ رِيًّـا لِـظَـمـآنِ
وَابْنُوا كَمَا بَنَتِ الأَجْيالُ قَبلَكم   لَا تَـتـرُكوا بَـعْـدَكَم فَـخْـرًا لإِنْـسَانِ
أَمَـرْتُـكُـم فَـأَطِـيـعـوا أَمْـرَ رَبِّـكُـم   لا يَـثْـنِ مُـسْـتَـمِـعًـا عَن طَاعَـةٍ ثَاني
فَـالـمُـلْـكُ أَمْـرٌ وَطـاعـاتٌ تُـسـابِـقُـهُ   جَـنْـبًـا لِـجَـنْـبٍ إِلَـى غـايـاتِ إِحْـسـانِ
لا تَترُكوا مُسْتَحِيلًا في اِسْتِحَالتِهِ   حَتَّى يُمِيطَ لَكُم عَن وَجْهِ إِمْكانِ

* * *

مَـقـالَـةٌ هَـوَت مِـن عَـرْشِ قـائِـلِـهـا   عَـلـى مَـنـاكِـبِ أَبْـطـالٍ وَشُـجْـعـانِ
مَادَت لَها الْأَرْضُ مِنْ ذُعْرٍ وَدَانَ لَها   مَا في المُقَطَّمِ مِنْ صَخْرٍ وَصَوَّانِ
لَوْ غَيْرُ فِرعَونَ أَلْقاها عَلى ملإٍ   في غَيْرِ مِصْرَ لَعُدَّت حُلْمَ يَقْظانِ
لَكِنَّ فِرعَونَ إن نادَى بها جَبَلًا   لَبَّت حِجارَتُه في قَبْضَةِ الْباني
وآزَرَتْـهُ جَـمـاهـيـرٌ تَـسِـيـلُ بِـهـا   بِـطـاحُ وادٍ بِـمـاضـي الـقَـومِ مَـلْآنِ
يَبنونَ ما تَقِفُ الأَجْيالُ حائِرَةً   أَمـامَـهُ بَـيْـنَ إِعْـجـابٍ وَإِذْعـانِ
مِن كُلِّ ما لَم يَلِد فِكْرٌ وَلا فُتِحَت   عَلى نَظائِرِهِ في الكَوْنِ عَيْنانِ
وَيُـشْـبِـهـونَ إِذا طارُوا إِلَـى عَـمَـلٍ   جِنًّا تَطِيرُ بِأَمْرٍ مِنْ سُلَيْمَانِ
بِرًّا بِذي الأَمْرِ لا خَوْفًا وَلا طَمَعًا   لـكِـنَّـهُـم خُـلِـقُـوا طُـلّابَ إِتْـقـانِ

* * *

أَهْرامُهُم تِلْك حَيِّ الفَنَّ مُتَّخِذًا   مِن الصُخورِ بُروجًا فَوْقَ كِيوانِ
قَدْ مَرَّ دَهْرٌ عَلَيْها وَهْيَ ساخِرَةٌ   بِما يُضَعْضَعُ مِن صَرْحٍ وَإِيوَانِ
لَم يَأخُذِ اللَّيْلُ مِنْها وَالنَهارُ سِوَى   ما يَأخُذُ النَّمْلُ مِن أَرْكانِ ثَهْلانِ[٣]
كَأَنَّها – وَالعَوَادي في جَوانِبِها   صَرْعَى – بِناءُ شَياطِينِ لِشَيْطانِ
جاءَتْ إِلَيْها وُفُودُ الأَرْضِ قاطِبَةً   تَسْعى اشتِياقًا إلى مَا خَلَّدَ الفاني
فَصَغَّرت كُلَّ مَوْجُودٍ ضَخَامَتُها   وَغَضَّ بُنْيانُها مِن كُلِّ بُنْيانِ

[٣] نهلان: اسم جبل.

وَعادَ مُنْكِرُ فَضْلِ القَومِ مُعْتَرِفًا يُثْنِي عَلَى القَوْمِ في سِرٍّ وَإِعْلانِ
تِلْكَ الهَياكِلُ في الأَمْصارِ شاهِدَةً بِأَنَّهُم أَهْلُ سَبْقٍ أَهْلُ إِمْعانِ
وَأَنَّ فِرعَونَ في حَولٍ وَمَقْدِرَةٍ وَقَوْمَ فِرعَونَ في الإِقْدامِ كُفؤانِ
إذا أَقامَ عَلَيْهِم شاهِدًا حَجَرٌ في هَيكَلٍ قامَتِ الأُخْرَى بِبُرْهانِ
كَأَنَّما هيَ وَالأَقْوامُ خاشِعَةٌ أَمامَها صُحُفٌ مِن عالَمٍ ثاني
تَسْتَقبِلُ العَيْنَ في أَثْنائِها صُوَرٌ فَصِيحةُ الرَّمْزِ دارَتْ حَوْلَ جُدْران
لَو أَنَّها أُعْطِيَت صَوْتًا لَكانَ لَه صَدًى يُرَوِّعُ صُمَّ الإِنْسِ وَالجانِ

***

أَيْنَ الأُلَى سَجَّلوا في الصَّخْرِ سِيرَتَهُم وَصَغَّروا كُلَّ ذِي مُلْكٍ وَسُلْطان
بادوا وَبادَتْ عَلَى آثارِهِم دُوَلٌ وَأدرِجوا طَيَّ أَخْبارٍ وَأَكفانِ
وَخَلَّفُوا بَعْدَهُم حَرْبًا مُخَلَّدَةً في الْكَوْنَ ما بَيْنَ أَحْجارٍ وَأَزْمانِ
وزُحْزِحُوا عَن بَقايَا مجدهم وَسَطا عَلَيْهِمُ العِلْمُ ذاكَ الجاهِلُ الجاني
وَيْلٌ لَهُ هَتَكَ الأَسْتَارَ مُقْتَحِمًا جَلال أَكْرَمِ آثارٍ وَأَعْيان
للْجَهْلُ أَرْجَحُ مِنْهُ في جَهَالَّتِهِ إِذا هُما وُزِنا يَوْمًا بِميزانِ

٤

نونية مطران

قال، وقد رأى تمثال رمسيس الثاني في الأقصر:

أَكْبِرْ بِرَمْسِيسَ مَيْتاً لاَ يُلِمُّ بِهِ مَوْتٌ وَأَكْبِرْ بِهِ حَيًّا إِلَى الآنِ
لَوْلا تَمَاثِيلُهُ الأُخْرَى مُحَطَّمَةً مَا جَالَ فِي ظَنٍّ فَانٍ أَنَّهُ فَانِ
فِي مِصْرَ عَزَّ فِرَاعِينٌ فَمَا بَلَغُوا بِها مَبالِغَهُ مِنْ رِفْعَةِ الشَّانِ
وَلَمْ يَتِمَّ لَهَا فِي غَيْرِ مُدَّتِهِ مَا تَمَّ مِنْ فَضْلِ إِثْرَاءٍ وَعُمْرَانِ

تَخَيَّرَ الخُطَّةَ المُثْلَى لَهُ وَلَهَا   يَعْلُو فَتَعْلُو بِهِ وَالخَفْضُ لِلشَّانِي[٤]
مَا زَالَ بِالقَوْمِ حَتَّى صَار بَيْنَهُمُو   إِلَهَ جُنْدٍ تُحَابِيهِ وَكُهَّانِ
وَرَبَّ سَائِمَةٍ بَلْهَاءَ هَائِمَةٍ   تَشْقَى وَتَهْوَاهُ فِي سِرٍّ وَإِعْلانِ
يَسُومُهَا كُلُّ خَسْفٍ وَهْيَ صَابِرَةٌ   لا صَبْرَ عَقْلٍ وَلَكِنْ صَبْرَ إِيمَانِ
إِنْ بَاتَ فِي حُجُبٍ بَاءَتْ إِلَى نُصُبٍ   يَلُوحُ مِنْهُ لَهَا مَعْبُودُهَا الجَانِي
فَبَجَّلَتْ تَحْتَ تَاجِ المُلْكِ مُدْمِيَهَا   وَقَبَّلَتْ دَمَهَا فِي المَرْمَرِ القَانِي
مُخَلَّدًا دُونَ مَنْ قَامُوا بِرِفْعَتِهِ   مِنْ شُوسِ حَرْبٍ وَصُنَّاعٍ وَأَعْوَانِ[٥]
مُخَالِسًا ذِمَّةَ العَلْيَاءِ مُضْطَجِعًا   مِنْ مَهْدِ عِصْمَتِهَا فِي مَضْجَعِ الزَّانِي
بِحَيْثُ آبَ وَكُلُّ الفَخْرِ حِصَّتُهُ   وَلَمْ يَؤُبْ غَيْرُهُ إِلاَّ بِحِرْمَانِ
كَمْ رَاحَ جَمْعٌ فِدَى فَرْدٍ وَكَمْ بُذِلَتْ   فِي مُشْتَرَى سَيِّدٍ أَرْوَاحُ عُبْدَانِ

* * *

كَلاَّ وَعِزَّتِهِ فِيمَا طَغَى وَبَغَى   وَذُلَّ مَنْ قَبِلَ الضِّيزَى بِإِذْعَانِ
هُمُ الَّذِينَ عَلَى عُسْرٍ بِمَطْلَبِهِ   قَدْ أَسْعَفُوهُ بِأَمْوَالٍ وَفِتْيَانِ
وَهُمُ عَلَى سَفَهٍ دَانُوا بِمَنْ نَصَبُوا   فَخَوَّلُوهُ مَدِينًا حَقَّ دَيَّانِ
فِيمَ الأُلَى صَنَعُوا أَنْصَابَهُ دَرَسَتْ   رُسُومُهُمْ مُنْذُ مَاتُوا رَهْنَ أَكْفَانِ
وَمَا لأَسْمَائِهِمْ دُونَ اسْمِهِ دُفِنَتْ   شُعْثًا مُنَكَّرَةً فِي رَمْسِ كِتمَانِ
لَيْتَ البِلادَ الَّتِي أَخْلاقُهَا رَسَبَتْ   يَعْلُو بِأَخْلاقِهَا تَيَّارُ طُغْيَانِ
أَلنَّارُ أَسْوَغُ وِرْدًا فِي مَجَالِ عُلًا   مِنْ بَارِدِ العَيْشِ فِي أَفْيَاءِ فَيْنَانِ
أَكْرِمْ بِذِي مَطْمَعٍ فِي جَنْبِ مَطْمَعِهِ   يَنْجُو الأَذِلاَّءُ مِنْ خَسْفٍ وَخُسْرَانِ
يَهُبُّ فِيهِمْ كَإِعْصَارٍ فَيَنْقُلُهُمْ   مِنْ خَفْضِ عَيْشٍ إِلَى هَيْجَاءِ مَيْدَانِ
بَعْضُ الطُّغَاةِ إِذَا جَلَّتْ إِسَاءَتُهُ   فَقَدْ يَكُونُ بِهِ نَفْعٌ لأَوْطَانِ
فِي كُلِّ مَفْخَرَةٍ تَسْمُو الشُّعُوبُ بِهَا   تَفْنَى جُمُوعٌ مُفَادَاةً لأُحْدَانِ
كَم فِي سَنَا الكَوْكَبِ الوَهَّاجِ مَهْلَكَةٌ   فِي كُلِّ لَمْحٍ لأَضْوَاءٍ وَأَلْوَانِ

[٤] الشانيء: هو المبغض، وفي القرآن: إن شانئك هو الأبتر».

[٥] الشوس: جمع أشوس، وهو المتكبر.

لَمْ تَرْقَ في حَقْبَةٍ مِصْرٌ كَمَا رَقِيَتْ   فِي عَصْرِهِ بَيْنَ أَمْصَارٍ وَبُلْدَانِ
لَمَّا رَمَتْ كُلَّ نَائِي الشَّوْطِ مُمْتَنِعٍ   بِسَابِقِينَ إِلَى الغَايَاتِ شُجْعَانِ
أَلا تَرَى فِي بَقَايَا الصَّرْحِ كَيْفَ مَضَوْا   بِأَوْجُهٍ بَادِيَاتِ البِشْرِ غُرَّانِ
وَكَيْفَ عَادُوا وَرَمْسِيسٌ مُقَدَّمُهُمْ   إِلَى الرُّبُوعِ بِأَوْسَاقٍ وَغِلْمَانِ

الفصل التاسع والعشرون

الموازنة بين النونيتين

وإني لأرجو القارئ أن ينظر في هاتين القصيدتين مرة ومرة، أو مرات قبل أن ينظر فيما نكتب، فما نريد بالموازنة إلا تشويقه إلى المتعة بتلك الآيات الغرّاوات، وأنا قد نظرت في هاتين القصيدتين وأطلت النظر، وعجبت كيف غفل الناس عن هاتين السُورتين من سُوّر الشعر الرفيع، وفي الشعر قرآن وإنجيل.

تفرد صبري بالحديث عن وصية فرعون، أو ما سماه مقالة فرعون، ويا لها من مقالة تصدع الصخر، وتنبت الحماسة في صدور الأموات، وقد مثّل الرجل هول المجد، وعظمة النيل، حين قال:

لا تَقْرَبوا النِّيلَ إن لَم تَعْمَلوا عَمَلًا　　فَمَاؤُهُ العَذْبُ لَم يُخْلَق لِكَسْلانِ
رِدُّوا المَجَرَّةَ كَدًّا دونَ مَورِدِهِ　　أو فَاطْلُبوا غَيْرَهُ رِيًّا لِظَمآنِ

وبذلك دلّنا صبري على أن المجد في مصر لا يُتاح لأهل الكسل والخمود، ولكن أي مجد؟ إن صبري لم يكن يتمثل المجد المزيّف الذي يرتدي أثوابه الوارثون، لم يكن صبري يرى المجد فيما يتمتع به العَجَزة الضعاف الذين يمرحون ويلعبون بفضل ما ترك آباؤهم وأمهاتهم من المال الموروث، وإنما كان يتصور المجد فيما يظفر به العصاميون الذين لا يذوقون لذة العيش إلا بعرق الجبين، أولئك هم الرجال الذين عناهم صبري، وبأمثالهم تزدهر الدنيا في المشرق والمغرب، ومن جهودهم تنبع العلوم والآداب والفنون، أما الهانئون الناعمون يأكلون ما كسبته أيدي آبائهم وأمهاتهم فليسوا جنود فرعون، وليسوا من أهل وادي النيل، لو تُركت أرض مصر لأولئك الذين لا يعرفون غير ألوان الطعام، وخسائس اللذات لما قام فيها أثر خالد، ولا تذوقت طعم الفوز في دنيا لا يظفر بنعمائها غير أقطاب الجدّ الساهر والعمل الموصول.

انظر أيها القارئ في هذين البيتين، وتأمل ما أوصى به فرعون، واسأل نفسك قبل أن تقرب الكأس: أكان رحيقها مما صنعت يدك أم كان مما سكب سواك؟ تأمل قبل أن تذوق طعامك: أسَاقَته إليك يدك الصنَّاع أم كنت ضيفًا على مائدة غيرك؟ وانظر في ثيابك: أكانت خيوطها من خيوط الليل الذي أسهرت جفنيه في العمل الشريف، أم كانت خيوطًا مصنوعة من الرجس الذي اقترفته بالتزلف والتملق والنفاق؟

قد تقول: إن صبري لم يقصد إلى كل هذه المعاني. ومن يُدريك؟ إن وصية فرعون تحتمل كل ذلك، وشريعة الحياة نفسها تفرض على الرجل أن يكون له وجود ذاتيٌّ تتكوّن عناصره من الكدح في سبيل المجد، وسبيل المعاش.

ثم ماذا؟ ثم يبَّين صبري أساس السياسة: سياسة الملك والعمران، حين قال على لسان فرعون:

أَمَرْتُكُم فَأَطِيعوا أَمْرَ رَبِّكُمُ ... لا يَثْنِ مُسْتَمِعًا عَن طَاعَةٍ ثَاني
فَالمُلْكُ أَمْرٌ وَطاعاتٌ تُسابِقهُ ... جَنْبًا لِجَنْبٍ إِلَى غاياتِ إِحْسانِ

اسمعوا هذا: «الملك أمر وطاعات»، وهل كان الملك غير ذاك؟ هل كانت دنيا المجد إلا صورة من الأمر الرشيد والطاعة العيناء، ولا أقول: العمياء.

إن الأمر الرشيد هو صورة العقل، والطاعة العيناء هي صورة التنفيذ، والملوك الموفقون طاعتُهم رشدٌ وعصيانهم ضلال، وكان فرعون ربًّا، وكانت رعيته عبيدًا، كان ربًّا حكيمًا، وكانوا عبيدًا مخلصين، وقد رأيتم ما صنعت الحكمة وما صنع الإخلاص.

لقد تخيرت وصف الطاعة فجعلتها عيناء، ولم أجعلها عمياء، أتعرفون لماذا؟ لأن الشاعر جعل المصريين أبطالًا شجعانًا يقدمون في طاعتهم إقدام الأبرار حين قال:

مَقالَةٌ قد هَوَت مِن عَرْشِ قائِلِها ... عَلى مَناكِبِ أَبْطالٍ وَشُجْعانِ
مَادَت لَها الْأَرْضُ مِنْ ذُعْرٍ وَدَانَ لَها ... مَا في المُقَطَّمِ مِنْ صَخْرٍ وَصَوَّانِ
لَوْ غَيْرُ فِرعَونَ أَلْقاها عَلى ملإٍ ... في غَيْرِ مِصْرَ لَعُدَّت حُلْمَ يَقْظانِ
لَكِنَّ فِرعَونَ إِن نادَى بها جَبَلًا ... لَبَّت حِجارَتُه في قَبْضَةِ الْباني
وآزَرَتهُ جَماهيرٌ تَسيلُ بِها ... بِطاحُ وادٍ بِماضي القَومِ مَلْآنِ
يَبنونَ ما تَقِفُ الأَجْيالُ حائِرَةً ... أَمامَهُ بَيْنَ إِعْجابٍ وَإِذْعانِ

مِن كُلِّ ما لَم يَلِد فِكْرٌ وَلا فُتِحَت　　عَلى نَظائِرِهِ في الكَوْنِ عَيْنانِ
وَيُشْبِهونَ إذا طارُوا إلَى عَمَلٍ　　جِنًّا تَطِيرُ بِأَمْرٍ مِنْ سُلَيْمَانِ
بِرًّا بِذي الأَمْرِ لا خَوْفًا وَلا طَمَعًا　　لَكِنَّهُم خُلِقُوا طُلّابَ إتْقانِ

وهذه القطعة تصوِّر انسجام الأهواء بين فرعون وقوم فرعون: فهو رب يأمر بالرشد، وهم عباد مخلصون «لا يطيعون خوفًا ولا طمعًا، وإنما يقبلون على المجد؛ لأنهم خُلِقوا طلاب إتقان»، وفي هذا المعنى سر عظيم، فالمجد لا ينهض به الملوك وحدهم، وإنما المجد صنيعة الأبرار بين الشعوب، والملك نفسه من روح شعبه، هو الجذوة التي نجد فيها نمس أصول اللهب المكبوت، ولو قام نبي بين الأموات وصرخ لما استجاب له مجيب، وإنما يفلح المصلحون حين يتوجهون إلى نفوس خيرة كمن فيها البر كما تكمن النار في الصخرة الصماء، والمصريون لعهد الفراعين كانوا «طلاب إتقان» وكانوا يعشقون التجويد فيما يصنعون، وكانت أيديهم مفطورة على المهارة، وأنفسهم مجبولة على الصبر الجميل، وعزائمهم مقدودة من الصوان، وكانت إرادة الملوك مظهرًا من إرادتهم الذاتية، فكان خضوعهم خضوع الأشراف لا خضوع العبيد. ومن ذا الذي يسمح له كرم الذوق، وشرف العقل، أن يحكم بأن قصر الكرنك لم يكن إلا مشيئة رجل فرد! إن في خرائب ذلك القصر بقايا من شواهد العبقرية تنطق بأن الذين تولوا هندسته وبناءه كانوا مأخوذين بسلطان غير سلطان الملك وهو سلطان الفن وسلطان الجمال.

لقد زرت عشرات القصور في فرنسا فوجدتها جميعًا دون قصر الكرنك، إن قصر الكرنك وهو خرائب وأطلال لأعظم وأروع من قصر فرساي، وطريق الأسود في الكرنك يشهد بأن المصريين لعهد الفراعين كانوا أئمة الدنيا في تصور الانسجام بين الجمال والجلال.

من أجل ذلك نعتب على مطران أشد العتب؛ لأنه جعل المصريين لعهد رمسيس عبيدًا مسخَّرين يؤمَرون فيأتمرون، وماذا قال مطران! إنه جعل رمسيس كل شيء حين قال:

مَا زَالَ بِالقَوْمِ حَتَّى صَار بَيْنَهُمُ　　إلَهَ جُنْدٍ تُحَابِيهِ وَكُهَّانِ
وَرَبَّ سَائِمَةٍ بَلْهَاءَ هَائِمَةٍ　　تَشْقَى وَتَهْوَاهُ فِي سِرٍّ وَإِعْلانِ

يَسُومُهَا كُلُّ خَسْفٍ وَهْيَ صَابِرَةٌ لا صَبْرَ عَقْلٍ وَلَكِنْ صَبْرَ إِيمَانِ
إِنْ بَاتَ فِي حُجُبٍ بَاءَتْ إِلَى نُصُبٍ يَلُوحُ مِنْهُ لَهَا مَعْبُودُهَا الجَانِي
فَبَجَّلَتْ تَحْتَ تَاجِ المُلْكِ مُدْمِيهَا وَقَبَّلَتْ دَمَهَا فِي المَرْمَرِ القَانِي
مُخَلَّدًا دُونَ مَنْ قَاموا بِرِفْعَتِهِ مِنْ شُوسِ حَرْبٍ وَصُنَّاعٍ وَأَعْوَانِ[١]
مُخَالِسًا ذِمَّةَ العَلْيَاءِ مُضْطَجِعًا مِنْ مَهْدِ عِصْمَتِهَا فِي مَضْجَعِ الزَّانِي
بِحَيْثُ آبَ وَكُلُّ الفَخْرِ حِصَّتُهُ ولَمْ يَؤُبْ غَيْرُهُ إِلاَّ بِحِرْمَانِ
كَمْ رَاحَ جَمْعٌ فِدَى فَرْدٍ وَكَمْ بُذِلَتْ فِي مُشْتَرَى سَيِّدٍ أَرْوَاحُ عُبْدَانِ

وهذه القطعة من الشعر الرائع الرصين، ولكن أين المنطق؟

إن مطران يحكم بأن الرعية كانت تشقى في سبيل رمسيس، ويحكم بأنها كانت على شقائها تهواه في السر والعلانية، ويحكم بأنه كان يسومها الخسف. وأنها كانت تصبر صبر المؤمنين، لا صبر العقلاء. ونحن أيها الشاعر نسألك كيف تهوى الرعية مليكها في السر والعلانية، وهو ظالم! كيف تَهواه وهي تعرف أنه يسومها الخسف والضيم والذل؟ كنت تستطيع أيها الشاعر أن تتخير كلمة غير الهوى، كنت تستطيع أن تقول: أنها كانت تخضع أو كانت تطيع، فالخضوع قد يكون عن ضعف، والطاعة قد تكون عن عجز، أما الهوى فلم يكون إلا عن بينة من نور القلوب.

إن مطران يصور الأمة بأنها كانت تعبد رمسيس، وأنها كانت تتمثل شخصه المحبوب في الهياكل والتماثيل، فكيف يصح أن تتصور أنها كانت ترى فيه وجه الظالم المعبود، وهل يُعبد الظالمون؟ كل شيء يُقبل إلا هذا، فالظالم لا يُعبد إلا حين يتمثل فيه العابدون ملامح جذابة تجعل ظلمه حلو المذاق ... إنك لَشَاعر حين تقول:

فَبَجَّلَتْ تَحْتَ تَاجِ المُلْكِ مُدْمِيهَا وَقَبَّلَتْ دَمَهَا فِي المَرْمَرِ القَانِي

ولكن أين المنطق؟ إن الفراش يحترق، وهو يغازل النور، ولكنه يعشق النور عشقًا يهوّن عليه قسوة الاحتراق، فمن أين علمت أن رعية فرعون لم تكن ترى في فرعون غير جبار غشوم؟ لعلها عرفت فيه معاني فاتنة غابت عنك، وقد جئت تغمزه بعد أن

[١] الشوس: جمع أشوس، وهو المتكبر.

طمرت أمجاده رمال السنين الطوال، وللسنين رمال، وفيها زوابع وأعاصير، رمالٌ من النسيان، وزوابع من العقوق.

إن تمثال رمسيس الثاني لم يصنعه صانعوه وهم غافلون عما يصنعون، لا بد أن يكون لصاحب التمثال صورة مشرفة في أنفس من تعبوا في نحته وتذوقوا في سبيل روعته طعم الضجر والعناء، وللتعب طعم معسول في أذواق من يعرفون ما يصنعون[٢].

ثم ماذا؟ ثم يحكم مطران بأن رمسيس استبد بالمجد، واستبدّ بالخلود، فلم يعرف أحد أسماء من نحتوا التمثال.

رويدك أيها الشاعر، ومن يدريك أن من صنعوا تمثال رمسيس لم يكن لهم في زمانهم وجود ملحوظ؟ وكيف غاب عنك أن تلك سُنّة طبيعية لم تنفرد بها مصر ولم تقصر على رمسيس؟ أين أسماء من أقاموا قصر الحمراء؟ وأين أسماء من أقاموا القصور الشامخات في الأقطار الفرنسية والإنجليزية والجرمانية؟ قد تذكر أسماء بعض المهندسين، ولكن انتظر حتى يمر على تلك المعالم ما مرّ على تمثال رمسيس، انتظر ألفين أو ثلاثة آلاف سنة، ثم اسأل عن اسم نابليون نفسه، فإن وجدت من يعرفه فعندي لك نسخة مذهبة من ديوان مطران!

إنك تقذف رمسيس بهذا البيت، وهو من وحي شيطانك الرجيم:

مُخَالِسًا ذِمَّةَ العَلْيَاءِ مُضْطَجِعًا مِنْ مَهْدِ عِصْمَتِهَا فِي مَضْجَعِ الزَّانِي

فما هذا الدنس في التصوير؟ وما هذا الرجس في التمثيل؟

أيجوز في ذهنك أن ينال الملوك من شعوبهم منازل الخلد بفضل الاختلاس؟ إن الشعب الغافل لا يصل إلى شيء، وقد وصل المصريون في عهد رمسيس إلى أشياء: كانوا لعهده من الغزاة الفاتحين، وكانوا لعهده أقدر أهل زمانهم على البصر بالفنون، فلك أن تتصور إلى أي غاية من غايات الفُتوة العقلية وصلت نفس ذلك الجبار العملاق. وأنت نفسك تقول:

[٢] من ملاحظات الأستاذ محمد مسعود أن رمسيس الثاني كان اتخذ الأقصر قاعدة الملك، ومع ذلك وجدت تماثيله في جهات مختلفة من المدائن المصرية، وهذا يدل على أنه كان محبوبًا جدًا من الأهلين.

فِي مِصْرَ عَزَّ فِرْاعِينٌ فَمَا بَلَغُوا بِها مَبالِغَهُ مِنْ رِفْعَةِ الشَّانِ
وَلَمْ يَتِمَّ لَهَا فِي غَيْرِ مُدَّتِهِ مَا تَمَّ مِنْ فَضْلِ إِثْرَاءٍ وَعُمْرَانِ

أتراه كان يحرث الأرض بيديه؟ أتراه كان يقيم القلاع والحصون بلا مساعد ولا معين؟

إن ما تم في مدته كان بفضل إخلاص الرعية، وهل تخلص الرعية لجبار مستبد غَشوم؟

إن هناك قوانين نفسية تصل بين الحاكمين والمحكومين، قوانين من تجاوب المشارب والأرواح، قوانين من أنس القلوب بالقلوب، وقرب العقول من العقول، ولا بد أن يكون رمسيس الثاني ظفر في زمانه بقَبَس من الجاذبية الروحية والعقلية استطاع بها وهو فَرد أن يسوق المصريين إلى ميادين المجد، فاندفعوا يتصايحون فرحين وهم ألوف الألوف.

إن الذي يزور وادي الملوك في الأقصر، أو يزور وادي اللوار في فرنسا يقول: «كانت هناك أمة» قبل أن يقول: «كان هنا ملك» ولكن قضت سنة الخلود أن يكون في كل أرض جنديٌّ مجهول، والجنود المجهولون ليسوا في عُرف المجد بنكرات، فكل حجر أقيم هو الخلود لتلك السواعد التي أقلّته من مكان إلى مكان، وكل نقش خُلد يحمل اسم الفنّان الذي تعب فيه، وإن لم تشهد بذلك رسوم، ولا حروف، وسيأتي زمان تنكشف فيه الحقائق وترى القلوب ما لا ترى العيون، وقد سَبَقنا نحن فرأينا بعين البصيرة خلود الصانعين ممثلًا في خلود التماثيل.

من الحق أيها الشاعر أن رمسيس ظفر بالسمعة الباقية، ولكن في أي آذان؟ في آذان من يقرءون ولا يفقهون، أما الأمة التي خلدت رمسيس فهي باقية في ذمة الصم الخوالد من أحجار الكرنك، على أيامه السلام.

وما هذا الظلم الذي تقترف أيها الشاعر، وأن تتمثّل ذلك الفرعون وهو في مضجع الداعرين؟

أنت تقول: إنه سَخر الشعب، وهل تعرف كيف تُسخر الشعوب؟ لقد أضجرتك سياسة (الفرقة القومية)، وهم جماعة من الممثلين يُعدون على أصابيع اليدين، وإن زادوا فهم يُعدون على أصابع اليدين والرجلين، فكيف تنتظر أن يُسخِّر رمسيس أمة كاملة ويسوقها إلى تصاريف الحرب، وإلى تكاليف السلم؟ أيفعل ذلك وهو يتَمَطى ويَتَثاءب تحت أشجار الجميز؟ أم يفعل ذلك وهو عقلٌ يفكر، ورأيٌ يُدبر، ولسانٌ يُبين؟

إن الرجل قد يعجز عن إقرار النظام في بيته، وفيه خمس أنفس، والمدرس قد يعجز عن إقرار النظام في درسه وليس تحت بصره غير عشرة تلاميذ، فمن عسى أن يكون الملك الذي يقيم قواعد النظام في أمة تُعَد بالملايين، ولكل قلب شهوات ولكل رأس نزوات، وبين الرؤساء والقواد ضغائن وحقود! إن الملك الذي يجمع طوائق شعبه على رأي واحد لهو رَجُل سَحَّارٌ خلُقت إرادته من كل قلب، فسيطر على كل نفس، ووضع على عصره يدًا من حديد، وكذلك كان رمسيس الذي غمزته في شعرك غمزة لا رفق فيها ولا إشفاق.

ولكن كيف اتفق لمطران أن يتحامل على رمسيس بلا سبب مبين؟

لقد فكرت في ذلك طويلًا، ثم بدا لي أن أرجع إلى الظرف الذي نظم فيه هذه القصيدة العصماء، فوجدت الدكتور محمد صبري يذكر أن مطران كان زار أهرام سقارة، ثم أرسل إلى الأستاذ محمد أبياتًا لينشرها بالمؤيد، وأبيات مطران هي أصل ما في النونية، وفيها يقول عن فرعون:

شَادَ فأعلَى وَبَنَى فَوَطَّدا   لا لِلعُلا وَلا لَهُ بَل لِلعِدا
مُسْتَعْبِداُ أُمَّتَه في يَومِهَ   مُسْتَعْبِداُ بِنِيه لِلعَادِي غَدَا

وفيها يقول عن العمال الذين بنوا الأهرام:

إنِّي أرَى عَدَّ الرِّمَال هَا هُنا   خَلائِقًا تَكْثُر أن تُعَدَّدَا
مُجْتَمِعينَ أَبْحُرًا مُنْفَرِعيـ   ـنَ أَنْهُرًا مُنْحَدرِينَ صُعَّدَا
صُفْرَ الوجْوهِ نَاديًا جِباهُهُمْ   كَالْكَلإِ اليَابِس يَعْلوهُ النَّدَى
أَكُلّ هذي الأَنْفُسِ الهَلْكَى غَدًا   تَبْنِي لِفَانٍ جَدَثاَ مُخَلَّدا

وهذا من الشعر الحق، والشاعر يتمثل نفسه واقفًا ينظر العمال وهم يبنون الأهرام، وكانت هذه القصيدة هي الباعث الذي حدا إسماعيل صبري على نظم نونيته الشماء.

ولكن متى زار مطران أهرام سقارة؟ لقد اتصلت بالأستاذ مسعود تليفونيًّا، وسألته متى نشر دالية مطران، فأجاب إنه لا يذكر بالضبط، وإنما يعرف أنه ترك جريدة المؤيد سنة ١٩٠٦م.

ومعنى هذا أنه نظم قصيدته الأولى في غمز الفراعين منذ ثلاثين سنة أو تزيد.

قد يسأل القارئ: وما خطر ذلك في هذه القضية؟

ونجيب بأن بلاد الشام كانت منذ ثلاثين سنة تغلي غيظًا وحقدًا على السلطان عبد الحميد، وكان الناس في أكثر البلاد يرون في صورة عبد الحميد وجه الجبار السفاح، ولا سيما أهل الشام الذين شرّد عبد الحميد علماءهم وشعراءهم وكتّابهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة، وحكم على بعضهم بالنفي وعلى بعضهم بالشنق، الآن عرفنا من كان يعني مطران وهو يحارب رمسيس، إنه كان يحارب عبد الحميد وإن لم يخطر له ذلك على باله، ومهمة النقد الأدبي، هي إماطة اللثام عن المقنع من ضمائر الرجال.

عبد الحميد هو الشخصية العاتية التي كان يحاربها مطران، ولكنه ما كان يستطيع أن يجهر بعداوته؛ لأن مصر في ذلك الحين كانت ترى عبد الحميد خليفة المسلمين؛ ولأن السياسة المصرية لم تكن ترى من الذوق أن تسمح لشاعر بأن يغاضب الخليفة علانية ويصفه بالظلم والاعتساف، على حين يجأر الخطباء فوق المنابر بالدعاء له، ويتَنسَّم الجمهور أخباره في المساجد والأسواق.

تأمل هذا أيها القارئ لتعرف كيف صح لمطران أن يقول في أعوان رمسيس:

هُمُ الَّذِينَ عَلَى عُسْرٍ بِمَطْلَبِهِ قَدْ أَسْعَفُوهُ بِأَمْوَالٍ وَفِتْيَانِ
وَهُمُ عَلَى سَفَهٍ دَانُوا بِمَنْ نَصَبُوا فَخَوَّلُوهُ مَدِينًا حَقَّ دَيَّانِ
فِيمَ الأُلَى صَنَعُوا أَنْصَابَهُ دَرَسَتْ رُسُومُهُمْ مُنْذُ بَاتُوا رَهْنَ أَكْفَانِ
وَمَا لأَسْمَائِهِمْ دُونَ اسْمِهِ دُفِنَتْ شُعْثًا مُنَكَّرَةً فِي رَمْسِ كِتمَانِ

وهذه الحال كانت حال أعوان عبد الحميد، الرجل الداهية الذي طوّق عصره بطوقٍ من فولاذ، واستطاع السيطرة والبطش عددًا من السنين.

ومطران في هذه اللفتة كان ابن عصره، ففي ذلك العهد كانت تؤسس الجمعيات السرية لمقاومة عبد الحميد، وكان أدباء الشام يسلقون ذلك العاهل بألسنَةٍ حداد.

تلك كانت نفسية مطران، أما نفسية صبري فكانت مَلكية أكثر من المَلك، كان صبري فيما أفترض على وفاق مع أعوان عبد الحميد، أو كان على الأقل من المحايدين، فلما رأى مطران يشتم فرعون ثارت في رأسه العصبية المصرية، وانطلق يقول في تمجيد الفراعين:

أَيْنَ الأُلَى سَجَّلوا في الصَّخْرِ سِيرَتَهُم وَصَغَّروا كُلَّ ذِي مُلْكٍ وَسُلْطان
بادوا وَبادَتْ عَلَى آثارِهِم دُوَلٌ وَأدرِجوا طَيَّ أَخْبارٍ وَأكفانِ
وَخَلَّفُوا بَعْدَهُم حَرْبًا مُخَلَّدَةً في الْكَوْنَ ما بَيْنَ أَحْجارٍ وَأَزْمانِ

فالمعارضة بين صبري ومطران لم تكن معارضة بين رجلين، وإنما كانت معارضة بين حزبين، والشعر الذي نقرؤه ونتغنى به لا يمثل عواطف فردية في أغلب الأحيان، وإنما يصور نزعات اجتماعية يهمس بها الشاعر أو يصيح.

ومطران قد يقرأ هذا الفصل ويعجب؛ لأنه لا يبعد أن تكون نفسه خَلَت خُلوًا ظاهريًّا من المعنى الذي عرضناه، ولكن الناقد الذي يتخذ علم النفس وسيلةً لدرس سرائر الرجال لا يَصعب عليه أن يرى وجه الحق فيما نقول.

١

على أن مطران لم يفته أن يتمنى للمصريين استعبادًا مثل استعباد رمسيس، استعبادًا ترتفع به هاماتهم في الدنيا فيقفون مواقف الرجال.

ولننظر كيف يقول:

لَيْتَ البِلادَ الَّتِي أَخْلاقُهَا رَسَبَتْ يَعْلُو بِأَخْلاقِهَا تَيَّارُ طُغْيَانِ
النَّارُ أَسْوَغُ وِرْدًا فِي مَجَالِ عُلًا مِنْ بَارِدِ العَيْشِ فِي أَفْيَاءِ فَيْنَانِ
أَكْرِمْ بِذِي طَمَعٍ فِي جَنْبِ مَطْمَعِهِ يَنْجُو الأَذِلاَّءُ مِنْ خَسْفٍ وَخُسْرَانِ
يَهُبُّ فِيهِمْ كَإِعْصَارٍ فَيَنْقُلُهُمْ مِنْ خَفْضِ عَيْشٍ إِلَى هَيْجَاءِ مَيْدَانِ
بَعْضُ الطُّغَاةِ إِذَا جَلَّتْ إِسَاءَتُهُ فَقَدْ يَكُونُ بِهِ نَفْعٌ لأَوْطَانِ
في كُلِّ مَفْخَرَةٍ تَسْمُو الشُّعُوبُ بِهَا تَفْنَى جُمُوعٌ مُفَادَاةً لأُحْدَانِ
كَم فِي سَنَا الكَوْكَبِ الوَهَّاجِ مَهْلَكَةٍ فِي كُلِّ لَمْحٍ لأَضْوَاءٍ وَأَلْوَانِ
لَمْ تَرْقَ في حَقْبَةٍ مِصْرٌ كَمَا رَقِيَتْ فِي عَصْرِهِ بَيْنَ أَمْصَارٍ وَبُلْدَانِ
لَمَّا رَمَتْ كُلَّ نَائِي الشَّوْطِ مُمْتَنِعٍ بِسَابِقِينَ إِلَى الغَايَاتِ شُجْعَانِ
أَلا نَرَى فِي بَقَايَا الصَّرْحِ كَيْفَ مَضَوْا بِأَوْجِهٍ بَادِيَاتِ البِشْرِ غُرَّانِ

وَكَيْفَ عَادُوا وَرَمْسِيسٌ مُقَدَّمُهُمْ إِلَـى الـرُّبُـوعِ بِـأَوْسَـاقٍ وَغِـلْـمَـانِ

هذا هو الشعر في منطق الحكماء، الآن يتمنى مطران لو أتيح للبلاد الهوامد أن تظفر بطاغية ينقلها من حياة الخمول إلى حياة الإقدام، الآن يرى النار أرفق بالشعوب من العيش الوادع في ظلال الترف واللين، والآن يُرحب بطمع الطامعين الذين ينجو بهم الأذلاء من الخسف والخسران فينقلون من خفض العيش إلى ميادين القتال، الآن يرى من سنن المجد أن تفنى الجموع في سبيل الأفراد، ويرى بعين الشاعر أن سَنَا الكوكب الوهاج يهلك ما يشاء من الأضواء والألوان، الآن يرى أن رمسيس الثاني رفع قومه بين الناس، وجعل وطنه فوق الأوطان، الآن يقرأ ما نقش على الصروح؛ ليرى كيف كان البشر يفيض من أوجه الجنود وهم يعودون إلى الوطن ظافرين.

فما معنى ذلك؟ أيكون معناه أن مطران وقع في تناقض؟

لا! لم يقع في تناقض، وإنما عرض صورتين مختلفتين: الصورة الأولى في معايب الاستبداد، والصورة الثانية في محاسن الاستبداد، ولكل حقيقة وجهان: أحدهما دميم، والآخر جميل.

وبذلك نرى مطران انتهى إلى الغاية التي وثب إليها صبري، ولكنه لم يصل إلى تلك الغاية إلا بعد جولة شعرية عرض فيها لتقبيح الظلم والتنكيل بالظالمين، وشعر مطران في طعن الاستبداد له وجه مقبول، هو وثبةٌ شعبيةٌ تجول بالصدور في كل أرض، وفي كل جيل.

فلنسجل الآن أن مطران تفرد في نونيته بهذه المحاولة العقلية، وهي عرض جانبين من الرأي في قصيدة واحدة، وهو نوع من التحليل لا يجيده من الشعراء إلا الأقلون.

ولنذكر أن بيت القصيدة في نونية مطران هو قوله وقد راعته العظمة في تمثال رمسيس:

لَوْلا تَمَاثِيلُهُ الأُخْرَى مُحَطَّمَةً مَا جَالَ فِي ظَنٍّ فَانٍ أَنَّهُ فَانِ

وما أحب أن نضيع الفرصة بدون أن أوجه أنظار الرجال في مصر إلى ذلك التمثال، وليتهم يفكرون في نقله من الأقصر لينصب في ميدان باب الحديد، أليس من العجيب أن ينقل الفرنسيون من الأقصر مسلة مصرية لينصبوها في ميدان الكونكورد فتوحي إلى شعرائهم آيات الشعر الرفيع، ونعجز نحن عن نقل تمثال رمسيس ليُنصب في

ميدان باب الحديد، فيكون شاهدًا على ماضي مصر في إعزاز العظَمة مخلّدةً بروائع الفن الجميل.

٢

نظم صبري قصيدته ليرد على مطران فكان لا بدّ له من وقفة يشرح بها ما في الأهرام من جلال:

أَهْرامُهُم تِلْك حَيِّ الفَنَّ مُتَّخِذًا مِن الصُخورِ بُروجًا فَوْقَ كِيوانِ
قَدْ مَرَّ دَهْرٌ عَلَيْها وَهْيَ ساخِرَةٌ بِما يُضَعْضَعُ مِن صَرْحٍ وَإِيوَانِ
لَم يَأْخُذِ اللَّيْلُ مِنْها وَالنَهارُ سِوَى ما يَأْخُذُ النَّمْلُ مِن أَرْكانِ نَهْلانِ

أرأيتم كيف لا يأخذ الليل والنهار من أركان الأهرام إلا بمقدار ما يأخذ النمل من أركان الجبل! لقد تمرد ملوك على الأهرام ليهدموها فلم تخدش معاولهم غير الطلاء.

وما هذا البيت:

كَأَنَّها — وَالعَوَادي في جَوانِبِها صَرْعَى — بِناءُ شَياطِينٍ لِشَيْطانِ

ما هذا البيت! من القليل أن نقول: إنه بيت القصيد، فإن جملة «والعوادي في جوانبها صرعى» من أرواع وثبات الخيال، وما أجدر هذا البيت أن ينقش على الأهرام ليكون صفحة جديدة في سِفر الفنون.

ثم ماذا يا صبري؟ ماذا تقول في أحجار الأهرام؟ أتقول:

كَأَنَّما هِيَ وَالأَقْوامُ خاشِعَةٌ أمامَها صُحُفٌ مِن عالمٍ ثاني
تَسْتَقبِلُ العَيْنَ في أَثْنائِها صُوَرٌ فَصِيحةُ الرَّمْزِ دارَتْ حَوْلَ جُدْران
لَو أَنَّها أُعْطِيَت صَوْتًا لَكانَ لَه صَدىً يُرَوِّعُ صُمَّ الإِنْسِ وَالجانِ

ما هذا الشعر أيها الناس؟ هذا هو السحر الحلال الذي سمعنا باسمه في أخبار الأولين.

أما بعد: فإني أكاد أحكم بأن الشاعر إسماعيل صبري هو الذي سنَّ مذاهب القول في وصف آثار الفراعين للشاعر أحمد شوقي، أليست ضادية شوقي مما نُظمَ بعد نونية صبري؟

إن كان فيما أحكم به شيء من الحق فإسماعيل صبري إمام أهل هذا العصر في الإشادة بآثار الفراعين.

وليس المجال في هذا الحديث بمتسع لدرس ضادية شوقي في قصر أنس الوجود، فليرجع إليها القارئ في الجزء الثاني من الشوقيات، وليتذكر أن قول شوقي:

رُبَّ سِـرٍّ بَـجَـانِـبَـيْـك مُـذَالٍ كَانَ حَتَّى عَلّى الْفَراعِينِ غَمْضَا

إنما أخذ من قول صبري:

وزُحْـزِحُـوا عَـن بَـقـايَـا وَسَـطـا عَلَيْهِمُ العِلْمُ ذاكَ الجاهِلْ الجاني
وَيْلٌ لَهُ هَتَكَ الأَسْتَارَ مُقْتَحِمًا جَـلال أَكْـرَمِ آثـارٍ وأَعْـيـان
للْجَهْلُ أَرْجَحُ مِنْهُ في جَهَالّتِهِ إِذا هُـمـا وُزِنـا يـوْمًـا بِـمـيـزانِ

﴿قُلِ اللَّــهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾

الفصل الثلاثون

بين البارودي وأبي نواس

نحن أمام قصيدتين تعدّان من ذخائر البيان: قصيدة أبي نواس في مدح الأمين وقصيدة البارودي في الترحم على صباه.

أما قصيدة أبي نواس فهي الميمية التي فتحت له قلب الأمين بفضل وساطة الفضل بن الربيع، وكان الأمين قد عرف أبا نواس في حياة أبيه الرشيد، فلما سمع منه الميمية وصله بألف دينار وأمره بملازمة القصر، فظل في رعايته إلى أن صنعت الأقدار ما صنعت يوم قضت بالنصر للمأمون.

لا نعرف بالضبط متى نظم أبو نواس قصيدته ولكن من المرجح أنه قالها في أول خلافة الأمين أي: في سنة ١٩٣هـ. وأبو نواس ولد سنة ١٤١هـ فيكون عمره حين نظرم الميمية اثنتين وخمسين سنة أو تزيد.

وإنما اهتممنا بهذا التاريخ لنعرف أن أبا النواس كان يجدّ كل الجد في التحسر على ملاعب الشباب، ولم يكن في تحزنه من المتكلفين، واثنتان وخمسون سنة تهد عزم الرجل الصلب إذا اتفق له ما اتفق لأبي نواس من قضاء الشباب بين عواصف الكئوس، وزوابع الدسائس والنمائم، وأعاصير الجد العاثر والزمن الكنود.

كان أبو نواس يسخر من الشعراء الذين يبكون الديار ويقفون على الأطلال، كان يسخر من هؤلاء في صباه يوم كان في الكئوس والرياحين والوجوه الصباح ما يشغله عن بكاء الرسوم الهوامد والدمَن العافيات، فلما فعلت الاثنتان والخسمون فعلها الأثيم في شبابه وفي قواه، تلفت فرأى الديار مما يستحق البكاء … والله يعلم أي حسرة كانت تسحق قلب هذا الرجل وهو يقول:

يا دارُ! ما فعَلَتْ بكِ الأيّامُ   لم يبقَ فيكِ بشاشة تشتامُ
عَرَمَ الزّمانُ عَلَى الّذينَ عهدتهمْ   بكِ قاطِنين وللزّمان عُرامُ[1]
أيّامَ لا أغْشَى لأهْلِكِ مَنْزِلًا   إلاّ مُراقَبَة علىّ ظَلامُ[2]

وأبو نواس في هذه الأبيات يقاسي لوعتين: لوعة الوجد على الدار التي ذهبت ببشاشتها الأيام، ولوعة الوجد على الرفاق المساميح الذين أجلَتْهم عن دار الهوى أحداث الزمان، والشاعر يحدثنا أنه لم يكن يغشى تلك الدار إلا في ظلمات الليل أيام كان يتذوق حياة يراها الشاعر أرق من النجوى، وأطيب من شهيِّ العتاب.

ثم أنظروا هذه الصورة، صورة الفتك، في هذا البيت:

ولقد نَهَزْتُ مع الغُوَاةِ بِدَلْوِهِمْ   وأَسَمْتُ سَرْحَ اللّهْوِ حيثُ أساموا

تأملوا هذه الصورة البدوية التي أخذت ألوانها من حياة الأعراب، ثم انظروا كيف جمع أطراف المغامرات الجنونية، مغامرات اللهو والشباب.

وانظروا بعد ذلك كيف وصف خاتمة المطاف حين قال:

وبلَغتُ ما بَلَغَ امرُؤٌ بشَبابِهِ   فإذا عُصارَة كلّ ذاكَ آثامُ

الله أكبر، هذا هو الشعر، وذلك هو الشاعر أبو نواس!

قصيدة أبي نواس عدَتها عشرون بيتًا، وقصيدة البارودي عدتها أربعون بيتًا، ولكن هذه الأبيات الخامسة، أو هذه الفاتحة في السُورة النواسية هي التي هاجت البارودي، وأذكت لوعته، وأضرمت شجاه، فقال:

ذَهَبَ الصِّبَا وَتَوَلَّتِ الأَيَّامُ   فَعَلَى الصِّبَا وَعَلَى الزَّمَانِ سَلامُ

---

[1] العرام. الشدة والعنف.

[2] جملة (على الظلام) جملة حالية.

تَاللهِ أَنْسَى مَا حَيِيتُ عُهُودَهُ   وَلِكُلِّ عَهْدٍ فِي الْكِرَام ذِمَامُ

وهذه النفثة أقل حرارة من نفثة أبي نواس، وأكاد أحكم بأن البارودي كان يتكلف بعض التكلف، فإن نفثته لم تكن نفثة ملتاع، وإنما كانت نزوة شاعر مفتون بالوصف، ومفتون بأخلاق الماجدين، فقد اندفع يحدث عن رفاقه في أيام صباه فلم يجعلهم من الفتيان الماجنين الذين كان يعرف أمثالهم أبو نواس، وإنما جعلهم من أقطاب الدولة الذين يجلسون إلى مائدة السلاف وفيهم شمال الأبطال.

ومعنى ذلك أن ندمان البارودي لم يكونوا من المغامرين الذين تعصف برؤوسهم الصهباء فلا يدرون ما يفعلون، على نحو ما كان ندمان أبي نواس، وإنما كانوا من الأجواد المغاوير الذين لا يعرفون الحانات، وإنما يعاقرون الكأس في القصور، وتظل قلوبهم موصولة الأواصر بمعاني البأس، ومعاني الجود.

فالبارودي وهو يصف رفاق الصهباء لا يخلص في الشوق إلى أيام صباه؛ وإنما يتمدح ويتمجّد، وتلك حال من يعقل، لا حال من ذهب الوجد بقلبه الملتاع.

وانظروا كيف يقول:

إذ نَحْنُ فِي عَيْشٍ تَرِفُّ ظِلالُهُ   وَلَنَا بِمُعْتَرِك الْهَوَى آثَامُ
تَجْرِي عَلَيْنَا الْكَأْسُ بَيْنَ مَجَالِسٍ   فِيهَا السَّلامُ تَعَانُقٌ وَلِزَامُ
فِي فِتْيَةٍ فَاضَ النَّعِيمُ عَلَيْهِمُ   وَنَمَاهُمُ التَّبْجِيلُ وَالإِعْظَامُ
ذَهَبَتْ بِهِمْ شِيَمُ الْمُلُوكِ فَلَيْسَ فِي   تَلْعَابِهِمْ هَذْرٌ وَلا إِبْرَامُ
لا يَنْطِقُونَ بِغَيْرِ آدَابِ الْهَوَى   سُمحُ النُّفُوسِ عَلَى الْبَلاءِ كِرَامُ
مِنْ كُلِّ أَبْلَجَ يُسْتَضَاءُ بِنُورِهِ   كَالْبَدْرِ حَلَّى صَفْحَتَيْهِ غَمَامُ
سَهْلُ الْخَلِيقَةِ لا يَسُوءُ جَلِيسَهُ   بَيْنَ الْمَقَامَةِ وَاضِحٌ بَسَّامُ
مُتَوَاضِعٌ لِلْقَوْمِ تَحْسَبُ أَنَّهُ   مَوْلىً لَهُمْ فِي الدَّارِ وَهْوَ هُمَامُ
تَرْنُو الْعُيُونُ إِلَيْهِ فِي أَفْعَالِهِ   وَتَسِيرُ تَحْتَ لِوَائِهِ الأَقْوَامُ
فَإِذَا تَكَلَّمَ فَالرُّءُوسُ خَوَاضِعٌ   وَإِذَا تَنَاهَضَ فَالصُّفُوفُ قِيَامُ
نَلْهُو وَنَلْعَبُ بَيْنَ خُضْرِ حَدَائِقٍ   لَيْسَتْ بِغَيْرِ خُيُولِنَا تُسْتَامُ
حَتَّى انْتَبَهْنَا بَعْدَ أَن ذَهَبَ الصِّبَا   إِنَّ اللَّذَاذَةَ وَالصِّبَا أَحْلامُ

وهذا الشعر في غاية الجودة إذا نظرنا إلى طرافة معناه، فهؤلاء الندمان العابثون هم رجال أعمال، وليسوا فتيان غواية، هم أقطاب الحرب، وأعلام السلم، ولهم مع ذلك آثام في معترك الهوى، والإثم ألوان: هناك إثم الأطفال، وهناك آثام الأبطال، وما أبعد الفرق بين الآثام النواسية والآثام البارودية، ولست بهذا أحكم بأن آثام البارودي أضخم من آثام أبي نواس. هيهات، وإنما أحكم بأن آثام البارودي يغمرها التجمل والتعقل والافتعال، وأمثال هذه الآثام لا ترجع صورها إلى القلب إلا موصولة بأطياف المجد المفقود ومن أجل ذلك قلت: إن الشاعر لم يخلص الشوق إلى غفلات الصبا ونزوات الشباب، ومن أجل ذلك أيضًا نراه يتكلف الحكمة إذ يقول:

لا تَحْسَبَنَّ الْعَيْشَ دَامَ لِمُتْرَفٍ ... هَيْهَاتَ لَيْسَ عَلَى الزَّمَانِ دَوَامُ
تَأْتِي الشُّهُورُ وَتَنْتَهِي سَاعَاتُهَا ... لَمْعَ السَّرَابِ وَتَنْقَضِي الأَعْوَامُ
وَالنَّاسُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَارِدٌ ... أَوْ صَادِرٌ تَجْرِي بِهِ الأَيَّامُ
لا طَائِرٌ يَنْجُو وَلا ذُو مِخْلَبٍ ... يَبْقَى وَعَاقِبَةُ الْحَيَاة حِمَامُ

كانت قصيدة أبي نواس في مدح الأمين، وكذلك منعه الأدب من الحديث عن الصهباء وهو شاعر الصهباء، أما البارودي فقد قصر قصيدته على شجون قلبه وهموم دنياه، فرأيناه يندفع في وصف الخمر فيقول:

فَادْفَعْ هُمُومَ النَّفْسِ عَنْكَ إِذَا اعْتَرَتْ ... بِالْكَأْسِ فَهْيَ عَلَى الْهُمُومِ حُسَامُ
فَالْعَيْشُ لَيْسَ يَدُومُ فِي أَلْوَانِهِ ... إِلَّا إِذَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْجَامُ
مِنْ خَمْرَةٍ تَذَرُ الْكَبِيرَ إِذَا انْتَشَى ... بَعْدَ اشْتِعَالِ الشَّيْبِ وَهْوَ غُلامُ
لَعِبَ الزَّمَانُ بِهَا فَغَادَرَ جِسْمَهَا ... شَبَحًا تَهَافَتُ دُونَهُ الأَوْهَامُ
حَمْرَاءُ دَارَ بِهَا الْحَبَابُ فَصَوَّرَتْ ... فَلَكًا تَحُفُّ سَمَاءَهُ الأَوهَامُ
لا تَسْتَقِيمُ الْعَيْنُ فِي لَمَعَانِهَا ... وَتَزِلُّ عِنْدَ لِقَائِهَا الأَقْدَامُ
تَعْشُو الرِّكَابُ فَإِنْ تَبَلَّجَ كَأْسُهَا ... سَارُوا وَإِنْ زَالَ الضِّيَاءُ أَقَامُوا
حُبِسَتْ بِأَكْلَفَ لَمْ يَصِلْ بِفِنَائِهِ ... نُورٌ وَلَمْ يَبْرَحْ عَلَيْهِ ظَلامُ
حَتَّى إِذَا اصْطَفَقَتْ وَطَارَ فِدَامُهَا ... وَثَبَتْ فَلَمْ تَثْبُتْ لَهَا الأَجْسَامُ
وَقَدَتْ حِمَيَّتُهَا فَلَوْلا مَزْجُهَا ... بِالْمَاءِ بَعْدَ الْمَاءِ شَبَّ ضِرَامُ

تَسِمُ الْعُيُونَ بِنُورِهَا لَكِنَّهَا بَرْدٌ عَلَى شُرَّابِهَا وَسَلامُ
فَاصْقُلْ بِهَا صَدْأَ الْهُمُومِ وَلا تَكُنْ غِرًّا تَطِيشُ بِلُبِّهِ الآلامُ

وهذا شعر جميل، ولكن ما رأيكم فيمن يحدثكم أن البارودي قال هذه الأبيات وهو تعبان؟ إن هذه الخمرية ينقصها الروح، هي نظم منسجم مسبوك، ولكنها كالكأس التي قتلت بالماء فلم يبق مناه غير الشعاع الخامد الذي لا يقدر على نقل العقل من مكان إلى مكان.

أيرانا القارئ نتحامل على البارودي؟ وكيف، وقد قرأنا أبياته هذه مرة ومرة، فلم تعصف بالنفس نوازع الفتك، ولم تطف بالرأس غاشيات الضلال.

إن خمرية البارودي هذه لن تهوى بأحد إلى الجحيم، ولن يسأل عنها يوم الحساب، أما خمريات أبي نواس فقصد صيّرت قبره سعيرًا لا يخمد له أورار، وسيكون يوم الدين جبلًا يتفجر بالبراكين.

قلت لكم: إن البارودي نظم قصيدته، وهو تعبان، ومن آيات ذلك أنه عاد إلى تكلف الحكمة، فقال:

يَهْوَى الْفَتَى طُولَ الْحَيَاةِ وَإِنَّهَا دَاءٌ لَهُ لَوْ يَسْتَبِينُ عُقَامُ
فَاطْمَحْ بِطَرْفِكَ هَلْ تَرَى مِنْ أُمَّةٍ خَلَدَتْ وَهَلْ لابْنِ السَّبِيلِ مُقَامُ
هَذِي الْمَدَائِنُ قَدْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا بَعْدَ النِّظَامِ وَهَذِهِ الأَهْرَامُ
لا شَيءَ يَخْلُدُ غَيْرَ أَنَّ خَدِيعَةً فِي الدَّهْرِ تَنْكُلُ دُونَهَا الأَحْلامُ
وَلَقَدْ تَبَيَّنْتُ الأُمُورَ بِغَيْرِهَا وَأَتَى عَلَيَّ النَّقْضُ وَالإِبْرَامُ
فَإِذَا السُّكُونُ تَحَرُّكٌ وَإِذَا الْخُمُو دُ تَلَهُّبٌ وَإِذَا السُّكُوتُ كَلامُ
وَإِذَا الْحَيَاةُ وَلا حَيَاةَ مَنِيَّةٌ تَحْيَا بِهَا الأَجْسَادُ وَهْيَ رِمَامُ
هَذَا يَحُلُّ وَذَاكَ يَرْحَلُ كَارِهَا عَنْهُ فَصُلْحٌ تَارَةً وَخِصَامُ
فَالنُّورُ لَوْ بَيَّنْتَ أَمْرَكَ ظُلْمَةٌ وَالْبَدْءُ لَوْ فَكَّرْتَ فِيهِ خِتَامُ

وهذا شعر رجل تعبان، واليأس نفسه يحتاج في تصويره إلى قوة، وكأنّ البارودي ضعف فلم يستطع أن ينال من الدنيا ما نال منها أبو العتاهية حين قال:

لِدُوا لِلْمِوْتِ وَابْنوا لِلخَرابِ فكُلُكْمُو يصيرُ إلى تباب

هذا ولم نعرض لبقية قصيدة أبي نواس لأنها في المديح؛ ولأن البارودي وقف في المعارضة عند وصف الخمر وبكاء الشباب، على أنه لا مانع من الإشارة إلى أن البارودي حين وصف رفاقه برجاحة الأحلام وهم يشربون آطاف يقول أبي نواس في مدح الأمين:

مَلِكٌ أَغَرُّ إذا شَرِبْتَ بِوَجْهِهِ لمْ يَعْدُكَ التّبْجيلُ والإِعْظامُ

ولا بأس من توجيه القارئ إلى العذوبة البادية في قول أبي نواس:

وإذا المَطيّ بِنا بَلَغْنَ مُحَمَّدًا فَظُهورُهُنّ عَلى الرّجالِ حَرامُ
قَرَّبْنَنَا مِن خَيْرِ مَن وَطِئَ الحَصَا فَلَهَا عَلَيْنا حُرْمَة وذِمامُ
رُفِعَ الحِجابُ لَنا فَلاحَ لِناظِرٍ قَمَرٌ تَقَطَّعُ دونَهُ الأوْهامُ
مَلِكٌ إذا عَلِقَتْ يَداكَ بحَبْلِهِ لا تَعْتَريكَ البُؤْسُ والإعْدامُ
سَبْطُ البَنَانِ إذا احْتَبى بِنِجادِهِ فَرَعَ الجَماجِمَ والسّماطُ قِيامُ
مَلِكٌ إذا اعْتَبَر الأمورَ مَضَى بِهِ رَأيٌ يَفُلُّ السّيفَ وهو حُسامُ

ويكاد هذا الشعر يذهب بقالة السوء التي دنّس بها أنصار المأمون أخبار الأمين.

الفصل الحادي والثلاثون

بين البارودي وأبي فراس

في كل لغة شعراء وكُتاب وخطباء يخلقون أجواء[1] من الفكر والعبقرية فيزيدون في عمر لغتهم، ويصلون بينها وبين القلوب والعقول، فتزداد تأصلًا وقوةً وحيوية، فاللغة الفرنسية مَدينة في حياتها لأمثال هوجو وميسيه ولامرتين، واللغة الإنجليزية مدينة لأمثال بيرون وشيلي وشكسبير، واللغة الألمانية مدينة لأمثال شيللر وجوته، والناس متفقون على أن اللغة الإيطالية مدينة لدانتي أثقل الدّين.

ولغة العرب مدينة لجماعة من الشعراء والمفكرين منهم أبو فراس صاحب الروميات، أبو فراس الذي وصف الضعف الإنساني أجمل وصف، وشرحه أحسن شرح، ومَثَّله أصدق تمثيل.

أبو فراس ضحية الكبرياء، والحب والمجد، أبو فراس الوتَر الحنَان الذي خلَد على الدهر مجد الألم ومجد الأنين، أبو فراس الذي أبكى كل عين، وأحزن كل قلب، وشغل كل باب، أبو فراس الأسد الذي استعذب الدمع بعد الزئير، وعلمته الليالي كيف تعصف الخطوب بأحلام الرجل.

كن كيف شئت من قوة القلب ثم اقرأ روميات أبي فراس، فستعرف أن القوة الإنسانية في حاجة إلى من يبكيها حين تزول، وليت القلم يطاوعني لأشرح بعض ما أريد، وأنا أريد أن أقول: إن عنفوان الرجال من كنوز الحياة، ولكنها كنوز معرّضة للتزييف حين يعروها الخمود، العنفوان في الرجل الشجاع هو أنضر من الصباحة في

[1] الجو يجمع على جواء بكسر الجيم، وهي اللفظة التي آثرناها في كتاب النثر الفني. ولكنا آثرنا هنا أن نجمعها على أجواء.

الوجع الجميل، والصباحة تجد من يبكيها حين تزول، أما العنفوان حين يخمد فلا يجد من يشيّعه بطيف من الرثاء.

وما قرأت روميات أبي فراس إلا تمثلت زوال الجبال، تمثلت عُنْفُوان الفارس الفاتك الذي قضت الأقدار بأن يمسي وهو في ظلمات من ذلة الأسر، وهزيمة القلب وانصهار الروح.

لا تذكروا آلام المتنبي، ولا أشجان المعرّي، ولا وجد ابن زيدون، كل أولئك أحمالهم خفاف بجانب ما حمل أبو فراس، وما ظنكم بقائد عظيم يذله الأسر حتى يعود طفلًا يتوجع من جراحه ويشكو لأمه فيقول:

مُصابي جَليلٌ وَالعَزاءُ جَميلُ وَظَنّي بِأَنَّ اللهَ سَوفَ يُديلُ
جِراحٌ تَحاماها الأُساةُ مَخافَةٌ وَسُقمانِ بادٍ مِنهُما وَدَخيلُ
وَأَسْرٌ أُقاسيهِ وَلَيْلٌ نُجومُهُ أَرَى كُلَّ شَيءٍ غَيرَهُنَّ يَزولُ
تَطُولُ بِيَ الساعاتُ وَهيَ قَصيرَةٌ وَفي كُلِّ دَهْرٍ لايَسُرُّكَ طُولُ
تَناسانِيَ الأَصْحابُ إِلّا عُصَيبَةً سَتَلحَقُ بِالأُخْرَى غَدًا وَتَحْولُ
وَإِن الَّذي يَبْقَى عَلَى العَهْدِ مِنْهُمُ وَإِن كَثُرَت دَعْواهُمُ لَقَليلُ
أُقَلِّبُ طَرْفي لا أَرَى غَيْرَ صاحِبٍ يَميلُ مَعَ النَعْماءِ حَيْثُ تَميلُ
وَصِرنا نَرى أَنَّ المُتَارِكَ مُحْسِنٌ وَأَنَّ خَليلًا لايَضُرَ وصولُ
أَكُلُّ زَمانٍ أَنْكَدٌ غيرُ مُنْصِفٍ وَكُلُّ زَمانٍ بِالكِرامِ بَخيلُ
فَيا حَسْرَتِي مَن لي بِخِلٍّ مُوافِقٍ أَقولُ بِشَجْوي مَرَّةً وَيَقولُ
وَإِنَّ وَراءَ السَّتْرِ أُمًّا بُكَاؤُهَا عَلَيَّ وَإِن طَالَ الزَمانُ طَويلُ
فَيا أُمَّنا لا تُخطِئي الأَجرَ إِنَّهُ عَلى قَدَرِ الصَبرِ الجَميلِ جَزيلُ
تَأَسّي كَفاكِ اللهُ ما تَحْذَرينَهُ فَقَد غالَ هَذا الدَّهْر قَبلَكِ غولُ
لَقِيتُ نُجومَ اللَّيْل وَهيَ صَوارِمٌ وَخُضْتُ سَوَادَ اللَيلِ وَهوَ خُيولُ
وَلَم أَرْعَ لِلنَفسِ الكَريمَةِ خِلَّةً عَشِيَّةَ لَم يَعطِف عَلَيَّ خَليلُ
وَلَكِن لَقيتُ المَوتَ حَتّى تَرَكتُها وَفيها وَفي حَدِّ الحُسامِ فُلولُ

أترون كيف صحَّ للفارس المغوار أن يبكي كما يبكي الطفل؟ إن التوجع لآلام الأمهات شريعة إنسانية لا يعرفها أبطال الحروب إلا يوم ينهزمون أو يُؤسرون، وكذلك قضت الدنيا على أبي فراس أن ينهزم وأن يُؤسر، وقضت عليه أن ينتظر من يَفديه فلا

يظفر بالفداء، قضت عليه الدنيا أن يعاني آلام الجروح فلا يسعفه طبيب، ولا يواسيه رفيق، قضت عليه الدنيا أن يتمثل أمه باكيةً مُلتاعةً لا يرْقأ لها دمع، ولا يهدأ لها فؤاد، ويا ويل من تضعف نفسه فيرق لأحزان الأمهات!

على أن أبا فراس كان يتجلد أحيانًا في أسره فلا يزيدنا ذلك التجلد إلا علمًا بما وصل إليه من فقد الصبر وانعدام العزاء، كان يتجلد فيستطيع أن يقرع سيف الدولة بمثل هذا العتاب:

أَمـا لِـجَـمـيـلٍ عِـنْـدَكُـنَّ ثَـوابُ ... وَلا لِـمُـسـيءٍ عِـنْـدَكُـنَّ مَـتَـابُ
لَقَد ضَلَّ مَنْ تَحْوِي هَواهُ خَريدَةٌ ... وَقَد ذَلَّ مَن تَقْضي عَلَيهِ كَعابُ
وَلَـكِـنَّـنـي وَالـحَـمْـدُ لِـلَّـهِ حـازِمٌ ... أَعِـزُّ إِذا ذَلَّـت لَـهُـنَّ رِقـابُ
وَلا تَـمـلِـكُ الـحَـسـناءُ قَـلـبِـيَ كُـلَّـهُ ... وَإِن مَـلَّـكَـتْـهَـا رَوْقَـةٌ وَشَـبـابُ[2]
إِذا الـخِـلُّ لَـمْ يَـهـجُـركَ إِلّا مَـلالَـةً ... فَـلَـيـسَ لَـهُ إِلّا الـفِـراقَ عِـتـابُ
إِذا لَـم أَجِـدْ فـي بَـلْـدَةٍ مـا أُريـدُهُ ... فَـعِـنـدي لِأُخـرى عَـزمَـةٌ ورِكـابُ
فَلَيسَ فِراقٌ ما اِستَطَعتُ فَإِن يَكُن ... فِـراقٌ عَـلـى حـالٍ فَـلَـيـسَ إِيـابُ
صَـبُـورٌ وَلـو لَـم تَـبـقَ مِـنّـي بَـقِـيَّـةٌ ... قَـئـولٌ وَلَـو أَنَّ الـسُّـيـوفَ جَـوابُ
وَقُـورٌ وَأَهْـوَالَ الـزَمـانِ تَـنـوشُـنـي ... وَلِـلـمَـوتِ حَـولـي جـيـئَـةٌ وَذَهـابُ
وَأَلْـحَـظُ أَحـوالَ الـزَمـانِ بِـمُـقـلَـةٍ ... بِـهـا الـصُـدقُ صِـدقٌ وَالـكِـذابُ كِـذابُ
بِـمَـن يَـثِـقُ الإِنْـسـانُ فـيـمـا يَـنُـوبُـهُ ... وَمِـن أَيـنَ لِـلـحُـرِّ الْـكَـريـمِ صِـحـابُ
وَقَـد صـارَ هَـذا الـنـاسُ إِلّا أَقَـلَّـهُـمْ ... ذِئـابًـا عَـلـى أَجـسـادِهِـنَّ ثِـيـابُ
تَـغـابَـيـتُ عَـن قَـومـي فَـظَـنّـوا غَـبـاوَتـي ... بِـمَـفـرِقِ أَغْـبَـانـا حَـصًـا وَتُـرابُ
وَلَـو عَـرَفـونـي حَـقَّ مَـعـرِفَـتـي بِـهِـم ... إِذًا عَـلِـمـوا أَنّـي شَـهِـدْتُ وَغـابـوا
وَمـا كُـلُّ فَـعّـالٍ يُـجـازَى بِـفِـعْـلِـهِ ... وَلا كُـلُّ قَـوّالٍ لَـدَيَّ يُـجـابُ
وَرُبَّ كَـلامٍ مَـرَّ فَـوْقَ مَـسـامِـعـي ... كَـمـا طَـنَّ فـي لَـوْحِ الْـهَـجـيـرِ ذُبـابُ
إِلـى الـلـهِ أَشْـكـو أَنَّـنـا بِـمَـنَـازِلٍ ... تَـحَـكَّـمُ فـي آسَـادِهِـنَّ كِـلابُ
تَـمُـرُّ الـلَـيـالـي لَـيْـسَ لِـلـنَـفـعِ مَـوضِـعٌ ... لَـدَيَّ وَلا لِـلـمُـعْـتَـفـيـنَ جَـنـابُ

[2] الروقة والروق: أول الشباب. ويقال أيضًا مضى ريق الشباب.

وَلا شُدَّ لي سَرْجٌ عَلَى ظَهرِ سابِحٍ ... وَلا ضُـرِبَـت لـي بِـالـعَـرَاءِ قِـبـابُ
وَلا بَرَقَت لي في اللِقاءِ قَواطِعٌ ... وَلا لَمَعَت لي في الحُروبِ حِرابُ
سَتَذْكُرُ أَيّامي نُمَيْرٌ وَعامِرٌ ... وَكَعْبٌ عَلى عَادَاتِها وَكِلابُ
أَنا الجَارُ لا زادِي بَطِيءٌ عَلَيهُمُ ... وَلا دونَ مالي لِلحَوادِثِ بابُ
وَلا أَطلُبُ العَوْراءَ مِنهُم أُصِيبُها ... وَلا عَوْرَتي لِلطّالِبينَ تُصابُ
وَأَسطو وَحُبّي ثابِتٌ في قُلوبِهِم ... وَأَحلَمُ عَن جُهّالِهِم وَأُهابُ
بَني عَمِّنا لا تَتْرُكوا الحَرْب إِنَّنا ... شِدادٌ عَلى غَيرِ الهَوانِ صِلابُ
بَني عَمِّنا ما يَصْنَعُ السَيْفُ بَيْنَنا ... إِذا فُلَّ مِنهُ مَضْرِبٌ وَذُبَابُ
بَني عَمِّنا نَحنُ السَواعِدُ وَالظُبَا ... وَيوشِكُ يَومًا أَنْ يَكونَ ضِرابُ
وَإِنَّ رِجالًا ما ابِنَهُمْ كَابِنِ أُخْتِهِم ... حَرِيُّونَ أَن يُقْضَى لَهُ وَيُهابُ
فَعَن أَيِّ عُذْرٍ إِن دُعُوا وَدُعِيتُمُ ... أَبَيتُم بَني أَعمامِنا وَأَجَابوا
وَما أَدَّعي ما يَعلَمُ اللهُ غَيرَهُ ... رِحابُ عَلِيٍّ لِلعُفاةِ رِحابُ
وَأَفعالُهُ بِالراغِبينَ كَريمَةٌ ... وَأَموالُهُ لِلطالِبينَ نِهابُ
وَلَكِن نَبا مِنهُ بِكَفَّيَّ صارِمٌ ... وَأَظلَمَ في عَينَيَّ مِنهُ شِهابُ
وَأَبطَأَ عَنّي وَالمَنايا سَريعَةٌ ... وَلِلمَوتِ ظُفرٌ قَد أَطَلَّ وَنابُ
فَإِنْ لَم يَكُن وُدٌّ قَديمٌ نَعُدُّهُ ... وَلا نَسَبٌ بَينَ الرِجالِ قُرابُ
فَأَحوَطُ لِلإِسلامِ أَنْ لا يُضيعَني ... وَلي عَنهُ فيهِ حَوْطَةٌ وَمَنابُ
وَلَكِنَّني راضٍ عَلى كُلِّ حالَةٍ ... لِنَعْلَمَ أَيُّ الخُلَّتَيْنِ سَرابُ
وَما زِلتُ أَرْضَى بِالقَليلِ مَحَبَّةً ... لَدَيهِ وَما دُونَ الكَثيرِ حِجابُ
وَأَطلُبُ إِبقاءً عَلى الوُدِّ أَرضَهُ ... وَذِكري مُنًى في غَيرِه وَطِلابُ
كَذاكَ الوِدادُ المَحْضُ لا يُرتَجى لَهُ ... ثَوابٌ وَلا يُخْشى عَلَيْهِ عِقابُ
وَقَد كُنْتُ أَرْضَى الهَجرَ وَالشَّمْلُ جامِعٌ ... وَفي كُلِّ يَوْمٍ لَقيَةٌ وَخِطابُ
فَكَيفَ وَفيما بَينَنا مُلكُ قَيصَرٍ ... وَلِلبَحرِ حَولي زَخرَةٌ وَعُبابُ
أَمِن بَعدِ بَذلِ النَفسِ فيما تُريدُهُ ... أُثابُ بِمُرِّ العَتبِ حينَ أُثابُ
فَلَيتَكَ تَحْلُو وَالحَياةُ مَريرَةٌ ... وَلَيْتَكَ تَرضَى وَالأَنامُ غِضابُ
وَلَيتَ الَّذي بَيْني وَبَينَكَ عامِرٌ ... وَبَيني وَبَينَ العالَمينَ خَرابُ

وإنما نقلنا هذه القصيدة على طولها لنمكن القارئ من التعرف إلى روح أبي فراس، فذلك رجل أسير ضَعْضعه اليأس، ولكنه لا يزال مشغول البال بمكايد الأحزاب، وهو يتكلم كلام الطليق، لا كلام الأسير، ويعتب على هذا وذاك عتب من يملك الضر والنفع، والعقاب والثواب، ويسمو إلى أبعد آفاق الرجولة حين يقول:

تَمُرُّ اللَيالي لَيْسَ لِلنَفعِ مَوضِعٌ   لَدَيَّ وَلا لِلمُعتَفينَ جَنابُ
وَلا شُدَّ لي سَرْجٌ عَلَى ظَهرِ سابِحٍ   وَلا ضُرِبَت لي بِالعَراءِ قِبابُ
وَلا بَرَقَت لي في اللِقاءِ قَواطِعٌ   وَلا لَمَعَت لي في الحُروبِ حِرابُ

وأقسى ما يعاني الرجل أن يمسي لا يملك الضر، ولا يملك النفع، وغايات الفتوّة أن يكون الرجل نَفَّاعًا ضرّارًا يخشاه العدو ويرجوه الصديق، وشكاية أبي فراس في قصيدته هذه شكاية رجال، أما شكايته في القصيدة الماضية فشكاية أطفال، ومعاذ الأدب أن يتجنى عليه، فنحن لا نعرف كيف كان يعامل الأسرى في بلاد الروم، ولا نعرف كيف كان يرى الدنيا وهو أسير، ولا نعرف ما قُوبل به أسره في بلاط سيف الدولة، فقد يكون أسره قوبل بالشماتة من بعض الأمراء، وذلك إن وقع شيءٌ منه كافٍ لأن ينقل الرجل من الصبر إلى الجزع، يحوله إلى إنسان لا يعرف غير الندم على ما قدّم في الحرب من حسن البلاء.

قلت: إن الشاعر يتكلم في هذه القصيدة كلام الطليق. ألم تر كيف ابتدأها بالنسيب؟ ألم تر كيف دعا إلى مواصلة الحرب؟ ألم تر كيف يمتدح بأنه يتجاهل أقوال القادحين فيقول:

وَرُبَّ كَلامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسامِعي   كَما طَنَّ في لَوْحِ الْهَجيرِ ذُبابُ

ولنتذكر أن كل شعره في الأسر لم يكن إلا حديث النفس إلى النفس، فمن المستبعد جدًّا أن نتصور أن الرجل كان يراسل قومه من يوم إلى يوم، أو من أسبوع إلى أسبوع، فالدنيا في ذلك العصر لم تكن تسمح بأن يكون للأسرى بريد، وهل سمحت الدنيا في هذا العصر بأن يكون للأسرى بريد حتى تسمح لأبي فراس بأن يعاتب سيف الدولة ويخاشن أنصاره بمثل ما رأينا في هذا القصيد؟

إن الصلة بين القصيدين الماضيتين ليست بعيدة، فالأولى توجع، والثانية تجلد، وليس بين التوجع والتجلد إلا فرق ضئيل.

والشاعر في القصيدتين غير متكلف، وإنما هو يمثل ما يمر بالنفس الإنسانية من صور وأطياف، والنفس الإنسانية فيها قوة وضعف، وفيها جبروت واستخذاء، والشاعر الحق هو الذي لا يكذب على الطبع: وإنما يبتهج ويبتئس، ويقسو ويلين، وفقًا لبسمات العيش أو نكد الزمان.

قد يقول معترض: وكيف صح لأبي فراس أن ينظم أشعار الحماسة وهو في القَيد؟

ونجيب بأن الليث المأسور في حديقة الحيوان يتمثل أحداث الغابة في كل حين.

والنفس تجتر ماضي النعيم في أيام الحرمان، وصور النعيم السالف هي القبَس الذي يبدد غياهب البؤس، ويمحق ظلمات البأساء.

وكيف تحتاج إلى شرح هذه النزعة النفسية وعندنا البارودي، البارودي رجل السيف، الذي لم يصوّر أيام الحرب والفتوة إلا بعد أن ألقته الحوادث منفيًّا في جزيرة سيلان.

إن إحساس البارودي بمجده الحق لم يتم له إلا بعد أن نزعت عنه الحوادث شارات المجد، وكل إنسان حساس لا يدرك ما كان عليه من قوة وفتوة ونعمة إلا بعد أن تسطو عليه الخطوب، وتريه الدنيا كيف تصوح الأزهار، وكيف تجف الأنهار، وكيف تذبل الرياحين.

إن إحساس أبي فراس والبارودي بعظمة المجد بعد الهزيمة هو إحساس طبيعي مألوف، فقد رأينا ورأى الناس أن المرء لا يتمدح بماضيه إلا حين يصبح حاضره لا يكبت العدو ولا يسر الصديق.

ومن عجيب التشابه بين البارودي وأبي فراس أنهما ظلا في أيام المحنة واليأس يتذكران الأحباب ويشكوان سفه الراشين، وقد مرّ شاهد من شعر أبي فراس، فلنذكر بجانب ذلك قول البارودي:

رُدُّوا عليَّ الصّبا منْ عصْريَ الخالِي ... وَهَلْ يَعُودُ سَوَادُ اللِّمَة الْبَالِي

مَاضٍ مِنَ العَيْش ما لاحتْ مخايلُهُ ... في صفحةِ الْفكرْ إلاَّ هاجَ بلبالي

سَلَتْ قُلُوبٌ فَقَرَّتْ في مَضاجِعِها ... بَعْدَ الْحَنِينِ وَقَلْبِي لَيْسَ بِالسَّالِي

لمْ يدْرِ مَنْ بَاتَ مَسْرُورًا بِلَذَّتهِ ... أَني بنَارِ الأَسَى مِنْ هِجْرِه صالِ

يا غاضِبينَ علينْا هَلْ إلَى عِدَةٍ ... بِالْوَاصْلِ يَوْمٌ أُنَاغي فيهِ إِقْبَالي

غِبْتُمْ فَأَظْلَمَ يَوْمِي بَعْدَ فُرْقَتِكُمْ ... وَسَاءَ صُنْعُ اللّيَالي بَعْدَ إِجْمالِ

قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُني مِنْكُمْ عَلَى ثِقَة   حَتى مُنيتُ بِما لَمْ يَجرِ في بالي
لَمْ أَجْنِ فِي الْحُبِّ ذَنْبًا أَسْتَحِقُّ بِهِ   عَتْبًا ولَكنَّها تَحْريفُ أَقْوَالِ
وَمَنْ أَطاعَ رُواة السُّوءِ نَفَرَهُ   عَن الصَّدِيق سَمَاعُ الْقِيلِ وَالْقَالِ
أدْهَى المَصائبِ غَدْرٌ قَبْلَهُ ثِقَةٌ   وَأَقْبَحُ الظُّلْمِ صَدٌّ بَعْدَ إِقْبَالِ

فماذا ترون في هذه الأبيات؟ إن البارودي يصنع كما يصنع أبو فراس، هو يتكلم كلام الطليق، هو يرجو ألا يسمع أحبابه كلام الواشين والمرجفين ولم يكن في دنيا النفي ما يتسع لوشاية ولا إرجاف.

تلك نزوات نفسية، هي نزوات الطائر المحبوس في القفص، وهو مع ذلك يتوثب من ركن إلى ركن كأنه من ملوك الهواء.

وإنما توغلت في هذه المسالك لأدلّ القارئ على أسرار التناقض فيما يقرأ للبارودي، وما يقرأ لأبي فراس. هما شاعران يشتركان في كثير من النوازع، ويشتركان في كثير من الصفات، وبَليّة النفي والأسر بلية واحدة وإن اختلفت الصور والظروف.

والتشابه بين الحياتين والمصيرين عند البارودي وأبي فراس يجعل الموازنة بين الرائيتين فرصة لا تتاح في كل حين، فكلا الشاعرين يتغزل، وكلاهما يذكر ماضيه في الحرب، وأنفاسهما في هذين البابين أنفاس حرارٌ لا يدرك وَقْدَها إلا من ذاق الأسر والنفي، وقد ذقنا الأسر مرتين[٣]، أما النفي فعرفناه في صورة جديدة هي الغربة الروحية والغربة العقلية، وإلى الله نشكو ما نعاني من قسوة الاغتراب في هذا الزمان.

[٣] كان المؤلف من الذين اعتقلتهم السلطة العسكرية البريطانية، وكان اسمه مقيدًا في أسرى الحرب وكانت الثورة المصرية حقًا شعلة من الحرب، وكانت حليقة بأن ترهب انجلترا وتزعجها لو دامت بضع سنين.

الفصل الثاني والثلاثون

الموازنة بين الرائيتين

١

ونشرع في الموازنة بين الرائيتين فنقول:

يظهر أن البارودي لم يحتفل بقصيدته على نحو ما احتفل أبو فراس، فقصيدة البارودي خمسة وعشرون بيتًا، وقصيدة أبي فراس جاوزت الأربعين.

قد يقال: وما قيمة الكمية؟ ونجيب بأن البارودي حين عارض ميمية أبي نواس نظر فرآها عشرين بيتًا، فجعل قصيدته أربعين، وذلك من شارات الاهتمام والاحتفال.

والنسيب في قصيدة أبي فراس عشرون بيتًا، وهو في قصيدة البارودي أحد عشر بيتًا.

ومن الفوارق بين الشاعرين أن أبا فراس اقتضب فانتقل فجأة من النسيب إلى الفخر، أما البارودي فترفق في التخلص حين قال:

وَكَفْكَفْتُ دَمْعًا لَوْ أَسَلْتُ شُئُونَهُ عَلَى الأَرْضِ مَا شَكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ بَحْرُ
حَياءً وَكِبرًا أنْ يُقالَ تَرَجَّحَتْ بِهِ صَبوةٌ أو فَلَّ مِنْ غَرْبِهِ الهَجْرُ
وإنِّى امْرُؤٌ لَوْلَا العَوائِقُ أَذْعَنت لِسُلْطانِهِ الْبَدْو المُغيرَة والحَضرُ
مِنَ النَّفَرِ الْغُرِّ الَّذِينَ سُيُوفُهُمْ لَهَا في حَوَاشِي كُلِّ دَاجِيَة فَجْرُ

وابتدأ أبو فراس قصيدته بحوار بينه وبين رفيق موهوم عاب عليه التجلد فقال:

أراكَ عصيَّ الدَّمْعِ شيمَتُكَ الصَّبْرُ أما لِلْهَوى نَهْيٌ عليكَ ولا أَمْرُ

بَلى أنا مُشْتاقٌ وعنديَ لَوْعَةٌ ... ولكنَّ مِثْلي لا يُذاعُ لهُ سِرٌّ!

وهذان البيتان غاية في وصف أقدار الرجال، فإن الرجل لا يعاب عليه الحب، وإنما يعاب عله أن يصير أحبابه مضغة الأفواه، ثم جعل الشكوى بينه وبين الليل، فقال:

إذا اللّيلُ أَضْواني بَسَطْتُ يَدَ الهوى ... وأذْلَلْتُ دمْعًا من خَلائقِهِ الكِبْرُ
تَكادُ تُضِيْءُ النارُ بين جَوانِحي ... إذا هي أذْكَتْها الصَّبابَةُ والفِكْرُ

وقد عارض البارودي مطلع أبي فراس فجعل أمره في الحب أخطر من أن يُدارَى بالكتمان، وتمثل نفسه محبًّا جامحًا لا يصدّه تهيب، ولا يردعه إشفاق، وكذلك قال:

طَرِبْتُ وعَادَتْنى المَخيلَةُ والسُّكْرُ ... وَأَصْبَحْتُ لاَ يُلْوِي بِشِيمَتِي الزَّجْرُ
كَأَنِّيَ مَخْمُورٌ سَرَتْ بِلِسَانِهِ ... مُعَتَّقة مِمَّا يَضِنُّ بِها التَّجْرُ
صَرِيعُ هَوى يُلْوِي بِيَ الشَّوْقُ كُلَّمَا ... تَلألأَ بَرْقٌ أَوْ سَرَتْ دِيَمَةٌ غُزْرُ
إِذَا مَال مِيزَانُ النَّهارِ رَأَيْتُنِي ... عَلَى حَسَراتٍ لا يُقاوِمُهَا صَبْرُ

فالبارودي لم يصنع صنيع أبي فراس الذي حدثنا أنه عرف كيف يكتم أسرار الحب، وأنه لا يشكو بثَّه إلا إلى ظلمات الليل، وإنما سلك البارودي مسلكًا آخر، حين جعل هواه فوق التجلد وفوق الكتمان، وحين أعلن أن ما به أخطر من السحر وأخطر من الجنون، وحين أعلن العجز عن مقاومة الحب؛ لأن الحب في رقته ولطف مداخله لا يُرد بالسيوف وبالرماح، وهي كل ما يملك ذلك الفارس الذي كانت مواقعه مما يشيب ناصية الزمان:

يَقولُ أُنَاسٌ إنَّهُ السِّحْرُ ضَلَّة ... وَمَا هِيَ إلاَّ نَظْرَة دُونَهَا السِّحْرُ
فَكَيْفَ يَعِيبُ النَّاسُ أَمْرِي وَلَيْسَ لِي ... وَلاَ لاِمْرِىء في الحُبِّ نَهْيٌ وَلاَ أَمْرُ
ولَوْ كانَ ممَّا يُسْتَطاعُ دِفاعهُ ... لألوَت بِهِ البَيضُ المَباتيرُ والسُّمْرُ
وَلَكِنَّهُ الْحُبُّ الَّذِي لَوْ تَعَلَّقَتْ ... شَرارتُهُ بِالجَمْرِ لاحترَقَ الجمرُ

وهذا من أصدق ما قال المحبون، فلا يعلم أحد إلى اليوم كيف تستطيع العيون النواعس أن تفعل بالرجال ما لا تفعل الصهباء، لا يعلم أحد كيف يتفق للرجل أن

يَذِلْ ويخضع في ميدان الحب، لا يعلم أحد كيف يستطيع الخد الأسيل — وهو أرق من الورد — أن ينال من قلب الرجل ما لا ينال السيف الصقيل.

لقد يخطر ببال الخليِّين أن الشعراء يبالغون حين يرون الحب أعنف من الجمر، وأفتك من الخمر، وأقتل من الداء العُضال، ولكن الذي مارس دنيا الصباحة، وعرف ما فيها من مهالك ومعاطب، لا يزال يعجب من هذه المصاير المحزنة: مصاير الرجال الذين يعيشون بعزائم من الصخر وقلوب من الهواء.

لقد كان البارودي ولا ريب من أقوياء الرجال، ولكنه مع ذلك عاش في الحب عيش الأطفال، وأخذ يحمل قلبه الجريح من أرض إلى أرض، وظل يهذي بأحلام حُلوان هذيان المحموم، فلم تفارقه لوعته في سفر ولا حضر، ولم يرحمه جواه في شدة ولا رخاء، ومن أجل ذلك نراه يحس بلواه كل الإحساس، وهو يقول:

وَلَكِنَّهُ الْحُبُّ الَّذِي لَوْ تَعَلَّقَتْ شَرارتُهُ بِالجَمْرِ لاحتَرَقَ الجمرُ

وللقارئ أن يتأمل هذه الصورة الشعرية، له أن يتصور كيف تتعلق شرارة الحب بالجمر، فيحترق الجمر، فالجمر يحرق ولكنه حين يمس الحب يحترق، وتلك من وثبات الخيال.

وقد عز على البارودي أن يكون أقل جلدًا من أبي فراس وأن يصبح حديث الشامتين، وكذلك استدرك فقال:

عَلَى أَنَّنِي كَاتَمْتُ صَدْرِيَ حُرْقَة مِنَ الْوجْدِ لاَ يَقْوَى عَلَى مَسِّهَا صَدْرُ
وَكَفْكَفْتُ دَمْعًا لَوْ أَسَلْتُ شئُونَهُ عَلَى الأَرْضِ مَا شَكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ بَحْرُ
حَيـاءً وَكِبـرًا أَنْ يُـقالَ تَـرَجَّـحَتْ بِهِ صَبوةٌ أو فَلَّ مِنْ غَرْبِهِ الهَجْرُ

ونحن نحمد الله تعالت أسماؤه على أن لطف بعباده فعصم هذا الشاعر من الضعف وأسبغ عليه نعمة الصبر الجميل، ولولا لطف الله لغرف الناس في بحر من الدموع وهي ملح أجاج.

لقد أعجبني من البارودي أن يغرب في الوهم، فيقول:

وَكَفْكَفْتُ دَمْعًا لَوْ أَسَلْتُ شُئُونَهُ عَلَى الأَرْضِ مَا شَكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ بَحْرُ

وعبارة: ما شك امرؤ عبارة طريفة لأنها تدل على أن الشاعر يفطن إلى أنه مقبل على أكاذيب، والكاذب في حاجة إلى القسم وإلى التأكيد.

وكنا نود لو اعتذرنا عنه، ولكن هذا الغلو المكشوف لم يُوشَّ بصورة شعرية على نحو ما وشى البيت البكر الذي جعل به الجمر وَقودًا لنار الحب، والدنيا كلها وقودٌ لتلك النار التي يعذب الله بها من يشاء من عباده الشعراء.

٢

لم يمض البارودي في حديث هواه، أما أبو فراس فقدم صورًا من النسيب، عاتب حبيبته، فقال:

مُعَلِّلَتي بالوَصْلِ وَالمَوْتُ دُونَهُ إذا مِتُّ ظَمْآنًا فَلا نَزَلَ القَطْرُ

وهذا البيت عرض له شوقي في مقدمة الطبعة الأولى من الشوقيات، فرآه من صُور الأثرة وفضل عليه قول أبي العلاء:

فَلا هَطَلَتْ عَلَيَ ولا بِأَرْضِي سَحائِبٌ لَيْس تَنْتَظِمْ الْبِلادَا

ونحن نرى أبا فراس أصدق من أبي العلاء، فإن الأثرة من مظاهر الحيوية، والشاعر الحي لا يفكر إلا في نفسه؛ لأن الحياة تفرض الاستبداد، ونظرة أبي العلاء فيها كرم ولكنها تمثل الضعف، والأثرة هي سر كل شيء، فالشجرة العظيمة لم تعظم إلا بفضل ما استبدت في مص الأرض واستنشاق الهواء وهي لا تعظم إلا بعد أن تقتل ما حولها من شجر ونبات، والرجل العظيم لا يعظم إلا بفضل ما يغير على معاصريه، فهو لا يظهر إلا بعد أن يُحمل الألوف والملايين، والشمس لم تعظم إلا منذ استطاعت أن تكسف بضيائها جميع الكواكب فلا ترى العين غيرها في كبد السماء، وكان القمر أقل عظمة من الشمس؛ لأنك ترى بجانبه نجومًا يخطئها العد فتحكم بأنه عجز عن

الاستبداد بملك السماء، وقد يتفق أحيانًا أن نرى القمر نهارًا، ولكن كيف نراه؟ نراه في صورة التابع الذليل، وهو لم يظهر إلا بفضل ما أفاءت عليه الشمس، ولو كفت برَّها عنه لعاش وهو مجهول.

فقول أبي فراس:

إذا مِتُّ ظَمْآنًا فَلا نَزَلَ القَطْرُ

من الكلمات القوية التي لا تصدر إلا عن رجل يحمل قلب الملوك، أما كرم أبي العلاء فهو كرم العاجز الذي لا يتصرف في شيء، وإنما يبذل عطايا الوَهم بلا حساب، والأنس بنعيم الناس لا يكون إلا ممن يملك الإفضال على الناس، أما الذي يسره أن يجود المطر جميع الوهاد والنجاد فهو يُسر بما لا يبذل، والسرور بما لا تبذل سرور الضعفاء.

وقد فرح ناس بملاحظة شوقي فراحوا يعيدونها في كل مجتمع، وهم لا يفقهون!

ومضى أبو فراس فأمتعنا بهذين البيتين:

بَدَوْتُ وأهلي حاضِرونَ؛ لأنّني أرَى أنَّ دارًا لَسْتِ مِنْ أهْلِها قَفْرُ
وحارَبْتُ قَوْمي في هَواكِ وَإنَّهُمْ وَإيَّايَ لَوْ لا حُبُّكِ الماءُ والخَمْرُ

وهذا شعر بديع حقًا، وإن كان البيت الأول مأخوذ من قول جميل:

أَبِيتُ مَعَ الْهُلاَّكِ ضَيْفًا لِأَهْلِهَا وَأهْلي قَرِيبٌ موسِعونَ ذَوو فضْل

وكان البيت الثاني أخذ برفق من قول جميل في كلمة ثانية:

كَأَنْ لَمْ نُحَارِبْ يا بُثْينَ لوَانَّهَا تَكَشَّفُ غَماها وَأَنْتِ صِديقُ

ولننص على أن البيت الأول عند أبي فراس أروع من بيت جميل، أما البيت الثاني من شعر جميل فهو أقوى وأعمق من البيت الثاني من شعر أبي فراس.

ثم انظروا هذا البيت:

وَفَيْتُ وفي بَعْضِ الوَفَاءِ مَذَلَّةٌ   لإِنْسانَةٍ في الحَيِّ شِيمَتُها الغَدْر

انظروا هذا البيت وتأملوه، فعبارة وفي بعض الوفاء مذلة تصور ما يلقي الرجل في الحب، والوفاء في الحب ذلة يقبل عليها الرجال وهم كارهون، والرجل لا يحب إلا وهو مخبول، ولو كان يملك من أمره شيئًا لعرف أن نعيم الحب نعيم صغير بالإضافة إلى ما يُذال فيه عز النفوس.

وهذا البيت:

وَقورٌ ورَيْعانُ الصِّبا يَسْتَفِزُّها   فَتَأْرَنُ أحْيانًا كما أَرِنَ المُهْرُ

هذا بيت نادر، وهو قليل الأمثال عند من يفهم دقائق البيان، ولك أن تتذكر وقار العقلية المليحة التي تحيا برزانة الجبال، ثم يستفزها الصبا فتجنح إلى التعقب والتغضب، ولبعض الملاح غضبات كلها سحر وفُتون، وهي أملح في العين وأندى على القلب من بسمات الرضا ونغمات الحنين.

وانظروا هذا الحوار الطريف:

تُسائِلُني مَنْ أنْتَ وهْي عَليمَةٌ   وَهَلْ بِفَتىً مِثْلَي عَلَى حالِهِ نُكْرُ
فَقُلْتُ كَما شاءَتْ وَشاءَ لَها الْهَوى: قَتيلُكِ! قَالَت أيُّهُمْ؟ فَهُمُ كُثْرُ
فَقلتُ لَها لَوْ شَئْتِ لم تَتَعَنَّتي   وَلَمْ تَسْألي عَنِّي وعِنْدَكِ بي خُبْرُ
وَلا كانَ لِلأَحْزان عِنْدِيَ مَسْلَكٌ   إِلى القَلْبِ لَكِنَّ الهَوَى لِلْبِلا جِسْر
فأيْقَنْتُ أَن لا عِزَّ بَعْدِي لِعاشِقٍ   وأنّ يَدي مِمَّا عَلِقْتُ بِهِ صِفْرُ
فَقالَتْ لَقَدْ أَزْرى بِكَ الدَّهْرُ بَعْدَنا   فَقُلْتُ مَعاذَ اللهِ بَل أنتِ لا الدَّهر

وهذا أيضًا شعر، ولكن أي شعر! إنه من أقوى لَفحات الصبابة، وأطيب نَفحات الوجدان، والدنيا هكذا تصنع بالرجال، فذلك الفارس الذي فتك بمن فتك من الأبطال، وهدم ما هدم من الحصون، هذا الجبل يقف خاشعًا ذليلًا أمام إنسانة تقول: من أنت؟ فيقول: عاشق! فتقول: ولكن من أنت من العشاق؟ فيقول في ذلة المهزوم: أنتِ تعلمين!

ومن كانت هذه الإنسانة التي عناها أبو فراس؟

ولكن ما قيمة هذا السؤال؟ أكان من الحتم أن يكون لمثلها شأن حتى تكوي مثله على الجمر المشبوب؟ إن من أعجب تصاريف القدر أن لا ينبت الحسن المرموق إلا في المراتع التي لا يُنصب حول حماها حصن، ولا يرفرف فوقها لواء.

إن أبا فراس لا يكذب في مثل هذا التحرق، ولكن من كان يحب! كان يحب إنسانة هي اليوم في ضمير شعره، لا في ضمير صدره، إنسانة أنطقته بهذه اللوعة الخالدة، ثم اندرجت في أكفان الفناء.

ثم انظروا هذا المصير المحزن، مصير كل عاشق حبله الهوى فضاع:

وقلَّبْتُ أَمري لا أَرَى لِيَ رَاحَة   إِذَا البَيْنُ أَنْسَاني أَلَحَّ بيَ الهَجْرُ
فَعُدْتُ إلى حُكم الزّمانِ وحُكْمِها   لَها الذّنْبُ لا تُجْزى بِهِ وَليَ العُذْرُ

هذا مَصير كل عاشق: لغيره أن يُذنب وعليه أن يعتذر. والعشق ذاته خروجٌ على المنطق، منطق الحياة التي تسمو بصاحبها إلى الترفع عن كل دنية، إلا أن يثبت البحث أن الحب أسلوبٌ من الظفر بمكنونات الجمال، وأن مدامع العشاق في عالم المعقول كالمخلب والناب في عالم المحسوس، فالأسد يفترس، والعاشق يفترس، وإن اختلفت وسائل الافتراس.

نحن إذن نبكي لنخدر الفريسة، وعلى ذلك يكون الدمع في عين العاشق كالسم في ناب الثعبان! أترونني كشفت سر المهنة؟ لا تراعوا أيها العشاق فلأهل الجمال غفلة هي أعجب الغفلات، هم يرون الشرك ويتجاهلون، لحكمة يعلمها من يصل القلوب بالقلوب، وينقل الظباء طائعة إلى مرابض الأسود.

وكأن أبا فراس لحظ هذه النظرة الفلسفية حين قال:

كَأَنِّي أُنادي دُونَ مَيْثاءَ ظَبْيَةً   عَلى شَرَفٍ ظَمْياءَ جِلَيْنْها الذُّعْرُ
تَجَفَّلُ حِينًا ثُمّ تَدْنو كأنّما   تُنادي طَلابًا بالجَري أَعْجَزَهُ الحُضْرُ

وهو خيال بدوي أطاف به كثير من الشعراء، والمليحة هكذا خُلقت تأمن وتخاف، وبين الخوف والأمن يكون جحيم الهجر ونعيم الوصال.

٣

ننتقل إلى الموازنة بين الشاعرين في الفخر فنقول:

يُحس البارودي أن أيامه انتهت، أيام المجد الحربي، فيزفر:

وإنِّى امْرُؤٌ لَوْلَا العَوَائِقُ أذْعَنت — لِسُلْطانِهِ الْبَدْو المُغيرَة والحَضرُ

وعبارة «لولا العوائق» فيها تحفظ معقول: لأنه كان في القيد، أما أبو فراس فيشمخ:

وإنِّي لَنَزَّالٌ بِكلِّ مَخوفَةٍ — كَثيرٍ إلى نُزَّالِها النَّظَرُ الشَّزْرُ

وحال الشاعرين مختلف، فالبارودي كان انهزم وانهزمت أمته فاحتل الإنجليز بلاده ونفوه إلى جزيرة نائية لا يُرجى له منها معاد، فهو خليق بأن يراعي ذلك في فخره. أما أبو فراس فكان لابن عمه ولقومه دولة وكان لهم جيش، وكان ينتظر أن يُفك من الأسر، وفي ذلك ما يفسح أمام نفسه مجال القوة فيزهى ويختال، ويتمجد فيقول:

وَإِنِّي لَجَرّارٌ لِكُلِّ كَتيبَةٍ — مُعَوَّدَةٍ أنْ لا يُخِلَّ بِها النَّصْرُ
فَأَصْدَى إِلَى أَنْ تَرْتَوي البيضُ وَالْقَنا — وأَسْغَبُ حَتَّى يَشْبَعَ الذِّئْبُ والنَّسْرُ

وهذا نهاية الفخر، والخيال هنا بارع، فالفارس يظل صديان حتى نرتوي الرماح والسيوف، ويظل جوعان حتى تشبع النسور والذئاب من لحوم الأعداء.

وأبو فراس لا يذكر غير نفسه، أما البارودي فيجعل مجده من مجد قومه:

مِنَ النَّفَرِ الْغُرِّ الَّذِينَ سُيُوفُهُمْ — لَهَا في حَوَاشِي كُلِّ دَاجِيَة فَجْرُ
إِذَا اسْتَلَّ مِنْهُمْ سَيِّدٌ غَرْبَ سَيْفِهِ — تفزَّعتِ الأفْلاكُ وَالْتَفَتَ الدَّهْرُ

والبيت الثاني وثبة هائلة من وثبات الخيال، ولا يخلو البيت الأول من حسن مرموق.

ونحن نفهم لماذا سكت أبو فراس عن التمدح بقومه، فقد بُحَّ صوته وهو يستنجد بهم ليفدوه فلم يلتفتوا إليه، أما البارودي فلم تكن له بقيةٌ من مجدٍ غير آبائه الذين وصفهم بالجود والبأس فقال:

لَهُمْ عُمُدٌ مَرْفُوعةٌ وَمَعاقِلٌ وأَلْوِيَة حُمْرٌ وأفْنيَة خُضْرُ
وَنَارٌ لَهَا فِي كُلِّ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ لِمُدَّرِعِ الظَّلْمَاءِ أَلْسِنَة حُمْرُ
تَمُدُّ يَدًا نَحْوَ السَّمَاءِ خَضِيبَةً تُصافِحْها الشِعْرَى ويلثِمُها الغفرُ
وَخَيْلٌ يَرُجُّ الْخَافِقَيْنِ صَهِيلُهَا نزائعُ معْقودٌ بِأعْرافِها النَّصرُ
مُعَوَّدَة قَطْعَ الفْيافى كأنَّها خُداريَّة فَتخاءُ لَيسَ لَها وكرُ[١]

والجود في هذه الأبيات وضع في أخيلة بدوية، فإقامة النار لهداية السارين لا يعرفها القاهريون، وقوم البارودي الذين يتمدح بهم كانوا سادة مصر من المماليك، وكان للبارودي فيما يقال أجداد من المماليك، وكان هذا النسب الصحيح أو المصنوع يغريه بالفتك، ويحبب إليه الصِّيال.

وعبارة: وَخَيْلٌ يَرُجُّ الْخَافِقَيْنِ صَهِيلُهَا عبارة قوية جدًّا، وهي لا تقل جمالًا عن تلفت الدهر وتفزع الأفلاك.

والبارودي يجعل قومه «مُعَوَّدَة قَطْعَ الفْيافى»، وهو تعبير طريف فهي ليست من الخيل المدللة التي تحيا في نعيم المرابض وتمسح أعرافها مسح التلطف والترفق، على نحو ما يقع في مرابض الوادعين الذين يقتنون الخيل للزينة لا للحرب.

والبارودي كان يئس من كل شيء، يئس من نفسه؛ لأن الذين نفوه كانوا مُنتصرين؛ ولأن قومه انهزموا هزيمة انتهت بتجريدهم من السيوف، والقوم الذين أعنيهم أنا هُم المصريون، أما القوم الذين تحدث عنهم البارودي فهم أسلافه القدماء، وهؤلاء لم تبق منهم بقية؛ ولذلك بكاهم فقال:

أقاموا زمانًا ثمَّ بدَّدَ شَمْلهُم أَخو فتكاتٍ بالْكِرام اسْمُهُ الدّهْرُ

[١] الخدارية بالضم: العقاب، والفتحاء من العقبان: اللينة الجناح.

فَلَم يَبْقَ مِنْهُم غيرُ آثارِ نِعْمَة تَضْوعُ بِريَّاها الأحاديثُ والذكرُ
وَقَدْ تَنْطِقُ الآثَارُ وَهْيَ صَوامِتٌ ويُثْنى بِريَّاهُ عَلى الوْابِلِ الزَّهْرُ
لَعَمْرُكَ مَا حَيٌّ وَإِنْ طَالَ سَيْرُهُ يُعَدُّ طَلِيقًا والمُنونُ لهُ أَسْرُ
وَمـا هـذِهِ الأَيَّـامُ إلاَّ مَـنـازِلٌ يَحُلُّ بِها سَفْرٌ وَيَتْرُكُهَا سَفْرُ
فلا تَحَسبنَّ المرءَ فيها بِخالدٍ وَلَكِنَّهُ يَسْعَى وَغَايَتُهُ الْعُمْرُ

ونهاية هذا الشوط ختمت بضعف؛ لأن الشاعر كان من اليائسين.

أما أبو فراس فقد انفسح أمامه مجال القول، فتحدث عن أدب الحرب فقال:

ولا أصْبَحُ الحَيَّ الخُلُوفَ بِغارَةٍ أوِ الجَيْشَ ما لَمْ تأْتِهِ قَبْلِيَ النُّذْرُ

ومن أشرف آداب الحرب أن تُسبق بالنذير فلا يكون فيها تبييتٌ ولا اغتيال، وبلغ غاية الفخر حين قال:

ويا رُبَّ دارٍ لَمْ تَخَفْني مَنيعَةً طَلَعْتُ عَلَيْها بِالرَّدَى أنا وَالفَجْرُ

وكلمة «لَمْ تَخَفْني» وكلمة «مَنيعَةً» من الكلمات الأصلية في هذا البيت، وعبارة:

طَلَعْتُ عَلَيْها بِالرَّدَى أنا وَالفَجْرُ

فيها رشاقة وفيها خيال.

ولم يفت أبا فراس أن يتمجد بأدب النفس، وأن يذكر أنه كان يعفو ويصفح حين تتقدم حسناء فتشفع لقومها عند ذلك الْمُغير البطَّاش:

وَساحِبَةِ الأذْيالِ نَحْوي لَقيتُها فَلَمْ يَلْقَها جَافي اللِّقاءِ وَلا وَعْرُ
وَهَبْتُ لَها مَا حازَهُ الجَيْشُ كُلَّهُ ورُحْتُ وَلَمْ يُكْشَفْ لأَبْياتِها سِتْرُ
ولا راحَ يُطْغيني بِأثَوابِهِ الغِنَى وَلا باتَ يَثْنيني عَن الكَرَمِ الفَقْرُ
وَما حاجَتي في المَالِ أَبْغي وُفورَهُ إذَا لَمْ أَفِرْ عِرْضِي فَلا وَفَرَ الوَفْرُ

وهذا استطراد إلى محاسن نفسية يتمدح بها كرام الرجال.

وانتقل أبو فراس إلى الحديث عن أسره، فقال:

أُسِرْتُ وَما صَحْبِي بعُزْلٍ لَدَى الوَغَى ... وَلا فَـرَسِـي مُـهْـرٌ وَلا رَبُّـهُ غِـمْـرُ
وَلـكِنْ إذا حُمَّ القَضَاءُ عَلَى امرئٍ ... فَـلَـيْـسَ لَـهُ بَـرٌّ يَـقـيـهِ ولا بَـحْـرُ

والكلام عن القضاء والقدر هو العلالة الباقية التي يفزع إليها الأبطال المنهزمون، والقدر له في الأدب الشرقي مكان، فنراه عند العرب ونراه عند الهنود، وفي كتاب كليلة ودمنة فقرات كثيرة عن القدر وتصريفه لشئون الناس، وما نحب أن نفعل كما يفعل كتاب العرف فنقول: إن هذا دليل على ضعف النفس الشرقية، هيهات، فالناس في الشرق والغرب ضعفاء، وإن فتنهم النصر في بعض الأحيان، والإنسان حيوانٌ لئيم فهو لا يَذكر القَدر إلا حين يُغلب، وهو عند العاقبة يتسامى إلى منزلة الإله المعبود.

وما أخطر ما يلقى الرجال في مآزق الكَرب والضيم، حين يُخبر في الحرب بين بليتين: بلية الفرار، وبلية الهلاك، وقد صوّر هذا أبو فراس أصدق تصوير حين قال:

وَقال أُصَيْحَابي الفِرارُ أو الرَّدَى؟ ... فَقُلْتُ هُما أَمْرانِ أَحْلاهُما مُرُّ
وَلكِنّني أَمْضِي لِمَا لا يَعِيبُني ... وحَسْبُكَ مِنْ أَمْرَينِ خَيْرُهُما الأَسْر

وما رأيت كلمة صغرت بحق كما صغرت في هذا الموطن كلمة «أصيحاب»، فإن لم يكن الوزن هو الذي قضى بذلك فأبو فراس إذن من أبصر الشعراء بصياغة الكلام.

وتلفت أبو فراس فرأى آسريه يمنون عليه بأن لم يخلعوا ثيابه كما يصنعون بالأسرى، ولعلهم لاحظوا أنه أمير، وأن الأمراء لهم في الأسر مقامٌ ملحوظ، فقرَّعهم بهذين البيتين:

يَمُنُّونَ أن خَلُّوا ثِيابي وإنّما ... عَليَّ ثِيابٌ مِنْ دِمائِهِمُ حُمْرُ
وَقَائِمُ سَيْفٍ فيهِمُ دُونَ نَصْلُهُ ... وأَعْقابُ رُمْحٍ فيهُمُ حُطِّمَ الصَّدْرُ

ويكاد هذا الشعر يفصح عن الوقت الذي قيل فيه هذا القصيد، وأغلب الظن أنه قاله في الأسبوع الأول من الأسر، وإن كان في بقية القصيدة ما يشعر بالعتب على قومه إذ قال:

سَيَذْكُرُني قَوْمي إِذا جَدَّ جِدُّهُمْ وفي اللّيلةِ الظَّلْماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ
وَلوْ سَدَّ غْيرِي مَا سَدَدْتُ اكْتَفوا بِهِ وَما كَان يَغْلو التِّبْرُ لوْ نَفَقَ الصُّفْرُ

فإن في هذين البيتين دلالةً على أنهم أبطئوا في افتدائه، وكانوا من الآثمين، ثم قال:

ونَحْنُ أُناسٌ لا تَوَسُّطَ بَيْنَنَا لَنا الصَّدْرُ دُونَ العالَمِينَ أو القَبْرُ
تَهُونُ عَليْنا في المَعَالي نُفوسُنا وَمَنْ يخطبُ الحَسْناءَ لَا يُغْلِها المَهْرُ
أعَزُّ بَني الدُّنْيا وأعْلا بَنِي العُلا وأكْرَمُ مَنْ فَوقَ التُّرابِ ولا فَخْرُ

وفي هذه الأبيات رجعة إلى قومه الذين تجاهلهم في صدر القصيد.

٤

أما بعد؛ فقد سارت قصيدة أبي فراس في كل أرض، وتَغنَى بها الناس في جميع البلاد العربية، وما فيها من التشسبيب حفظ في لوحة من ألواح الغناء سجلتها شركة أوديون للآنسة أم كلثوم، وكلمة:

«لَنا الصَّدْرُ دُونَ العالَمِينَ أو القَبْرُ»

يحفظها كل أديب ... والبيت:

تَهُونُ عَليْنا في المَعَالي نُفوسُنا وَمَنْ يخطبُ الحَسْناءَ لَا يُغْلِها المَهْرُ

كتب ألف مرة ومرة في دفاتر الإنشاء.

أما قصيدة البارودي فقد نسيت مع الأسف الموجع، ولم يُحفظ منها غير هذا البيت:

إِذَا اسْتَلَّ مِنْهُمْ سَيِّدٌ غَرْبَ سَيْفِهِ تفزَّعتِ الأفْلاكُ وَالْتَفَتَ الدَّهْرُ

وكذلك نكب البارودي مرتين: نُكِب حين نُفيَ ولم يَرجعه قومه بقوة السيف، ونُكِب حين نسي الناس شعره في منفاه.

وأكاد أحكم بأن البارودي كان في الحرب أفتك من أبي فراس، والحرب بين الجيش المصري ومن ساوره من الجيوش كانت أخطر من الحروب التي اشترك فيها أبو فراس.

ولكن البارودي لظروف كثيرة فقد الحظَّين معًا، فلم ينتصر سيفه، ولم يسر شعره، والدنيا حظوظ، وإلا فكيف انخفضت هامة البارودي وكان عزمه يدْكُّ الجبل.

أيها البارودي العظيم!

لست أتكلف الغضب لك، والإشفاق عليك، أنت عبقريةٌ أضاعها المصريون وأضاعها الزمان، ولكن لا تأس، ولا تحزن، فلست أول من أضاعهم المصريون وأضاعهم الزمان!

الفصل الثالث والثلاثون

بين أبي نواس وعبد الباقي إبراهيم

ملاعب الكرة في الشعر العربي

١

ملاعب الكرة فيها لطف وجاذبية، وفيها سحرٌ وفتون، ومع ذلك لم يتكلم عنها الشعراء إلا قليلًا، ولعل من أسباب تقصير الشعراء في هذا الباب أنهم كانوا في أغلب الأحوال لا يشاركون الشباب في ألعاب يأباها أدب الكهول، والشاعر يظل فتيَّ القلب والروح، ولكنه يتَوَقَّر كثيرًا فلا يشارك الشباب في ألعاب تنشأ أول ما نشأ بين الأطفال.

ولست أعرف ما صنع شعراء الإنجليز في وصف ملاعب الكرة، وهم من أمهر اللاعبين، ولكني أعرف جيدًا أن شعراء العصر الحاضر في مصر لم يُغنَوا بوصف ملاعب الكرة على نحو ما عُنوا بوصف المراقص مع أن لعب الكرة أحفل بالمعاني الحيوية، وهو أقدر من الرقص على العبث بأخيلة الشعراء.

ويمكن الحكم بأن اللعب تغلب عليه الصبغة الجدية بخلاف الرقص، ولكن أيكون الجدُّ مما يقضي على قرائح الشعراء بالركود؟ إن الجد في اللعب له معانٍ تخلب الألباب، وهو خليق بأن يحوَّل الشعراء إلى شياطين، فلنعرف ذلك ولننتظر من شعراء مصر أن يُسجلوا في أشعارهم روعات الحفلات السنوية التي تقام بالجزيرة، والتي ينبض فيها دم الشباب بأشرف الحيوان، وهم يتقابلون صفين في ميدان الحرب العاتية التي تنتهي دائمًا بالسلام والصفاء.

وما أنس لا أنس ملعب الكرة في رحاب الجامعة المصرية، وقد أقيم في قصر الزعفران في شتاء سنة ١٩٢٦، وكانت المباراة يومئذ بين طلبة الجامعة المصرية وبين فريق من فتيان الأمريكان زاروا مصر في ذلك الحين، وكان الزعيم سعد زغلول يشهد ذلك الاحتفال. ثم مسّه البرد فانتقل إلى مكتب مدير الجامعة ووضعت المدفأة بين قدميه، ولبث ينتظر أخبار المباراة، وانتصر يومئذ الشبان المصريون على الشبان الأمريكان، ولكنهم تطامنوا في النهاية عامدين ليُمكنوا الصقور الأمريكية من الظفر المصنوع.

في ذلك اليوم كنت أتمنى أن يتقدم شاعر فيصف ذلك الملعب الجذاب، ولكن أين الشعراء؟ إن ملاعب الكرة تقام في منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر، وهي لحظة يقضيها شعراؤنا فوق الوسائد بعد غداء العدس والفول، وليس في مصر شاعر يتخذ قوته من الحب والنسيم.

ما لي ولهذا؟ أنا لا أكتب هذا الفصل لأفصل في قضية الشعراء، فلنتركهم للحياة تؤدب منهم من تشاء، وتنسى منهم من تشاء، ولننتقل إلى وصف ملعب الكرة في قصيدة أبي نواس، وقصيدة عبد الباقي إبراهيم.

٢

حدّث حمزة الأصفهاني أن أبا نواس خرج يومًا مع العباس بن موسى الهادي إلى «عيساناباذ»، فوجد في الميدان زهير بن المسبب والصقر بن مالك الخزاعي يلعبان بالصوالجة فدخل مع القوم فصاروا حزبين فغلبهم، ثم أكل معهم وشرب، فلما طرب قال هذه الأرجوزة:

قَدْ أَشْهدُ اللّهو بفتْيانٍ غُررْ مِنْ ولد العَبْاس سادات البشرْ
ومِن بَني قَحْطَانَ والحيْ مُضَرْ مِن كُلِّ مَألوفٍ كَريمِ المُعْتَصَرْ[١]
زَيَّنَ حُسْنَ وَجْهِهِ طِيبُ الخَبَرْ عَلى حيَادٍ كَتَماثِيل الصُّوَرْ

[١] كريم المعتصر: جواد عن السؤال.

مِن كُلِّ طِرْفٍ أعوَجِيٍّ قَد ضَمَرْ[٢] لَمْ يَكوِهِ البَيْطارُ مِنْ داءِ الحَمَرْ[٣]
جنٍّ عَلى جِنٍّ وَإنْ كانوا بَشَرْ كأَنَما خِبطوا عَلَيْها بِالإبرْ
أَوْ سَمِّر الفَارِسُ فيها فَانسَمَرْ بَيْنَ رياضٍ مِثْلِ مَوْشِيِّ الحَبَرْ
مُكَلَّلاتٍ بَبَهارٍ وَزَهَرْ فانْتَدَبوا في يَوْم قُرٍّ وَخَصَرْ
إذ ذَرَّ قَرْنُ الشَّمس في عِبَ مَطَرْ صَوالِحًا يَصْبو إلَيْها مَنْ نَظَرْ
مَحْنِيَّةً أَطْرافُها فيها زَوَرْ[٤] قَدَّرَها شابِرُها لَمَّا شَبَرْ
فَلَم يَعِب طُولٌ ولا شانَ قِصَرْ وَقَدْ تَنادْوا فَتَرامَوْا بالأكَرْ[٥]
مُدْمَجَةً الأرْكانِ مَدْمَاةَ الطُّرَرْ شَدَّدَ صِفْقَي مَتْنِها حَسْو الشَّعَرْ[٦]
أحكَمَها صانِعُها لَمَّا فَطَرْ أَلْطَفَ بالإشفاءِ خَرْزًا إذْ دَسَرْ[٧]
فَلَيْسَ لِلإشْفاء بِالْجِلْدِ أثَرْ يُحْسَبْنَ تُفَّاحًا تَدَلَّى في شَجَرْ
حَتَّى إذا ما أُعْلَقَ القَوْمَ الخَطَرْ وَوَكَّلوا بِالبَزِّ مِقدامًا ذَكَرْ[٨]
مُحَرَّبًا يَوْمَ الرِّهَانِ المُحْتَضَر فَضَّلهُ حِذْقٌ وَضَربٌ مُشْتَهَرْ
فَلَم بَحرْ مِنْهُم ولا العَيْن فَنَرْ واسْتَقْدَمَ القَوْمَ رَئيسٌ ذو خطَرْ
بِكُرَةٍ دَحا بِها ثُمَّ زَجَرْ فانَحَدَرَت كالنَّجْمِ وَلَّى فَانّكَدَرْ
رَفعًا وَوَضْعًا أَيما ذاكَ اسْتَقَرْ تُدْفِعْ بِالضَّرْبِ إذَا الضَرْبُ اسْتَمَرْ
تَدافُعَ النَّبل بِإزْعاجِ الوَتَرْ فَلَمْ نَرَى فيهِمْ حَليمًا ذا وَقَرْ
إذا أجادَ الضَّرْبَ فَدَّى ونَعَر وعَطْعط المرْء الّذي يرْجْو الظّفَرْ[٩]
وَاكتَأَبَتْ نَفْسُ الذي خاف الِغيَرْ وأيْقَنوا أنْ قدْ علاهُمْ وقَهَرْ
حَتَّى يَفوزَ بِالرّهان منْ قمرْ يُساءْ هذاك وهذاك يُسرْ

[٢] الأعوجي: نسبة إلى أعوج، فرس كان لبني هلال ينتسب إليه الأعوجيات.

[٣] الحَمَر — بفتحتين — داء يعتري الدواب من كثرة أكل الشعير فتنتش أفواها.

[٤] الرور بالتحريك: الميل...

[٥] الأكر جمع أكرة، وهي لغة في الكره.

[٦] الصفقان: مثنى صفق وهو الجانب.

[٧] الإشفاء — بالمد للضرورة — مثقب يخرز به الجلد. ودسر: أدخل الإشفى في الجلد.

[٨] البز. الغلبة والقهر.

[٩] عطعط: صاح.

كذلك الدَهْرُ وتصْريف الْقَدَرْ

وهذه أرجوزة رشيقة نحب أن يتأملها القارئ ليدرك ما فيها من خفة الحركة ودقة التصوير، وعيساناباد محلة كانت بشرقي بغداد منسوبة إلى عيسة بن المهدي، وناباذ كلمة فارسية معناها العمارة، وهذه المحلة خلدها أبو نواس في هذا الرجز الطريف.

٣

أما عبد الباقي إبراهيم فقال قصيدته في وصف مباراة كرة القدم بين تلاميذ مدرسة محرم بك، وتلاميذ مدرسة رأس التين بمدينة الإسكندرية، مدينة الملاعب في الصيف وغير الصيف.

وإليكم أرجوزته:

أَذْكُرُ يَوْمًا أَعْلَن السُّرورا	مَنعْت فيه العُين والضّميرا
يوْم الخَميسِ الضّاحك النّضيرا	لا بارد الجوّ ولا مطيرا
صحبْتُ فيهِ مَعْشرًا مبْرورا	طووا على حُبّ العْلا صُدْورا
حتَّى أتَيْنا معْهدًا مشْهورا	يفيضْ للشّعْب هُدىً ونْورا
حْيث شهدّنا لعبًا مشْكورا	فيه الصُّقْورْ بارت الصُّقورا
أبْناء (رأس التِّين) كانْوا سُورا	أمام جيْشٍ جاءهُمْ مُغيرا
جيْشانِ ما ظلَّا دَمًا طهْورا	ولا ترى من بينهمْ موْتُورا
قد نظَموا صُفْوفهْم سُطورا	بعْضٌ لبعْضٍ قد غدا ظهيرا
ونمّروا ثِيابهُمْ تَنْميرا	من العَدوِّ مبَّز النَّصيرا
تَساجَلوها كُرَةً فرورا	تَصدِف عَن وجه الثَّرَى نُفورا
فَمَرَّةً تَخْتَرِق الأثيرا	كَقُنْبَلَةً تُهَدِّمُ القُصورا
ومَرَّةً تُصادِمُ النُّسُورا	نَزْفِرُ في مَطارِها زَفيرا
تَرْمي بها الرِّجْلُ المَدَى القَصيرا	يَرْجعُ طَرْفي دونَهُ حَسيرا
وإن بُردْها الرَّأسُ أنْ تَطيرا	سَمَت كمِنْطادٍ بَدا صَغيرا

لا تَلْمَس الكَفُّ لها شَكيرا شَريعَةٌ تَجْعَلُه مَحظورا
وأشْعَلوا وَطيسَها سَعيرا وَزَأرَت أصْواتُهُم زَئيرا
فَذا تَراهُ أسَدًا هَصورا وَذا نَراهُ بازِيًا حَدورا
ومِنْهُمُ مَن قَد هَوَى مَكْسورا يَندُبُ فِيهمْ حَظْهُ العَثورا
ظَلُّوا عَلى هذا مَدىً قَصيرا تَساجَلوا أَثْناءَهُ السُّرورا
فَما اشْتَكَوْا عِيًّا ولا فُتورا وَلَم تَرى في لِعْبِهم مَنْكورا
حَتَّى إذا ما سَمِعوا صَفيرا (قَدْكُمْ) أطاعوا الحَكَمَ الخَبيرا
وانصَرَفوا تَحْسَبُهُم مَنْثورا مِن الأقاحِ ضاحَكَ المنُثورا
ثُمَّ اجتَمَعْنا نُكْمِل الحُبورا حَوْلَ خِوانٍ يَشْرَحُ الصُّدورا
أَفاضْتِ الحَلْوَى عليهِ النَّورا وَأغرَت الأَعْيُنَ والثُّغُورا

وهذا أيضًا رَجَزٌ طريف، ولكن انظروا قليلًا في الموازنة بين القصيدتين.

٤

ولنذكر في بداية هذه الموازنة أن أبا نواس هو دائمًا أبو نواس، وبالرغم من الطرافة البادية في قصيدة عبد الباقي فإن قصيدة أبي نواس أرشق وأبدع وأظرف، وكيف لا تكون كذلك وقد قالها بعد لعب ختم بكئوس الصهباء، على حين ختمت حفلة رأس التين بفناجين الشاي!

وربما كان من أسباب تفوق أبي نواس أنه اشترك في اللعب ثم فاز، أما عبد الباقي فكان من المتفرجين، وحماسة اللاعب أقوى وأعنف من حماسة المتفرج، يضاف إلى هذا أن الذيت تلاعبوا في ملعب رأس التين كانوا من التلاميذ، على حين كان الذين تلاعبوا في عيساناباذ من الفتيان الميامين أمراء بني العباس.

وألفاظ أبي نواس كلها مُتخَّيرةٌ، أما ألفاظ عبد الباقي ففيها القوي والضعيف.

يقول أبو نواس:

قَدْ أَشْهدُ اللّهو بفتْيانِ غُررْ منْ ولد العَبْاس سادات البشرْ

ويقول عبد الباقي:

صحبْتُ فيهِ مَعْشرًا مبْرورا طووا على حُبّ العْلا صُدْورا

ولكم أن تنظروا الفرق بين «الفتيان الغرر» في كلام أبي نواس، و«المعشر المبرور» في كلام عبد الباقي، ولكن لا بأس فأبو نواس يصف اللاعبين، أما عبد الباقي فيصف جماعة من الأساتذة قوّس الدهر ظهورهم فمشوا إلى الملعب متثاقلين.

والمشهد مختلف بعض الاختلاف، فأصحاب أبي نواس يلعبون وهم فوق ظهور الجياد، أما أصحاب عبد الباقي فيلعبون فوق ظهر الأرض، ومن أجل ذلك تفردت قصيدة أبي نواس بهذه الشطرات في وصف ثبات اللاعبين على ظهور الخيل.

جنٌّ عَلى جِنٍّ وَإنْ كانوا بَشَرْ
كأَنَما خِبطوا عَلَيْها بِالْإبرْ
أَوْ سَمِّر الفَارِسُ فيها فَانسَمَرْ

وكذلك تفرد أبو نواس بوصف الجياد وليس لذلك في ملعب رأس التين مجال، ولم نكن نعرف لماذا شغر عبد الباقي نفسه بوصف الجو فذكر أنه لم يكن باردًا ولا مطيرًا، مع أن الحفلات السنوية للألعاب تقام في مطلع الربيع، وليس في مصر برد ولا مطر، والآن نرجح أن هذه اللفتة وردت إلى ذهنه من قول أبي نواس:

فانْتَدَبوا في يَوْم قُرٍّ وَخَصَرْ
إذ ذَرَّ قَرْنُ الشَّمس في عِبَ مَطَرْ

وتفرد أبو نواس بوصف الكرة، وكيف تأنق فيها الصانع فلم يبن في جلدها أثر للخرز حتى بدت كالتفاح تدلى من الشجر، وهو وصف حسّيٌّ ولكنه جميل لدلالته على قوة الكرة وصلاحيتها للكرّ في الفضاء، ولم يتحدث عبد الباقي عن شيء من ذلك؛ لأن الكرة في عصرنا لم تعد شيئًا غريبًا يوصف بالملاسة ومتانة الأركان.

ووصف أبو نواس حركة الكرة بهذه الشطرات:

فانَحَدَرَت كالنَّجْمِ وَلَّى فَانّكَدَرْ
رَفعًا وَوَضْعًا أَيْما ذاكَ اسْتَقَرْ
تَدافُعَ النَّبل بِإزْعاجِ الوَتَرْ

وأكاد أحكم بأن أبيات عبد الباقي في هذا المعنى أبرع إذ يقول:

تَساجَلوها كُرَةً فَرورا   تَصدِف عَن وجه الثَّرَى نُفورا
فَمَرَّةً تَخْتَرِق الأثيرا   قَنْبَلَةً تُهَدِّمُ القُصورا
ومَرَّةً تُصادِمُ النُّسُورا   تَزْفِرُ في مَطارِها زَفيرا
تَرْمي بِها الرِّجْلُ المَدَى القَصيرا   يَرْجِعُ طَرْفي دونَهُ حَسيرا
وإن يُردْها الرَّأسُ أنْ تَطيرا   سَمَت كمِنْطادٍ بَدا صَغيرا

واشترك الشاعران في وصف حَسرة المنهزمين، وفي هذا قصَّر عبد الباقي فلم يزد على أن يقول:

ومِنْهُمُ مَن قَد هَوَى مَكْسورا   يَندُبُ فِيهمْ حَظْهُ العَثورا

أما أبو نواس فقد ساق ذلك مَسَاق الحكمة الباقية فقال:

وَاكتَأَبَتْ نَفْسُ الذي خاف الِغيَرْ
يُساءْ هذاك وهذاك يُسرْ
كذلك الدَهْرُ وتصْريف الْقَدَرْ

ومثل أبو نواس جَذَل الفائزين تمثيلًا طريفًا إذ قال يصف طيش اللاعبين:

فَلَمْ نَرَى فيهمْ حَليمًا ذا وَقَرْ
إِذا أجادَ الضَّرْبَ فَدَّى ونَعَر

أما عبد الباقي فقد سما بلاعبيه إلى أفق الجد حين قال:

وأشْعَلوا وَطيسَها سَعيرا وَزَأَرت أَصْواتُهُم زَئيرا
فَذا تَراهُ أَسَدًا هَصورا وَذا نَراهُ بازِيًا حَدورا

وتفرَّد عبد الباقي بالإشارة إلى ثياب الملعب إذ قال:

ونمّروا ثِيابهُمْ تَنْميرا من العَدوِّ ميَّز النَّصيرا

وتفرد كذلك بالحديث عن خاتمة اللعب حين قال:

وانصَرَفوا تَحْسَبُهُم مَنْثورا مِن الأقاحِ ضاحَكَ المنْثُورا
ثُمَّ اجتَمَعْنا نُكْمِل الحُبورا حَوْلَ خِوانٍ يَشْرَحُ الصُّدورا
أَفاضْتِ الحَلْوَى عليهِ النَّورا وَأغرَت الأَعْيُنَ والثُّغُورا

والذي يحكم بين اللاعبين هو في لغة هذا العصر، وفي أرجوزة عبد الباقي اسمه «الحكم» وفي أرجوزة أبي نواس اسمه «الرئيس».

وتفرد أبو نواس بوصف الصوالج ولم يكن لها في ملعب رأس التين مكان.

وتفرد عبد الباقي بالحديث عن صفاء القلوب في صدور اللاعبين حين قال:

أَبْناء رأس التِّين كانْوا سُورا أمام جيْشٍ جاءهُمْ مُغيرا
جيْشانِ ما طَلَّا دَمًا طهْورا ولا ترى من بينهمْ موْتُورا

ومن غريب ما اتفق للشاعرين أن اشتركا في إشباع فعل مجزوم، فقال أبو نواس:

فَلَمْ نَرَ فيهِمْ حَليمًا ذا وَقَرْ

وقال عبد الباقي:

وَلَم تَر في لِعْبِهم مَنْكورا

ولم أفهم كلمة «الضمير» في قول عبد الباقي:

مَنعْت فيه العُين والضّميرا

ولعله يريد القلب.

تلك وجوه من المفاضلة بين قصيدتين في ملعب الكرة، وقد بقيت أشياء تمس اللغة وتمس الأسلوب، ولكنها لا تخفى على المتأدبين من ذوي الألباب.

الفصل الرابع والثلاثون

بين شوقي وابن زيدون

١

نحن مقبلون في هذا البحث على وادٍ ظليل من أودية البيان: مقبلون على الموازنة بين نونية شوقي، ونونية ابن زيدون، مقبلون على مصافحة شاعرين من أهل العبقرية، ومراجعة قصيدتين شغلت أحداهما الناس تسعة قرون، وشغفت الثانية ألوف القلوب.

وابن زيدون صاحب النونية، شخصية تمتاز بميزة ظاهرة، فهو رجل خلقته الدسائس في الحب والملك، ولا يمكن أن تعرف فضل الشر إلا إذا تمثلنا مصير ابن زيدون، فالدسائس من ألوان الشر الوضيع، ولا يعتصم بالدسائس إلا الضعاف العجزة من صغار الناس، ولكن الدسائس تعود بالنفع والخير في أكثر الأحيان، فلولا الدسائس في الحب والملك لما تفجرت عبقرية ابن زيدون، ولا رأى العالم تلك الأقباس الخالدة التي تَسْطع من أدبه الرفيع.

ومن عجائب ما يقع في الحياة أن تكون المنازل الأدبية العالية من نصيب من أصيبوا بالحرمان في دنيا الحب والمجد، فالرجل حين يُحرم تتفجر عبقريته ويسيطر على الدنيا سيطرة أدبية تعوض عليه ما ضاع من نعيم الراحة الروحية والدنيوية، والمجد الأدبي متاعٌ ليس بالقليل، وهو جدير بأن يوضع في الميزان ولا يغض من قيمة هذه الغنيمة ما نعرف ويعرف الناس من أن العبقريين لا يُحسون أثر عذا العوض، ولا يرضون عن زمانهم، وإن بلغت شهرتهم آفاق السماء، هذا لا يغض من قيمة تلك الغنيمة، فقد يظهر بعد حين أن الأرواح تأنس أنسًا مكتوبًا بظفرها في عالم الفكر والبيان.

وقد شاءت المقادير أن تخص ابن زيدون بنفحة فريدة ببليتين لا يبتلى بهما رجل كريم إلا عرف كيف يكون العز والذل، والشهد والعلقم، والنعيم والجحيم.

أما البلية الأولى فهي الحب، وأما البلية الثانية فهي المجد، وبين الحب والمجد أخطار ومصاعب تهد العزائم وتدق الأعناق.

ولا يهمنا في هذا المقام أن نشير إلى منزلة ابن زيدون الوزير، وإنما يهمنا أن نشير إلى منزلة ابن زيدون العاشق، فالوزارة منصب غادر ينتقل من يد إلى يد، كما ينتقل القرش المثقوب من جيب إلى جيب، أما الحب فنفحة روحانية لا يعْبق طيبها إلا في كرام القلوب.

الحب هو الذي فجر العبقرية في صدر ابن زيدون، ولكن أيّ حب؟ لقد كان ذلك الرجل يحب امرأة خطيرة تجمع بين الحسن والذكاء.

والحسن منحة إلهية يرزقها الله إلى من يشاء، وهو خليقٌ بأن يصنع ما يصنع فيُعز ويذل، ويرفع ويضع، ويكرم ويهين، ولكن الحسن وحده لا يأسر القلوب، وإنما يسيطر ويستطيل حين تجد رقيقًا من خفة الروح ومن لطف الذكاء.

كان ابن زيدون يحب امرأة جميلة ذكية على جانب من حلاوة الشمائل ولطف الوجدان، وهذا النوع نادر الوجود، والمرأة حين تُمنح الجمال والذكاء تحارب بسيفين مرهفين، وتحول الدنيا إلى مآتم وأفراح، والشاعر الذي يحب امرأة جميلة ذكية يصبح إحساسه كالوقود الذي يُقدّم إلى النار، ومن قلب العاشق الحساس وذكاء المرأة الجميلة تقوم دنيا الشعر الجميل.

أعرفتم الآن كيف نبغ ابن زيدون؟

إن لم تعرفوه فاسمعوا هذه الزفرة، وهو يتشوق إلى تلك المحبوبة التي ملكت قلبه، واستأثرت بنهاه:

هَلْ رَاكِبٌ ذاهِبٌ عَنْهُمْ يُحَيِّيني	إذْ لا كِتابَ يُوافيني فيُحْيِيني
قَدْ مِتُّ إلاّ ذَمَاءً فيَّ يُمْسِكُهُ	أنّ الفُؤَادَ بِلُقْياهُمْ يرَجّيني
مَا سَرَّحَ الدَّمْعَ مِن عَيْني وأطْلَقَهُ	إلاّ اعْتيادُ أَسىً في القَلْبِ مَسْجونِ
صَبْرًا لَعَلَّ الَّذي بِالبُعْدِ أَمْرَضَني	بِالقُرْبِ يَوْمًا يُداويني فيَشْفيني
كَيْفَ اصْطِباري وَفي كانونَ فارَقَني	قَلْبي وهَا نَحْنُ في أعْقابِ تَشْرِينِ
شَخْصٌ يُذَكّرُني فاهُ وَغُرَّتَهُ	شَمْسُ النَّهارِ وأنْفَاسُ الرِّياحينِ
لئنْ عَطشْتُ إلى ذاكَ الرُّضَابِ لكَمْ	قَدْ بَاتَ مِنْهُ يُسَقّيني فَيُرْوِيني
وَإنْ أفاضَ دُمُوعي نَوْحُ باكِيَة	فَكَمْ أرَاهُ يُغَنِّيني فَيُشْجيني

وإنْ بَعْدْتُ وأَضْنَتْني الهمومُ لَقَد عَهِدْتُهُ وَهْوَ يُدْنيني فيُسْليني
أَوْ حَلَّ عَقْدَ عَزائي نأيُهُ فَلَكَمْ حَلَلْتُ عَنْ خَصْرِهِ عَقْدَ الثَّمانينِ
يا حُسْنَ إشْرَاقِ ساعاتِ الدُّنُوِّ بدَتْ كَواكِبًا في لَيالي بُعْدِهِ الجُونِ
واللهِ ما فارقُوني باخْتَيارِهِمُ وَإنَّمَا الدَّهْرُ بالمَكْرُوهِ يَرْمِيني
وما تَبَدّلْتُ حُبًّا غيرَ حُبِّهِمِ إذًا تَبَدّلْتُ دِينَ الكُفْرِ مِنْ دِيني
أَفْدِي الحَبيبَ الذي لوْ كَانَ مُقْتَدِرًا لَكانَ بِالنَّفْسِ وَالأَهْلِينَ يَفْدِيني

ولنسارع فنذكر أن هذه المحبوبة هي ولّادة بنت المستكفي التي يقول فيها ابن خاقان:

كانت من الأدب والظرف، وتَتْييم المِسْمع والطَّرف، بحيث تختلس القلوب والألباب، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب.

كانت ولّادة فاتنة الجمال، وكانت أديبة تنظم الشعر البارع، وتدرك أسرار الكلام البليغ. والشاعر الذي يهوى فتاة أديبة ينعم مرتين، ينعم بالحب، وينعم بالشعر، والشعر لا يقوى وينضج إلا إذا عرف المحب أنه يوجّه أنغامه إلى أذن تسمع وقلب يذوق.

وإليكم هذا القصيد في خطاب تلكم الأديبة الحسناء:

إنِّي ذَكَرْتُكِ بَالزَّهْراءِ مُشْتاقا والأفقُ طَلْقٌ، ومَرْأى الأرْض قَدْ راقَا
وَلِلنَّسيمِ اعْتِلالٌ في أصائِلِهِ كَأنَّهُ رَقّ لي فاعْتَلّ إشْفَاقَا
والرَّوْضُ عَن مَائِه الفِضِّيّ مُبْتَسِمٌ كَما شَقَقْتَ عَنِ اللَّبّاتِ أطْواقَا
يَوْمٌ كَأيَّامِ لَذَّاتٍ لَنَا انْصَرَمتْ بِتْنَا لَها حينَ نامَ الدّهْرُ سُرّاقَا
نَلْهُو بما يَسْتَميلُ العَيْنَ مِن زَهرٍ جالَ النّدَى فيهِ حَتَّى مالَ أعْناقَا
كَأنّ أعْيُنَهُ إذْ عايَنَتْ أرَقى بَكَتْ لِما بي فَجالَ الدَّمعُ رَقَرَاقَا
وَرْدٌ تألَّقَ في ضاحِي مَنابِتِهِ فازْدادَ مِنهُ الضُّحَى في العَينِ إشْراقَا
سَرَى يُنافِحُهُ نَيْلُوفَرٌ عبِقٌ وَسْنَانُ نَبَّهَ مِنْهُ الصُّبْحُ أحْدَاقَا
كُلٌّ يَهيجُ لنَا ذِكْرَى تَشَوّقِنَا إليكِ لَم يَعْدُ عنْها الصّدْرُ أن ضاقَا
لا سَكَّنَ اللهُ قَلْبًا عَنَّ ذِكْرَكُمُ فَلَم يَطِرْ بجَناحِ الشّوقِ خفّاقَا

لوْ شاء حَمْلي نَسيمُ الصُّبْحِ حينَ سَرَى   وافـاكُـمُ بِـفَـتـى أَضْـنـاهُ مـا لاقَـى
لوْ كَانَ وَفّى المُنَى في جَمعِنَا بِكمُ   لَـكـانَ مِـنْ أَكْـرمِ الأيّـامِ أخْـلاقَـا
كانَ التَّجاري بِمَحْضِ الوُدِّ مِنْ زَمَن   مَـيْدانَ أنْـسٍ جَـرَيْنَـا فـيـهِ أطْـلاقَـا
فـالآنَ أحْـمَـدَ مـا كُنَّا (لِـعَـهْـدِكُـمُ)   سَـلَـوْتُـمُ وَبَـقِـيـنَـا نَـحْـنُ عـشّـاقَـا

٢

لا يمكن أن يتسع الحديث لتفصيل غرام ابن زيدون، وإنما أردنا أن نمهد لتلك النونية البديعة التي نفحنا بها ذلك الغرام الطريف.

ونونية ابن زيدون هذه قصيدة نادرة يحفظها جميع الأدباء في جميع البلاد العربية، وهي في الشعر العربي تذكر بليالي موسِّيه في الشعر الفرنسي، فكما أن الفرنسيين جميعًا يعرفون ليالي موسِّيه، فالعرب يعرفون جميعًا نونية ابن زيدون، فإن كان في القراء من يجعل هذه القصيدة فليعرف واجبه نحو لغته وقوميته، فإنه لا يليق بشاب مثقف أن يجعل نونية ابن زيدون التي سارت مسير الأمثال.

وقد يكون في القراء من يقول: إنها قصيدة في الحب، وما هو الحب؟

والمجال لا يتسع مع الأسف لبيان خطر الحب الذي لا يعرف غير قلوب الفحول من الرجال، وإنما نشير إلى أن رواية الأدب الحق الذي يصدر عن صدق المشاعر والقلوب، هي في ذاتها متعة ذوقية لا يصدف عنها إلا الغافلون.

وإلى آذانكم وقلوبكم نسوق هذه القصيدة العصماء[١]:

أضْحَى التَّنائي بَديلًا مِنْ تَدانِينَا   وَنَابَ عَنْ طيبِ لُقْيانَا تَجافينَا
ألاّ وَقَدْ حانَ صُبحُ البَيْنِ صَبَّحَنا   حَيْنٌ فَقَامَ بِنَا لِلحَيْنِ نَاعينَا
مَنْ مُبْلِغُ المُلْبِسِينا بِانتِزاحِهِمُ   حُزْنًا مَعَ الدَّهرِ لا يَبْلَى ويُبْلينَا

[١] رأينا أن نسوق هذه النونية كاملة؛ لأنها في غرض واحد لا يظهر جماله إلا وهي مؤلفة الشمل ولا كذلك نونية شوقي، فإنها مختلفة الأغراض، وستكشف الموازنة عن تنقل شوقي من فن إلى فن ونفاذه من مسلك إلى مسلك؟

أَنْ الزَّمانَ الَّذي ما زالَ يُضْحِكُنا   أَنَا بِقُرْبِهِمُ قدْ عاد يُبْكينا
غَيْظَ العِدا مِنْ تَساقِينا الهَوَى فدَعَوْا   بِأَنْ نَغَصَّ فَقالَ الدَّهْرُ: آمينَا
فَانْحَلّ ما كانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا   وَانْبَتّ ما كانَ مَوْصُولًا بِأَيْدِينَا
وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى تَفَرّقُنا   فاليومَ نَحْنُ ومَا يُرْجى تلاقينَا

* * *

يا لَيتَ شِعْرِي وَلم نُعْتِبْ أعاديَكُم   هَلْ نَالَ حَظًّا مِنْ العُتبَى أعادينَا
لَم نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إلاّ الوَفاء لكُمْ   رَأيًا ولَمْ نَتَقلّدْ غَيرَهُ دِينَا
ما حَقّنا أن تُقِرُّوا عَيْنَ ذي حَسَدٍ   بِنا ولا أن تَسُرّوا كاشِحًا فِينَا
كُنّا نَرَى اليَأسَ تُسْلِينا عَوَارِضُه   وَقَدْ يَئِسْنَا فَمَا لليأسِ يُغْرِينَا
بِنْتُم وَبِنّا فَما ابتَلّتْ جَوَانِحُنَا   شَوْقًا إلَيكُمْ وَلا جَفّتْ مآقِينَا
نَكادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمائرُنا   يَقْضي علَينا الأَسَى لَوْلا تأسّينَا
حَالَتْ لِفقدِكُمُ أيّامُنا فغَدَتْ   سُودًا وكانتْ بكُمْ بِيضًا لَيَالِينَا
إذْ جانِبُ العَيشِ طَلْقٌ مِنْ تألُّفِنا   وَمَرْبَعُ اللّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
وَإذْ هَصَرْنَا فُنُونَ الوصل دانيةً   قُطُوفُهُ فَجَنَيْنَا مِنْهُ ما شِينَا
لِيُسْقَ عَهْدُكُمُ عَهْدُ السُّرُورِ فَما   كُنْتُمْ لأرْوَاحِنَا إلاّ رَياحِينَ ا
لا تَحْسَبُوا نَأيَكُمْ عَنّا يُغيّرُنا   إذْ طالَما غَيّرَ النّأيُ المُحِبّينَا
وَاللهِ مَا طَلَبَتْ أرْواحُنَا بَدَلًا   مِنْكُمْ وَلا انصرَفتْ عنكمْ أمانينا
يا سارِيَ البَرْقِ غادِ القصْرَ فَاسْقِ به   مَنْ كانَ صِرْفَ الهَوى وَالوُدَّ يَسقينَا
وَاسألْ هُنالِكَ هَلْ عَنّى تَذكُّرُنا   إلْفًا تذكُّرُهُ أمْسَى يُعنّينَا
وَيَا نَسيمَ الصَّبَا بلِّغْ تَحيّتَنَا   مَنْ لَوْ عَلى البُعْدِ حَيًّا كان يُحيِينا
فَهَلْ أرى الدّهْرَ يقْضينا مُساعفَةً   مِنْهُ وإنْ لم يكُنْ غبًّا تقاضِينَا

* * *

رَبيبُ مُلْكٍ كَأنّ اللهَ أنْشَأهُ   مِسْكًا وَقَدّرَ إنْشاءَ الوَرَى طِينَا
أوْ صَاغَهُ وَرِقًا مَحْضًا وَتَوّجهُ   مِنْ نَاصِعِ التّبْرِ إبْداعًا وتَحْسِينَا
إذَا تَأوّدَ آدَتْهُ رَفاهِيَّة   تُومُ العُقُودِ وَأدمتَهُ البُرَى لِينَا
كانتْ لَهُ الشّمسُ ظئرًا في أكِلّته   بَلْ ما تَجَلّى لها إلاّ أحايِينَا

كأنّما أثبتَتْ في صَحْنِ وجْنتِهِ زُهْرُ الكَواكِبِ تَعْوِيذًا وَتَزْيِينَا
ما ضَرّ أنْ لَمْ نَكُنْ أكْفَاءَهُ شرَفَا وَفي المَودَّة كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا

* * *

يا رَوْضَة طالَما أجْنَتْ لَوَاحِظَنَا وَرْدًا جَلاهُ الصِّبا غضًّا وَنَسْرِينَا
ويَا حَيَاةً تَمَلّيْنَا بِزَهْرَتِهَا مُنىً ضُروبًا وَلَذّاتٍ أفانينَا
ويَا نَعِيمًا خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ في وَشْيِ نُعْمَى سَحَبنا ذَيْلَه حينَا
لَسْنا نُسَمِّيكِ إجْلالًا وَتَكْرِمَة فَقَدْرُكِ المُعْتَلي عَنْ ذاكِ يُغْنِينَا
إذا انفرَدْتِ وَما شُورِكْتِ في صِفَةٍ فَحَسْبُنا الوَصْفُ إيضَاحًا وتبْيينَا

* * *

يا جَنَّة الخُلْدِ أُبْدِلْنا بِسَلْسَلِها والكَوْثَرِ العَذْبِ زَقّومًا وَغِسْلينَا
كأنّنَا لَمْ نَبِتْ والوَصْلُ ثالِثُنَا وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أجْفانِ وَاشينَا
سِرّانِ في خاطِرِ الظُّلْماءِ يَكتُمُنا حَتَّى يَكادَ لِسانُ الصُّبْحِ يُفْشينَا
لا غَرْوَ في أنْ ذَكَرْنا الحُبَّ حينَ نهتْ عَنْهُ النُّهَى وَتَرَكْنا الصَّبْرَ ناسِينَا
إنّا قَرَأنا الأسَى يَوْمَ النَّوَى سُورَا مَكْتوبَةً وَأخَذْنَا الصّبرَ تَلْقِينَا
أمَّا هَواكِ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ شُرْبًا وَإنْ كانَ يُرْوِينَا فيُظْمِينَا
لمْ نَجْفُ أفْقَ جَمالٍ أنْتِ كَوكبُهُ سَالِينَ عَنْهُ وَلَم نَهْجُرْهُ قالِينَا
وَلا اخْتِيارًا تَجَنّبْناهُ عَنْ كَثَبٍ لكِنْ عَدَتْنَا عَلَى كُرْهٍ عَوَادِينَا
نأسَى عَلَيْكِ إذا حُثَّتْ مُشَعْشَعَةً فِينا الشَّمُولُ وغنَّانَا مُغنّينَا
لا أكْؤسُ الرَّاحِ تُبْدي مِنْ شَمَائِلِنَا سِيّما ارْتياحٍ وَلا الأوْتارُ تُلْهِينَا
دُومي عَلَى العَهْدِ ما دُمْنا مُحافِظَةً فَالحُرُّ مَنْ دانَ إنْصافًا كَمَا دينَا
فَما اسْتَعَضْنا خَليلًا مِنْكِ يَحْبِسُنا وَلا اسْتَفَدْنا حَبِيبًا عَنْكِ يُثْنينَا
وَلَوْ صَبَا نَحْوَنَا مِنْ عُلو مَطْلَعِه بَدْرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حاشاكِ يُصْبِينَا
أبْلِي وَفاءً وَإنْ لَمْ تَبْذُلي صِلَةً فَالطَّيْفُ يُقْنِعُنَا وَالذِّكرُ يَكْفِينَا
وَفي الجَوَابِ مَتَاعٌ إنْ شَفَعْتِ بِهِ بِيضَ الأيادي الَّتي ما زِلْتِ تُولينَا

تلكم هي النونية التي شغلت الناس تسعة قرون.

ومن الظلم للحق أن نحكم بأن ابن زيدون وقف هواه على تلك الحسناء، هيهات فلن يمكن أن يكون لمثله هوى واحد، وكيف وهو رجل طامح القلب، مُرهف الإحساس.

ولكن التاريخ لم يتحدث إلا عن تلك المليحة الحسناء، ولو أنه دوّن جميع ما طاف بقلب ذلك العاشق لحدثنا عمن قال فيه ابن زيدون هذه الأبيات:

وَدَّع الصَّبْرَ مُحِبٌّ وَدَّعكْ ذائِعٌ مِن سِرِّهِ ما اِستَودَعَك
يَقرَعُ السِنَّ عَلى أَن لَم يَكُن زادَ في تِلكَ الخُطا إِذ شَيَّعَك
يا أَخا البَدرِ سَناءً وَسَنًا حَفِظَ اللهُ زَمانًا أَطلَعَك
إِن يَطُل بَعدَكَ لَيلي فَلَكَم بِتُّ أَشكو قِصَرَ اللَيلِ مَعَك

الفصل الخامس والثلاثون

الموازنة بين القصيدتين

١

عرفنا ابن زيدون العاشق الذي يحسن التحدث عن مآسي القلوب، ويكاد يعرف أسرار النفوس، فماذا نقول عن شوقي؟ لقد طال الحديث عن هذا الشاعر في فصول هذا الكتاب، ونخشى أن يتحيّف حقوق من عرضنا لهم من الشعراء، ولكن كيف لا نستكثر القول في شوقي، وقد ندّ ابن زيدون؟ إن نونية شوقي أعجوبة من الأعاجيب، وقد أرسلها من الأندلس في أعقاب الحرل العالمية فضجّ لها شعراء مصر وأجابه إسماعيل صبري، وحافظ إبراهيم، وعبد الحليم المصري، ولكنهم عجزوا جميعًا عن الجري في ميدانه، ولم يُؤثر لهم في معارضته شيء ذو بال بالقياس إلى نونية أمير الشعراء.

ابتدأ ابن زيدون نونيته بشكوى البين والأعداء والزمان، وكانت الأبيات السبعة التي تحدث بها عن جواه زفرة محرقة لم يَعبها ما وشيت به من الزخرف، ولكن أين هي من بداية شوق حين خاطب الطائر الحزين في وادي الطلح بضاحية إشبيلية؟ لقد تمثل الطائر شبيهًا به في لوعته وجواه فاندفع يقول:

يا نائِحَ الطَّلْحِ أَشباهٌ عَوادينا   نَشْجى لِواديكَ أَم نَأْسَى لِوادينا
ماذا تَقُصُّ عَلَيْنا غَيْرَ أَنَّ يَدًا   قَصَّتْ جَناحَكَ جالَتْ في حَواشينا
رَمى بِنا البَينُ أَيْكًا غيرَ سامِرِنا   أَخا الغَريبِ وَظِلًّا غَيْرَ نادينا
كُلٌّ رَمَتهُ النَوى، ريشَ الفِراقُ لَنا   سَهْمًا، وَسُلَّ عَلَيْكَ البَينُ سِكّينا
إِذا دَعا الشَّوْقُ لَمْ نَبْرَحْ بِمُنْصَدِعٍ   مِنَ الجَناحَينِ عَيٍّ لا يُلَبّينا
فَإِن يَكُ الجِنسُ يا اِبنَ الطَلحِ فَرقنَا   إِنَّ المَصائِبَ يَجْمَعنَ المُصابينا

لَم تَألُ ماءَكَ تَحْنانًا وَلا ظَمَا وَلا اِدِّكارًا وَلا شَجْوا أَفانينا
تَجُرُّ مِنْ فَنَنٍ ذيْلًا إِلَى فَنَنٍ وَتَسْحَبُ الذَيلَ تَرْتادُ المُؤاسينا
أُساةُ جِسْمِكَ شَتَّى حينَ تَطْلُبُهُم فَمَن لِروحِكَ بِالنُطسِ المُداوينا

والشاعر في هذه الأبيات حيران، يجعل الطائر في حالين: حال المغترب وحال المقيم، فما تدري أيبكي من الغربة أم ينوح من فقد الأليف، ومع حيرة الشاعر وضلاله عن تحديد ما يريد نراه بلغ غاية الرفق حين قال:

تَجُرُّ مِنْ فَنَنٍ ذيْلًا إِلَى فَنَنٍ وَتَسْحَبُ الذَيلَ تَرْتادُ المُؤاسينا

وهي حال تشهدها في الطائر المحزون، فقد نرى الطائر يتنقل على غير هُدى من أيْك إلى أيْك، فنعرف أنه يبحث عمن يواسيه، ولكن أين من يواسي الطائر الحزين؟ إن شوقي نفسه أخطأ حين قال:

أُساةُ جِسْمِكَ شَتَّى حينَ تَطْلُبُهُم فَمَن لِروحِكَ بِالنُطسِ المُداوينا

فإن الطائر لا يجد من يأسو جسمه، وإنما يجد من يذبحه ويشويه، والناس ألأم من أن يطبُّوا لطائر جريح!

وانتقل ابن زيدون من شكوى البين والأعداء والزمان إلى معاتبة حبيبته، فذكر أنه لم يستمع وشاية ولم يعتقد إلا الوفاء، أما شوقي فقد انتقل من خطاب الطائر إلى بكاء الأندلس والحنين إلى مصر، فقال:

وَاها لَنا نازِحَي أَيْكٍ بِأَندَلُسٍ وَإِن حَلَلْنا رَفيقًا مِن رَوابينا
رَسْمٌ وَقَفْنا عَلى رَسْمِ الوَفاءِ لَهُ نَجيشُ بِالدَمْعِ وَالإِجْلالِ يَثنينا
لِفِتيَةٍ لا تَنالُ الأَرْضُ أَدْمُعَهُم وَلا مَفارِقَهُم إِلّا مُصَلّينا
لَوْ لَم يَسودوا بِدينٍ فيهِ مَنْبَهَةٌ لِلناسِ كانَتْ لَهُمْ أَخلاقُهُم دينا
لَم نَسْرِ مِن حَرَمٍ إِلّا إِلى حَرَمٍ كَالخَمرِ مِن بابِلٍ سارَت لِدارينا
لَمّا نَبا الخُلدُ نابَت عَنْهُ نُسْخَتُهُ تَماثُلَ الوَرْدِ خِيريًّا وَنَسْرينا
نَسْقي ثَراهُم ثَناءً كُلَّما نُثِرَت دُموعُنا نُظِمَت مِنْها مَراثينا

كادَت عُيونُ قَوافِينا تُحَرِّكُهُ وَكِدنَ يوقِظنَ في التُربِ السَلاطينا

وللقارئ أن يتأمل الحسن في هذه الأبيات، فالشاعر يغلبه الدمع، وهو يتذكر ملوك الأندلس، ولكن الإجلال يثنيه عن البكاء؛ لأنه في ديار قوم لم تنل الأرض أدمعهم ومفارقهم إلا عند السجود، فهم لم يعرفوا الخشوع لغير الله، وذلك من أبعد الغايات في الثناء.

ويأبى شوقي إلا أن يحرص على المعاني الشعرية، فهو في الأندلس لا يسري من حرم إلا إلى حرم، ولكن كيف؟ كالخمر سارت من بابل إلى دارين! وقدسية الخمر لا تجوز في غير مذاهب الشعراء.

ثم قال في الحنين إلى وطن النيل:

لَكِنَّ مِصْرَ وَإِن أَغْضَت عَلَى مِقَةٍ عَيْنٌ مِنَ الخُلْدِ بِالكافورِ تَسْقينا
عَلى جَوانِبِها رَفَّت تَمائِمُنا وَحَوْلَ حافاتِها قامَتْ رَواقينا

وهذا معنى قديم سبقه إليه من قال:

أَحَبُ بِلادِ الله ما بَيْنَ مِنْعِجٍ إليَّ وسَلْمى لَو يَصوبُ سَحَابُها
بِلادٌ بَها نِيطَتْ عَليَّ تَمائمي وأَوَّلُ أرْضٍ مَسَّ جِسْمي تُرابُها

والبِكْر هو قول شوقي:

مَلاعِبٌ مَرَحَتْ فيها مَآرِبُنا وَأَربُعٌ أَنِسَت فيها أَمانينا

وإنما كان هذا معنى بكرًا لما فيه من طرافة الخيال، أرأيتم كيف تمرح المآرب، وكيف تأنس الأماني؟

لقد رأيت شوقي أول ما رأيته سنة ١٩٢١م، وكان دعاني للغداء عنده بالمطرية مع الأصدقاء الأكرمين مصطفى القشاشي، وسعيد عبده، وأحمد علام، فعجبت يومئذ لذلك المبْسم الساحر، وسألت نفسي: كيف كان ذلك الملاك في صِباه!

إن حنين شوقي إلى مصر حنين عميق؛ وإنما كان كذلك لأن الشاعر شهد في مصر دنيا من الحب والمجد لم يظفر بها إلا الأقلون، ودنيا شوقي لم تكن مثل دنيا الناس في

هذا الزمان، كانت الدنيا في شباب شوقي تفيض بالبشر والإيناس، وكان الشاعر يعيش فيها عيشة مُضمخَةً بالسحر والفتون، وكان للجمال قدسيةٌ، وكان للصبا سُلطان، وكانت خطوب الزمان لا تهد النفوس كما تفعل هذه الأيام.

ومن البكر أيضًا قول شوقي:

بِنَّا فَلَمْ نَخْلُ مِن رَوْحٍ يُراوِحُنا مِن بَرِّ مِصْرَ وَرَيحانٍ يُغادينا
كَأُمِّ موسى عَلَى اِسمِ اللهِ تَكْفُلُنا وَبِاِسمِهِ ذَهَبَتْ في اليَمِّ تُلقينا

يريد أن يقول: إن مصر لم تلقه في يم النفي إلا خوفًا عليه من كيد فرعون، فرعون القرن العشرين المستر جون بول!

٢

تذكرون قول ابن زيدون:

يا سارِيَ البَرْقِ غادِ القصْرَ فَاسق به مَنْ كانَ صِرْف الهَوى وَالوُدَّ يَسقينَا
وَاسأَلْ هُنالِكَ هَلْ عَنَّى تَذكُّرُنا إلْفًا تذكُّرُهُ أمْسَى يُعنّينَا

وهذا شعر جميل، ولكن انظروا كيف عارضه شوقي فقال:

يا سارِيَ البَرْقِ يَرمي عَن جَوانِحِنا بَعدَ الهُدوءِ وَيَهمي عَن مَآقينا
لَمّا تَرَقْرَقَ في دَمْعِ السَّماءِ دَمًا هاجَ البُكا فَخَضَبْنا الأَرْضَ باكينا
اللَّيْلُ يَشْهَدُ لَم نَهْتِك دَياجِيَهُ عَلَى نِيامٍ وَلَم نَهْتِف بِسالينا
وَالنَجْمُ لَم يَرَنا إِلّا عَلَى قَدَمٍ قِيامَ لَيلِ الهَوَى لِلعَهْدِ راعينا
كَزَفرَةٍ في سَماءِ اللَّيْلِ حائِرَةٍ مِمَّا نُرَدِّدُ فيهِ حينَ يُضْوينا
بِاللهِ إِن جُبتَ ظَلْماءَ العُبابِ عَلَى نَجائِبِ النُّورِ مَحْدُوًّا (بِجِرِّينا)
تَرُدُّ عَنْكَ يَداهُ كُلَّ عادِيَةٍ إِنسًا يَعِثْنَ فَسادًا أَو شَياطينا
حَتَّى حَوَتكَ سَماءُ النِّيلِ عالِيَةً عَلى الغُيوثِ وَإِن كانَت مَيامينا
وَأَحْرَزَتكَ شُفوفُ اللّازَوَردِ عَلَى وَشْيِ الزَبَرْجَدِ مِن أَفوافِ وادينا

وَحازَكَ الرِّيفُ أَرجاءً مُؤَرَّجَةً   رَبَت خَمائِلَ وَاهتَزَّت بَساتينا
فَقِفْ إِلى النيلِ وَاهتُف في خَمائِلِهِ   وَانزِل كَما نَزَلَ الطَلُّ الرَّياحينا
وَآسِ ما بَاتَ يَذْوي مِن مَنازِلِنا   بِالحادِثاتِ وَيَضْوى مِن مَغانينا

انظروا. ابن زيدون يسأل البرق أن يسقي القصر، وشوقي يسأل البرق أن يأسو المنازل الذاوية، والمغاني الضاوية، والمعنيان مقتربان، ولكن شوقي أعطانا صورة شعرية لتنقل البرق من أفق إلى أفق، وانحداره من أرض إلى أرض، وأعطى صورًا من ريف مصر وخمائل النيل لا تشوق إلا شاعرًا ودَّع دنياه حين وَدع النيل.

وقال ابن زيدون:

وَيَا نَسيمَ الصَّبَا بلِّغْ تَحيّتَنَا   مَنْ لَوْ عَلى البُعْدِ حَيّا كان يُحيِينا

عارضه شوقي فقال:

وَيا مُعْطِّرَةَ الوادي سَرَت سَحَرًا   فَطابَ كُلُّ طَرُوحٍ مِن مَرامينا
ذَكِيَّةُ الذَّيْلِ لَو خِلنا غِلالَتَها   قَمِيصَ يوسُفَ لَم نُحْسَب مُغالينا
جَشِمْتِ شَوْكَ السُرى حَتَّى أَتَيتِ لَنا   بِالوَردِ كُتْبًا وَبِالرَّيَّا عَناوينا
فَلَو جَزَيْناكِ بِالأَرْواحِ غالِيَةً   عَن طيبِ مَسْراكِ لَم تَنهَضْ جَوازينا
هَل مِن ذُيولِكِ مَسْكِيٌّ نُحَمِّلُهُ   غَرائِبَ الشَّوقِ وَشْيًا مِن أَمالينا
إِلى الَّذينَ وَجَدنا وُدَّ غَيرِهِمُ   دُنْيا وَوُدَّهُمو الصَّافي هُوَ الدِّينا

إن ابن زيدون لم يزد على أن قال: «يا نسيم الصبا» وهو تعبير ورد في مئات القصائد، أما شوقي فراح يفتن افتتانًا يدل على قوة الشاعرية، وبرعة الخيال، فوصف السمة بأنها معطرة الوادي وأنها سارت في السحر فطاب بمسراها كل مرمى سحيق، وأنها ذكية الذيل كأنها قميص يوسف، وأنها جَشمت شوك السرى حتى أتت بالورد مجسمًا في رسائل، وأتت بالرَّيا ممثلة في عناوين، وشكر لها النُعمى فقال:

فَلَو جَزَيْناكِ بِالأَرْواحِ غالِيَةً   عَن طيبِ مَسْراكِ لَم تَنهَضْ جَوازينا

وابن زيدون يقول: «بلغ تحيَتَنا» وهي عبارة جافية؛ لأنها وردت في صورة الأمر، أما شوقي فيترفق، ويقول:

هَل مِن ذُيولِكِ مَسْكِيٌّ نُحَمِّلُهُ   غَرائِبَ الشَّوقِ وَشْيًا مِن أَمالينا

وابن زيدون يصف أحبابه بالقدرة على إحيائه لو أسعفوه بتحيّة، وشوقي يجعل كل هوى غير هوى أحبابه بمصر صورة من الدنيا، أما هوى أحبابه الذين يتشوق إليهم فهو في صفاء الدين.

ولا ننكر أن بعض أخيلة شوقي مقتبس من ابن زيدون، فقول شوقي:

يا سارِيَ البَرْقِ يَرمي عَن جَوانِحِنا   بَعدَ الهُدوءِ وَيَهمي عَن مَآقينا

اختلس برفق وحِذْق من قول ابن زيدون:

بِنْتُم وَبِنّا فَما ابتَلّتْ جَوانِحُنَا   شَوْقًا إِلَيكُمْ وَلا جَفّتْ مآقِينَا

والمعنى الذي عرضه ابن زيدون في ثلاثة بسطه شوقي في ثمانية عشر بيتًا؛ وإنما اتفق له ذلك لأنه كان يعارض ابن زيدون، فكان لا بدّ له من توشيةٍ بارعة تعفي على النظرة الفطرية في أبيات ابن زيدون. ولابن زيدون فضل السبق، ولشوقي فضل البراعة في تلوين الصور الشعرية، وهو فضل ليس بقليل.

٣

وأراد ابن زيدون أن يتذكر أيام الأنس فقال:

حَالَتْ لِفقدِكُمُ أيّامُنا فغَدَتْ   سُودًا وكانتْ بكُمْ بِيضًا لَيَالِينَا
إذْ جانِبُ العَيشِ طَلْقٌ مِنْ تألُّفِنا   وَمَرْبَعُ اللّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
وَإذْ هَصَرْنَا فُنُونَ الأنْسِ دانيةً   قُطُوفُهُ فَجَنَيْنَا مِنْهُ ما شِينَا
ليُسْقَ عَهْدُكُمُ عَهْدُ السُّرُورِ فَما   كُنْتُمْ لأروَاحِنَا إلاّ رَياحيذَ ا

وهذا شعر صافي الديباجة، رائع المعاني، ولكن انظروا كيف عارضه شوقي فجمع بين الأسى والفخر حين قال:

سَقْيًا لِعَهْدٍ كَأَكْنافِ الرُبَا رِفَةً[1] أَنَّى ذَهَبْنا وَأَعْطافِ الصَّبا لينا
إِذِ الزَّمانُ بِنا غَيْناءُ زاهِيَةٌ تَرِفُّ أَوْقاتُنا فيها رَياحينا
الوَصْلُ صافِيَةٌ وَالعَيْشُ ناغِيَةٌ وَالسَعْدُ حاشِيَةٌ وَالدَهْرُ ماشينا
وَالشَّمْسُ تَخْتالُ في العِقيانِ تَحْسَبُها بَلْقيسَ تَرفُلُ في وَشْيِ اليَمانينا
وَالنِّيلُ يُقْبِلُ كَالدُّنْيا إِذا اِحْتَفَلَت لَو كانَ فيها وَفاءٌ لِلمُصافينا
وَالسَعْدُ لَو دامَ وَالدُنْيَا لَوِ اِطَّرَدَت وَالسَّيْلُ لَو عَفَّ وَالمِقْدارُ لَو دينا
أَلقى عَلى الأَرْضِ حَتَّى رَدَّها ذَهَبًا ماءً لَمَسْنا بِهِ الإِكْسيرَ أَو طينا
أَعداهُ مِن يُمنِهِ (التَّابوتُ) وَارتَسَمَت عَلَى جَوانِبِهِ الأَنوارُ مِن سينا
لَهُ مَبالِغُ ما في الخُلقِ مِن كَرَمٍ عَهدُ الكِرامِ وَميثاقُ الوَفِيّينا
لَم يَجْرِ لِلدَهرِ إِعْذارٌ وَلا عُرُسٌ إِلّا بِأَيّامِنا أَو في لَيالينا[2]
وَلا حَوى السَّعْدُ أَطْغى في أَعِنَّتِهِ مِنّا جِيادًا وَلا أَرخى مَياديـنا
نَحنُ اليَواقيتُ خاضَ النَّارَ جَوْهَرُنا وَلَم يَهُن بِيَدِ التَّشْتيتِ غالينا
وَلا يَحولُ لَنا صِبْغٌ وَلا خُلُقٌ إِذا تَلَوَّنَ كَالحِرباءِ شانينا

والقارئ حين يوازن بين هاتين القطعتين لا يدري أيهما أجود؛ لأن ابن زيدون على قصر نَفسه في هذا الشوط بلغ غاية الرشاقة حين قال:

وَإِذْ هَصَرْنَا فُنُونَ الأُنْسِ دانيةً قُطُوفُهُ فَجَنَيْنَا مِنْهُ ما شِينَا

وبلغ غاية الدقة حين قال:

[1] رِفَةً: النضرة.

[2] الإعذار: طعام يتخذ لأيام السرور.

إذْ جانِبُ العَيشِ طَلْقٌ مِنْ تألُّفِنا وَمَوردُ اللّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا

والدقة في هذا البيت تؤخذ من صدق التعليل، فالعيش لم تتسع جوانبه إلا بفضل التألف، تألف القلبين، واللهو لم يصف مورده إلا بفضل التصافي، تصافي الحبيبين، والدنيا لا كدر فيها ولا صفاء، وإنما تصفو حين تصفو النفوس، وتقسو حين تقسو القلوب، فالزهر الذي يبسم لك لا يبسم لك وحدك؛ وإنما تراه يخصك بالرفق لأن الدنيا صّفْت لك، وقد يراه غيرك في ابتسامة صورة من صور العبوس، والنهر الذي تنظر إليه في الليالي المقمرة، فتراه عاشقًا يغازل القمر ويتلقى دعابته في حنان، هذا النهر لا يتمثل لك كذلك؛ إلا لأنك تشاهد أمواجه الفضية بقلب مَرح وحسنٍ طروبٍ، وهو نفسه قد يبدو للمحزون صورة من صور الاكتئاب.

ويروقنا قول شوقي:

سَقْيًا لِعَهْدٍ كَأَكْنافِ الرُبَا رِفَةً أَنَّى ذَهَبْنا وَأَعْطافِ الصَّبا لينا
إِذِ الزَّمانُ بِنا غَيْناءُ زاهِيَةٌ تَرِفُّ أَوْقاتُنا فيها رَياحينا
الوَصْلُ صافِيَةٌ وَالعَيْشُ ناغِيَةٌ وَالسَعْدُ حاشِيَةٌ وَالدَهْرُ ماشينا
وَالنِّيلُ يُقْبِلُ كَالدُّنْيا إِذا اِحْتَفَلَت لَو كانَ فيها وَفاءٌ لِلمُصافينا

يروقنا هذا الشعر؛ لأن الشاعر جعل عهده في نضرة الزهر الذي يتفتح في أكناف الربوات؛ ولأنه رأى اللين في أيام الأنس شبيهًا باللين في أعطاف الصبا، وأعطاف الصبر جوهر نبيل لا يعرف طيب لينها إلا شاعرٌ أمكنته من أعطاف الصبا سَورة الصبَوات، ويروقنا أيضًا لطرافة هذا الخيال:

تَرِفُّ أَوْقاتُنا فيها رَياحينا

ورفيف الأوقات معنىً يعرفه العشاق الذين دار بهم الزمن في أرجوحة اللهو الجَموح.

ويروقنا هذا الشعر مرة ثالثة؛ لأن الشاعر يرى إقبال النيل كالدنيا حين تحتفل وانظروا كيف تكون الدنيا حين تحتفل، ثم تأملوا روعة هذا الاستدراك:

لَو كانَ فيها وَفاءٌ لِلمُصافينا

ولكن هذه الطرافة في أخيلة شوقي لا تنسينا براعة ابن زيدون حين جعل محبوبته كل شيء حين قال:

يا رَوْضَة طالَما أجْنَتْ لَوَاحِظَنَا　　وَرْدًا جَلاهُ الصِّبا غضًّا وَنَسْرِينَا
ويَا حَيَاةً تَمَلَّيْنَا بِزَهْرَتِهَا　　مُنىً ضُروبًا وَلَذّاتٍ أفانينَا
ويَا نَعِيمًا خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ　　في وَشْيِ نُعْمَى سَحَبنا ذَيْلَه حينَا

إن لم يكن هذا هو الشعر فما عسى الشعر أن يكون؟ أترون العذوبة في الهاتف بالروضة التي «طالَما أجْنَتْ وردا جلاه الصبا» تأملوا عبارة «أجْنَتْ لَوَاحِظَنَا»، وانظروا كيف تغزونا الروضة فتقهرنا على تذوق جناها المرموق، والشاعر لا ينتظر حتى تهفو نفسه إلى مناعم الروضة، وإنما تهجم الروضة عليه فتعلمه كيف يبصر الأفنان، وكيف يجني القطوف. وعبارة جَلاهُ الصِّبا ما رأيكم فيما تحويه من سحر أخاذ؟ ثم ما هذا التعبير الطريف:

مُنىً ضُروبًا وَلَذّاتٍ أفانينَا

أتعرفون كيف يكون للمُنى ألوانٌ وللذات أفانين؟ إن هذا خيال شاعر غرق مرة في كوثر الوصال.

وانظروا هذا البيت:

ويَا نَعِيمًا خَطَرْنَا مِنْ نَضَارَتِهِ　　في وَشْيِ نُعْمَى سَحَبنا ذَيْلَه حينَا

أتحسون قوة هذا المعنى؟ ألا يُريكم الخيال صورة فتىً منعم يسحب ذيل النعيم؟ إن ابن زيدون في هذه الأبيات أقوى من شوقي في الحسر على ما ضاع من دنيا الهوى المفقود.

٤

واشترك شوقي وابن زيدون في التفجع والحنين، أما ابن زيدون فيقول:

يا جَنَّة الخُلْدِ أُبْدِنْنا بِسَلْسَلِها والكَوْثَرِ العَذْبِ زَقّومًا وَغِسْلينَا
كأنّنَا لَمْ نَبِتْ والوَصْلُ ثالِثُنَا وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أجْفانِ وَاشينَا
سِرّانِ في خاطِرِ الظُّلْماءِ يَكتُمُنا حَتَّى يَكادَ لِسانُ الصُّبْحِ يُفْشينَا
لا غَرْوَ في أنْ ذَكَرْنا الحُبَّ حينَ نهتْ عَنْهُ النُّهَى وَتَرَكْنا الصَّبْرَ ناسِينَا
إنّا قَرَأنا الأسَىَ يَوْمَ النَّوَىَ سُورَا مَكْتوبَةً وَأخَذْنَا الصّبرَ تَلْقِينَا
أمَّا هَواكِ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ شُرْبًا وَإنْ كانَ يُرْوِينَا فيُظمِينَا
لمْ نَجْفُ أفْقَ جَمالٍ أنْتِ كَوكبُهُ سَالِينَ عَنْهُ وَلَم نَهْجُرْهُ قالِينَا
وَلا اخْتِيارًا تَجَنّبْناهُ عَنْ كَثَبٍ لكِنْ عَدَتْنَا عَلَى كُرْهٍ عَوَادِينَا

والشاعر في هذه الأبيات يصف أيام الوصل أجمل وصف، ويرى نفسه انتقل من كوثر الخلد إلى الزقوم والغسْلين، ويرى ورْد الهوى القديم شربًا لا يعدله شرب، وإن كان يرويه فيظميه. ونعيم الوصل يُرهف الحس فيزيد القلب ظمأ إلى ظمأ والتياعًا إلى التياع. وتحدث الشاعر عن البين فذكر أنه لم يقع عن سلوة ولا صدود، وإنما أكرهته العوادي.

ويروقنا هذا التعبير المونق:

لمْ نَجْفُ أفْقَ جَمالٍ أنْتِ كَوكبُهُ

فكأن الدنيا لعهده أفقًا من المفاتن، وكانت محبوبته كوكب ذلك الأفق المطلول بأنداء الفُتون.

هذا جزعٌ من صنع الدهر صرخ به ابن زيدون، وعارضه شوقي يصف قسوة الليل وقسوة الفراق:

وَنابِغي كَأَنَّ الحَشْرَ آخِرُهُ تُميتُنا فيهِ ذِكْراكُم وَتُحْيينا
نَطْوي دُجاهُ بِجُرحٍ مِن فُراقِكُم يَكادُ في غَلَسِ الأَسْحارِ يَطْوينا

إذا رَسا النَجْمُ لَم تَرقَأ مَحاجِرُنا حَتّى يَزولَ وَلَم تَهْدَأ تَراقينا
بِتنا نُقاسي الدَواهي مِن كَواكِبِهِ حَتّى قَعَدْنا بِها حَسْرى تُقاسينا
يَبدو النَهارُ فَيَخْفيهِ تَجَلُّدُنا لِلشّامِتينَ وَيَأسُوهُ تَأَسّينا

وهذا من الشعر الرفيع، ومن العجز أن لا نجد غير هذا الوصف، وإلا فكيف نصل إلى بيان الفتنة في هذا البيت:

نَطْوي دُجاهُ بِجُرحٍ مِن فُراقِكُم يَكادُ في غَلَسِ الأَسْحارِ يَطْوينا

أترون كيف يطوى الدجى بالجرح؟ أترون كيف تكون الجراح أعظم من ظلمات الليل؟

ثم ما هذه الوثبة الشعرية حين يقاسي الشاعر بطء الكواكب، ثم ينظر فيراها ابتُلِيَت به فباتت تقاسيه، وهي حسرى لواغب؟ والشاعر قد يعظم سلطانه على الوجود فيرى الدنيا تجزع لجزعه وتأسى لأساه.

وكان الشعراء الأقدمون يرون النهار يبدد الأشجان بفضل ما فيه من الشواغل، أما شوقي فيرى أشجانه لا تهدأ نهارًا إلا بفضل التأسي والتجلد للشامتين.

٥

بقي النظر فيما تفرد به الشاعران.

ونحن نرى ابن زيدون تفرد بهذين البيتين في خطاب حبيبته التي أقصاه عنها الزمان:

نأسَى عَليْكِ إذا حُثَّتْ مُشَعْشَعَة فِينا الشَّمُولُ وغنَّانَا مُغنّينَا
لا أَكْؤسُ الرَّاحِ تُبْدي مِنْ شَمَائِلِنَا سِيّما ارْتياحٍ وَلا الأَوْتارُ تُلْهِينَا

وهذا من أدق المعاني النفسية، فالشراب والغناء يهيجان العواطف الغافية، ويبعثان الوجد الدفين، وللشوق في أمثال هذه اللحظات لدغات أعنف من الجمر المشبوب، وأين الجمر بجانب ما يثور في القلب عند الشراب والسماع؟ إن هذه لحظات تكشف المُقنَّع

من سرائر النفوس، وتصنع ما تصنع الحمَّى العاتية حين تُنطق المحموم بأسماء لم يهذ بها لسانه ولا وجدانه منذ سنين.

وقول ابن زيدون:

وَلَوْ صَبَا نَحْوَنَا مِنْ عُلوِ مَطْلَعِه بَدْرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حاشاكِ يَصْبِينَا

هو أصل المعنى الذي ساقه شوقي في السينية:

وَطَني لَوْ شُغِلْتُ بِالخُلْدِ عَنْهُ نازَعَتني إِليْهِ في الخُلْدِ نَفْسي

وهو أخذٌ رفيقٌ لا يحاسب على مثله الشعراء.

وتفرد شوقي بالفخر، الفخر بنفسه وبأمجاد النيل، فقال:

لَم يَجْرِ لِلدَهرِ إِعْذارٌ وَلا عُرُسٌ إِلّا بِأَيّامِنا أَو في لَياليِنا
وَلا حَوى السَّعْدُ أَطْغى في أَعِنَّتِهِ مِنّا جِيادًا وَلا أَرخى مَيادينا
نَحنُ اليَواقيتُ خاضَ النَّارَ جَوْهَرُنا وَلَم يَهُن بِيَدِ التَّشْتيتِ غالينا
وَلا يَحولُ لَنا صِبْغٌ وَلا خُلُقٌ إِذا تَلَوَّنَ كَالحِرباءِ شانينا
لَم تَنْزِلِ الشَّمْسُ مِيْدَانًا وَلا صَعَدَت في مُلْكِها الضَّخْمِ عَرْشًا مِثْلَ وادينا
أَلَم تُؤَلَّه عَلَى حافاتِهِ وَرَأَتْ عَلَيهِ أَبناءَها الغُرَّ المَيامينا
إِن غازَلَت شاطِئَيهِ في الضُّحَى لَبِسا خَمائِلَ السُّنْدُسِ المَوْشِيَّةِ الغينا[٣]
وَباتَ كُلُّ مُجاجِ الْوادِ مِن شَجَرٍ لَوافِظَ القَزِّ بِالخيطانِ تَرمينا

وبهذا دافع الشاعر عن الوثنية المصرية أجمل دفاع، وهل عبد المصريون الشمس إلا لأنهم عرفوا فضل الشمس؟ وما الدنيا بدون الشمس إلا وجود تافه سخيف!

[٣] الغين: جمع أغين، وهو الأخضر، والمؤنث غيناء.

وشوقي لم يعن إلا نفسه حين قال:

نَحنُ اليَواقيتُ خاضَ النَّارَ جَوْهَرُنا   وَلَم يَهُن بِيَدِ التَّشْتيتِ غالينا

وقد صدق، فقد قامت في وجه الرجل أحداث تهد الجبال، وانتاشه الخصوم أسوأ انتياش، ولكن من كان يملك مثل قلبه وإحساسه وشاعريته يصعب عدمه، وإن تكاثرت المعاول واستحصدت سواعد الهادمين.

وتفرد شوقي بالحديث عن الأهرام، فقال:

وَهَذِهِ الأَرضُ مِن سَهْلٍ وَمِن جَبَلٍ   قَبلَ القَياصِرِ دِنّاها فَراعينا
وَلَم يَضَعْ حَجَرًا بانٍ عَلى حَجَرٍ   في الأَرضِ إِلّا عَلَى آثارِ بانينا
كَأَنَّ أَهْرامَ مِصْرٍ حائِطٌ نَهَضَت   بِهِ يَدُ الدَهرِ لا بُنيانُ بانينا
إيوانُهُ الفَخمُ مِن عُلْيا مَقاصِرِهِ   يُفني المُلوكَ وَلا يُبقي الأَواوينا[٤]
كَأَنَّها وَرِمالًا حَولَها اِلْتَطَمَت   سَفينَةٌ غَرِقَت إِلّا أَساطينا
كَأَنَّها تَحْتَ لَألاءِ الضُّحى ذَهَبًا   كُنوزُ فِرعَوْنَ غَطَّيْنَ المَوازينا

وللقارئ أن يتأمل هذه الأبيات، له أن يتأمل قوة الفخر في هذا البيت:

وَلَم يَضَعْ حَجَرًا بانٍ عَلى حَجَرٍ   في الأَرضِ إِلّا عَلَى آثارِ بانينا

وله أن يعجب من روعة الخيال في هذا البيت:

كَأَنَّ أَهْرامَ مِصْرٍ حائِطٌ نَهَضَت   بِهِ يَدُ الدَهرِ لا بُنيانُ بانينا

وله أن يتأمل دقة التشبيه في هذا البيت:

[٤] الأواوين: جمع إيوان.

كَأَنَّها وَرِمالًا حَولَها اِلْتَطَمَت   سَفينَةٌ غَرِقَت إِلّا أَساطينا

ذلك شوقي، وتلك آياته البينات.

٦

وتفرد ابن زيدون بوصف الجمال الإنساني، وتفرد شوقي بوصف الجمال الطبيعي، أعطى ابن زيدون محبوبته صورة هي تحفةٌ في الصور الإنسانية، وأعطى شوقي مفاتن النيل صورةٌ هي غرةٌ في الصور الطبيعية، أما صورة النيل فقد رآها القارئ من قبل، وأما محبوبة ابن زيدون فقد صورها بهذه الأبيات:

رَبيبُ مُلْكٍ كَأَنَّ اللهَ أَنْشَأَهُ   مِسْكًا وَقَدَّرَ إِنْشاءَ الوَرَى طِينَا
أَوْ صَاغَهُ وَرِقًا مَحْضًا وَتَوّجهُ   مِنْ نَاصِعِ التِّبْرِ إِبْداعًا وتَحْسِينَا
إِذَا تَأَوَّدَ آدَتْهُ رَفاهِيَّةٌ   تُومُ العُقُودِ وَأَدمتَهُ البُرَى لِينَا
كانتْ لَهُ الشَّمسُ ظِئرًا في أَكِلَّته   بَلْ ما تَجَلّى لها إلاّ أحايِينَا
كأنّما أثبتَتْ في صَحْنِ وجْنتِهِ   زُهْرُ الكَوَاكِبِ تَعْوِيذًا وَتَزَيِينَا
ما ضَرّ أنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شرَفًا   وَفي المَوَدَّة كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا

وهذه نظرة شاعر يعرف جواهر الصباحة. وفي الحسن ألوف من الأفانين يعرفها الراسخون في علم الجمال، فالجمال المنعَّم غير الجمال المحروم، والزهر النضير الذي يضاحك الشمس في حديقة غناء بقصر من قصور الملك غير الزهر الظمآن المنسي الذي يتفتح وهو مهجور في رَبوةٍ قاصية لا يعرفها غير الذئاب. إن جواهر الجمال تختلف أشد الاختلاف، ولكل لون من ألوان الجمال وحْيٌ خاص. وجوهر الشعر يتبع جوهر الجمال، وهل يمكن أن يكون ما يوحيه الجمال المُحجب شبيهًا بما يوحيه الجمال المباح؟ إن الطبيعة قد يبدو لها أحيانًا أن تكايد الناس فتنشئ من الحسن في حي بولاق ما تغيظ به الناس في حي القصر العالي[٥]. ولكنها لا تفلح، فالجمال الذي ينبت

[٥] القصر العالي. حي بالقاهرة يشارف النيل، ويسميه السخفاء جاردن سيتي.

في البيئات السوقية يظل سوقّي الشمائل والنوازع، أما الجمال الذي يتفتح في البيائت المنعمة فيظل ملحوظ المشارب والميول.

فمعشوقة ابن زيدون ربيبة ملك، وربيبة الملك تألف السيطرة منذ أيام المهد، ويظل دلالها طول الحياة دلالًا سماويًّا يأخذ فيضه من قوة الطبع، لا من لؤم التمنع، وينزل رضاهًا على القلب نزول الظل على الريحان، وابن زيدون يتمثل محبوبته خلقت من المسك، ويرى الناس ما عداها خلقوا من طين، وكلمة (طين) وقعت قبيحة في شعر ابن زيدون، إلا أن يكون أراد الإشارة إلى بعض الناس، والمرء حين يغضب يرى الناس خلقوا من طين، وإن كان الطين أشرف من بعض ما ترى من المخلوقات، والطين تربةً يحيا بها الزهر ويتغذى منها الشوك، وفوقه تتخطر الظباء، وعليه تزحف الأفاعي والصَّلال.

وبلغ ابن زيدون نهاية الترفق حين قال:

إِذَا تَـأَوّدَ آدَتْـهُ رَفـاهِـيّـة تُومُ العُقُودِ وَأدمتَهُ البُرَى لِينَا

والجمال الذي تؤذيه العقود والدمالج والأساور والخلاخيل جمال غض رقيق يشبه في رقته نواظر العيون، ولفائف القلوب، وهذا الجمال منثور في المدائن نثر الزهر واللؤلؤ، ولولا وجوده في هذه الدنيا لما عرف شاعر قيمة النعمة العظيمة، نعمة البصر والحس والذوق، لولا الجمال المنعم المصون الذي لا يطمع في تفيؤ ظلاله غبي ولا لئيم لأقفرت الدنيا من الشعر وخلت من الأنفاس العطرة أنفاس الشعراء، لولا الجمال المنعم المصون الذي لا يطمع في تفيؤ ظلاله غبي ولا لئيم لما استطاب شاعرٌ سهر الليل، وألم الجفون، وهل يُعني القلب في سبيل الجمال المبتذل الذي ترنو إليه جميع العيون؟ إن الجمال المبتذل شبيه بالكوكب المتهالك الذي لا تألم من النظر إليه عينٌ رمداء، أما الجمال المنعم المصون فشبيهٌ بالشمس لا يقوى على النظر إليه إلا الفحول من الشعراء، والأقطاب من الكتاب، هو الجمال الفرد، ولا يصاوله إلا الرجل الفرد، وإن كان يتواضع فيقول:

ما ضَرّ أنْ لَمْ نَكُنْ أكْفَاءَهُ شرَفَا　　　وَفي المَوَدَّة كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا

هذا تواضعٌ، فإن جوهر الحب في قلب الشاعر أنفس من جوهر الحسن في وجه الجميل، وهل تعربد معاني الصباحة في الوجه المليح كما تعربد عرائس الشعر في قلب الشاعر، الذي يلقي الأنوار والظلمات وحوله جيشٌ من الهوى المتمرد والوجد المشبوب؟

إن قلب الشاعر جوهر نفيس، ولولا فضله على الدنيا ما عرف أحدٌ جمال الصبح المشرق، ولا تنبه مخلوق إلى لمح الكواكب ولألاء النجوم، ولا تلفت باحث إلى شعر ابن زيدون، وقد طمره الزمن بتسعة أحجار تسمى تسعة قرون.

٧

ثم ماذا؟ بقي أن نشرب صبابة الكأس من نونية شوقي، وكل صبابة في الكأس صاب، بقي أن نتوَجع لبلواه، وهو يتشوق إلى مصر فيقول:

أَرضُ الأُبُوَّةِ وَالميلادِ طَيَّبَها　　　مَرُّ الصِّبا في ذُيولٍ مِن تَصابينا
كانَت مُحَجَّلَةٌ فيها مَواقِفُنا　　　غُرًّا مُسَلسَلَةَ المَجْرَى قَوافينا
فَآبَ مِن كُرَةِ الأَيّامِ لاعِبُنا　　　وَثابَ مِن سِنَةِ الأَحْلامِ لاهينا
وَلَم نَدَع لِلَيالي صافِيًا فَدَعَت　　　(بِأَن نَغَصَّ فَقالَ الدَهْرُ آمينا)
لَو اِستَطَعنا لَخُضْنا الجَوَّ صاعِقَةً　　　وَالبَرَّ نارَ وَغىً وَالبَحرَ غِسْلينا
سَعْيًا إِلى مِصْرَ نَقْضي حَقَّ ذاكِرِنا　　　فيها إِذا نَسِيَ الوافي وَباكينا

أرأيتم هذا الشعر؟ أرأيتم الخيال في هذا البيت:

فَآبَ مِن كُرَةِ الأَيّامِ لاعِبُنا　　　وَثابَ مِن سِنَةِ الأَحْلامِ لاهينا

أرأيتم صورة الهول المقتحم في هذا البيت:

لَو اِستَطَعنا لَخُضْنا الجَوَّ صاعِقَةً　　　وَالبَرَّ نارَ وَغىً وَالبَحرَ غِسْلينا

ثم ماذا؟ بقي ختام القصيدة، وهي أبيات ما قرأتها إلا بكيت على أمِّي يرحمها الله، وانظروا كيف هفا قلب الشاعر إلى أمه في حلوان:

كَنْزٌ بِحُلوانَ عِنْدَ اللهِ نَطلُبُهُ　　خَيرَ الوَدائِعِ مِن خَيْرِ المُؤَدّينا
لَو غابَ كُلُّ عَزيزٍ عَنْهُ غَيْبَتَنا　　لَم يَأْتِهِ الشَوْقُ إِلّا مِن نَواحينا
إِذا حَمَلنا لِمِصْرٍ أَو لَهُ شَجَنًا　　لَم نَدْرِ أَيُّ هَوى الأُمَّينِ شاجينا

طيّب الله ثراك أيها الشاعر، ورحم والدي ووالديك، فالدعاء في أعقاب شعرك كالدعاء في أعقاب الصلوات.

الفصل السادس والثلاثون

معارضات أبي نواس

نعقد هذا الفصل للنظر في معارضات أبي نواس، ونريد بهذه المعارضات ما وقع له من المناقضات مع معاصريه، وما أبدع الشعراء من بعض في معارضة قصائده المشهورات، وهذا وذاك يدلان أبلغ الدلالة على سيطرة العبقرية النواسية على أخيلة الشعراء.

ومن الكلام الجيد في تقويم المعارضات الشعرية ما قاله الدكتور أحمد زكي أبو شادي في الجزء الثاني من مجلة (أدبي):

> ليس تعمد معارضة الشعر من الفن الصحيح في شيء، بل هو محض صناعة، والشعر قبل كل شيء عاطفة فكرية عميقة الجذور، لا بهرج سطحي زائف، وقد نقرأ عن بعض الشعراء الممتازين أنه حاول محاكاة شاعر آخر بقصيدة معينة، ولكن الحقيقة أنه تأثر بموسيقاه أو بموضوع القصيدة، فأثار ذلك نفسه الشاعرة، مثال ذلك معارضات البارودي للشعراء المتقدمين، ومعارضة كيتس لسبنسر، وقد كانت تلك المعارضة أو تجربة شعرية لكيتس، فإن تلك المعارضات هي نتيجة الإعجاب بالآثار السابقة، وأثر وحيها في النفس.

ومعنى هذا الكلام أن الشاعر الموهوب لا يتصنع القول حين يعارض شاعرًا، وإنما تنفجر المعاني من نبع القلب، وذا كلام عرفنا صحته حين وازنَّا بين المعارضات، فمن العسير أن نتصور الشاعر مستعبدًا لمن يعارضه، وإن تأثر خطواته في الوزن والقافية والموضوع، والمعارضة في صميمها هي تلاقي روحين وائتلاف قلبين، أو اصطدام نفسين، واقتتال عبقريتين.

فمن المعارضات التي وقعت بائتلاف الذوق والقلب ما وقع بين أبي نواس والخرّاز، فإن أبا نواس لما قال:

يا رِيمْ هَاتِ الدّواة والْقلما　　أَكتُبُ شَوْقي إلى الَّذي ظَلَما
مَنْ صَارَ لا يعْرف الْوصالَ وقدْ　　زاد فؤادي في حُبّه ونما
غَضْبانَ قَد عَزَّني هواهُ وَلَو　　يَسْأَلُ مِمّا غَضِبْتَ ما عَلِما
فَلَيْسَ يَنْفَكُّ مِنهُ عاشِقُهُ　　في جَمعْ عُذرٍ منْ غَيْرِ ما اجتَرَما
لَو نَظَرَتْ عَيْنُهُ إلى حَجَرٍ　　وَلَّدَ فيهِ فُتورُها سَقَما
أَظَلُّ يَقْظانَ فِي تَذَكُّرِهِ　　حَتّى إذا نِمتُ كانَ لي حُلُما

لما قال أبو نواس هذه الأبيات عارضه الخرّاز، فقال:

إنْ باح قَلْبي فَطالمَا كتما　　ما باح حبي جفاهُ منْ ظلما
وَكيْفَ يَقوى على الجفاء فتًى　　قدْ مات أوْ كاد أوْ أرادهُ وما
أشُكُّ أنّ الهوَى سَيَقْتُلني　　مِن غيْر سيْفٍ ولا يُريق دما
كيْف احْتِيالي لِشادنٍ غَنِجٍ　　أصْبح بعْد الوصال قدْ صرما
ما قُلْتُ لمَّا عَلا الصُّدودُ به:　　يا ريمُ هات الدّواة والقلما
لكِنْ سَفَحْتُ الدُّموع مِن حزنٍ　　لمّا تمادى الصُّدودُ ثُمّ نما
إنَّ الرَسولَ الَّذي أَتاك بماً　　أتاك عنّي قدْ حرّف الكلما

وأبيات أبي نواس من الشعر الكريم، وهي من المطمع الممتنع، وفيها ومضات من السحر المبين، وأي غزل أرق وأظرف من هذا البيت الذي يعد من أدق ما قيل في تلوّن الملاح:

غَضْبانَ قَد عَزَّني هواهُ وَلَو　　يَسْأَلُ مِمّا غَضِبْتَ ما عَلِما

وقوله في فتك العيون:

لَو نَظَرَتْ عَيْنُهُ إلى حَجَرٍ　　وَلَّدَ فيهِ فُتورُها سَقَما

وقوله في أخذ الهوى بأحلام المحب:

أَظَلُّ يَقْظانَ فِي تَذَكُّرِهِ   حَتّى إِذا نِمتُ كانَ لي حُلُما

أما أبيان الخرّاز فهي من الشعر المقبول، وليست من الشعر الجيد، وقد ربط فيها بعض المعاني ببعض على طريقة لم تألفها الأذواق العربية، ولولا أنها قيلت في معارضة أبي نواس لما نقلها راوية، ولا حفظها كتاب.

ومن المعارضة التي جرت مجرى المطارحة ما وقع بين أبي نواس وبين العباس بن الأحنف، وكان بين هذين الشاعرين مودة قوية أساسها تبادل الثقة والإعجاب. والحق أن أباس نواس والعباس كانا يقبسان من شعلة واحدة، فقد جمع بينهما العزل والظرف، وصفاء الروح، بالرغم من اختلاف المذهبين، فقد كان أبو نواس متلونًا في الحب يتنقل من فنن إلى فنن، على حين كان ابن الأحنف قد وقف قلبه على هوى واحد، هو محبوبته فوز التي خلد اسمها على الزمان.

حدث حمزة الأصفهاني قال: اجتمع أبو نواس مع العباس بن الأحنف في مجلس فقام عباس لحاجة، فسئل أبو نواس عن رأيه فيه وفي شعره فقال: هو أرقى من الوهم، وأنفذ من الفهم، وأمضى من السهم، ثم عاد عباس وقام أبو نواس كذلك فسئل عنه عباس، وعن رأيه فيه وفي شعره، فقال: إنه لأقر للعين من وصل بعد هجر، ووفاء بعد غدر، وإنجاز وعد بعد يأس. فلما صارا إلى النبيذ أعلم كل واحد منهما قول الآخر فيه، فقال أبو نواس:

إذا ارْتَدْت فَتى الكاسِ   فَلا تَعْدِلْ بِعَبَّاسِ

فقال العباس:

إذا نازَعْتَ صَفْوَ الكاسِ يَوْمًا   أخا ثِقَةٍ فمِثْلَ أبي نُواسِ
فَتىً يَشْتَدُّ حَبْلُ الودِّ مِنْهُ   إذا ما خُلَّةٌ رَثَّت لناسِ

فتناول أبو نواس قدحًا وقال:

أبا الفَضْلِ اشْربن ذا الْكا   سَ إنِّـي شَـارِبٌ كاسـي

فقال العباس:

نَعَم يا أَوْحَدَ النَّاسِ   عَلى العَيْنَيْنِ والرَّاسِ

فقال أبو نواس:

فَقَد حَفَّ لَنا المَجْلـ   ـسُ بالنَّسْرين والآسِ

فقال العباس:

وَإخْـوانٍ بَـهـالـيلٍ   سَراةٍ سادَةِ النَّاسِ

فقال أبو نواس:

وَخَـودٍ لَـذَّةِ الـمَـسْـمـو   عِ مِثْلِ الغُصْنِ الكاسي

فقال العباس:

وَقَد أَلبَسَهَا الرَّحْمـ   ـنُ مِنْ أَحْسَنِ إلباسِ

فقال أبو نواس:

فَقَد زِينَتْ بإكْليلٍ   يَواقِيتٍ عَلى الرَّاسِ

فقال العباس:

فَلا تَحْبِسْ أخي كَأسًا   فَـإنِّـي غَـيْـرُ حـبَّـاسِ

قال الأصفهاني: فكأن ما نُسي من معارضتهما أكثر مما حفظ.

ويذكرنا بهذه المطارحة ما وقع بين إسماعيل صبري وخليل مطران، فقد مشى يومًا صبري باشا بأحد شوارع القاهرة، فرأى مطران يشرب الصهباء على قارعة الطريق فقال صبري باشا: يا مطران، لا يليق بمثلك أن يشرب تحت أبصار الناس، فابتدره مطران، وقال:

وَهَل يَضيرُ المَجْدَ أن أشْرَبا   وَأجْعَلَ الـحانَةَ لي مَلْعَبا

فطرب صبري باشا، وقال:

وأن يراني كُلُّ مَنْ مَرَّ بي   وَسْطَ الدَّياجي حامِلًا كَوْكَبا

كذلك حدثنا الأستاذ إبراهيم الدباغ، فلما لقيت الشاعر مطران سألته عن القصة، فقال: كان يقع لنا من ذلك شيء كثير، أما أنتم يا شعراء هذا العصر، فقد بددت الشواغل أحلامكم، ولم يبق لكم من روعة المطارحة نصيب ... وقد صدق مطران!

واتفق يومًا أن لقي مسلم بن الوليد رسولًا لأبي نواس يحمل رقعة إلى عنان، وفيها هذه الأبيات:

لا تَـأمَـنِـنَّ عَـلَـى سِـرِّي وَسِـرَّكُـمُ   غَيري وغيرك أوْطَيَّ القَراطيسِ
أو طَيْرَ فَيْروذَج[1] إنِّي سَأبْعَثُهُ   قَدْ كانَ صاحبَ تَأليفٍ وتَدْسيسِ
وَكـان هَـمَّ سُـلَـيْـمـانٌ لـيَـذْبَـحَـهُ   لولا قَـيادَتُـهُ فـي أَمْـرِ بَـلْـقـيـسِ

[1] هو الهدهد بالفارسية.

فأخذ مسلم الرقعة من الرسول وخرقها فانصرف الرسول إلى أبي نواس فأخبره بما صنع مسلم برقعته، فقال أبو نواس:

لَمْ يَقْوَ عنْدي عَلَى تَخْريقِ قِرْطاسي ... إلا فَتًى قَلْبُهُ من صَخْرَةٍ قاسي
إنَّ القَراطيسَ في قَلْبي بِمَنْزِلَةٍ ... كَمَوضعِ السَّمْعِ والعَيْنَيْن والرَّاسِ
لَولا القَراطَيسُ ماتَ العاشِقونَ مَعًا ... هـذا بِـغَـمٍّ وَهـذاكُـمْ بِـوَسْـواسِ
فَلَيْتَ أنَّ إمامَ النَّاسِ سَلَّطَني ... فَلَمْ أدَعْ خارِقًا فيهِمْ لِقِرْطاسِ
حَتَّى أصَبِّحَهُ مَن حَيْثُ مَأمَنُهُ ... كَأسًا مِنَ المَوْتِ لَمْ يَسْلَمْ لَهُ حاسي
ما أعْجَبَ الحارِقَ القِرْطاسَ أقَرأهُ ... يَأسًا فَحَرَّقَهُ مَن حَيْرَةِ الياسِ
مـاذا عَلَـيْكَ إذا أَحْبَبْتَ كاتِبَهُ ... ما كانَ في بَطْنِهِ يا أحْمَقَ النَّاسِ
ألَيسَ قَدْ مَشَقَتْ فيهِ أنامِلُهُ ... وجَـازَ أقْـلامُـهُ فـيـهـا بِـأنْـفـاسِ

وبلغت هذه الأبيات مسلمًا فعارضه فقال:

يا مَنْ يَلُومُ على تَخْريقِ قِرْطاسِ ... كَمْ مَرَّ مِثْلُكَ في الدُّنْيا عَلى راسي
الحَزْمُ تَخْريقُهُ إن كُنْتَ ذا حَذَرٍ ... وإنَّما الحَزْمُ سوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ
فَشُقَّ قِرْطاسَ مَنْ تهوَى صيانَتَهُ ... فَرُبَّ مُفْتَضحٍ في خَطِّ قِرْطاسِ
إذا أتَـاكَ وَقَـدْ أدَّى أمـانَـتَـهُ ... فاجْعَلْ كَرَامَتَهُ في بَطْنِ أرْماسِ
وشُقَّ قِرْطاسَ مَنْ تَهوَى وكُنْ فَطِنًا ... كَمْ ضُيِّعَ السِّرُّ في حِفْظٍ لِقِرْطاسِ

فأجابه أبو نواس:

مـاذا أرَدْتَ إلـى تَـخْـريـقِ قِـرْطـاسـي ... هَل كانَ عِنْدَكَ في القَرْطاسِ مِنْ باسِ؟
سَبَبْتَ كاتِبَهُ مِنْ غَيرِ ما سَبَبٍ ... هَلْ كانَ فيهِ سِوَى شَكْوَى إلى ناسي؟
كـتَـبْـتُ أشْـكـو بِـلـيَّـاتـي فـسـاءَكُـمـو ... ما يَذْكُرُ النَّاسُ مِنْ شَوْقٍ إلى النَّاسِ

وهذه المعارضة تبدو تافهة لمن ينظر فيها وهو خالي الذهن من ألوان الحياة لذلك العهد، ولكن الذين سايروا تطور التقاليد الأدبية يرون مسألة الرسائل الغرامية كانت يومًا من المشكلات، حتى صح لمثل أبي محمد بن حزم أن يعقد لها فصلًا في طوق الحمامة، ولو كانت هذه المسألة من التوافه لما اهتم بها ذلك الإمام الجليل.

والحق أن تاريخ الأدب عرضة للطمس إذا حكمنا فيه ذوق الناس في هذا العصر، فأهل هذا الزمان يتصنعون الوقار، ويتكلفون الاحتشام، وتبدو منهم بدوات تنقلهم إلى عوالم لا تعرف المجون مع أن حياتهم في صميمها ملوثة بعيب أشنع من المجون، وهو الرياء.

ولكن مهلًا. من الذي يحكم بأن من العبث أن يكون للرسائل الغرامية أدب يحرص عليه مثل مسلم بن الوليد؟ ألسنا نرى في أيامنا هذه كيف تقدم الرسائل الغرامية إلى المحاكم لتكون من أقوى الأسانيد، وتثبت بها حقوق تصل أحيانًا إلى المواريث؟

إن النفس الإنسانية تظل مجهولة ما لم تكشف عنها الصغائر في حيوات الناس، وأكثر من ترون من العظماء هم أطفال في عالم الحب، وقد تكون تلك الطفولة هي أساس العظمة عند من يفقهون.

ألم تر كيف كان فيكتور هوجو يتكلف الحب ليعرف بعض ما يجهل من أسرار القلوب؟

ألم ترك كيف كان جوته يتكلف الحب ليعرف المستور من خلائق النساء؟

ليس العلم كل العلم أن ترعى في بيتك طائفة من الحشرات لتعرف كيف تصح، وكيف تمرض، وكيف تحس، وكيف تعقل، وكيف تحيا، وكيف تموت. ليس هذا كل العلم، وإن ضاعت فيه أعمار وبددت في سبيله أموال، وأنشئت من أجله معاهد وكليات. للعلم ميادين أعلى وأشرف، هي ميادين السرائر والقلوب، وهي ميادين لا يعرفها غير الشعراء.

الفصل السابع والثلاثون

بين أبي نواس وابن المعتز والخليع

كان من حظ أبي نواس أن يسيطر على أهل عصره، وأن يتخطى زمانه فيسيطر على أخيلة الشعراء من جيل إلى جيل، وكان أهم ما اشتهر به وصف الصهباء؛ وإنما برع في هذا الفن لأنه نشأ في العراق، والعراق منذ الزمن القديم قطر مرح طروب، استطاع أن يكون ملتقى الروحين العظيمين: روح العرب وروح الفرس، ولو نشأ أبو نواس في بلد مثل مصر لما استطاع أن يظفر بكل هذه الشهرة الأدبية: لأن مصر لم تكن من الأقطار ذوات الخطر في صنع الخمر، ولم يكن أهلها يومًا من كبار الشاربين، وإن زعموا أنها تفردت بشراب «المريوتيك» الذي أسكرت به كليوباترا من أسكرت من عشاقها الأبطال.

ولم يكن لمصر شأن يذكر في زراعة الأعناب؛ لأن جوّها لا يصلح كثيرًا لصنوف العنب الجيد الذي يحمل أهلها على الاهتمام بصناعة الخمر، على نحو ما يتفق ذلك في بعض الأقطار الشرقية والغربية، ومن أجل هذا ظل المصريون أجيالًا طوالًا وهم لا يعرفون من الخمر إلا صنوفًا رديئة يحتفظ بها جماعة من الأقباط توارثوها عن أجدادهم، فكانوا شرّ ورثة لأقبح ميراث!

ولا كذلك العراق، فقد عرف الخمر منذ عهد الآشوريين والكلدانيين وظل يفنن في تقطيرها أظرف افتتان. وقصائد ابن الرومي في وصف العنب تدل على أن العراقيين كانوا ينظرون إلى العنب نظرة تقديس؛ لأنهم كانوا يتمثلون فيه ما يضمر من أسرار الصهباء.

وحرمان مصر من جيد الخمر يشرح جانبًا مهمًّا في حياتها العقلية، فقد نبغت مصر نبوغًا عظيمًا في التأليف، وكانت هي القطر الإسلامي الوحيد الذي أنتج أعظم المؤلفات في الأدب واللغة والتاريخ والتشريع؛ وإنما كان الأمر كذلك لأن «الصحو» من أقوى الشواهد على سلامة العقل، أما الأقطار العربية التي عرفت الخمر، فكانت لها

ميادين غير التأليف، كان لها الشعر والخيال، على نحو ما نرى في الأندلس، والشام، والعراق.

وهذا الحكم لا نريد به التعميم، فمن التعسف أن نقول: إن الشعر انعدم في مصر، أو أن التأليف انعدم في غير مصر، لا، وإنما نحكم بأن الخصائص الأساسية تختلف هنا وهناك، فالمصريون يعيشون في بلد محافظ على التقاليد منذ خلق، فلم يكن فيهم فاجر، ولا زنديق، على نحو ما توثب الفجور واستطارت الزندقة في بلد مثل العراق.

والشاهد أمامي واضح صريح: هو هذه الهمزيات الثلاث لابن المعتز والخليع، وأبي نواس، ففي هذه القصائد أخيلة يجهلها المصريون.

وإليكم الحديث.

وصف أبو نواس الخمر فقال:

دَعْ عَنْكَ لَوْمي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْراءُ   ودَاوِني بالَّتي كانَتْ هيَ الدَّاءُ

وعارضه الخليع فقال:

بُدِّلْتَ مِنْ نَفَحَاتِ الْوَرْدِ بِالآءِ[1]   وَمِنْ صَبُوحك دَرَّ الإِبْلِ والشَّاءِ

وعارضه ابن المعتز فقال:

أَمْكَنْتُ عاذِلَتي مِنْ صَمْتِ أَبَّاءِ   ما زادَهُ النَّهْيُ شَيْئًا غَيْرَ إِغْراءِ

والشاهد هنا هو المشكلة التي أثارتها الهمزية النواسية، فأغلب الظن أن أبا نواس لو خاطب بها أهل مصر لخاطبهم بما لا يفهمون، ولكنه خاطب أهل العراق فخاطب قومًا يعرفون من الخمر ما يعرفون.

كانت همزية أبي نواس من المشاكل العراقية، وكانت الموازنة بينها وبين همزية ابن الضحاك مما يشغل الناس، ومضى الحديث إلى مكة، مكة المكرمة التي شرعت

[1] الآء: ثمر شجر، واحدته آءة. قال الفيروز آبادي: وأوت الأديم دبغته به، والأصل: أوت فهو مؤه، والأصل مأووء.

للعالم بغض الصهباء، نعم في مكة وجدوا فقيهًا يفصل بين همزية ابن الضحاك، وهمزية أبي نواس.

انظروا في هذا، واسألوا أنفسكم: أيمكن نقل الحديث من مكة المكرمة إلى الأزهر الشريف؟

هيهات، هيهات!

وإنما جاز في مكة ما لم يجز في مصر؛ لأن مصر كما حدثتكم لا تعرف الخمر، وإن كان الخواجة خرالمبو فتح فيها عشرات الحانات.

مصر فضولية في شرب الشمول، ومن الخير أن تقف حيث أقامها الله، فلا تقول: هات وهاك!

لا تحسبوني أمزح، فالمصري لا ينقع غلته غير الماء القراح، وقد ترونه في مجالس السلاف يصرخ فجأة في طلب كوب من الماء، والطبيعة الأصلية تميز خصائص الشعوب.

ما هذا؟ أتصدقون أنني أهرب من الهمزيات الثلاثة؛ لأني لا أجد من الحماسة لنقدها بعض ما وجد أدباء العراق.

ولنواجه الموضوع فنقول:

همزية أبي نواس لا تزيد على عشرة أبيات، ولكنها تحدثنا عن أمور جوهرية في حياة العراق، تحدثنا أولًا عن قيمة الخمر في العلاج، وهي عادة عراقية، وجدت من قبل عند العرب في الجاهلية، فقد رووا أن الأعشى قال:

وَكَاسٍ شَرِبْتُ عَلَى لّذَّةٍ وَأُخْرَى تَداوَيْتُ منْها بها

وكان الأعشى شاعرًا فاجرًا عرف الخمر والنساء. ومشت به شهواته إلى الحدود الفارسية فنقل من تقاليد الفرس ما شاء.

فجاء أبو نواس وأفصح عن عادات قومه أبرع إفصاح حين قال:

دَعْ عَنْكَ لَوْمي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْراءُ ودَاوِني بالَّتي كانَتْ هيَ الدَّاءُ

وبين الأعشى وأبي نواس تفلسف مجنون بني عامر فقال:

تَدَاوَيْتُ مِنْ لَيْلَى بِلَيْلَى مِنْ الهَوَى كَما يَتَداوَى شَاربُ الخَمْرِ بالخَمْرِ

والتداوي بالخمر يراه أهل مصر من المشكلات، وله فتوى في العدد الأخير من مجلة الأزهر ختمها المفتي بعبارة «والله أعلم» كأن الله لم يهد خلقه إلى بعض أسرار الصهباء.

وتحدثنا الهمزية ثانيًا عن عادة اجتماعية كان لها خطر في بغداد، وتلك العادة هي إلباس الجواري ملابس الغلمان، والظاهر أن الفتنة في عالم الجمال لم يكن يراها البغداديون المترفون إلا في تلك الثياب، فكانت الجارية لا تملح إلا مذكرة، ولهذه النزعة المقلوبة بقايا في أدب أهل الشرق والغرب فقد حدثنا الأستاذ لطفي جمعة في رواية (عائدة)، التي نشرها في (البلاغ) أن محبوبته في السويس لبست ثياب الفتى فبدت له جميلة جدًّا، واندفع يقبلها بعنف حتى أدمى خديها بالتقبيل.

وقد رأينا بأعيننا بعض الفتيات في أوروبا يلبسن ملابس الفتيان، فإن لم يكن هذا بدعًا حديث العهد، فهو إذن بقية من عبث أهل بغداد القدماء الذين أطغاهم الغنى والملك.

وهذا بيت أبي نواس:

مِنْ كفٌ ذاتِ حِرٍّ في زِيِّ ذي ذَكَرٍ لَـهـا مُـحِـبَّـانِ لُـوطِـيٌّ وَزَنّـاءُ

والدعارة واضحة في هذا البيت، ولكن ناقل الكفر ليس بكافر، وناقل الفسق ليس بفاسق.

وتحدثنا الهمزية ثالثًا بأن فسقة بغداد كان عندهم نزعة صوفية ترمي إلى الاعتماد على عفو الله، ومن الصوفية من يرى من الإثم أن تتخوف من الذنوب:

لأن التخوف من الذنب يشعر بأنك تعتد بالأعمال، والاعتداد بالأعمال ينافي أدب الأبرار، وذلك ما عناه الفاجر أبو نواس حين قال:

لا تحْظُر العَفْوَ إن كُنْتَ امرًا حَرجًا فَـإنّ حَـظْـرَكَـهُ بِـالـدِّيـنِ إزْراءُ

تلك هي الأمور التي أفصح بها أبو نواس عن بعض الأحوال الاجتماعية في بغداد، فلم يبق إلا النص على ما في قصيدته من المعاني الشعرية.

ونبادر فنذكر أن النقاد القدماء أجمعوا على سبقه بهذا البيت:

صَفْراءُ لا تَنْزِلُ الأحْزانُ سَاحَتَها لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ

أما نحن فنستجيد قوله في الراح:

فأرْسلَتْ مِنْ فَمِ الإبْريق صافيَة كَأنَّما أَخْذُها بِالعَيْنِ إغْفَاءُ
جَفَّتْ عَنِ الماءِ حَتَّى ما يُلائِمُها لَطافَةً وَجَفا عَنْ شَكْلِها الماءُ
فلَوْ مَزَجْتَ بها نُورًا لَمَازَجَها حَـتَّـى تَـوَلَّـدَ أنْـوارٌ وأَضْـواءُ

وهذه الأبيات في غاية من الجودة، وللقارئ أن يتأمل هذه الشطرة:

كَأنَّما أَخْذُها بِالعَيْنِ إغْفَاءُ

فهي كلمة شاعر مبدع يتمثل الصور الشعرية تمثل الشاعر الفنان.

وفي البيتين الآخرين تنزيه للخمر عن ملابسة الماء، ورجعها إلى التوافق مع عنصر أشرف هو عنصر النور، وهذا معنى لا يلتئم إلا مع خمر الفردوس.

أما قوله:

دارَتْ عَلَى فِتْيَةٍ دَانَ الزَّمانُ لهُمْ فَما يُصِيبُهُمُو إلاّ بِما شاءوا

فهو صورة لجماعة من الندمان الفتيان الذين مكنهم الغنى والشباب من ناصية الزمان، وأبو نواس الفاجر يرى أعداء الرح من الجاهلين، ويقول:

فقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي في العِلْمِ فَلْسَفَةً حفِظْتَ شَيْئًا وَغابَتْ عَنْك أشْياءُ

وهي سخرية لو يجه مثلها إلى أهل التقى والعفاف.

تلك همزية أبي نواس، فاذا قال الخليع الحسين بن الضحاك؟

لقد بدأ فسخر من العرب الذين يقنعون بألبان الإبل والشاء بين أشواك البادية، فقال:

بُدِّلْتَ مِنْ نَفَحَاتِ الْوَرْدِ بِالآءِ وَمِنْ صَبُوحك دَرَّ الإِبْلِ والشَّاءِ
ما بَيْنَ بَطنِ ثَبيرٍ إنْ حَلْتَ بِها إلى الفَراديس إلَا شَّوْبُ أقْداءِ
فَعَدِّ هَمَّكَ عنْ جِلْفٍ تُمارِسُهُ جِلْفٍ تَلَفَّعَ طِمْرًا بَيْنَ أحْناءِ

والسخرية من العرب ومعايش العرب نزعة شعوبية كان لها في ذلك العهد مجال، فكان أبو نواس وندماؤه من شياطين بغداد لا يملون القدح في شمائل الأعراب، وكانت السخرية من الأزهار البدوية والأشواك البدوية هي الفاتحة والخاتمة لكل قصيد، وكذلك صح للخليع أن ينقل نديمه إلى حياة الحضارة فيقول:

فَفي غَدٍ لَكَ مِنْ زَهْراءَ صافَيِةٍ بِطَيْرِ ناباذَ ماءٌ لّيْسَ كالْماءِ
مِمَّا تَخَيَّرَ أُولاها وَأَوْدَعَها ربُّ الخَوَرْنَقِ في جَوْفاءِ مَيْثاءِ
راحَ الفُراتُ عَلَيْها في جَداوِلِهِ وَباكَرَتْها سَحاباتٌ بِأَنْواءِ

وقد أطال الخليع في قصيدته إطالة ممّلة تملّنا نحن المصريين، ولكنها تمتع أمثال العراقيين. فقد وصف تنقل الراح من عهد إلى عهد، وسره أن تدفن في الأرض، وأن تمر عليها أزمان وهي سر مكنون، فلننس ما لا نعرف من تلك العهود، ولننتقل إلى عهدها الأخير بعد أن رأت نور الوجود:

فُضَّتْ خَواتمُها في نَعْتِ واصِفِها عَنْ مِثْلِ رَقْرَقَةٍ في جَفْنِ مَرْهاء[٢]
لَمْ يَبْقَ مِن شَخْصِها إلّا تَوَهُّمُهُ فَالشَّيءُ مِنْها إذا اسْتَثْبَتَّ كَاللّاءِ[٣]
تُمازِجُ الرُّوحَ في أخْفَى مَداخِلِهِ كَما تَمازَجُ أنْوارٌ بأَضْواءِ

[٢] المرهاء، هي التي أبيضت حماليق عينها.

[٣] اللاء هنا السراب.

لا يُدْرِكُ الحِسُّ مِنْها حِينَ تَبْعَثُها إلا التَّنَسُّمَ أو لَدْغا بِأَحْشاءِ
يَحْكي تَطَوُّقُها بِالْكأْسِ مِنْ ذَهَبٍ طَوْقًا أطافَتْ بِه واواتُ عَسْراءِ
ثُمَّ اسْتَحالَ لَها دُرٌّ فَعَرَّشَهُ حَتَّى اسْتَقَلَّ لَها عَرْشٌ عَلى الْماءِ
عرْشٌ بِلا طُنْبٍ مِنْ فَوْقِه زَبَدٌ قَدْ جَلَّ عَنْ صْفَةٍ في حُسْن لألاءِ
لا يَسْتَطيعُ سَنا نور لَها نَظَرًا حَتَّى تَعودَ لَهُ لَحْظاتُ حَوْلاءِ
كَأَنَّ تأليفَ ما حاكَ المِزاجُ لَها سَلْخٌ تُحَلِّلُهُ عَنْ ظَهْرِ رَقْشاءِ
لا شَيْءَ أحْسَنُ مِنْها في تَصَرُّفِها مَنْ كفِّ مُخْتَلِجِ الأعْطافِ وَضَّاء

هذه الأبيات تخيرناها تخيرًا، ولو عرضنا هذه القصيدة كاملة لبدت فيها أشياء لا يفهمها أهل هذا الجيل.

ونحن لا نستسيغ اليوم وصف الخمر بأنها بدت مِثْلِ رَقْرَقَةٍ في جَفْن مَرْهاء، ولا يسرنا أن يكون الحبب ألف فوقها صورة تشبه ظهر الحية الرقشاء، ولكنها تستظرف وصف الراح بأنها تمازج الروح في أدنى مداخله ممازجة الأنوار للأضواء، ولعل هذه الصورة هي أجمل ما في قصيدة الخليع.

ولا ننس النص على أن الخليع ختم قصيدته بغمز العرب فقال:

هذا النَّعيمُ ولا عَيْشٌ نَكونُ بِهِ هِنْدٌ بِرابيةٍ مِنْ بعْدِ أَسْماءِ[٤]

فكانت الفاتحة والخاتمة من النزوات الشعوبية.

بقي ابن المعتز، فماذا قال:

إن ابن المعتز جرى في همزيته مجرى الفتك فانطلق يحدث عن صبواته حديث الغويّ المفتون، ويقول:

[٤] أسماء اسم أمرأة أصلها وسماء من الوسامة وهي الحسن الثابت. قلبت الواو همزة فوزنها فعلاء.

أمْكَنْتُ عاذِلَتي مِنْ صَمْتِ أُبَّاءِ ... ما زادَهُ النَّهْيُ شَيْئًا غَيْرَ إغْراءِ
أَيْنَ التَّوَرُّعُ مِنْ قَلْبٍ يَهيمُ إِلى ... حاناتِ قُطْرُبُّلٍ بِالعودِ وَالناءِ[٥]
وَصَوْتِ فَتَّانَةِ التَغْريدِ ناظِرَةٍ ... بِعَيْنِ ظَبْيٍ يُريدُ النَومَ حَوْراءِ
جَرَّتْ ذُيولَ الثِّيابِ البيضِ حِينَ مَشَتْ ... كَالشَّمسِ مُسْبِلَةً أَذْيالَ لَألاءِ
وَقَرْعِ ناقوسِ دَيْرِيٍّ عَلَى شَرَفٍ ... مُسَبِّحٍ في سَوادِ اللَّيلِ دَعَّاءِ[٦]
وَكَأسِ حَبرِيَّةٍ شَكَّت بِمَبْزَلِها ... أَحْشاءَ مُشْعَرَةٍ بِالقارِ جَوْفاءِ

والبيت الأول مولد من صدر قصيدة أبي نواس، والبيت الثالث بيت عذب والمعنى فيه قديم، ولكنه ورد في معرض طريف، أما البيت الرابع فهو تحفة؛ لأنه جعل محبوبته في الثياب البيض كالشمس تسبل أذبال الألاء، وفي البيت الخامس حنين إلى النواقيس، ولكن أي حنين؟ أهو حنين الخاشعين؟ هيهات، إنه حنين الفجرة الذين كانوا يتخذون الديرة ملاعب صبابة ومجالس سلاف.

ثم مضى يذكر أعمار الخمر فقال:

جاءَتْ بِها حُفُلُ الأثْمارِ يانِعَةٌ ... بِطَيْزِنا باذاوْ كُوشَى وسوراءِ[٧]
تَرفو الظِّلالَ بِأَغْصانٍ مُهَدَّلَةٍ ... سودِ العَناقيدِ في خَضْراءَ لَفَّاءِ
أَجْرَى الفُراتُ إِلَيها مِن سَلاسِلِهِ ... نَهرًا تَمَشَّى عَلى جَرعاءَ مَيْثاءِ[٨]
وَطافَ بَكْلَؤُها مِن كُلِّ قاطِفَةٍ ... راعٍ بِعَينٍ وَقَلبٌ غَيرُ نَسَّاءِ
مُوَكَّلٌ بِالمَساحي في جَداوِلِها ... حَتَّى يَدُلَّ عَلَيْها حَيَّةُ الماءِ[٩]
فَآبَ في آبَ يَجنْيها لِعاصِرِها ... كَأَنَّ كَفَّيهِ قَد عُلَّتْ بِحَنَّاءِ
فَظَلَّ يَركُضُ فيها كُلُّ ذي أَشَرٍ ... قاسٍ عَلى كَبِدِ العُنْقودِ وَطّاءِ

[٥] الناء هو الناي.
[٦] دعاء. كثير الدعاء.
[٧] كل هذه أسماء أماكن.
[٨] الجرعاء: الرملة الطيبة المنبت، والميثاء: اللينة.
[٩] المساحي: الأراضي المهيأة للزرع.

ثُمَّ اِستَقَرَّت وَعَينُ الشَمْسِ تَلفَحُها　　في بَطْنِ مَخْتومَةٍ بِالطِّينِ كَلْفاءِ
حَتَّى إِذا بَرَدَ اللَّيلُ البَهيمُ لَها　　وَبَلَّها سَحَرٌ مِنْهُ بِأَنْداءِ
صَبَّ الخَريفُ عَلَيها ماءَ غادِيَةٍ　　أَقامَها فَوقَ طينٍ بَعْدَ رَمْضاءِ
تِلْكَ الَّتي إِنْ تُصادِفْ قَلْبَ ذي حَزَنٍ　　تُجْزِلْ عَطِيَّتَهُ مِنْ كُلِّ سَرَّاءِ
يَسْقيكَها خَنِثُ الأَلحاظِ ذو هَيَفٍ　　كَأَنَّ أَجْفانَهُ أَفرَقنَ مِن داءِ

وجملة القول: إن هؤلاء الشعراء ركضوا في ميدان واحد، فوصفوا الخمر والسقاة وصفًا يختلف بعض الاختلاف، وكان أقصرهم نفسًا أبو نواس، ولكنه كان أعرفهم بأسرار الصهباء.

والقصيدة الوحشية هي قصيدة الخليع فقد أكثر فيها من التعمل والافتعال، فظلت سجينة لا يعرفها من الناس غير أهل العراق، وقد وقع ابن المعتز في بعض ما وقع فيه الخليع، فأخذ يؤرخ الخمر يوم كان لها تاريخ، فأصبحت قصيدته غريبة في زمن تكتهل فيه الصهباء وهي بنت يوم واحد؛ لأن أهل هذا الزمان عرفوا من العناصر، ما لم يعرفه الأقدمون واستطاع آثمهم أن يكوي الصهباء فيردها نارًا تأكل الهشيم من أحلام الرجال.

أما أبو نواس فقد وقف عند المعاني الفطرية التي يعرفها الناس في جميع البلاد، وكذلك ظلت قصيدته موصولة الأواصر بأرباب الأذواق. وأجود الشعر ما استطاع مداعبة القلوب في كل أرض وفي كل جيل.

الفصل الثامن والثلاثون

أقطاب الموازين

١

رأى القارئ طائفة من الآراء في نقد الشعر والموازنة بين الشعراء، وهي آراء ذاتية لمؤلف هذا الكتاب.

فمن الخير أن نضيف إلى هذه الطبعة فصلًا نبّين به فضل من سبقونا إلى الموازنة بين الشعراء، وأظهر أولئك الباحثين رجلان: أحدهما من رجال القرن الرابع، وثانيهما من رجال القرن الرابع عشر.

أما الأول: فهو أبو الحسن الآمدي صاحب كتاب «الموازنة بين الطائيين: أبي تمام والبحتري»، وهو باحث عظيم فصّلت الكلام عليه تفصيلًا في الجزء الثاني من كتاب «النثر الفني[١]» فليرجع إليه القارئ إن شاء، فمن تبديد الوقت أن أعيد هنا ما فصلته هناك.

وأما الثاني: فهو أستاذي، وصاحب الفضل عليّ: المغفور له الشيخ محمد المهدي بك، وكان أديبًا نادر المثال، ولكن لم ينشر له شيء، وقد فصّلت آراءه الأدبية في الجزء الأول من كتاب «البدائع[٢]»، ولكن بقي مجالٌ للقول في ذلك الباحث الجليل، فإني لم أكتب عنه في «البدائع» إلا الصور الرائعة من أسلوبه في الدرس، ومذهبه في الحياة الاجتماعية، وهنا أستطيع أن أبين كيف كان يوازن بين الشعراء، وأستطيع أن أنشر

---

[١] انظر الصفحات ٨٢–٩٣.

[٢] انظر الطبعة الثانية ج ١ ص ١–١٨.

إحدى موازناته في هذا الكتاب؛ لأن آثاره مع الأسف لن تنشر أبدًا، ولن يفرغ تلاميذه من شواغل دنياهم حتى يقدموا لذكراه ما يجب من الوفاء، كان الشيخ المهدي يوازن في دروسه بين الكتاب والخطباء والشعراء، وكان يوازن بين العصور الأدبية.

أما موازناته بين الشعراء فكانت كثيرة جدًّا، وأظهرها الموازنة بين زهير والأعشى[٣]، وأما موازناته بين الخطباء فأذكر منها قوله في الموازنة بين قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي، وهو يقول:

الموازنة بينهما من جهات:

الجهة الأولى: الموضوع، ونرى أن موضوع قُس لا يكاد يتخطى الموعظة بالموت، وتوجيه الناس إلى توحيد الله، ونبذ ما هم عليه من عبادة الأصنام، وأما أكثم فإنه يزيد عن هذا نصح قومه في مسائل الدنيا، ونصح ذريته، وتوجيههم إلى طرق الخير مفصلة.

الجهة الثانية: العبارة، والفرق فيها بينهما ظاهر، فإن عبارة قسّ عبارة البديهة، وإن كانت مسجوعة، فهي العبارة الصالحة للدهماء، وهي بمقام الخطبة أليق: لسهولتها، ووضوح معناها، وأخذ بعضها بحجز بعض في طريق المقصد الذي يريده، وهي تكاد تكون مغسولة من الأمثال والحكم.

وأما عبارة أكثم فهي عبارة منتقاة يكثر فيها المجاز والكناية والأمثال والحكم، فهي مجموعة مختارات جيدة تكاد تكون عديمة النظير؛ فهي أشبه بكلام الحكماء، ولا غرو فقد كان أكثم حكيمًا محكمًا عالمًا بالأنساب، وقد أثر عنه ما قال في آخر حياته وهو خلاصة تجاربه، فعبارته في نظر عشاق المعاني والبلاغة والإيجاز أعلى، وعبارة قس في نظر الخطباء وأهل الدعوة أليق وأبلغ، وإن شئت قلت: عبارة قس أخطب، وعبارة أكثم أحكم.

الجهة الثالثة: المعاني — والفرق بينهما جَليٌ أيضًا، فإن معاني قس عامة قليلة، نظرية، ليس فيها توليد، ولا كذلك معاني أكثم: فإنك تجدها كثيرة مفصلة في ضروب عدة، وكلاهما يكرر المعنى ويرادف، وهذا شأن الخطباء: إذا أرادو تَثبيت ما يدعون إليه.

[٣] عندي صورة من هذه الموازنة.

الجهة الرابعة: حال الخطيبين — فإن قسًا كان يخطب للعرب كافةً وهو راكبٌ حَمَله، ويشير بيده وبالمخصرة، ويفصل الكلام بـ (أما بعد) وينقلب في البلاد لهذا، حتى طار ذكره واشتهر في الخافقين قَدره؛ وكان من أمره أن ذكره النبي ﷺ وقرظه.

وأما الثاني فقد كان يخطب قومه، ويتحرى العقلاء منهم، ويقول: «لا تحضروني سفيهًا»، ولم يؤثر عنه ما أثر عن قس في موقفه ولباسه، واستعداده — فيما أعلم — من هذه الجهة أعرق في الخطابة.

الجهة الخامسة: أن قسًا كان يقول الأشعار من روح خطبته سهلة متقَبلةً تنحفظ إذا لم يحفظ الكلام، وكان أكثم يستعين بالأمثال لحمالها وقصرها، وبالرائع من الحكمة كذلك، ولا يخفى أن الشعر البين السهل إنما هو للدهماء، وهو أليق بمقام الخطابة، وأن الأمثال الحكيمة التي تحتاج إلى رويّة في فهمها إنما هي للخاصة، وهي لا تفيد إلا في الخطب الخاصة، وعلى هذا يكون قس أخطب، وأكثم أحكم، وكذلك لم تكن هنالك غرابة في شهرة قس بالخطابة، مع أن كلام أكثم فيها أبلغ في نظر الحكماء، ومن يتعشقون الجزل الموجز الدقيق المعنى، الرصين المبنى.

ثم أشار الأستاذ رحمه الله إلى أنه كان يود أن يقارن بين الكلام المشترك، ولكنه لم يجد من الوشاهد ما يروي الغلة، فاكتفى بالحكم بأن الأول كان يتكلم عن سجية، وأن الثاني كان يتفنن ويدقق ويحكم، وكذلك كان لكل منهما منزع وطريق.

٢

وأما موازناته بين العصور الأدبية فهي كثيرة جدًّا، وليس تحت يدي الآن إلا كلمة قصيرة عن بيان حال الشعر في زمن البعثة، والخلافة الراشدة. قال:

إذا أردنا أن نتعرف حال الشعر في صدر الإسلام وجب علينا أن نلمح ما كان له من المكانة قبل ذلك، ثم نكشف عن مكانته الثانية؛ لتتجلى صورتاه في المكانتين، ويعرف شأنه في الزمانين، فنقول:

كان الشعر في الجاهلية يسير مع السيف في الدفاع عن الأعراض والأحساب والذود عن البَيْضة، فكما يغير الفارس برمحه وحسامه، يُغير

الشاعر بقافيته وإنشاده، فإذا فت السيف في الأعضاء، فتّ الشعر في القلوب، وإذا أصانب النبال بنبله الجسوم، أصاب الشاعر بكلماته النفوس بتخذيل الأعداء، وتحميس الأولياء، فإذا نظرنا إليه بعد الإسلام من هذه الجهة وجدناه مائلًا فيها لم يتزحزح عنها.

فقد روي أن النبي ﷺ قال ليلة وهو في بعض أسفاره: أين حسان بن ثابت؟ فقال حسان: لَبْيك يا رسول الله وسَعْديك. قال: أحْد، فجعل ينشد ويُصغي إليه، فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى فرغ من نشيده، فقال ﷺ: لهذا أشدّ عليهم من وقع النبل.

وقد كان حسان ينافح عنه، ويشجع قومه، ويخذل عدوه.

وقد بلغ من أمر حسان أن بنى له النبي ﷺ منبرًا في مسجده ينشد عليه الشعر.

وكذلك القول في عبد الله بن رَوَاحَة الذي شهد العقبة وبدرًا والمشاهد كلها إلا الفتح، ومات في غزوة مؤتة، فقد كان النبي ﷺ يرتجز بعض رجزه في تلك الغزوة، وهو قوله حينما أصيبت إصبعه:

هَلْ أنْتِ إلّا إصْبَعٌ دِميتِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتَ
يَا نَفْس إنْ لَا تُقْتَلِي تَمُوتِي هَذِي حِيَاض الْمَوْت قَدْ صَلِيت
وَمَا تَمَنَّيْت فَقَدْ لَقِيتِ إنْ تَفْعَلِي فِعْلهمَا هُدِيت[٤]

وكذلك الشأن في كعب بن مالك الأنصاري، الذي كان يعارض ابن الزِّبَعْرى من شعراء المشركين، ويدافع مدافعة من ملأ قلبه اليقين، ومنه قوله في قصيد طويل ذكره ابن هشام في سيرته في يوم الخندق:

وَمَوَاعِظٍ مِنْ رَبِّنَا نَهْدي بِهَا بِلسانٍ أزْهَرَ طِيِّبِ الأَثْوابِ
عُرِضَتْ عَلَيْنا فَاشْتَهَيْنا ذكْرَهَا مِنْ بَعْد ما عُرِضَتْ عَلَى الأَحْزابِ

[٤] يريد صاحبيه اللذين استشهدا قبله، وهما: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب.

حكَمًا يَرَاهَا المُجْرِمونَ بِزَعْمِهِمْ ... حَرَجًا وَيَفْهَمُها أولو الألْبابِ
جاءَتْ سَخينَةً كَيْ تُغالِبَ رَبَّها ... وَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلَّابِ

مراده بسخينة قريش؛ لأنها كانت تأكلها، وهي حساء من دقيق، والأمثلة من هذا النوع مستفيضة.

فإذا نظرنا إليه من ناحية أنه كان يجاز عليه في الجاهلية وجدناه في صدر الإسلام كذلك بيد أن كثيرًا من الشعراء رغبوا عن الجوائز إلى ثواب الهل، وكثر في كلامهم ذكر الجنة وما أعدّ الله لعباده من النعيم المقيم، فأما الجوائز في الإسلام فقد بدأ بها رسول الله ﷺ فإنه أعطى كعب بن زهير بردته حينما جاءه تائبًا بعد أن هجاه وأنشد بين يديه في مسجده قصيدته التي مطلعها:

بانَت سُعادُ فَقَلبي اليَومَ مَتبولُ ... مُتَيَّمٌ إِثرَها لَم يُفدَ مَكبولُ

يقول فيها بعد أن تغزل ما شاء في سعاد على عادة الشعر الجاهلي، يذكر حيرته من ذنبه وانصراف الأخلَّاء عنه وتأميله العفو:

وَقالَ كُلُّ خَليلٍ كُنتُ آمُلُهُ: ... لا أُلهِيَنَّكَ إِنّي عَنكَ مَشغولُ
فَقُلتُ خَلّوا سبيلي لا أَبَا لَكُمُو ... فَكُلُّ ما قَدَّرَ الرَحمَنُ مَفعولُ
أُنبِئتُ أَنَّ رَسولَ اللهِ أَوعَدَني ... وَالعَفْوُ عِندَ رَسولِ اللهِ مَأمولُ
مَهلًا هَداكَ الَّذي أَعطاكَ نافِلَةَ الـ ... قُرآنِ فيها مَواعيظٌ وَتَرَّتِيلُ
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم ... أذنب وإن كثرت فيَّ الأقاويل

وكذلك حبا قُرة بن هُبيرة وكساه بُرديْن وحمله على فرس بعد أن أسلم وهو من الشعراء، فقال يذكر ذلك في قصيدة طويلة ويمدحه:

حَبَاها رَسولُ الله إذْ نَزَلَتْ به ... وأَمْكَنَهَا منْ نائلٍ غَيْر مُفْنَد
فَماَ حَمَلْت من ناقَةٍ فَوقَ رَحْلها ... أَبَرَّ وَأَوْفى ذِمَّةً منْ مُحمَّدِ

وأكْسَى لبُرد الحالِ قَبلْ ابْتذاله وأعْطَى لرأس السّابح المتجرّد[٥]

فإن قال قائل: إن هذا العطاء للتألف لا للشعر، قلنا له: ومن التألف أن يعطى الشاعر وهو ما نريد في مقالنا هذا.

وإن نظرنا إليه في الجاهلية فوجدناهم يكبرونه ويرفعون درجته عن المنثور، ويبالغون في إعظام شأنه إلى حد أن ينسبوه إلى الجن، وإن كثيرًا منه في نظرهم من فوق القدرة الإنسانية لما وجدوه من هز أنفسهم إلى الكرم، والدلالة على محاسن الشيم، وذكر الأيام والمشاهد والمفاخر في أسلوب ساحر، إلى غير ذلك، فإنا نجده في الإسلام لم ينزل كثيرًا عن هذه المنزلة، ولم يغض منه أن النبي ﷺ ما عُلم الشعر وما ينبغي له إلا بمقدار ما تقضي أميته من الكتابة، فكما لا يقول قائل بفضيلة الأمية للناس؛ لأن الرسول كان أميًّا، لا يقول قائل بفضيلة الجهالة في الشعر؛ لأن الرسول لم يعلمه؛ ولهذا أكثر الحض على تعلمه واستماعه وروايته على شريطة أن يكون في الحث على فضيلة، أو ذم رذيلة، فقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري يقول له:

> مُرْ مَنْ قبلك يتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب.

ولقد كانت عائشة رضي الله عنها كثيرة الرواية للشعر، وكان مما ترويه جميع شعر لبيد.

وقد روى الحسن بن رشيق القيرواني أن أعرابيًّا وقف على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه فقال: إن لي إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك، فقال عليّ: خطّ حاجتك في الأرض، فإني أرى النصر عليك. فكتب الأعرابي على الأرض: إني فقير، فقال عليّ: يا قنبر: ادفع له حلّتي الفلانية، فلما أخذها مثل بين يديه فقال:

---

[٥] هو الحصان.

كَسَوْتَي حُلَّةً تَبْلَى مَحَاسنُهَا   فَسَوْف أكْسوكَ منْ حُسْن الثَّنا حُللا
إنَّ الثَّناءَ لَيُحْيي ذكْرَ صاحبِه   كَالْغَيّثِ يُحْيي نَدَاهُ السَّهْل والجَبلا
لا تَزْهَد الدَّهْرَ في عُرْفٍ بدأتَ بِه   فَكُلُّ عَبْدٍ سَيُجْزَى بِالَّذي فَعَلا

فقال عليّ: يا قنبر أعطه خمسين دينارًا، أما الحلة فلمسألتك، وأما الدنانير فلأدبك.

فأنت تراه أعطاه لأدبه كما قال بعد أن أعطاه لفقره، لما وجده في شعره من شكر النعمة، وتمحيض النصيحة، والترغيب في الآجل.

هذا وقد قال الشعر ورواه آل البيت النبوي الكريم.

ولى من بني عبد المطلب رجالًا ونساء من لم يقل الشعر حاشا رسول الله، وناهيك بالعباس فقد كان شاعرًا مجيدًا وله شعر مأثور معدود في الطبقة العالية، من ذلك قوله يوم حنين:

ألا هَلْ أتَى عِرْسِي مَكَرِّي وَمَوْقِفي   بِوادي حُنَيْنٍ وَالأَسِنَّةُ تُشْرَعُ
وَقَولي إذا ما النَفسُ جاشَت لَها قَدي   وَهامٌ تَدَهْدَى وَالسَّواعِدُ تُقْطَعُ
وَكَيفَ رَدَدتُ الخَيْلَ وَهيَ مُغيرَةٌ   بِزَوْراءَ تُعْطي بِاليَدَينْ وَتَمنَعُ[٦]

وكذلك كان الخلفاء الراشدون والجلة من الصحابة والتابعين.

وكانوا يتغنون به ولهم في ذلك أخبار طويلة، فمن ذلك ما رواه السائب بن يزيد: بينما نحن مع عبد الرحمن بن عوف في طريق إذ قال لرباح بن المغترف: غنِّنا، فقال له عمر بن الخطاب: فإن كنت آخذًا فعليك بشعر ضرار بن الخطاب (وضرار هذا من أجلاء الصحابة، فارس مغوار، وشاعر مفلق مقدم على ابن الزبعرى فهو أشعر قريش) ومن شعره:

يَا نَبِيَّ الْهُدَى إِلَيْكَ لَجَا حَيْـ   ـرَى قُرَيْشٍ وَلاتَ حِينَ لَجَاءِ

[٦] لعلها تعطي السهام، وتمنع العدو.

حِينَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ سَعَةُ الأَرْ ضِ وَعَادَاهُمُ إِلَهُ السَّمَاءِ
وَالْتَقَتْ حَلْقَتَا الْبِطَانُ[٧] عَلَى الْقَوْ مِ وَنُودُوا بِالصَّيْلَمِ الصَّلْعَاءِ[٨]
أَنَّ سَعْدًا يُرِيدُ قَاصِمَةَ الظَّهْـ رِ بِأَهْلِ الْحُجُونِ وَالْبَطْحَاءِ
فَانْهَيَنْهُ فَإِنَّهُ أَسَدُ الأُسْـ ـدِ لَدَى الْغَابِ وَالِغٌ فِي الدِّمَاءِ
أَنَّهُ مُطْرِقٌ يُدِيرُ لَنَا الأَمْـ ـرَ سُكُوتًا كَالْحَيَّةِ الصَّمَّاءِ[٩]

وقد كان ضرار قالها يوم فتح مكة يسترحم رسول الله ﷺ على قومه وأراد بسعد: سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي، وقد كانت راية رسول الله يوم الفتح بيده. فإن نظرنا إليه من جهة أنه يستشفع في حقن الدماء، فقد كان الأمر في الإسلام على ما كان عليه في الجاهلية كما رأيت في هذا الحديث.

وإن كان من جهة الاستغاثة والنجدة فكذلك وهو في الإسلام أشد أثرًا منه في الجاهلية لما داخله من المعطفات الدينية.

فقد روى سعيد بن المسيب أن عمرو بن سليم الخزاعي وفد على رسول الله ﷺ وكانت خزاعة حلفاء له فلما كانت الهدنة بينه وبين قريش أغاروا على حي من خزاعة يقال لهم: بنو كعب فقتلوا فيهم، وأخذوا أموالهم فاستنجد بالنبي ﷺ وأنشده بين يديه:

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدا حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الأَتْلَدَا[١٠]
نَحْنُ وَلَدْنَاهُمْ فَكَانُوا وَلَدَا ثُمّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
إِنّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوك الْمَوْعِدَا وَنَقَضُوا مِيثَاقَك الْمُوَكّدَا
وَنَصَبُوا لِي فِيكَ دَاءً رُصَّدَا وبَيّتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجّدًا
وَقَتَلُونَا رُكّعًا وَسُجّدَا وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا

[٧] البطان: حزام يجعل تحت بطن البعير وهو مثل في بلوغ الأمر شدته.
[٨] أي الداهية الشديدة.
[٩] أي التي لا تقبل الرقية.
[١٠] الأتلد: صفة للحلف، ومعناه القديم.

وَهُـــمْ أَذَلّ وَأَقَــلّ عَــدَدَا ... فَانْصُرْ هَدَاكَ اللهُ نَصْرًا أَبَدَا
وَادْعُ عِبَادَ اللهِ يَأْتُوا مَدَدَا ... فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ قَدْ تَجَرّدَا
إنْ سِيمَ خَسْفًا وَجْهُهُ تَرَبّدَا[11] ... فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزْبِدًا

فدمعت عينا رسول الله ﷺ وخرج بمن معه لنصرهم. فإذا نظرنا إليه من ناحية ثلم الأعراض والفخر بما لا يحل كالخمر والميسر، فإن الإسلام أثر في الشعر من هذه الجهة أثرًا صالحًا، فقد كان الرسول وأصحابه يعاقبون الهّجائين عقابًا صارمًا، حتى إنهم أهدروا دم ناس من الشعراء كانوا يصدون عن سبيل الله، ويظاهرون أعداءهم عليهم، فأما غيرهم فقد كان عقابهم التعزير بالحبس ونحوه كما فعل عمر بالحطيئة حتى كثرت أشعاره في الاسترحام والتوبة، وكان من استرحامه قوله:

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاخٍ بِذي مَرَخٍ ... زُغْبِ الحَواصلِ لا مَاءٌ ولا شَجَرُ
أَلْقَيْتَ كَاسِبَهُمْ في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ ... فاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلامُ الله يا عُمَرُ

ولهذا كان الشعر في صدر الإسلام أنزه منه قبله، وإن لم يسلم من عيوب الجاهلية سلامة تامة.

فأما النظر من حيث جودة السبك وغزارة المعنى، وتشخيصه، فهو في صدر الإسلام أعلى منه قبله على الجملة إذا نظرت في مجموع ما ورد في العصرين؛ لأن العصر الثاني غزر معناه بالكتاب والسنة، وما وصل إلى الأمة من آثار الأمم الأخرى، ومال كثير من الشعراء إلى وضوح المقصد خصوصًا منهم الشعراء العشاق، وشعراء الحكم والأمثال. فأما من جهة المتانة، وصفاء العربية، فإن الجاهلية ما زالوا أصحاب هذين.

وأما من حيث الموضوعات فهي في الإسلام أوسع منها في الجاهلية خصوصًا الموضوعات الدينية. هذا، ولا يفوتنا أن نبين أن ناسًا تنسكوا وزهدوا في الشعر، وزهدوا فيه الناس، أخذًا بظاهر ما جاء في الكتاب العزيز من قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ❋ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ❋ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾. وبما

[11] تربد: تغير.

ورد من الأخبار في ذم الشعر، ولم يفطنوا أن هذا محمول على الشعر الضار كالهجو والغزل فيما لا يباح، وكإثارة الأحقاد به وغير ذلك مما لا يجوز أن يؤدى لا بنثر ولا بنظم، وقد تغالى بعضهم حتى ظن أن رواية الشعر في رمضان ينقض الوضوء، فكان ابن عباس وابن سيرين ينهيان الناس عن ذلك، وقد قيل لسعيد بن المسيب: إن قومًا بالعراق يكرهون الشعر، فقال: نسكوا نسكًا أعجميًّا، ولكن هذه الحالة لم تلبث أن زالت في عصر بني آمية.

وملخص الفوارق:

- أن الجائزة عليه في الإسلام دونها في الجاهلية.
- أن درجته في الإسلام دون درجته في الجاهلية؛ لأن الكتاب زاحمه.
- أنه في الإسلام أنزه منه في الجاهلية.
- أنه في الإسلام أعلى من جهة غزارة المادة، وتشخيص المعنى.
- أنه في الإسلام أوسع موضوعًا.
- أنه في الإسلام دون الجاهلية في المتانة.
- أنه في الإسلام دون الجاهلية في صفاء العربية.
- أن الرغبة فيه في صدر الإسلام دونها في الجاهلية.
- فأما من جهة النجدة به فهو في الإسلام أظهر.

وهذه الفروق كلها متقاربة لا يكاد يميزها إلا كثير الاطلاع المتذوق لكلام العرب.

هذا وقد لاحظت أن أكثر تلاميذ الشيخ المهدي أولعوا بالموازنات الشعرية، فقد نشر الأستاذ الشيخ عباس الجمل بحثًا في الموازنة بين أبي تمام وشوقي، وهي نزعة وصلت إليه من ذلك الباحث العظيم. والأستاذ الشيخ عباس الجمل من أظهر تلاميذ المهدي، ومن الذين يستظهرون أكثر نوادره الأدبية، وقد حضرته منذ أشهر وهو يلقي محاضرة في جمعية الاقتصاد السياسي فرأيت إشاراته ونبراته صورة جديدة من الشيخ المهدي، وإن لم يفطن لذلك. والأستاذ العظيم هو الذي يطبع تلاميذه بطابعه فيكونون خلفاءه في عالم الفكر والبيان.

هنداوي